

وَلَاكِ فِي الْعَشَقِ زَادٌ

رواية
جديدة
كلياً

الطبعة
3

هبة محمد إبراهيم وشهرتها

تميمة نبيل



الإهداء

إلى الحبيبة أُمِّي

إلى الغالي أبي

إلى صديقي الحبيب أحمد

تمهيد

لكل منا قناعه المرضي الذي يختبئ خلفه من الهاجس
المسيطر عليه.

لحظة انتصارك وعثورك على نفسك هي اللحظة التي
ستنجح خلالها في انتزاع قناعك المزمّن لتلقي به أدراج
الرياح...

فتجد أن الهاجس الذي أربك طويلاً لم يكن سوى وهمًا،
إن أردته أنت صار نقطة على الجدار رأيتها في الظلام
أشباحًا مجنونة تنوي افتراسك..

المقدمة

بأصابع ثابتة وحركاتٍ هادئةٍ كجلسته باسترخاءٍ متزن في مقعده الوثير، واضعًا ساقاً فوق الأخرى.. سجل في بداية صفحةٍ من دفتره المستند إلى ركبته

التاريخ / الخامس عشر من شهر مايو

الاسم / ريم "

ثم نظر إليها بتأنٍ يميل بوجهه خلال تأمله الدقيق لها..

على الأرجح هو مجرد اسم مستعارٍ اختارته لا علاقة له باسمها الحقيقي، فمنذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدمها إلى مكتبه لاحظ أنها تحاول التخفي قدر الإمكان وكأنها خجلة..

اسمٌ مستعار كشرها الأحمر المستعار الطويل والنظارة السوداء الكبيرة التي تغطي معظم وجهها.. تفكر ألف مرة

في الهروب، خاصة ووجهها يميل كل حين تراقب باب مكتبه المغلق وكأنها تزن فرصة العدول عن قرارها والهرب من هنا في أي لحظة..

كان هذا هو ما توقعه نوعًا ما قبل حتى أن تدخل، فللمتردددين على عيادته حرية إظهار هوياتهم أو إخفائها لدى تسجيل الحجز مع سكرتيرته.. لإشعارهم بأكبر قدرٍ من الراحة والخصوصية

وريم كانت ممن اختاروا إخفاء هوياتهم الحقيقية.. وهذا في حد ذاته يعطيه فكرة مبدئية عما سيواجه معها..

جلستها وهيئتها في المجمل تعطيانه لمحة أخرى من ملامحها، فعلى الرغم من رغبتها الواضحة والصريحة في إخفاء هويتها إلا أن هذا لم يستطع كبح حب الظهور بداخلها والمتمثل في اختيارها لهذا الشعر المستعار الملفت بلونه المتوهج وكأنها بطلة أحد أفلام الإثارة..

ساقها تهتز بصورة خفية، تتلاعب بأظافرها منذ جلوسها حتى رفعت واحداً من تلك الأظافر إلى فمها كما رفعت ذقنها

قليلاً تتأمله من تحت نظارتها السوداء الكبيرة..

حتى أظافرها مستعارة تلمع بلونٍ أسود كرخام مصقول..
تحب الظهور، تجد متعتها فيه، أو ربما حاجتها..

حين طال الصمت بينهما، بدأت تتملل في جلستها وقدمها
تتحرك فوق خشب الأرض محدثة صريراً موترًا بكعبها العالي
الرفيع

ثم قالت أخيراً بصوتها الأجش، والذي يحمل رنيئًا صلبًا
لاحظته أذناه ما أن ألقت عليه التحية فور دخولها باقتضاب..

(هل سنبقى صامتين هكذا طويلاً؟!..)

لم يرد على الفور، بل مال بوجهه إلى الجانب الآخر ثم
ابتسم ابتسامة مهنية مجيئًا بتهذيب

(إنها جلستك، لك أن تقضيها كما تحبين..)

مالت شفتيها بسخرية لم تستطع منعها ثم سألت بتحدٍ بارد

(هل تتقاضى ذاك المبلغ الباهظ لمجرد مشاركتك صمت
زبائنك!!..)

لم يرف له جفن، بل اتسعت ابتسامته قليلاً وأجابها سائلاً
بهدوء

(لما لا تخبريني عما تتوقعينه مني.. لا أمانع السماع مطلقاً..)

بدت متحيرة للحظة وهي ترمقه من تحت هاتين
العدستين القاتمتين، ثم ردت بارتباكٍ تهز كتفها وأصابعها

(ربما.. البدء في علاج الخلل الذي يعانيه زبائنك..)

لحظة صمت مجدداً، ثم سألها بصوته المهدئ وتلك النبذة
العميقة

(وهل تعانين خللاً؟..)

انعقد حاجباها وبدت مستاءة إلا أنها أجابت بنفاذ صبر

- بالطبع.. وإلا لما وجودي هنا إذن؟!..

لم يتأثر لثورتها التي بدأت سحبها القائمة في الظهور فسأل
ببساطة

(ما هو الخلل الذي.. تظنين.. أنك تعانين منه يا ريم؟..

تحرك حلقها ببطء وكأنها تزدرد لعابها، كما تحركت قدمها
مجددًا مما تسبب في إصدار نفس الصرير بالكعب العالي
فوق الخشب اللامع ثم قالت بفتور

- أعاني خللاً في علاقاتي.. لا أستطيع الحفاظ على علاقة
واحدة في حياتي..

تراجع في مقعده رافعاً ذقنه قليلاً ثم سألها بجدية

(جميع العلاقات في حياتك، أم العلاقات العاطفية
تحديدًا؟...)

أخفضت وجهها بعض الشيء وأزاحت خصلات الشعر

الأحمر التي تساقطت على ملامحها كشلالٍ منهمر ثم أجابت
بصوت متصلب

- حسناً.. الخل يطال جميع علاقاتي دون شك.. لكنني أتيت
إلى هنا لأحصل على تفسير حيال علاقاتي مع الرجال..

كان يسجل بعض الملاحظات وهو يومئ برأسه متفهماً.. ثم
سألها بهدوءٍ دون أن يرفع وجهه

- ما هي المعضلة التي تظنين أنك في حاجةٍ لتفسيرٍ لها؟...

ساد الصمت بضعة لحظات وهو ممسك بالقلم وحين لم
ترد.. رفع عينيه عن دفتره إليها متسائلاً فبدت ملامحها أشبه
بحجرٍ شديد الصلابة والتعبير، على نحوٍ مخيف نوعاً ما.. ثم
أجابت بصوتٍ أجش مهين

- لا أفضل مخاطبة من لا ينظر إليّ.. حين تريد جواباً عليك
أن تنظر إلى عينيّ..

ضاقت عيناه بعض الشيء.. لكنه لم يجفل ولم يحتد، لم

يطردها.. بل تصرفه كان مهنيًا إلى أبعد حد وهو يرد بتعبير
رزين قائلاً

- اعذري سلوكي يا ريم.. لما لا نبدأ من جديد، ما هي
المعضلة التي تظنين أنك في حاجة لتفسير لها؟..

ظلت على جمود ملامحها للحظات، ثم لم تلبث شفتاها أن
تبسمتا بقساوة وهي ترد بخيلاء

- أهوى السيطرة على الرجال.. التحكم بهم.. إجبارهم على
الخضوع أمام أوامري..

الفصل الأول

«العروسان»

«الأول من سبتمبر..»

للخريف رائحة مميزة لا تخطئها النفس، إنه عطر الحنين ولمسة نسيم الذكريات.. يغلب عليه الشجن وتفيض في القلب أنهار، حلوها مژ.. عنده تنتهي الحكايات ولا يبقى منها سوى الأوراق المتساقطة الذهبية الجافة وابتسامات حزينة.. فلما تهواه النفس وكأن الخريف هو الرفيق الوفي في نهاية الطريق!

نادت بصوتٍ عصبي تردد صداه عبر جدران البيت مما دل على أنها أبعد ما تكون عن الفرحة التي تتظاهر بها منذ بداية اليوم

- فتحية.. فتحية.. أين أنتِ؟..

خرجت امرأة متوسطة العمر مهرولة من المطبخ وهي
تجفف يديها مجيبة بسرعة

- أنا هنا يا آنسة نوران

نزلت نوران درجات السلم الأخيرة مكفهرة الملامح وما
أن أبصرت فتحية حتى هتفت مستاءة وهي تشير بإصبعها
لأعلى في علامة مبهمة

- ألم يتم بعد فرش غرفة العروسين!!.. الفراش عارٍ من
الشراشف والأغطية!..

تلعثمت فتحية وهي ترد مبررة

- أنا أطبخ طعام العروسين يا آنسة نوران، لكنني لن أنسى
بالطبع فرش الشراشف والأغطية.. لا تقلق سيكون كل شيء
على ما يرام وجاهزًا لاستقبالهما.. لا يزال اليوم طويلاً وهما
لن يصلا قبل المساء..

ضغطت نوران أسنانها وهي تتكلم من بينهما شاعرة أن كل
خلية من خلايا جسدها تتشنج غيظًا وانفعالا

- رجاء يا فتحية لا تحاولي استفزازي اليوم تحديدًا.. فأنا
أعصابي متوترة سلفًا..

أجابتها فتحية تحاول تهدئتها رغم أن البيت بأكمله لم
يعرف هدوءًا منذ فترة

- سيمر كل شيء بخير يا آنسة نوران، بارك الله للسيد
خطاب وعروسه..

أغمضت نوران عينيها للحظاتٍ تزم شفيتها ثم رفعت كفها
تهمس بفحيحٍ مرتعد

- عودي إلى عملك يا فتحية.. كفاكِ تضييعًا للوقت في
ثرثرة لا طائل منها.. اذهبي..

أومأت فتحية واستدارت عائدة إلى المطبخ بكلِ همّة
ونشاط بينما هتفت نوران خلفها بغضب

- ولا تنسي فرش الشراشف والأغطية الحريرية.. الحريرية
يا فتحة، الخاصة بالعروسين..

ساد الصمت بعد اختفاء فتحة في المطبخ، لا يقطعه سوى
صوت لهاثها الحار والذي فضح مدى ضيقها وزيف حماسها
في الإشراف على ترتيب كل ما يلزم ويليق بالعروسين!..

وقفت نوران في منتصف البهو الواسع ويدها في خصرها
تنظر للفراغ المحيط بها بلامح واجمة ثم لم تلبث أن
همست تخاطب نفسها بصوتٍ ساخر كئيب

- العروسان!..

استدارت خلفها تتأمل الصورة الضخمة التي تضم الزوجين
السعيدين!!.. خطاب علواني وأسمهان..

زوجان يليقان ببعضهما في الشباب والجمال وتألّق نظرة
الحب في أعينهما.. لكن ذلك البريق خبا منذ دهر، بموت
أسمهان

سيظل هذا البيت بيت أسمهان لآخر يومٍ في أعمار ساكنيه.. تظن أنها الوحيدة التي سكنت قلب والدها فعلاً كما سكنت بيته في حياتها وبعد مماتها..

حتى مع وصول عروس البيت الجديدة، لم يتجرأ أحدهم على مجرد اقتراح أن تزاح صورة خطاب وأسمهان من فوق الحائط حيث مكانها الذي لم تتحرك منه مطلقاً.. سنواتٍ وسنوات وهي ترى الصورة فتقف أمامها للحظةٍ تحاول أن تتخيل كيف كان هذا الحب العاصف الذي جمع بينهما وجعل خطاب عاجزاً عن انتزاعها من قلبه حتى اليوم..

تحرّق حلقها وكأنها تحاول ابتلاع غصة اعتادتها منذ سنوات شاعرة بنفس الضيق الذي يقبض صدرها كلما قضت فترة بين جدران هذا البيت.. فهذا البيت عرف حزناً طويلاً وذاق من مرار الفراق كؤوساً..

أتراه يتذوق طعم الفرح بعد كل تلك السنوات؟!...

رمشت بعينيها وهي تنفض رأسها تلتقط أنفاسها محاولة إزاحة ذلك الشعور بالضيق فأخرجت الهاتف من جيب ثوبها

تطرف برموشها الدموع اللاذعة التي تعلقت بطرفها ثم
جمدت صوتها ما أن وصلها الصوت الحنون والذي اتصلت
تطمئن على صاحبته

- صباح الخير يا حبيبتي.. كيف الأمور عندك؟..

مجدداً تحركت الغصة المسننة في حلقها لكنها تجاهلت
الألم لترد بصوتٍ ملول نافذ الصبر

- فوضى وجنون.. الوقت ضيق، وأبي سيصل مع عروسه
بعد ساعاتٍ قليلة.. إن لم أشرف بنفسي على كل شيء فلن
يتم إنجازه..

جاءها الصوت الهادئ الذي قلما يغضب أو ينفعل

- لا ترهقي نفسك يا نوران.. فتحية تعلم جيداً ما تقوم به،
ارتاحي أنتِ ولا تقلقي أكثر من اللازم..

زمت شفتيها وهي تضغط أسنانها بقسوة حتى سمعت
صوت اصطكاكها ببعضها، لكنها تماكنت نفسها وردت بقسوة

أكثر مما قصدت حقيقة

- بالله عليك يا أمي الوقت لا يتحمل هدوئك المستفز هذا..

ساد صمت على الجانب الآخر مما جعل نوران تغمض عينيها، لاعنة نفسها.. لماذا تتعمد أن تؤلمها إلى هذا الحد؟!..

لا لم تتعمد، بل بات إيلام أمها عادة لا تتقصدها بل تفرض نفسها بحكم التعود.. وحكم القلب المثقل تجاه الجميع!..

حين طال الصمت جاهدت نفسها لتهمس بصوتٍ مضطرب خشن قليلاً وكأنه لا يعرف نبرة المشاعر

- لم أقصد الصراخ يا أمي.. أنا متوترة فحسب..

ردت أمها بنفس الصوت الهادئ والأقرب إلى التبسم بين طياته وكأن شيئاً لم يكن

- بالطبع متوترة يا حبيبتى.. شخص جديد سينضم للبيت، وتشعرين أنه سيشاركك والدك.. لا بد وأن تتوتري قليلاً..

ظلت مغمضة عينيها وهي تحاول كبح الغضب الذي يتقد في جذوة لا تهدأ داخلها أبدًا.. تكره طبيعة أمها، نعم تكره طبيعة أمها وإن كانت لا تجرؤ على النطق بها علنًا، فمن المؤكد مسموح لها أن تعترف داخل نفسها بما تشعر به..

تلك الشخصية المتصالحة مع ذاتها بدرجةٍ مبالغ فيها وبشكلٍ يدعو للسخرية والغضب.. الكثير من الغضب..

تلك الشخصية التي تهوى التضحية وحب الغير أكثر من نفسها.. وهذا ليس طبيعيًا.. ليس صحيًا أو طبيعيًا على الإطلاق..

تريد الصراخ بأن هذا ما هو إلا سخف.. بل عبث..

أطبقت شفتيها أكثر كما زادت من ضغط جفنيها تميل برأسها كي تسيطر على المشاعر القاتمة التي تحتلها وبعد لحظات حين سمعت صوت أمها تناديه بحيرة، أجابتها نوران

- نعم يا أمي.. أنا أسمعك..

ثم ترددت قليلاً قبل أن تسألها بحذر

- أمي.. إن كانت مساعدتي في تحضير البيت استعداداً
لوصول أبي وعروسه تضايقك فأنا..

لم تتم كلامها، فقد قاطعتها ضحكة أمها الهادئة اللطيفة
وهي تجيبها بصوتٍ رزين

- ما الذي تقولين يا نوران!.. لماذا تضايقني مساعدتك
لوالدك في فرحته؟!.. لقد انفصلت عن خطاب منذ سنوات،
لكنه سيبقى والدك حقيقة لا يمكنك تغييرها ولن أسمح لك
أو لشقيقك بتغييرها حتى وإن أردتما هذا.. لكنكما لن تفعلوا،
فأنتما تحبان والدكما وهذا هو أقصى ما تمنيته يوماً.. ألا
يؤثر الطلاق على نفسيكما وأظنني أنا وخطاب قد نجحنا
في هذا والحمد لله..

ابتسمت نوران ابتسامة ساخرة مريرة دون أن ترد.. بل
اكتفت بالنظر إلى الفراغ المحيط بها مجدداً، ذلك الفراغ
الثقيل الذي تحده جدران لم تعرف سوى الأسى والتباعد..

ابتلعت الغصة في حلقها مجدداً وكانت أشد ألماً، لكنها
تمكنت من الهمس بصوتٍ ارتعش قليلاً

- بالمناسبة.. وائل يرفض الخروج من غرفته تماماً ولا نية
له في استقبال والدي وعروسه لدى وصولهما، يجلس على
الحاسوب كعادته متباعدًا في عالمٍ غير العالم، ربما إن كلمته
وحاولتِ إقناعه فسوف..

صمتت تحاول لفت نظر أمها إلى ضرورة إقناعه، لكن رد
أمها كان مغايرًا فردت دون أن تستطع حجب نغمة الحزن
في صوتها كلما تكلمت عن وائل

- لا تجبريه على ما لا يستطيع يا نوران.. أنا سعيدة جدًا
بوقوفكما بجوار والدكما في فرحته، لكنني لم أكن لأجبركما
لو لم تقدرا على هذا..

هتفت نوران بغیظ وهي تشعر بالانفعال أكثر مما يتطلبه
الموقف حقيقة

- لكن يا أمي.. كيف سيكون موقفنا حين تصل العروس

وتدرك رفض وائل الخروج واستقبالها وتقديم تهنئة مختصرة على الأقل.. سيكون هذا سوء تهذيب منه..

أعادت أمها الكلام بحزم هذه المرة قائلة

- لا تجبريه على ما لا يستطيع يا نوران.. بعد أن تتعرف عروس والدك على حياتها الجديدة ستدرك أن انطواء وائل ليس موجهًا لها على وجه الخصوص..

زمت نوران شفتيها وعضت عليها حتى كادت أن تدميها شاعرة بالغضب من لا شيء ومن كل شيء..بينما تابعت أمها بصوت هادئ إلا أنه فقد الابتسامة التلقائية المرتسمة على نغماته

- سأتركك الآن يا حبيبتى كي تنجزي مسؤولياتك.. لن أعطلك أكثر، أبلغى والدك تهنئتي.. سلام يا حبيبتى..

ثم أغلقت الاتصال مباشرة دون أن تنتظر ردًا من ابنتها، فنظرت نوران إلى هاتفها غير مصدقة قبل أن تعيده إلى جيبها، وشعرت للحظة بالدوار لفرط انفعالاتها فجلست على

ذراع مقعدٍ وثير ضخم تستند إليه وقد غامت عيناها متأملة
الصورة ذات الإطارات المزخرفة من الفضة الخالصة..

المزيد من صور خطاب وأسمهان.. وبعضها ضم ابنيهما،
سائد وسلسبيل..

سلسبيل.. كانت تشبه أسمهان إلى حدٍ كبير، ذات جمالٍ لا
تغفل عنه العين، فأسمهان نفسها تشبه المطربة التي حملت
نفس الاسم.. تشبهها في الجمال.. والنهاية الحزينة..

رفعت نوران يدها إلى صدرها وهي تتأمل سلسبيل
بضحكتها الواسعة وعينيها الفاتحتين بألوانها المتداخلة
كالأطياف، شاعرة بالقبضة تعتصر قلبها أكثر.. فلم تسمع
فتحية التي خرجت من المطبخ متوجهة إلى السلم وهي
تقول بتسارع

- لقد تركت القدور على الموقد يا آنسة نوران وها أنا
صاعدة لأفرش غرفة العروسين..

لم تتحرك نوران من مكانها وكأنها لم ترها، فقد كانت تائهة

بعينها بين الجدران.. لكم تكره هذا البيت!!..

و على الرغم من كرهها له إلا أنها باتت مؤخرًا تقضي فيه أوقاتاً أطول من تلك التي تقضيها في بيت أمها.. فكرهها له أقل من كرهها لتصالح أمها النفسي المقيت.. فباتت تفر منها أوقاتاً أطول، وكأنها تعاقبها!!.. لا تعلم علام تعاقبها تحديداً، لكنها لا تستطيع منع نفسها..

دنيا

تعشق الألوان.. تهوى تلك الخيمة الكبيرة بدرجات ألوانها الفاقعة والتي أينما نصبت، فقد نُصِبَ البيت..

تلك الخيمة هي البيت الذي جمعها بأهلٍ لم يربطها بهم رباط دمٍ بل أقوى.. تلك الخيمة هي حياتها الفعلية وليس مجرد تعبير مجازي..

أغمضت عينيها وهي تسمع صوت العم مرزوق يهتف عالياً

بعينها بين الجدران.. لكم تكره هذا البيت!!..

و على الرغم من كرهها له إلا أنها باتت مؤخرًا تقضي فيه أوقاتاً أطول من تلك التي تقضيها في بيت أمها.. فكرهها له أقل من كرهها لتصالح أمها النفسي المقيت.. فباتت تفر منها أوقاتاً أطول، وكأنها تعاقبها!!.. لا تعلم علام تعاقبها تحديداً، لكنها لا تستطيع منع نفسها..

دنيا

تعشق الألوان.. تهوى تلك الخيمة الكبيرة بدرجات ألوانها الفاقعة والتي أينما نصبت، فقد نُصِبَ البيت..

تلك الخيمة هي البيت الذي جمعها بأهلٍ لم يربطها بهم رباط دمٍ بل أقوى.. تلك الخيمة هي حياتها الفعلية وليس مجرد تعبير مجازي..

أغمضت عينيها وهي تسمع صوت العم مرزوق يهتف عالياً

في مكبر الصوت بنبرة تصدح وترج الأجواء فتزيدها حماسًا

- والآن الفقرة المفضلة لدى الجميع.. كبار وصغار.. شباب وأطفال..فقرة الجمال.. الانبهار.. الليونة ورشاقة الحركات.. لدينا أعظم لاعبة حركاتٍ بهلوانية في الشرق الأوسط، تلك التي ستسحر أعينكم وتفتح أفواهكم صدمة من إقدامها على الجنون بعينيه.. من يعرفها؟.. من سبق ورآها؟.. بل من ذا الذي لم يرها بعد؟!!.. أسمِعوني اسمها.. هيا..

بدأت تسمع بعض الهتافات باسمها من خلف الستار الملون، حتى صدح صوت العم مرزوق مجددًا عاليًا كالرعد مُبْجَلًا، معظمًا بدرجة جعلتها تبتسم مغمضة عينيها تنظم أنفاسها

- دنيانا.. دنياكم.. الرائعة دنيا..

امتد اسمها صيحة متحمسة من صوته ترافقها الهتافات والتي تطالب بخروجها فأخذت نفسًا عميقاً زفرته ببطء قبل أن تخرج بخطواتٍ سريعة رشيقة رافعة ذراعيها لأعلى مبتسمة تلك الابتسامة العريضة التي تتميز بها، بزيها الأحمر اللامع وشعرها المجموع خلف عنقها في كرة محكمة وقلبها

يخفق بعنفٍ مع تصفيق الجمهور مترقبًا بحماسٍ زائد،
فانحنت إليهم انحناءة ملكية اعتادت عليها قبل أن تلتف
إلى العم مرزوق والذي التقط كفها يقبلها بأناقة.. ابتسمت
له وغمزته بعينها قبل أن تترك كفها لتجري في خطوات
سريعة، ثم تقوم بحركة الشقلبة على الأرض بمرونة بضعة
مرات حتى وقفت أمام سلم عالٍ فصعدته بسرعة وثبات
حتى وصلت لمكانها فوق أرجوحةٍ خاصة، توقفت للحظة
وهي تزفر نفسًا آخر دون النظر للأرض.. بينما تصاعد لحن
الموسيقى الحماسية لأعلى درجاته ثم توقف.. حينها قفزت
بالأرجوحة تتأرجح بها مرة والثانية والثالثة حتى بدت كخطٍ
مستعرض في سماء الخيمة.. فألقت بنفسها، تؤدي حركة
الشقلبة في الهواء مرتين قبل أن يلتقط كفيها اللاعب الواقف
في انتظارها وكأنه يجرها من الهواء ثم رماها مجدداً وكأنها
لا تزن شيئاً فأمسكت بالأرجوحة تعاود التأرجح بها قبل أن
تلقى بنفسها للاعب آخر على الجهة الثانية والذي نجح في
الإمساك بها لتصعد بجواره على المنصة العالية وهي تلهث..
ثم قفز هو على الأرجوحة مرة قبل أن يعاود إليها متعلقاً
بركبتيه فقفزت ممسكة بكفيه حتى أصبح كلاهما يطيران
يميناً ويساراً ثم قفزت متشقلبة في الهواء مرة لتلتقاها كفا
اللاعب الآخر متعلقاً بساقيه فوق الأرجوحة الأخرى..

استمرت الفقرة لدقائق طويلة حتى استقر ثلاثتهم أرضًا..
تقف بينهما رافعة ذراعيها لاهثة بينهما ينحني الشابان
للتصفيق العالي المجنون المحيط بهما

ناولتها واحدة من العاملات في السيرك منشفة فور
دخولها خلف الستار لتجفف عرقها، بينما هرعت لغرفة تبديل
الملابس جريًا وقبل أن تدخل هتف لها العم رفيقي عن بعد
مبتسمًا فخورًا

- دنيا...أحسنّت..

أشرقت ابتسامتها وكأنها تالأأت فجأة بألف نجمة ورفعت
قبضتها في الهواء ترد له تحيته شكرًا وامتنانًا ثم دخلت
للغرفة ذات الستائر وهناك كانت صبية لطيفة تساعد على
تبديل ملابسها بسرعة فهتفت ما أن أبصرت دنيا

- كنتِ رائعة يا دنيا.. كنتِ تحلقين في الهواء وكأنك طير
بجناحين!.. ليتني أمتلك مهارتك!..

ضحكت دنيا ضحكة مجلجلة، ثم هتفت بقوة كقوة

عضلاتها ونظراتها

- ستعثرين على ما تجيدينه يا شوق.. وستبرعين فيه
وتتفوقين علي يومًا... والآن تعالي لتساعديني..

ساعدتها شوق بسرعة بحماسٍ وما أن وقفت دنيا أمام
المرآة تضع زينة وجهٍ مختلفة، حتى قالت شوق بابتسامة
حالة براقعة تحمل بعض الطفولة والتي يفتقدها أطفال
السيرك أكثر من غيرهم على الرغم من تخيل عكس ذلك
تماماً لمن لا يعرف حياة السيرك حق المعرفة..

- لكنك تجيدين مهارتين!... أنتِ حقًا موهوبة!!..

ضحكت دنيا مجدداً وكانت قد انتهت فمدت يدها تشعث
شعر الصبية بمداعبة ثم انطلقت للفقرة التالية..

وحين خرجت من غرفة تبديل الملابس، ترتدي فستاناً
من اللون الأرجواني أشبه بفساتين الدمى، كثير الشرائط
والكشكشات.. منتفشاً بصورةٍ محبة ويضيق وسطه حول
خصرها النحيل الرشيق مع جوارب طويلة مخططة باللونين

الأبيض والأرجواني

وفوق رأسها شعر ضخم من الصوف الأرجواني المتناثر في
لفائف كبيرة بها ربطات حمراء براقّة..

أما وجهها فكان مرسوماً بعناية، كوجه دمية كبيرة..

وقفت عند مدخل المسرح تنظم أنفاسها وهي تشد وتضبط
الفستان المنتفش.. سامعة صوت العم مرزوق يهتف في
المكبر بسعادة

- والآن.. هل تعرفون يا صغار من سيدخل الآن؟!.. هل
تعرفون؟!.. هل منكم من يستطيع التخمين؟!.. إنها الثنائي
المجنون.. الثنائي الخطير والذي قد يدمر العالم بجنونه..
الثنائي العاشق.. الثنائي الرهيب..

كشكول وتكتكة..

مع صرخته العالية التفتت دنيا تنظر إلى زميلها الذي
يرتدي حلة حمراء واسعة بحمالات طويلة.. وقبعة تخفي

شعراً أخضراً صوفياً فابتسمت له قبل أن تمسك بكفه ليدخلا إلى المسرح جرياً.. لكن وبينما هو يجريها، انقلبت واقعة أرضاً لتتشقلب حول نفسها عدة مرات ككرة صوف ثم استقامت واقفة كالمطاط تحك رأسها متظاهرة بالألم وهي تنظر لزميلها بغضب فرفعت قدمها تركل مؤخرته إلا أنه كان أسرع منها، فقفز عاليًا مما تسبب في شقلبتها أرضاً مجدداً قبل أن تقفز واقفة بمرونة فأمسك بمؤخرة عنقها يقربها منه وهو يهزها هاتفاً بغیظ

- ألن تدخل المسرح يوماً دخولاً مشرفاً يا تكتكة!!!..
الجمهور يراقبنا!.. أنت فضيحة متحركة!..

قلبت شفتها وهي تومئ برأسها شاعرة بالحرص فتنهد بنفاد صبر ثم تركها مرغماً ليبدأ الفقرة لكن ما أن استدار حتى ركلته بقدمها فتتشقلب للأمام عدة مرات وسط ضحكات الأطفال بينما هي تضحك ضحكة خرقاء فاغرة فمها وهي تضرب كفًا بكف هاتفة

- من منا الفضيحة الآن يا مفضوح!...

تمدد الجميع أرضًا يتشاركون الأكل والضحك المرهق في
دائرة كبيرة أرضها ساحة السيرك الواسعة تحت النجوم قبيل
الفجر

لقد تعبوا بحق.. لم يكن واحدًا منهم ليس في أشد حالات
إرهاقه خاصة بعد الرحلة الأخيرة، لكن مذاق النجاح كان من
اللذة بحيث حول تعبهم إلى فيض من الضحك والسرور آخر
اليوم الشاق.. بل آخر الشهور الطويلة..

مددت جسدها في جلستها رافعة ذراعيها فوق رأسها
وهي تشبك أصابع كفيها، تطق مفاصلها بتعب.. بينما دخل
العم رفقي إليهم مبتسمًا يتأملهم بسرورٍ خفي مع تغضنات
ملامحه ثم قال بصوته الأجش الخشن..

- أحسنتم عملاً جميعًا الفترة الماضية... أعرف أنكم قد
تعبتم، لكن لدينا عدة رحلاتٍ لشهورٍ قادمة وهذا كفيل أن
يضيع تعبكم، باستقبال تعب جديد مقبل..

ضحك البعض وتأوه آخرون وضحكت دنيا بصوت عالٍ
بينما جال رفيقي بعينه بينهم ثم قال بجديّة:

- هناك بعض الأمور الخاصة بالعائلة علينا مناقشتها..

بدأ الجميع في الانتباه، بينما تركزت عيناه على دنيا للحظةٍ
ثم قال بصوتٍ أقل نبرة وإن كان حازم ليس أسفًا

- اعذرينا يا دنيا... إنها بعض التفاصيل الخاصة بالعائلة

تساقطت ابتسامتها على الفور وارتبكت ملامحها للحظة،
إلا أنها سارعت بالقفز واقفة بحركة واحدة وهي ترد ببساطة
وتلقائية

- بالطبع يا عم رفيقي... سأتمشى قليلًا لأحرك عضلاتي
المتألّمة..

أوماً رفيقي لها مبتسماً، بينما تسارعت خطواتها مبتعدة،
وهذه المرة تعثرت حقيقة لا زيفًا...

دست دنيا كفيها في جيبى بنطالها الجينز وهي تتمشى في
ساحة المسرح المستديرة داخل الخيمة رافعة رأسها تتأمل
سقف تلك الخيمة المتداخل الألوان كقوس قزح وابتسمت..
لكن هذه المرة وعلى الرغم من عشقها لشكل خيمة السيرك
المبهجة لم تصل ابتسامتها لعينيها.. كان لون الحزن في
عينيها طاغياً على ألوان الخيمة..

بداخلها شيء أوجع نفسها.. شيء حاولت جاهدة تجاهله
لكنها لم تنجح..

كونها غريبة عن عائلتها.. عائلة سلطان.. وهو اسم السيرك
ذاته، كما هي عادة من يرث تلك المهنة جيل بعد جيل.. عائلة
واحدة تربي أبنائها على مهارات السيرك.. وعائلة سلطان هي
واحدة من أقدم عائلات السيرك في البلد..

لكنها لم تكن منهم، كانت غريبة عنهم..

دائماً ما تجد نفسها دون وعي جالسة في دائرة العائلة
الضيقة.. بينما الأجدر بها أن تبقى في الدائرة الأكبر مع
زملائها في السيرك من خارج عائلة سلطان..

لكنها تعود وتبحث عن عائلة سلطان لتصبح فردًا منها
وكانها قادرة على هزيمة قوانين الدم والقراية

منذ أن وعت لهذه الدنيا وهي تعشق ما يسمى بالسيرك..
كان يمثل أحلامها مجتمعة..

تتذكر حين كانت تأتي لزيارته مع والدها.. فقد كان خياطًا
ومن أعماله، خياطة العديد من أزياء السيرك.. لذا فقد تفتح
وعبها على خيمته في وقتٍ مبكر من عمرها..

تتذكر أول مرة زارته... أو على الأقل أول مرة استطاعت
الذاكرة تسجيلها في ذاك العمر الصغير جدًا، كانت تقف
مكانها مبهورة فاغرة فمها بذهول من شدة المشاعر
والانفعالات التي تنتابها رغم أنها لم تتجاوز الخامسة من
العمر!..

تحركت تجر قدميها وهي ترسم بهما دوائر وهمية فوق
الأرض شاردة وقد طفت ابتسامة ذكرى على شفتيها..

تتذكر اليوم الذي تسللت فيه إلى ما خلف الستار تراقب

ما يحدث من معجزات لا يراها الجمهور في الخارج والذي كانت أكيدة أنه لا يرى سوى اليسير بينما الأسرار والمعجزات كلها تتم خلف الستائر المغلقة..

كانت واقفة بفمها المفتوح تراقب لاعبة حركاتٍ بهلوانية وهي تدور في مكانها حول ساق واحدة وكأنها مصنوعة من مفصلٍ واحد يدير جسدها بأكمله بكل سهولة ويسر ليدخل من حلقة معدنية كبيرة..

حين لمحتها اللاعبة ابتسمت لها بمرح فابتسمت لها دنيا بانشداه.. إلا أن صوتًا صارمًا أتى من خلفها أجفلها وجعلها تنتفض مستديرة إلى مصدره

- أنتِ.. من أدخلك إلى هنا؟!!!..

لتجد نفسها أمام رجل متجهم مكتفياً ذراعيه وقد برزت عضلاته في زيه الأزرق اللامع وبدأت في حالة من الخوف وكأنها ترى نفسها ضئيلة أمام مارد ضخم ومرعب.. كانت تعرفه.. تراه يؤدي الفقرات المجنونة في الهواء وعلى الحبل وقلبها يخفق بجنون، لكنها الآن تطالعه برعبٍ لقربه الشديد

منها والذي جعلها تدرك مدى قوته الفعلية..

حين ظلت صامته وشفتها ترتعشان أعاد السؤال بخشونة أكبر

- هل أنتِ خرساء؟!...

هزت رأسها نفيًا دون أن تغلق فمها، وبعينين واسعتين رأت رجلاً آخر خلفه يشد على كتفه قائلاً بسرعة

- فقرتك يا جلال..أسرع..

استدار ليتجه إلى حيث مدخل المسرح، لكن وقبل أن يخرج للجمهور توقف للحظة والتفت إليها سائلاً بنبرة ساخرة

- ألا تملكين اسمًا أيضًا كما لا تملكين صوتًا!!!..

حينها فقد ثار تمرداها ولذعها الغيظ الطفولي المبكر جدًا جراء نبرة التهكم في صوته وعلى الرغم من الانبهار الممتزج

بالخوف الذي شلها للحظات، إلا أنها تمكنت من رفع رأسها
لترد بشجاعة رغم تعثر كلماتها

- اسمي دنيا...

ابتسم المدعو جلال بسخرية أكبر، بينما أتاها صوت والدها
وهو يهتف من خلفها بغضب ورعب لاهتاً

- دنيا!!! كيف تمكنت من التسلل والاختفاء عني!!!.. كدت
أموت رعباً، حتى أنني توصلت الرجل صاحب مكبر الصوت
أن ينادي على اسمك فوق المسرح!!!..

حملها بين ذراعيه، إلا أنها استدارت تنظر إلى جلال الذي
بادلها النظر دون أن يفقد ابتسامته الساخرة ثم غمز لها قبل
أن يخرج للجمهور مع صوت الصيحة في مكبر الصوت

- موعدكم مع فقرة الرجل المطاطي..الرجل المحلق في
الهواء..ها هو جلجل..

صوت التصفيق كان عاليًا وكأنه دويًا في أذنيها جعلها

تبتسم وهي تتنفس بتسارع لدرجة أنها وضعت يدها فوق صدرها الخافق المسكين..

- كم بلغت من العمر وها أنتِ تتسولين مجددًا!!!..

أجفلت من شرودها العميق الذي سافر بها إلى زمنٍ آخر بعيد، لكنها هذه المرة حين استدارت كانت تبتسم.. لتراه أمامها

جلال أسطورة زمانه في الحركات البهلوانية.. لا يزال بنفس الجسد وقوة العضلات، لم يتغير به سوى الخصلات البيضاء التي غزت شعر رأسه

رفعت حاجبًا وهي ترد بشقاوة كعادتها

- وأنت ألن تتوقف عن ضبطي وإجفالي يا جلجل...

ابتسم مقتربًا منها حتى وقف بجوارها يراقب كتفها التي ظن يومًا أنها ستصل حد كتفيه، إلا أنه انتصر في النهاية وتوقف طولها لتعلو كتفه كتفها بالقليل..

ثم رفع وجهه يتأمل الأراجيح العالية كما كانت تفعل منذ
قليل، وقال بصوته الأجش

- كم مرة حلقنا في سماء تلك الخيمة بظنك؟!..

التفتت إليه تتأمل جانب وجهه الأسمر قوي الملامح، رنت
بأذنيها نغمة من صوته لم تعجبها جعلتها تضيق عينيها وقد
غابت ابتسامتها..

ماذا به؟!.. أتراه يحن لأيام مجده!.. تستطيع سماع
اختلاجة الحنين في صوته، تراها في عينيه.. تشعر بها عبر
ذبذبات الطاقة التي تنتفض منه..

ومن يشعر به أفضل منها!!.. فلاعب الحركات البهلوانية ما
أن تحل قدماه على الأرض في النهاية يكون كالطيار الذي
توقف عن التحليق للأبد.. كالطير الذي انتزع جناحيه

شعرت بغصة في حلقها إلا أنها ابتسمت تستدير إليه قائلة
بمرح زائد

- ما الأمر؟.. أتسعى طالبًا بعض الحسد!!..

لم تتجاوب ملامحه على الفور مع ابتسامتها مما أكد ظنها إلا أنه ابتسم في النهاية واستدار إليها يتأمل ملامحها فزادت من ابتسامتها تعمقًا عليها تحاول بث بعض من أدريينالين عرض اليوم إلى أوردته فيشعر وكأنه عاد لأيامه..

رمش جلال بعينه مرة ثم سألها بصوت هادئ

- هل أخرجك طلب رفيقي؟...

اختلجت حدقتها للحظة إلا أنها ردت بإشراق وثقة

- بالطبع لا، ولما قد أشعر بالخرج؟!.. يظل لكل عائلة تفاصيلها وأسرارها..

أوماً برأسه دون ردٍ فضربت مرفقها بمرفقه تسأله بمشاغبة

- ماذا عنك.. لماذا لم تحضر اجتماع عائلة سلطان السري!..

عقد حاجبيه وهو يلوح بكفه قائلاً

- تفاصيل مملة تثير الضيق وتسبب الصداع.. ما يستقرون عليه سننفذه في النهاية، لا داعي للمناقشة أو الحضور

بهتت ابتسامتها قليلاً وهي تلمح تلك النغمة المقلقة مجدداً وحاولت سؤاله بجدية هذه المرة إلا أنه سبقها واستدار إليها قائلاً بصوتٍ أجش وملامح صلبة

- لدي شيء لك..

ارتفع حاجباها وهي تسأله بحيرة

- شيء لي أنا!!.. ترى ما هو؟!..

راقبته وهو يخرج شيئاً من جيبه، ثم مد قبضته المغلقة إليها قبل أن يفردها، فوجدت في راحته سلسال من الذهب تتدلى منه حلقة على شكل فراشة..

اتسعت عينا دنيا وهي تختطف السلسال من يده لتتفحصه

بدقة قبل أن ترفع عينيها إلى عيني جلال ثم هتفت

- كم هي رائعة!!.. بل مذهلة! أهى من الذهب الخالص
فعلاً؟!.. لكن لماذا يا جلجل؟!.. ما المناسبة كي تأتيني بهدية
غالية مثلها؟!..

ازداد تجهمه وهو يرد بفضاظة

- ألا تقدرين على تلقي الهدية بابتسامة شاكرة خجولة
كباقي البنات!!..

مالت بوجهها وهي تسأله بشك متبسمة

- وهل أنا بنت كباقي البنات يا جلجل!!..

تحركت شفتاه بما يشبه ابتسامة، إلا أنه قال بهدوء متخلياً
عن خشونة صوته المعتادة

- أنتِ أفضل من باقي البنات في نظري.. كل عام وأنتِ
بخير يا دنيا..

اتسعت عيناها وهي تحاول الفهم فتابع قائلاً بتنازل

- اليوم هو ذكرى يوم ميلادك...

الآن باتت دهشتها عاصفة قوية وهي تضحك محاولة تذكر
تاريخ اليوم، ثم هتفت بذهول

- إنها المرة الأولى التي أتلقي فيها هدية بمناسبة يوم
ميلادي.. أنا حتى لا أتذكره إلا في المصالح الحكومية!.. لكن
لما هذا العام تحديداً يا جلجل..

مالت شفتاه في ابتسامة حانية ناقضت خشونة ملامحه
ثم قال بخفوت

- لكل شيء أول مرة... كان علي أنه أتذكره خلال السنوات
السابقة..

أخفضت عينيها اللامعتين إلى الفراشة في يدها وكم
أسعدتها الهدية!!..أهذا هو إحساس تلقي الهدية إذن!!.. يا له
من رائع!!

تأملتها مليًا ثم سألته برقة

- ولماذا فراشة تحديدًا؟...

مد يديه يلتقط السلسال من راحة يدها مجدداً ففتح القفل
مما جعلها تستدير إليه رافعة شعرها حتى شعرت بتثبيت
السلسال حول عنقها.. فاستقرت أصابعها فوق الفراشة
لتسمع صوته يقول بخفوتٍ من خلفها

- كي لا تتوقفي عن التحليق أبداً يا تكتكة...

كانت على استعدادٍ للذهاب واللحاق بباقي لاعبي السيرك
وقد نال منها التعب والانفعال الحد الأقصى.. ولم تتمنّ النوم
كما تمنته في تلك اللحظة. لكن صوت رفيق يناديها من
خلفها جعلها تستدير إليه متسائلة حتى حث الخطى ووصل
إليها ثم قال

- يمكنك أخذ إجازة أسبوعاً لتقضيه مع أهلِكَ يا دنيا..

نظرت إليه بدهشة وسألته

- إجازة لأسبوع!!.. وماذا عن فقرتي؟!.. يمكنني زيارتهم
والمجيء في موعد الحفل يومياً هذا الأسبوع طالما أننا
وصلنا المدينة اليوم وسنبقى لشهرٍ كامل..

تنهد رفيقي قائلاً كارهاً الجدل كعاداته

- اسمعي الكلام يا دنيا، لقد غبت عنهم شهوراً طويلاً.. ألم
تشتاقي إليهم!!.. هذا الأسبوع اقضيه مع أهلِكَ ومنال ستقدم
فقرتك..

تسمرت مكانها تماماً وهي تكرر ببطء

- منال!!.. منال ستقدم فقرتي!!.. لكن.. منال لن تستطيع أن..
كيف..

توقف رفيقي ناظراً إليها وسألها بجدية

- أنتِ وجلال تقومان على تدريبها منذ سنوات!.. متى ستبدأ في تقديم الفقرة بنفسها إن لم يكن الآن! الفتاة تجاوزت التاسعة عشر.. كنتِ أصغر منها حين بدأتِ..

لم ترد عليه، بل وقفت مكانها تنظر إليه بلامح غير مستوعبة فشدد على كتفها قائلاً

- منال ستفي بالغرض وستكون قدر المسؤولية.. اذهبي أنتِ إلى أهلك واستمتعي بوقتك معهم ولا تفكري في شيء لمدة أسبوع..

ثم تركها وأنصرف أمام العينين الواسعتين الحائرتين بينما يدها لا تزال ممسكة بالفراشة فوق صدرها!

جيهان

مع سماعها صوت السيارة تدخل من بوابة البيت، نهضت من على الأريكة بسرعة ثم جرت باتجاه النافذة المطلة على

الحديقة لتراقب الواصلين من خلف الستار باهتمام بالغ..

رأت والدها بوضوح، لكن الظلال الملقاة على المقعد المجاور لم تمنحها رؤية واضحة للعروس.. لذا اضطرت للانتظار حتى خرج خطاب من السيارة ثم دار حول مقدمتها ليفتح الباب لها قبل أن ينحني ليلتقط كفها ثم ساعدها على الخروج

كانت امرأة ضئيلة القوام، يكاد جسد والدها يحجبها عن الرؤية لذا تأففت وسارعت بالتوجه إلى الباب وهي تعدل ملابسها الأنيقة التي اختارتها بعناية، كما عدلت شعرها بأصابع متوترة محدقة في صورتها المنعكسة على المرآة المجاورة للباب ثم وقفت تشبك أصابعها بترقب.. ولم تكد تمر دقيقة حتى سمعت صوت الباب يفتح ثم أطل وجه والدها مبتسماً قبل أن يفسح الطريق سامحاً لعروسه أن تتقدمه من باب اللياقة!.. لا تتذكر أنه اهتم يوماً بتلك التفاصيل الأنيقة مع أمها خلال زواجهما!

انقطعت أفكارها حين رأتها تدخل خطوتين ثم توقفت.. فاقترب منها خطاب ووقف بجوارها يلف كتفها بذراعه ثم

بادر نوران بالكلام قائلاً بنبرة مستبشرة

- نوران، كيف حالك حبيبتي؟.. هل تأخرنا عليك؟..

كانت عيناها تجولان على العروس الجديدة بتفحص شامل حتى سمعت سؤال والدها فانتفضت مجيبة بنبرة أنيقة مهذبة وهي ترسم على وجهها ابتسامة لطيفة أقرب للرسمية

- لم تتأخرا على الإطلاق.. حمد لله على سلامة وصولكما و... مبارك لكما..

ودون انتظار رد سارعت بالتقدم إليهما فمدت يدها تصافح العروس تعمق ابتسامتها ثم قبلت وجنتيها قائلة

- مبارك لك سيدة جيهان.. أنرت بيتك..

ردت جيهان بصوتٍ عذب جميل، خافت مبحوح بطريقة مميزة تأسر الأذن

- بارك الله بك يا حبيبتي.. البيت مُنارٌ بأصحابه..

كانت طريقة كلامها هشة كقوامها وملامحها.. إنها امرأة
هشة للغاية، تشعر من يصادفها أنها على وشك أن تنكسر
بين يديه لرقتها..

أنيقة ترتدي ما يناسب عمرها ويزيدها جاذبية، شعرها
تتابع صبغه على الأرجح بلونٍ أشقر قاتم كلونه الطبيعي
لإخفاء الشعرات البيضاء..

لكن عينيها هما أكثر ما زادها رقة وهشاشة على ما يبدو،
فقد كان بياضهما وردي اللون وكأنها انتهت لتوها من البكاء..

أما التعبير فيهما فقد كان أشبه بحزنٍ دفينٍ ممتزج براحة
في نهاية الطريق.. يسعها أن تكون أديبة وهي تصف نظرات
زوجة والدها!..

تلك المرأة كانت على الأرجح ذاتٍ جمالٍ نادر في صباها،
فهي لاتزال جميلة أكثر من المعدل الطبيعي..

تكلم خطاب قاطعًا سيل أفكار ابنته، مشددًا ذراعه حول
كتفي زوجته سائلاً بنبرة فخورة

- ما رأيك بجيهان يا نوران؟..

اختلست نوران نظرة أخرى لها ثم أجابت بصدق على الرغم من الغيرة التي تسلت إلى قلبها والتي لن يعرف عنها أحدًا شيئاً

- جميلة جداً السيدة جيهان يا أبي.. مؤسف أنك لم ترني صورة لها من قبل!..

قبل أن يرد خطاب، تبرعت جيهان بمد يديها لتمسك بكفي نوران معاً بينهما وشدت عليهما قليلاً رغم رقة أصابعها قائلة بود وبتلك النبرة المبحوحة

- أنتِ الأجمل يا نوران، أشكرك بكل صدقٍ على حسن استقبالي وتبديد القلق من قلبي..

تكلم خطاب مجيباً على تعقيب ابنته بصوتٍ خفيض بدا له وكأنه يشعر بالحرَج من تصرفه الذي صدمهم جميعاً بزواجه المفاجئ

- لقد حدث كل شيء بسرعة.. شعرنا بالراحة لبعضنا،
فاتخذنا قرار الزواج.. ولا أقول أننا تسرعنا ففي عمرنا هذا لا
نحتاج سوى الشعور بالراحة لتتأكد من قرارنا.. لهذا قمنا بعقد
القران في المدينة التي تسكنها جيهان ولم تتسن لنا الفرصة
لدعوتكما، أرجو ألا يكون هذا قد ضايقك أنت أو شقيقك
وائل..

ضايقنا!!!.. لقد صدمنا وأكد لنا مكانتنا المجهولة والتي لا
قيمة لها أو اعتبار..

اتصال عابر من والدها يخبرها أنه تزوج وسوف يعود بعد
شهر!! كما يرجو أن تتمنى له السعادة هي وشقيقها!

كما أنه يكذب بمنتهى الصراحة، لم يكن زواجاً سريعاً كما
ادعى شعر فيه كلاهما بالراحة!.. بل تعرف حق المعرفة أن
علاقة حب ربطته بتلك السيدة منذ فترة.. لقد شكت في
الأمر وهي تشعر بتغير تصرفاته واهتمامه بمظهره وكثرة
سفره لمدينة أخرى بحجة العمل.. وهاتفه الذي بات يخفيه
كلما اقتربت منه..

كان يتصرف كالمراهق دون الحاجة، فلو تكلم معهما
بمنتهى الصراحة ودعاها لعقد قرانه لما شعرا بمثل هذا
التجاهل المؤذي..

حتى بعد عقد قرانه، لم يفكر في إجراء اتصالٍ مصور كي
يعرفهما على العروس.. لقد تجاهلها شهرًا كاملاً إلا من بعض
الاتصالات والرسائل المختصرة

لم تنطق بأي من أفكارها الداخلية القاتمة، بل ابتسمت تنقل
عينيهما بينهما قائلة بنبرة رسمية وكأنها تهنيئ غريب

- أرجو أن تكونا قد قضيتما شهر عسلٍ ممتع...

أخفضت جيهاً وجهها أرضاً.. أتراها تخجل!!!.. بينما رد
خطاب باختصارٍ وهو يبتسم

- كان رائعاً، أشكرك يا حبيبتي..

وجدت أنه من الغريب أمام عروسه ألا تعانق والدها، على
الرغم من أنها لا تفعل هذا كثيراً.. لكنها وحفظاً للمظاهر

اقتربت منه تقبل وجنتيه قائلة

- حمد لله على سلامتك يا أبي..

ثم تراجعت ناظرة إليهما وهي تتابع فاتحة كفيها كمديرة منزل لا كابنة صاحبه

- أرجو ألا يكون وجودي أنا ووائل ثقيلاً عليكما في أول ليلة لكما في البيت.. لقد فكرت أنه من غير المناسب وصول جيهان للبيت دون استقبال مناسب.. سنمضي معكما يومين ثم نغادر..

لم يجد خطاب الفرصة ليرد، فقد تولت جيهان الرد هاتفة بنبرتها المبحوكة وكأنها صدمت وأهينت وجرحت..

- ما هذا الذي تقولينه يا نوران!!.. تتعاملين كضيفة في البيت وأنا صاحبتة!!، لسنا شابين صغيرين لكل هذا، ليتكما تبقى فترة أطول كي نتمكن من التعارف أكثر..

إنها بالفعل تتصرف في بيتها، وتدعوها للبقاء!..

ابتسمت نوران فاترة وسألتها بصوتٍ مهذبٍ ناظرة خلفهما
بنظرةٍ ذات مغزى

- أين ابنتك؟.. فهمت من والدي أنها ستصل معكما!..

استطاعت أن تلمح على الفور التغيير الذي طرأ على جيهان
فقد ارتبكت وتوترت واختلست نظرة جانبية إلى خطاب
لكنها بسرعة البرق استعادت أناقة تعبيراتها وردت بصوتٍ
خافت دون تفاصيل

- ستصل في وقت متأخر من الليل.. سيتكفل خطاب
بإرسال سيارة لها..

أومأت نوران برأسها ببطء شديد دون أن ترد.. وكأنها تبلغها
بأنها لم تقتنع بحرفٍ واحد مما ذكرت، لكنها في النهاية قالت
بتهديب

- لقد أوقفتهما طويلاً، لما لا تصعدا إلى غرفتهما وستقوم
فتحية بحمل حقيبة ملابس جيهان للغرفة.. يمكنكما الراحة
من عناء الطريق لبعض الوقت، ثم يمكننا تناول الطعام

سويًا..

لم يجبها خطاب بل التفت إلى جيهان وسألها بصوتٍ حنون
للغاية غريب عليه

- متعبة يا جيهان؟..

رفعت أصابع مرتجفة إلى جبهتها وكأنها تمس وردة ذابلة
وهمست تبتسم بمزاحٍ لم يصل لعينيها

- في الحقيقة الصداع يكاد أن يفتك برأسي.. إنه رفيقي
منذ سنواتٍ طويلة حتى بات غيابه غريب علي..

شدد خطاب على كتفيها قائلاً بحزم

- إذن لترتاحي قليلاً قبل الطعام وربما تمكنتِ من النوم..

أومأت برأسها دون كلام لكنها بدت شاردة محدقة في
الأرض فحثها على الصعود معه، لكن قبل أن يبتعدا تماماً
التفت إلى نوران وقال بلطف

- بعد إذنك يا نوران.. شكراً يا حبيبتي على كل ما قمت به
وعلى حسن استقبالك..

همست نوران وقد فقدت ابتسامتها تخاطب ظهره وهو
يتابع طريقه

- لا شكر على واجب..

إنه حتى لم يسأل عن وائل!.. وهي التي كانت تظن أن
امتناعه عن النزول للترحيب بالعروسين سيكون محرّجاً
للجميع!

يبدو أن جيهان قد سلبت لب والدها تماماً.. شعور ربما لم
يعرفه، منذ.. وفاة أسمهان!..

دخلت أول الطريق الضيق لحارة سكنتها منذ سنواتٍ
طويلة تتأمل ما حولها بعينين ساهمتين، بات التغيير الذي
يطرأ على حيهم أسرع مما تستطيع مواكبته.. كانت تظن أن

التغيير يحتاج لسنوات، لكن في الآونة بات لا يستغرق أكثر من أشهر معدودة!..

ففي كل مرة عادت فيها لبيتها بعد شهورٍ من رحلاتٍ وعروضٍ متواصلة بين المدن تجد أن الحي قد تغير.. بيوت قد هدمت وأخرى أعلى قد ارتفعت وبات المكان أضيق مما تتذكره!..

وبمرور السنوات، باتت مؤخرًا تشعر بنفسها غريبة على هذا الحي.. وذات الشعور ينتابها في بيتها وبين أهلها!

نعم.. هذا ما كانت تخجل الاعتراف به بينها وبين نفسها حتى تحول لأمرٍ واقع لا يحتاج لاعتراف..

أنها تعود لبيتها كضيفة غريبة..

حين أخبرها العم رفيقي أنها ستمكث أسبوعًا معهم، شعرت بروحها تهوى بين أضلاعها وساد الوجوم نفسها حتى خافت أن يظهر على ملامح وجهها..

طوحت بالحقيبة الرياضية والتي تحوي ملابسها القليلة والضرورية فقط فألقتها على ظهرها ومشت في الطريق حتى لمحت بيت والديها من بعيد.. يبدو أنه الوحيد الذي لم يتحرك من مكانه، لكن ملامح الزمن ظهرت عليه بكل وضوح..

مجموعة من الأطفال ما أن أبصروها حتى هتفت إحداهن وهي تشير إليها بحماس

- تكتكة..تكتكة.. لقد عادت أخيرًا..

جرت إليها الطفلات فابتسمت ابتسامة عريضة وهي ترفع كفها لهن في الهواء حتى وصلن إليها ومعهن صبيان فهتفت إحداهن قبل أن تلقي التحية حتى.. عيناها تلمعان كألعاب نارية

- هل وصل السيرك إلى هنا يا تكتكة؟.. هل وصل؟؟.. كم سيمكت؟..

عقدت دنيا حاجبيها وتجهمت مجيبة دون أن تفقد

ابتسامتها

- طالما وصلت تكتكة، إذن فقد وصل السيرك.. لكن هذا يعني أن كل ذاك الحماس الذي استقبلتموني به، كان للسيرك وليس لي!!..

هتفت الفتاة بسعادة معترفة

- نريد حضور السيرك أرجوك.. هل ستأخذيننا؟.. نريد رحلة أخرى دون أن ندفع..

ارتفع حاجبا دنيا وهي ترد بدهشة

- هكذا بصريح العبارة دون الحاجة لتزيين الطلب حتى!!!...

ردت الفتاة وهي تشد معصمها هاتفة

- أرجوك يا تكتكة أرجوك..

نظرت دنيا متظاهرة بالامتعاض للثلاث فتيات والصبيين

ثم لم تلبث أن تنهدت قائلة

- لنرى.. ولنسأل أمهاتكم أولاً لنقيم حسن سيركم وسلوككم
خلال الأشهر الماضية..

ثم ابتعدت خطوة تدقق النظر في الفتاة الممسكة بها
لتقول بتعجب

- لقد كبرت قليلاً يا غادة!!.. لقد كبر جميعكم قليلاً على ما
يبدو خلال فترة غيابي، ماذا كنتم تأكلون!!..

اقترب صبي منها ليقول متحدياً..

- لنرى من يؤدي حركة الشقبة أفضل يا دنيا الآن.. هيا..

تنهدت دنيا ممسكة بشعره وهي ترد بقنوط

- ألم تيأس بعد يا حامد!!.. عام بعد عام وأنا أهزمك شر
هزيمة وأنت لا تستسلم أبداً!!..

جرى لمسافة أقدامٍ ثم هتف من مكانه

- انظري.. هل يمكنك هزيمة هذا!!!...

ثم أدري حركة الشقبة المعروفة بالنجمة عدة مرات بكفيه
وقدميه حتى وصل إليها لاهئًا، فرفعت دنيا حاجبًا واحدًا
وهي تقول ببلادة

- حقًا!!!.. أهذا هو أعلى ما لديك!!!.. إذن انظر لهذا..

ألقت بحقيبتها، ورفعت ذراعيها آخذة نفسًا طويلاً ثم
أخذت تتشقلب في الهواء وتحط أرضًا على قدميها عدة
مرات حتى وقفت على بعدٍ كبير منه ناظرة إليه تبتسم لكنها
لم تكتفِ بعد بل فتحت ساقها قليلًا.. ثم بدأت في الانحناء
للخلف بمرونة عالية وكأنها خلقت من مطاط حتى ارتاحت
كفاها على الأرض خلف قدميها.. لكنها لم تكتفِ بل تقدمت
وتقدمت حتى تمكنت من إخراج نصفها العلوي من بين
ساقها مستندة بمرفقيها إلى الأرض.. ثم غمزت قائلة

- تغلب على هذا إن استطعت...

صعدت دنيا درجات البناية القديمة بتثاقل مبتسمة شاردة
في الأطفال.. لم يعودوا أطفالاً.. أو على الأقل ليسوا صغاراً..

سرعان ما سيكبرون، كما كبر من قبلهم من أبناء الحي ممن
كانت تبهرهم في صغرهم..

مجموعات بعد مجموعات من أطفال الجيران.. ينبهرون بها
حد الجنون وكأن ابنة حيهم من المشاهير، حتى يخبو البريق
بالتدريج مع نضجهم وانشغالهم بالدراسة والهواتف المحمولة
والألعاب الإلكترونية..

سيكبرون كما كبرت شقيقاتها.. سيزول الانبهار كما زال من
أعين شقيقاتها منذ سنوات..

فتحت باب بيتهم بمفتاحها ودخلت هاتفه وحقيبتها ملقاة
على ظهرها

- يا أهل الدار.. لقد عدت..

لم تسمع جوابًا فدخلت تنظر حولها باحثة عن أحدهم،
حتى أبصرت شقيقتها الصغرى بثينة تجلس على الأريكة
الصلبة تشاهد التلفاز بصمت مما جعل دنيا تعقد حاجبها
مكررة

- بنت يا بثينة.. لقد عدت..

نظرت إليها بثينة قائلة بابتسامة عادية

- أهلاً دنيا.. حمد لله على سلامتك..

ازداد تجهمها وهي ترد بجفاء- أهلاً دنيا!!!.. تعالي يا بنت
وعانقيني، لقد غبت شهورًا طويلة!!..

نهضت بثينة من مكانها متنازلة وهي تبسم قائلة

- كيف كانت رحلتك؟..

ثم عانقت شقيقتها التي ضمتها إليها محاولة الشعور

بالعودة للبيت.. للأهل..

ردت دنيا وهي تنظر حولها

- بل قولي رحلاتي.. طفنا الكثير من المدن.. أين أختك
بسمة؟..

نظرت بثينة حولها، ثم قالت بنبرة مبهمة

- كانت في الشرفة منذ قليل... ربما.. ها هي..

لم تكذ تتم كلماتها الأخيرة، حتى سمعت دنيا صوت
خطوات تبدو غاضبة وبالفعل حين استدارت رأت شقيقتها
بسمة تخرج من إحدى غرف النوم وعلى وجهها ملامح
الغضب والرغبة في العراك..

تنهدت دنيا بيأس، فلا قبل لها مطلقاً على واحدٍ من
شجارات بسمة الآن.. وهو بادٍ على وجهها بما لا يدع الشك
في نيتها..

و مع ذلك بادرته قائلة بابتسامة هادئة

- كيف حالك يا بسمه.. لقد عدت..

لم ترد عليها بل رمتها بنظرة نارية حاقدة، وتابعت طريقها
باتجاه المطبخ مما جعل الدماء تفور في عروق دنيا من
تجاهل شقيقتها بتلك الطريقة المهينة، فهتفت محتدة

- بسمه.. بسمه أنا أكلمك!!.. بسمه!!..

توقفت بسمه توليها ظهرها للحظات، ثم لم تلبث أن
استدارت وعيناها تطقان شرراً هاتفة

- ماذا؟.. ماذا تريدان يا دنيا؟...

اتسعت عينا دنيا قليلاً ثم فتحت كفيها هاتفة بغضب

- قلت، لقد عدت!!!..

حينها انفجرت بسمه هاتفة وهي تشير بإصبعها تجاه شرفة

غرفة النوم

- عرفت.. ولست وحدي من عرف بعودتك، بل سكان الحي جميعهم.. بل أن بعضهم أخذ يصفق لك وأنتِ تقدمين له ذاك العرض المجاني بلي وثنى نفسك في منتصف الشارع!..

هتفت دنيا بغضب مماثل - ما مشكلتك بالضبط؟!!..

أجابتها بسمة منفعة وهي تضرب الأرض بقدمها - مشكلتي أنك لا تستطيعين تمييز مشكلتي بعد!!..

انعقد حاجبا دنيا بعدم فهمِ قائلة - أهو لغز!!... ما الذي ضايقك إلى هذا الحد!!..

اقتربت منها بسمة خطوة وهي تقول من بين أسنانها

- الذي يضايقني!!.. هل رأيتِ غيرك يقوم بتلك العروض في منتصف الطريق!!..

التفتت دنيا إلى بثينة التي بدت مرتبكة بعض الشيء

فأخفّضت وجهها محاولة تجنب ما يحدث، فأعادت دنيا
عينها إلى عيني بسمة الغاضبتين وقالت بنبرة مبهمة

- العم إبراهيم يعطيهم بعض الحلوى لأن لديه دكان
خردوات.. فتحي صاحب ورشة الدراجات يسمح لهم بركوبها
مرة أو اثنتين.. أنا لاعبة حركاتٍ بهلوانية فكنت ألهو مع
الأطفال قليلاً، هل خرب العالم!..

أطبقت بسمة شفيتها وعينها.. كقبضتها، واضح أنها
وصلت للدرجة القصوى من الغضب ثم انفجرت هاتفة

- هل تسمعين ما تقارنين نفسك به!!!.. بعض السلع، أنتِ
تجعلين من نفسك سلعة ترفهين بها عنهم فعلاً!!!..

ارتفع حاجبا دنيا وهي ترد ببلاهة

- سلعة!..

تدخلت بثينة في تلك اللحظة قائلة بتخاذل

- هذا يكفي يا بسمه...

صرخت فيها أختها بغضب - أنتِ اصمتي ولا تتدخلني، فهذا هو ما تجيديه..

صمتت بثينة بالفعل متضايقة، بينما كانت دنيا تراقبهما غير مصدقة مدى التفاهة التي وصلا إليها، ثم لم تلبث أن لوحت بكفها قائلة بقرف وهي تنحني لتلتقط حقيبتها من على الأرض

- أنا أكاد أموت من التعب.. سأذهب لألقي بنفسي على أي فراش، ليت لاعبي السيرك ممن حسدوني على الإجازة لقضائها مع أهلي يرون القرف الذي أتعاش معه..

هتفت بثينة من خلفها

- انتظري يا دنيا، سأعد لك شيئاً تأكلي به..

هدرت دنيا قبل أن تصفق الباب في وجهيهما - لا أريد التسمم.. أغبياء!..

لكنها لم تستطع النوم بسهولة كما ادعت، بل ظلت ساكنة في الظلام تراقب الأضواء المتسللة من خشب النافذة شاعرة بخيبة الأمل بداخلها تتزايد وتثقل صدرها وقلبها..

وطال بها السهاد والتفكير حتى شدها عقلها إلى ذكرياتٍ قديمة.. ذكرى أول عرضٍ تحضره شقيقاتها ممسكاتٍ بأيدي بعضهن، مرتدياتٍ أجمل فساتينهن ذات الكشكشات والدانتيل.. ينظرن شاهقاتٍ إلى ما تقدمه على الرغم من أنها كانت على الأرض ولم تصل لعمر التحليق بعد..

لكنها تتذكر جيدًا قيام الأربع بناتٍ واقفاتٍ ليصفقن بصوتٍ عالٍ هاتفاتٍ باسمها قبل أن تنهي فقرتها كي تتمكن من سماعهن قبل أن تتداخل أصواتهن مع أصوات تصفيق الجمهور..

كن مميزاتٍ بين زملائهن بسببها، يخبرن الجميع أن أختهن الكبرى تقدم فقراتٍ في السيرك..

ومع كل عامٍ مر في عمرها وأعمارهن.. كان الانبهار يخبو شيئاً فشيئاً.. حتى انطفأت جذوته في الأخير..

ومع كل عامٍ قضته بعيدة عن بيتها شهوراً طويلة.. بدأ
التقارب بينها وبينهن يقل تدريجياً.. تخشى أن يكون قد
انطفأت جذوته أيضاً!!!..

لا تعلم متى غرقت في سباتٍ عميقٍ مبعداً الذكريات،
والحاضر الكئيب.. كل ما تعرفه هو انتفاضها مستيقظة على
صوت أختها بسمة تناديه بصوتٍ متصلب لا يحمل ذرة
افتقاد

قفزت جالسة على السرير الصلب تضغط عينيها بقبضتيها
محاولة استيعاب ما تمليه عليها شقيقتها فردت بخشونة

- ماذا قلتِ؟..

تأففت بسمة وهي تقف عند باب الغرفة مكتفة ذراعيها، ثم
كررت بنبرة جادة آمرة لا تقبل الجدل

- سنتناول غذاء اليوم في بيت خالتي.. جميعنا سنكون
هناك.. أرجو ألا تقومي بإحدى حركاتك البهلوانية هناك

ثم خرجت و صفقت الباب خلفها بينما ظلت دنيا جالسة
مكانها متشبثة بالغطاء محدقة بصمت تحاول إسكات ذلك
الصوت الغير مريح النابض في رأسها!..

فاطمة

كان يومًا طويلًا من العمل الشاق دون توقف.. لكم هي
مؤلمة الغربة!..

فالتعب يزول بعودتها لترتاح بين ذراعي زوجها، تتنعم
برؤية طفلها نائمين في سريرهما، لكنه كان حلمًا بعيد المنال
أقرب للمستحيل، إلا أن حولت هي المستحيل لمتاح.. لكن..
هل ستفعل!..

أغمضت عينيها مرهقة بشدة، ظهرها يؤلمها وكأنها أمضت
اليوم بأكمله تتأرجح فوق حبلٍ معلق!.. لكن الأكثر إيلاماً هو
النفس المتعبة الوحيدة..

لم تكن الغربية غريبة عليها، لقد ألفتها لسنوات.. سنوات من العمل في الدول العربية كمرضة، من مشفى لآخر..

في البداية اضطرت لها لمساعدة أسرتها وتجهيز متطلباتها إن تزوجت.. وقد حدث..

لقد تزوجت لكن الوضع كان معكوسًا عن المعتاد.. كانت هي من اضطرت للعودة للبلاد حين أخبروها أن هناك عريسًا محتملًا وبالفعل عادت بسرعة، رأتها وشعرت بالقبول فتم عقد القران بأسرع وقت ممكن ثم عادت لإتمام فترة عقد العمل الذي وقعته..

كانت من الفتيات اللاتي يثقن للزواج.. يتمنيه.. وبالنسبة لها، هو نهاية المطاف الطبيعية..

وكم كانت سعيدة بعقد القران وكأن هدفها في الحياة قد تحقق.. الاستقرار وتكوين أسرة..

عام.. عام واحد تتم فيه فترة عقدها وتعود ليتم الزفاف وتستقر نابذة الغربية للأبد، لكن ما حدث كان مختلفًا فقد تم

الزفاف بالفعل، وأنجبت التوأم أنس ومودة..

كم كانت فرحتها بهما!.. رزقها الله بالبنت والولد.. وتمنت
إنجاب المزيد والمزيد حين يتيسر الحال..

لكن بعدها بدأت زيادة النفقات في الظهور، ولم تكن
معتزضة، كان لديها العزيمة والإصرار على معاشة الوضع
ومساندة زوجها مجدي يدًا بيد بوظيفتها..

حتى غرض عليها عقد عملٍ في دولة عربية، عقد لا يسمح
لها باصطحاب زوجها وطفليها..

لذا كان أول رد لها هو الرفض القاطع وكأنها مزحة

لكنها صعدت بسؤالٍ خفيضٍ من زوجها “ولما لا؟!”

ظنته يمزح فضحكت.. لكن جدية وجهه كسرت بداخلها
شيئاً لم يُصلح حتى اليوم

في البداية انفجرت في وجهه ذاهلة غاضبة من جرأته على

مجرد اقتراح تركها لطفليها الصغيرين والسفر..

لكنه استخدم كافة أسلحة الابتزاز العاطفي والمقارنات بين حال الطفلين إن رفضت العرض.. وحالهما في حالة القبول..

زاغت عيناها وهي تتخيل كل قرش هما أولى به خاصة وأن عمل زوجها لم يكن ثابت.. يجد عملاً يومًا.. وعشر لا يجد..

كان قرار السفر وترك طفليها في عامهما الثاني هو أكبر جرم ارتكبه في حياتها.. لا تمر ليلة بعد انتهاء عملها، إلا وتبكي على وسادتها قهراً وشوقاً. تشتت نفسها مراراً بل وتلعنها... لقد تركتهما لحماً أحمر كما يقال.. تركتهما صغاراً للغاية في أمس الحاجة لها..

لكنها أيضاً تعرف مذاق حاجة مختلفة.. مذاق الحاجة لعيشة ميسرة، فقد نشأت بنفسها في أسرة بسيطة الحال، بل أقل من هذا في الواقع.. تعرف مذاق الحاجة حين يتمنى الطفل شيئاً ولا يجده، ويكون الوالدان بطلين إن استطاعا تعليم أطفالهما فحسب..

حبها لطفليها كان يثير الرعب في نفسها من تخيل نشأتهما
يتمنيان ما يبصران ويعجزان عن نيته..

لكن مكالمة مصورة لطفليها يلبسان أجمل الملابس
والأحذية، لا ينقصهما شيء.. والكلام عن مدارس جيدة لهما..

كل هذا كان يقوي قلبها ويدفعها للمتابعة والاستمرار..
عامان إضافيان وتعود لهما بعد أن تكون قد ادخرت مبلغًا لا
بأس به

عامان بعد العامين اللذين غابت خلالهما عن طفليها
بالفعل.. إنها الآن في الرابعة

أتراهما سينقمان عليها حين يكبران!!.. هذا هو رعبها الأكبر،
لكنها تعتزم أن تنسيهما سنوات الفراق وحرمانهما من أمهما
ما أن تعود وتستقر معهما أخيرًا.. ستغدقهما بالحنان والحب
والرعاية.. ستفعل.. ما أن تعود..

كان جو العشاء صامتًا أكثر مما يليق بعشاء العروسين الأول في بيتهما.. لم يجلس حول المائدة سوى ثلاثتهم، وكانت جيهان صامته شاردة الذهن تمامًا.. عيناها وكأنهما بعيدتان، تبصران عالمًا آخر..

وعلى ما يبدو أن خطاب وعلى غير عادته أدرك حاجتها للصمت فلم يحاول قطعه، بل اكتفى بالترييت على راحة يدها الساكنة فوق الطاولة بين الحين والآخر..

ارتفع حاجبا نوران تضع قطعة اللحم في فمها تمضغها بصمتٍ وهي تراقب تلك المراعاة الغريبة على والدها!!..

و حين طال الصمت جدًا وبدا ثقیلاً ومحرّجاً، تطوعت نوران بالقول بتهذيب

- أرجو أن يكون الطعام قد نال إعجابك يا جيهان.. كنت أريد تقديم ما هو أفضل و..

قاطعتها جيهان بدهشة ناظرة إلى الأطباق التي تراصت على المائدة

- أفضل من هذا!.. أنتِ تخرجيني بجمال وكرم استقبالك يا حبيبتي..

منحتها نوران ابتسامة مهذبة أنيقة وردت بلباقة

- كان هذا عشاء العروسين فقط، حتى تتعرفى على مطبخك الخاص حينها لن أتدخل في اختصاصاتك بالطبع..

بدا أن جيهان قد ازدادت احراجًا على عكس الغرض الظاهر من كلام نوران الأنيق فقالت بنبرتها الخافتة الجميلة

- لا تقولي كلامًا كهذا يا نوران، رجاء..

ابتسامة جميلة أخرى من ابتسامات نوران ارتسمت على شفتيها ثم قالت بأسف

- كنت أتمنى لو تمكنت ابنتك من اللحاق بالعشاء معنا..

لاحظت نوران أن حلق جيهان قد تحرك بصعوبة وتشنج وكأنها غصت خلال بلعها، فأمسكت بكوب الماء الموضوع

بجوار كفها وارتشفت منه قليلاً ثم نظرت إلى نوران وردت
بابتسامة لطيفة رغم صوتها الذي انخفض كثيراً كما بدا
وكأنه خرج مهتزاً بعض الشيء..

- ستصل في وقتٍ متأخر أكثر.. للأسف

قالت نوران بلطف

- أتوق للتعرف عليها..

أسبلت جيهان جفניה متهربة بعينيهما من عيني نوران
وهمست بصوتٍ مبهم رغم الابتسامة المهتزة على شفثيهما

- شكرًا يا حبيبتي..

انتبه خطاب إلى جلوسه صامتًا خارج دائرة الحوار، لذا
بدأ في الكلام اللطيف مع جيهان.. يخبرها عن البيت، يسألها
عن رأيها في الحديقة.. يمازحها ويلامس كفها.. حتى احمر
وجه نوران رغماً عنها.. على الرغم من سنوات عمرها التي
تجاوزت السابعة والعشرين.. إلا أنها تتورد حرجاً وهي تلمح

والدها يداعب كف زوجته الجديدة!!..

أطرقت بوجهها كي تخفي حرجها في الطبق.. التزمت الصمت، فما عاد لديها ما تقوله حتى دق جرس الباب فجأة فقال خطاب بحيرة ناظرًا إلى جيهان مبتسمًا

- يبدو أن ابنتك وصلت أبكر مما تظنين!!..

لم يبد القلق على جيهان كما توقعت نوران، بل بدت واثقة وهي ترد بخفوت

- لا أظن يا خطاب.. ليست هي..

كانت فتحية قد وصلت للباب ففتحته وساد الصمت لدقيقة حتى عادت قائلة باختصار

- إنه الأستاذ سائد..

شحبت وجه نوران بينما ارتبكت ملامح خطاب على الفور ما أن سمع الاسم وكأن حاله قد انقلب فجأة فنهض على

الفور قائلاً بنبرة متعثرة

- لحظات يا جيهان وأعود..

وما أن غادر حتى همست نوران بصوتٍ باهت تحقق إثره

- يا إلهي!.. لقد أتت المشاكل..

نظرت جيهان خلفها ثم أعادت عينيها إلى نوران وسألتها
بقلق

- المشاكل!!.. ما الذي حدث؟!..

مالت نوران للأمام على حافة المائدة الفاصلة بينهما
وهمست

- إنه سائد أخي.. ليس شقيق فهو أخي أنا ووائل لكن من
أسمهان.. زوجة والدي الأولى، ألم يعرفك على الأسرة كلها؟!..

ردت نوران بتوتر زائد وكأن أعصابها لم تتحمل جو القلق

الذي ساد للتو

- بلى عرفني عليكم جميعًا.. لكن لم يخبرني عن سائد سوى اسمه.. لما قد يسبب المشاكل؟.. أكان رافضًا لتلك الزيجة؟

تراجعت نوران للخلف واطعة يدها على صدرها قائلة
بأسف

- يا إلهي، أنا آسفة جدًا يا جيهان.. لقد أخفتك.. لم يكن
ينبغي علي أن أفعل هذا..

تحرك حلق جيهان باختناق فاقدة شهيتها، والتي لم تكن
تملك منها شيئاً من البداية!

نظر إلى ابنه للحظاتٍ طويلة دون أن يحاول الكلام فينبهه
لوقوفه، فقد كان سائد يوليه ظهره واضعًا كفيه في جيبي
بنطاله يتأمل صور أمه وأخته وكأنه يراها للمرة الأولى.. على
الرغم من أنه يفعل نفس الشيء كلما دخل هذا البيت..

أطبق خطاب عينيهِ للحظاتٍ مطرّقًا برأسه يزدرد لعابه.. لم
يستطع النطق على الفور، بل كان في حاجةٍ لتلك اللحظات
كي يتمالك نفسه.. وبعد جهد رفع وجهه سائلًا بنبرة فاترة

- ماذا تريد يا سائد؟...

شعر وكأن جسد ابنه قد تشنج للحظة، لكنه حين استدار
على مهلٍ، كانت هناك ابتسامة ساخرة على ملامحه وهو يرد
ببساطة رغم القسوة التي تغلف عينيهِ

- لهفتك لزيارتي تؤثر في قلبي يا أبي..

لم تتغير ملامح خطاب الباهتة الحزينة من سخرية ابنه
الفجة المعتادة، بل قال بصوتٍ جاف

- ماذا تريد يا سائد؟.. هل جئت تفتعل المشاكل والفضائح
أمام زوجة أبيك؟..

وضع سائد قبضته على صدره متظاهراً بالجرح مجيئاً
بنبرة مطاطة

- أل هذه الدرجة وصل بك سوء الظن!!.. وأنا الذي فكرت أنه من غير المناسب، ألا آتي بنفسى لأهنئكما!!..

لم يتأثر والده بالنبرة الزائفة، لكن الحزن كان باديًا في عينيه... منذ زمن طويل..

تكلم خطاب قائلاً بصوتٍ مرهق للمرة الأولى منذ بداية اليوم

- لقد توقفت عن زيارتنا منذ فترة طويلة..

أجابه سائد قائلاً بنبرة شديدة الجفاء وكأنه فقد روح السخرية لديه فجأة

- لكن هذا لا يمنع أن أقدم تهائني بزواجك المفاجئ، لذا قررت المجيء والتعرف على العروس.. أخبرتني فتحية أنكم تتناولون العشاء سويًا، بعد إذنك سأذهب لأقدم نفسي..

ثم اندفع يتجاوزه بخطواتٍ واسعة وكأنه رجل أتى للشجار

لا التهنئة.. حتى أن سرعة خطواته واندفاع حركة جسده أثارت الخوف في نفس والده فلحق به هاتفاً بتوتر وغضب

- انتظر يا سائد.. سائد توقف عندك حالاً..

إلا أن سائداً كان قد وصل إلى مائدة الطعام ضارباً الأرض بحذائيه مما جعل جيهان تنتفض ملتفتة خلفها بفزع والذي زاد حين رأت ملامح القسوة على وجهه فنهضت واقفة على الفور تعدل من ضبط ملابسها وهي تبادل نظرة سائد السوداء بأخرى قلقة خائفة، ولا تدري لماذا سرت رعشة خوف في جسدها الهش

وصل خطاب هاتفاً بعنف - سائد!!...

صيحته جعلت جيهان تخرج من أمام كرسيها تشك أن ابن زوجها قد يضربها!.. لكن ما أذهلها هو الضحكة العالية المختصرة التي أطلقها مما جعلها تفتح فمها قليلاً وهو يقول بصوتٍ خشن

- هل أفزعتك؟.. أعتذر.. أنا دائماً ما أنجح في خداع أبي

العزیز..

لم تستطع الضحك فقد كان قلبها يخفق بجنون حتى
أنها اضطرت لوضع كفها عليه تهدئه، بينما مد سائد كفه
إليها متابعا بصوت أجش وعيناه تدققان النظر بها كسهمين
قادرين على اختراقها

- تقبلي تهنأتي..

نظرت جيهان بفرعٍ إلى كفه الممتدة، فقال خطاب من خلفه
زافرا بضيق

- ابني سائد يا جيهان كما عرفت.. أعتذر عن إفزاعه لك..

مدت جيهان كفا مرتعشة هامسة بشيء غير مفهوم لتضعها
في يد سائد لكنها أجفلت حين أطبق عليها بأصابعه فكاد
أن يهشم عظامها الهشة وظنت أنه لن يتركها للحظات، لكنه
ابتعد أخيراً للخلف دون أن يزيح عينيهِ الساخرتين عن
عينيها ثم لم يلبث أن ألقى انتباهه على أخته الجالسة تتابع
ما يحدث بامتعاظ فاقترب منها هاتفا بصوت متملق فاتحا

ذراعيه

- من لدينا هنا أيضًا..أختي الصغيرة المهدبة!!..

ابتعدت هاتفة بغضب - لا تقترب مني يا سائد.. لا..

لكنه تجاهلها وانحنى إليها يحيط عنقها بذراعه حتى شعرت وكأنه سيقطع رأسها وهو يضم ذلك الرأس الناعم على مستوى خصره مما تسبب في تشعث شعرها الأنيق فهتفت غاضبة تكاد أن تجن

- انظر ماذا فعلت!!.. انظر ماذا فعلت!!!!!!..

لكنه لم يتراجع بل قرص وجنتها بشدة حتى شهقت مضطرة إلى رفع وجهها إليه وقال من بين أسنانه

- لن أترك وجنتك حتى ترحبي بي كما يجب على الفتاة المهدبة أن ترحب بأخيها الأكبر..

أوشكت على رمي رأيتها الصريح البذيء في وجهه، لكن

نظرة مختلسة منها إلى جيهان التي بدأت تبتسم لما يحدث
بحذر، أجبرتها على التبسم بدورها غصباً وقالت بنبرة زائفة
ترتجف من شدة غضبها

- أخي سائد!... مرحباً بك في بيتك..

تركها أخيراً لكنه لم يبتعد قبل أن يربت على وجنتها مدلّكاً
قرصته بإبهامه قائلاً ببرود

- هذه هي أختي المطيعة المهذبة..

مؤخراً باتت تصرفاته غريبة، وخاصة معها.. يتعمد
استفزازها وإثارة أعصابها بهمجية، لم يكن أبداً معها بهذه
الطباع من قبل، نادراً ما كان يلحظ وجودها من الأساس!!...
كانت بالنسبة له مجرد أخت نكرة، ولم يكن هذا ليضايقها فلم
تكن مقربة منه على أي حال..

لكن مؤخراً يتعمد إحراجها في كل مكان بتلك الطريقة
الفجة المخزية، تحديداً منذ..

لم تحاول الابتعاد بأفكارها أكثر..

بل زمت شفتيها المتكورتين محمرة الوجه من شدة
الانفعال، وزاد غضبها حين سحب الكرسي المجاور لها
فجلس عليه بإهمال مرتاحًا ناظرًا للجميع.. ثم أمر بنبرة
متسلطة عديمة التهذيب وكأنه يملك المكان والجميع

- اجلسا!....

نظرت جيهان إلى خطاب الذي كان يراقب ابنه بعينين
مثقلتين كئيبتين تحملان الكثير، لكنه شعر بنظرتها فأمسك
بظهر كرسيها قائلاً بمحبة

- اجلسي حبيبتى...

ارتفع حاجبا سائد بدهشة والسخرية تبرق في عينيه
كنهرين من شرابٍ لاذع مر.. يتسلى بما يرى، مريحًا ذراعه
على ظهر الكرسي الذي تجلس عليه نوران بجواره دون أن
تجد الجرأة على ضرب ذلك الذراع..

ثم سأل سائد فجأة ببرود ما أن جلس خطاب وزوجته

- إذن.. أين العروس؟..

اتسعت عينا كلاً من خطاب ونوران التي كتمت شهقتها بأعجوبة، بينما غطت جيهان فمها بقبضتها تسعل بصوتٍ خافت مخفضة وجهها.. لكن خاطر لم يتحمل فهدر غاضباً

- احترم نفسك يا سائد، لقد تجاوزت حدك..

لم يهتز له رمش، بل مد ساقيه أمامه بأريحية قائلاً ببراءة

- والله ما قصدت الإهانة.. لقد قصدت العروس الأخرى..

حين عقد كل من خطاب ونوران حاجبيهما بتوجس، نظر هو لعيني جيهان مباشرة وأضاف بتهذيب مفاجئ وعلى شفتيه ابتسامة باردة

- ابنتك..

ازداد انعقاد حاجبا خطاب وكأنه فطن إلى شيء لم يعجبه،
بينما ردت جيهان بخوفٍ حقيقي هذه المرة

- ابنتي.. ماذا عنها؟..

نظر حوله وكأن في حركته الجواب الغير مبالي فتدخل
خطاب مجيبًا بخشونة محذرًا ابنه من أن يتمادى أكثر

- لم تصل بعد... شكرًا لسؤالك يا سيدي، هل هناك شيء
آخر!..

نظر سائد لعمق عينيه بابتسامةٍ ساخرة بينما التقط كأس
العصير الخاص بنوران وتجرعه متجاهلا اعتراضها فارتشف
منه على مهلٍ دون أن يحيد بعينه عن عيني والده، والذي
تابع بأسلوب زاد من توتر جيهان

- قدمت تهنئتك وقمت بالواجب.. يمكنك الانصراف الآن..

أمسكت جيهان بكف خطاب هاتفة همسًا بصدمة

- خطاب!.. ماذا تقول!!..

أجابها سائد ساخرًا نيابة عن والده المتجهم

- لا بأس يا زوجة أبي لا تفزعي.. عليك أن تعتادي المحبة
المفقودة بيننا طالما أصبحت فردًا من العائلة

تكلم خطاب قائلاً بصرامة

- بما أنك قلت كل ما لديك، يمكنك الآن أن..

إلا أن سائد قاطعه قائلاً بفضاظة وقد فقد ابتسامته

- لم أقل كل ما لدي بعد.. لقد اكتشفت أنني كنت بعيدًا
لفترة طويلة، لذا قررت تقديم نفسي للأسرة.. بما أنني لم
أخذ إجازة منذ وقت طويل، انتهزت الفرصة.. وسأمكن
معكم في البيت لفترة، لا يشغلني شيء عنكم..

ردد الكلمات الأخيرة مشددًا على كل حرف وهو ينظر في
عمق عيني والده اللتين تجهمتا بشدة، بينما هتفت نوران

ذاهلة غير قادرة على الصمت أكثر

- تمكث مع من؟! ألم تلاحظ أنهما عروسان!!..

أفلتت ضحكة ساخرة قصيرة وخافطة من بين شفتي سائد
وكانت الأكثر صدقاً من ضحكاته منذ وصوله مما جعل وجهه
جيهان يتورد وكأنها مراهقة بينما لم يرحمها فسأل أخته
ببراءة

- ألم ينته شهر العسل بعد!!...

اتسعت عينا نوران بغضبٍ ناري بينما زمت شفتيها وهي
تهمس من بينهما بنبرة حادة ذات مغزى

- أنا ووائل سنغادر بعد يوم واحد.. ذوقياً...

أجابها سائد بجفاء ملتفتاً إلى والده

- غادرا أنتما إن أردتما، أما أنا فباقٍ في بيتي..

فتح خطاب فمه ينوي طرد ابنه الذي ما جاء إلا ليثير المشاكل ويفسد زيجته، لكن شيء ما في قلبه أحجمه عن هذا، نظرة واحدة إلى سائد الجالس بأريحية.. يتشدد بأنه في بيته..

شعور غاب افتقده منذ زمن طويل.. لقد خرج ابنه من هذا البيت منذ فترة طويلة بدت كملاين الأعوام، خرج في أصعب الأيام التي مرت على هذا البيت..

خرج كارهاً والده ناقماً عليه.. يومها ظن خطاب أنه فقد ابنه للأبد كما فقد..

أطبق عينيه بشدة ولم تخرج من بين شفتيه كلمة الطرد.. عجز عن نطقها فظل صامتاً..

نظر سائد إلى جيهان نظرة باردة ساخرة تحمل طيف الانتصار، فلم تدرك مقصده.. لكنها شعرت بالخوف من عداوته، فأخر ما تحتاجه في هذه الأيام هو العداوة..

ارتفعت دقائق الساعة عتيقة الطراز تشق الصمت المطبق
بين جدران البيت معلنة عن الثالثة صباحًا بعد أن هدا
الجنون الذي ساد منذ ساعاتٍ وكأن كل من ساكنيه قد
وضع أسلحته مؤقتًا معلنًا الهدنة لحين الاستعداد لجولة
جديدة في يومٍ مقبل..

أغلقت أبواب الغرف بكآبة لا تدل على أن المكان عرف
زيجة حديثة أبدًا.. وبقي واحد فقط واقفًا بجوار نافذته
محددًا في الظلام أمامه بعينين قاتمتين غائرتين.. لقد
أقسم يومًا على ألا يدخل هذا البيت مجددًا، وها هو يحنث
بالقسم..

ها هو يبيت ليلته في غرفته القديمة والتي لم يشعل
الضوء فيها عن عمد.. بل تحرك في الظلام معتمدًا على
الأشعة الخافتة المتسللة من النوافذ كالكائنات الليلية التي
تبصر في الظلام..

أو ربما ك شخص لا يريد قضاء المتبقي من الليل مع المزيد
من أشباح الذكريات..

بدا وكأنه اكتفى من التحديق في الظلام السائد أمامه وأوشك على الابتعاد عن النافذة، لولا أن فتح بوابة البيت آثار انتباهه فتوقف محققًا في السيارة التي دخلت منها حتى وقفت أمام باب البيت..

خرج سائق والده من السيارة وتكفل بفتح حقيبتها الخلفية ليخرج منها حقيبة سفر، بينما فُتح باب المقعد الخلفي ليخرج منه قواماً خفيفاً مختبئاً في بنطالٍ من الجينز وسترة رياضية فضفاضة لها قلنسوة تغطي رأس من يرتديها..

كانت شابة بما لا يقبل الشك.. لكن..

كان هناك شيء غريب!!..

ضيق سائد عينيه مقرباً وجهه من النافذة أكثر، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه بشدة هامساً

- ما هذا؟!!!..

كانت ملامح الشخص الذي خرج من السيارة غير آدمية!!..

وكأنها دمية مصنوعة من الخشب!!.. بيضاء ممسوحة
الملامح!!.. إنه ليس وجهاً بشرياً بل شيئاً صلباً فاقد الحياة!..

لم يستطع تمييز ما يراه فقد كان الظلام حالاً في الخارج
لا يظهر سوى ظلال هذا الوجه الغريب فحسب!

كاد أن يفتح النافذة ليطل منها ويتأكد، إلا أن شيئاً أوقفه..
لقد فُتِح باب البيت وخرجت منه زوجة والده جيهان لتخطو
مسرعة فوق درجات السلالم القليلة أمام باب البيت ثم
ضمت صاحبة الوجه الغير بشري بين ذراعيها قبل أن تحيط
خصرها بذراعيها ثم تحثها على التقدم حتى دخلتا معاً ثم
أغلق باب البيت بعد إدخال حقيبتها..

ظل سائد واقفاً مكانه متجهماً بحيرة وأوشك على الخروج
من غرفته لمواجهة زائرة الليل الغامضة على درجات السلم،
لكنه توقف زافراً وقد قرر الانتظار للصباح..

لا شيء سيتبدد في ضوء النهار إلا إن كان وهماً!..

الفصل الثاني

كيف يمكن للجسد أن يخذل صاحبه حين يتخلى عنه القلب!.. هذا هو ما شعرت به والألم يكتنف جميع أوصالها دون سبب عضوي، بل مصدر الألم قابع في قلبها منذ سنوات طويلة.. سنوات مضيئة طويلة مؤلمة.. مؤلمة جداً.. جداً..

تحركت فوق أرض الغرفة الساكنة، لا يكاد يسمع صوت لخطواتها، وكأنها تخشى إن ارتفعت همسة في الغرفة قد تفزع ابنتها الجالسة على حافة الفراش توليها ظهرها..

انتهت جيهان من ترتيب الملابس في الدولاب وأغلقتة.. ثم ملست على أغطية الفراش بأصابعها وكأنها تتأكد من نعومتها خوفاً من أن يجرح نسيجها الحريري بشرة ابنتها!..

استقامت واقفة تتأمل ابنتها فاعرة فمها بعض الشيء، لا تصدق أنها هنا بالفعل!.. تخشى النوم فيتبين لها أن كل ما كان، كان مجرد حلمًا فتستيقظ لتصدم بضياع طفلتها!.. طفلتها الوحيدة.. طفلتها الجميلة، أجمل من الورود وأرق من

قطرات الندى فوق أوراقها..

وضعت جيهان أصابعها الهشة المرتجفة فوق صدرها
حيث موضع الألم النابض والذي يأبى أن يهدأ فيريحها.. ثم
ازدردت لعبها قبل أن تهمس بصوتٍ شديد الخفوت

- غرفتك جاهزة يا حبيبتي..لديك الحمام الخاص بك وهو
مجهز بكل ما تحتاجين، وها أنا قد رتبت لكِ ملابسك في
الدولاب

ساد الصمت لفترة فظنت أنها لن ترد.. لكن الصوت الجميل
مس أذنيها أخيراً فرحة ليلة العيد رغم الفتور في نبرتها حين
همست

- شكراً..

ابتسمت جيهان ابتسامة عريضة كبيرة رغم الدموع التي
بدأت تلسع حدقتيها، لكنها تغلبت عليها قائلة بمحبة

- تعالي لأبدل لكِ ملابسك يا حبيبتي..

ردت ابنتها بسرعة مجفلة وكأنها تصلبت من محاولة
اقتحام خصوصيتها

- لا....

تسمرت أمها مكانها، وقد شحب وجهها إلا أنها لم تلبث أن
اغتصبت ابتسامة مرتجفة وهي ترد بخفوت

- لا بأس يا حبيبتي، ها هو الحمام الملحق بغرفتك هناك..
يمكنك تبديل ملابسك بخصوصية وسأنتظرك هنا..

مال وجه ابنتها قليلاً وكأنها ستستدير لأُمها، إلا أنها ظلت
مشيخة من فوق كتفها، ثم سألت ببطء وتردد

- ألن.. تذهبي.. إلى غرفتك؟..

ارتفع حاجبا جيهان بعض الشيء ثم انحنيا بألم لكنها
همست بحنان

- أيعقل ألا أنام بجوارك!!،... آخذك بين أحضاني وأضمك

إلى صدري في أول ليلة لك هنا في بيت غريب!!..

أعادت ابنتها وجهها إلى حيث كان بسرعة ورفض.. ومرت
بضعة لحظات من الصمت حتى تمكنت من القول بصوت
خفيض مقتضب ومتقطع

- إنها الليلة الأولى لك أيضًا.. وأتوقع أن.. زوجك ينتظرك
الآن.. يمكنك الذهاب حقًا..

هتفت جيهان بحرارة تدور حول السرير كي تواجه ابنتها

- أنتِ عندي أهم من أي شخص في الدنيا، في هذه اللحظة
تحديدًا، كما أن خطاب مقدر تمامًا حاجتي للنوم وابنتي بين
أحضانتي.. حين تتعرفين عليه جيدًا سوف..

كانت قد اقتربت من ابنتها وكادت أن تقف أمامها، إلا أنها
قفزت في اللحظة الأخيرة بلمح البصر توليها ظهرها تواجه
الجدار وهي تهتف بقوة

- لا....

صدمت أمها بانتفاضة ابنتها وابتعادها مما جعلها تغطي
فمها بأصابع كفيها النحيلتين وقد غامت عيناها بالدموع
التي لم تستطع كبحها أكثر.. وساد صمت طويل بينهما، حتى
همست جيهان بصوتٍ مبحوح مختنق وهي تبتعد متجهة
لباب الغرفة والدموع تغرق وجهها الجميل دون صوت.. لكن
صوت ابنتها الخافت المتردد جعلها تقف مكانها وهي تقول
ببطء

- أنا شاكرة لك على كل ما تقدميه لي.. و.. أنا.. أعتذر..

اتسعت عينا جيهان بعض الشيء وهي ترغب في الصراخ
عاليًا بجنون

لا تعتذري.. إياك والاعتذار.. لا أرغب في سماعه..

لكنها عجزت عن النطق، وكان الألم في قلبها أقوى من
قدرتها على الصراخ أو حتى الاعتراض، لذا همست بنحيب
مؤلم

- تصبحين على خير يا صغيرتي..

أطرقت ابنتها برأسها ببطء دون أن تستدير، واقفة في زاوية الغرفة كطفلة معاقبة.. بينما ظلت أمها تتأملها طويلاً وهي تبكي صامتة حتى خرجت وأغلقت الباب.. حينها فقط تمكنت من الاستدارة بعينين مكسورتين تائهتين.. تحقق في الباب المغلق..

فرضت عليها اللياقة وحسن التصرف واللذان تجيدهما أكثر من أي شيء آخر ألا تدخل غرفة نوم خطاب وهي على هذا الحال لذا شعرت بنفسها ترتاح بكتفها على جدار الرواق، مطبقة عينيها، تضم قبضتها المضمومة فوق فمها كي تكتم كل شهقة بكاءٍ يرتج لها جسدها النحيل..

كان القدر حليفها فلم ينتبه لها أحد في سكون الليل التام وما أن شعرت بشهقات البكاء تسكن حتى استقامت وأخذت تمسح وجهها بكفيها قبل أن تتحرك بخطواتٍ أنيقة ثم دخلت مبتسمة وهي تهمس بخفوت ما أن رفع وجهه إليها

- مرحبًا...

ثم أغلقت الباب وسارعت تتجه للحمام الملحق بالغرفة،
بينما استقام في جلسته فوق السرير وهو يخاطبها

- أهى بخير؟..

ردت جيهان بسرعة ومودة - إنها بأفضل حال..

ثم أسرع أكثر حتى دخلت الحمام وأغلقت الباب خلفها
بهدوءٍ شديد..

انتظرها خطاب طويلًا، مستلقيًا في سريره وذراعيه
مكتفتين أسفل رأسه حتى خيل له أنها قد تأخرت كثيرًا،
فانتابه القلق من أن يكون مكروهاً قد أصابها.. لذا استقام
جالسًا على الفور ينوي الاطمئنان عليها، لكن قبل أن ينهض
سمع صوت الباب يفتح ثم رآها تخرج، مرتدية قميص
نومها الحريري الطويل وعليه المبدال المناسب من الحريري
والدانتيل المزين لكافة أطرافه...

زي قديم الطراز لكنه لا يفقد سحره وأناقته أبدًا، بل تفتقد
الأزياء العصرية لرونقه الملكي..

كانت خلافة في ابتسامتها التي لم تزر عينيها..واقتربت
حتى وصلت للفراش، إلا أنها وقفت بجواره للحظة وكأنها
ترددت فغابت ابتسامتها، لكنها في النهاية أزاحت الغطاء
واندست بجواره مما جعله يمد ذراعيه ليضمها إلى صدره
بحنان

كانت في حاجة لهذا العناق الدافئ.. في حاجة لكتف تريح
عليه وجنتها وتغمض عينيها، لكن ما أن شعرت بشفتيه
تداعبان عنقها وأصابعه تزيحان المبذل الحريري حتى تصلب
جسدها فاستقامت في جلستها متحاشية النظر إليه مما
جعله يناديها بتساؤل

- جيهان!...

ابتسمت ابتسامة اعتذارٍ وخرج.. فلم تجد سوى الهمس
بخفوت

- لا أعرف يا خطاب.. أنا.. الأولاد جميعهم هنا كما أن ابنتي..

صمت لا تدري أي كلامٍ تقول، لكنه ضحك ضحكة خافتة وسألها ممازحًا محاولاً أن يخفف من توترها

- أما قلتِ لنوران أننا لم نعد شابين في حاجة للبيت بمفردنا!.. إن عرفت وقتها أن هذا هو قصدك لطردتهم جميعًا دون تأخير..

أفلتت ضحكة صغيرة من بين شفتيها وهي ترفع أصابعها إلى جبهتها الحارة، لكنها لم تتكلم.. فتابع خطاب قائلاً

- ابنتك ستكون بخير يا جيهان فلا تقلقي عليها.. ستندمج مع أبنائي وسرعان ما تنسى كل ما ألمها..

غامت عينا جيهان وهي تشيح بوجهها ناظرة من النافذة البعيدة بينما أضاف زوجها

- رأيتِ بنفسك سعادة نوران بزواجنا ولهفتها لمقابلة ابنتك..

ردت جيهان بلطفٍ جم - نوران جميلة للغاية، شكلاً وروحاً..

بدا خطاب متردداً بعض الشيء وهو يرمقها بطرفٍ عينيه
ثم قال ببطء

- وائل أيضاً شديد الطيبة واللفف.. إنه انطوائي بعض
الشيء لكنه شاب طيب ومهذب للغاية..

ابتسمت جيهان شاردة الذهن، لكنها انتبهت حين قال
مكماً

- إنه من عمر ابنتك.. يحب العزلة مثلها، حين قابلتها للمرة
الأولى لاحظت أوجه تشابه كثيرة بينهما.. فهي صامتة هادئة
مطبعة.. كما أنهما من عمرٍ واحد.. من يدري.. ربما كانت
السبب في خروجه من عزلته.. أظنها ستكون نعم العون له
كما سيكون لها..

نظرت إليه جيهان صامتة تماماً، لا تدرك أن عينها قد
اتسعت قليلاً دون أن تعي السبب.. أو ربما أحس قلبها بالسبب
في إجفائها بينما رفض العقل التصديق.. لذا قررت التغافل

خاصة حين ضمها إلى صدره وهو يقول بنبرة حانية

- فلنرتاح الآن ولنترك المستقبل لموعده...

لم تنم.. لم تستطع النوم، بل ما فعلته هو أنها سحبت الكرسي الموجود في الغرفة ووضعت أمام النافذة ثم جلست عليه مفرودة الظهر وكفيها على ركبتيها في انتظار شروق الشمس..

صمت تام في دقائق طويلة وهي تراقب الظلام الحالك.. حتى بدأ الشعاع الشاحب يتسلل ليبدده شيئاً فشيئاً..

تراقب النور الآن وهو يفرض سيطرته مطالباً بمكانه.. ثم بدأت أصوات العصافير في النداء وكأنها تعلن الثورة لتتحرر محلقة في السماء الواسعة..

إنه النهار أخيراً.. نهضت من مكانها ببطء لتقترب من النافذة أكثر تطل منها واطعة يديها على الزجاج..

ثم تحرك الكفان لتفتحانها بحذر في البداية، ثم دفعتها
للنهاية ووقفت أمام النسيم البارد الذي أخذ يحرك شعرها
ويقبل أهدابها فأغمضت عينيها تستنشق ذلك العطر المميز
المرتبط بالذكرى والحنين..

إنه الخريف..

يحب الناس الصيف أو الربيع، بينما تعشق هي الخريف..

كانت الحديقة بأوراقها الذهبية تناديها.. تكاد تسمع ألحان
وهمسات تنادي اسمها بحفيف أوراق الأشجار، خاصة تلك
المتساقطة على البساط الأخضر يحركها النسيم..

استدارت تنوي البحث عن أمها، فابتعدت عن النافذة
واتجهت للحقيبة المفتوحة تقلبها بحثًا عن الهاتف كي
تخبرها عن رغبتها في الخروج من الغرفة.. ثم توقفت وهي
ترفع وجهها لتنظر لباب الغرفة المغلق ومقبضه..

ظلت على هذا الحال واقفة طويلاً تتأمل الباب المغلق
حتى تحركت قدمها تسيرها وكأنها مسلوكة الإرادة أو

منومة مغناطيسيًا..

عينها لا تتحركان عن مقبض الباب وهي تقترب منه ببطء
لتصل إليه ثم وقفت أمامه.. وظلت على وقفاتها لفترة حتى
امتدت أصابعها وفتحته أخيراً.. صنعت الأبواب لثفتح، لا
لتسجنها..

كان قد انتهى من تحضير قهوته السريعة في المطبخ
متجههم الملامح شارد العينين شاعراً بالحجر الثقيل يجثم
على صدره.. فإن كان قد اتخذ من الظلام غطاءً يحميه من
أشباح الذكريات ليلة أمس، فها هو النهار قد حل في لمح
البصر ليضيء له المكان الحزين بزواياه الصامتة.. في كل
ركن منه له ذكرى.. تأبى أن ترحمه، غاب أصحابها وبقيت هي
توقد النار الباردة في روحه..

كان قد فر بنفسه وما تبقى منها كي لا تفتك به الذكريات..
وأقسم ألا يعود، وعاد..

عاد ليفشل كل خطة دُبرّت في هذا البيت..

صوت خارج المطبخ قطع أفكاره وشد انتباهه فاستدار ممسكاً بكوبه عاقداً حاجبيه متسائلاً عن هوية الشخص الذي شاركه سهر الليل كاملاً فخرج من غرفته في مثل تلك الساعة المبكرة بعد يومٍ مشحون كيوم أمس!..

وضع الكوب على الطاولة ثم خرج من المطبخ، ماشياً على الأرض الرخامية الباردة بقدمين حافيتين كعادته منذ سنوات..

و كان قد وصل إلى منتصف البهو ثم توقف رافعاً حاجبيه بتقديرٍ واضح..

فعلى مقربة منه كانت تقف شابة توليه ظهرها، لم يكن في حاجة ليرى وجهها كي يشعر بمثل تلك الدغدغة الغريبة التي حركت أهواءه..

كانت شابة طويلة، ممشوقة القوام على نحوٍ ملفت غريب..لها شعر طويل انسدل على كتفيها وظهرها تلامس

أطرافه هذا الخصر النحيل فوق ساقين طويلتين.. جدًا..

ذلك الشعور الذي تفاعل بداخله لم يكن مريحًا أو مقبولًا على الإطلاق.. وكي يخادعه ابتسم بسخرية متظاهراً بالتسلية فدس أصابعه المتوترة داخل جيبي بنطاله يراقبها وهي تحرك رأسها، تميل بجذعها للأمام قليلا وكأنها تبحث عن شخص ما..

أو ربما تتأكد من خلو المكان في مثل هذا الوقت!..

لم يبد على عجلة من أمره في إيقاف مآربها، فما يراه لا يضايقه مطلقًا..

توقفت عن الحركة أخيراً ووقفت ساكنة تتلاعب بأصابعها محدقة في باب البيت وكأنها تناقش نفسها في الخروج منه وقد ترك لها الفرصة لتفعل..

إلا أن اللحظات أخذت تمر وهي واقفة مكانها بنفس الشكل، فلم يستطع كبت فضوله الغاضب أكثر..

لذا تكلم سائلاً بنبرته المتهكمة

- هل تبحثين عن شيء ما؟....

وكأن السؤال ما كان إلا رصاصة أصابت عمودها الفقري
فانتفض ظهرها وهي تشهق بصوت عالٍ مستديرة على
عقبها تواجهه..

في تلك اللحظة تجمد كلاهما.. فالشابة الواقفة أمامه
لم يكن لها وجه بشري، بل وجه أبيض صلب، ممسوح
الملامح!!..

قناع!!.. كانت تضع على وجهها قناعاً أبيضاً من ذاك الذي
يرتديه الناس في الحفلات التنكرية!!..

قناع لا تعبير له، مجرد وجه بارد ينظر بتبلد.. لا يظهر من
وجهها الحقيقي سوى عينيها بشكلٍ غير واضح من ثقبين
ضيقين فيه!..

ما هذا!!.. أهي فقرة تنكرية لغرض ما في نفسها!..

كانت تتراجع أمامه كفأرة مذعورة حتى ارتطم خصرها
بنهاية سور السلم فوقفت متشبثة به بأصابعها خلف ظهرها،
تحقق في مقتحم خلوتها الصباحية بتشنج..

تجولت عيناه عليها، فلاحظ حركة في حلقها وكأنها تزدرد
لعابها.. ثم انخفضت نظراته ليرى ارتفاع وانخفاض صدرها
بسرعة.. حينها عادت عيناه إلى القناع الذي ترتديه وبعجبٍ
شديد.. شعر وكأن ملامح الرعب قد ارتسمت على ملامح
ذلك القناع الغير حي!!..

ربما كان السبب اتساع عينيها الظاهرتين من ثقب القناع،
والذي أعطاه الانطباع بظهور الرعب على ملامح القناع فاقد
الحياة!

ضاقت عينا سائد بعض الشيء، لكنه قرر خوض اللعبة
للنهاية فسألها مبتسماً

- أنتِ ابنة جيهان.. السيدة التي تزوجت والدي..

لا حاجة به لتعريفها بهوية جيهان، فهي أمها.. لكن العبارة

الساخرة أعطتها فكرة عمن يكون، على الأقل هو واحد من سكان هذا البيت والذي أصرت على دخوله خلصة في ساعات الصباح الأولى كي لا يراها أي منهم..

لكن ها هو حظها يبين لها كم هي غبية!!..

لم ترد عليه قولاً بل اكتفت بالإيماء بوجهها ببطء.. فرفع ذقنه متفهماً والابتسامة الغير مريحة مرتسمة على زاويتي شفتيه بشكلٍ جعلها تزدرد لعابها مجدداً.. ثم سألها فجأة بنبرة أمرة وقد اختفت الابتسامة عن وجهه

- ما اسمك؟...

لم ير شفتيها تتحركان بسبب القناع الذي يغطي وجهها لكن أذناه التقطتا صوت همسة أشبه بزقزقة عصفورٍ غير مفهومة.. فقال بخشونة

- ارفعي صوتك..

ارتفع كتفاها وردت تلقائياً وكأنها تتلقى أمراً عسكرياً

- زاد..

رغم أنه سمعها هذه المرة، إلا أن صوتها لم يكن مرتفعًا بل كان خافتًا وكأنها لا تستطيع الصراخ.. لكنه لم يرأف باضطرابها بل سأل مجددًا بنبرة صارمة جادة تمامًا

- اسمك بالكامل..

هتفت همسًا وسرعة تنفسها تتزايد بدرجةٍ بدت مؤلمة

- زاد علم الدين برهان..

ثم توقفت تلهث بصوتٍ تمكن من سماعه بوضوح أكبر من وضوح سماع أجوبتها الخافتة..

كان يستجوبها بصرامة وخشونة، وكأنه لا يرى غرابة في القناع الذي تضعه، وهذا ما أراحها نوعًا ما على الرغم من أعصابها التي بدت على وشك الانهيار..

ساد الصمت للحظات وهو يحاصرها بعينيه القاسيتين ثم

سألها أخيرًا بنبرة أهدأ وإن كانت خشنة لا ترحيب فيها

- ماذا تفعلين هنا في مثل هذه الساعة يا.. زاد..

مجددًا ازدردت لعابها، لكنها تمكنت من الجواب بصوت خافت

- كنت أبحث عن أمي.. أعتذر على خروجي من غرفتي..

تراجع رأسه قليلاً وهو يحاول كشف خبايا تلك الشخصية العجيبة.. فهي تتكلم كطفلة ضاعت من أمها، رغم النضج الرائع في صوتها، دون الحاجة للإشارة إلى قوامها.. لكن طريقته في الاعتذار!..

أوشك على الضغط عليها مجددًا، لكن صوت هتافٍ لاهت قاطعه من أعلى السلم بكلمات متقطعة أقرب للغضب

- ماذا تريد منها يا سائد؟!....

لم يكن في حاجة لرفع رأسه كي يدرك أنها زوجة والده..

خطواتها المتسارعة وهي تهبط درجات السلم بتعثر كانت دليلاً على توترها وخوفها من أن يقدم على شيء متهور ضد ابنتها..

وصلت إلى زاد لتمسك بساعدها، فتشبثت أصابع ابنتها بكفيها بقوة وكأنها ممتنة للنجدة التي أتت لتنقذها..

ملاح جيهان في تلك اللحظة، كانت مختلفة تماماً عن ملاح السيدة الأنيقة الراقية التي قابلها على مائدة الطعام ليلة أمس والتي كانت تتعامل معه برسمية وتحفظ دون أن تفقد تهذيبها..

أما التي تقف أمامه في تلك اللحظة فقد كانت امرأة ترمقه في عمق عينيه بنظرة شرسة، تنبأه باستعدادها على نهش لحمه بأسنانها إن تعرض لابنتها بسوء!

ابتسم سائد قائلاً بنبرته التي توحى بالاستهزاء منذ اللحظة الأولى التي قابلته فيها

- لا تخافي إلى هذا الحد يا زوجة أبي.. كنت أتبع أصول

التعارف مع زاد.. كي تشعر بأنها مرحب بها في البيت..

لم تهدأ النظرة الحارة القلقة في عينيها الغاضبتين، ولم تعتمد على جوابه الساخر.. بل تجاهلته والتفت لابنتها تسألها بقلق

- هل أنت بخير؟..

تأملها مليًا وهي تومئ بوجهها المغطى بالقناع دون كلام، لا تزال متشبثة بكفي أمها.. فربت جيهان على أصابعها تحاول تهدئتها..

بينما تبرع سائد قائلاً بنبرة مرحة

- هل رأيت يا زوجة أبي؟.. إنها كاملة لا ينقصها شيء..

كانت ملامح جيهان شديدة التوتر فاقدة التسامح معه، إلا أنها بذلت مجهودًا جبارًا وفي وقتٍ قياسي كي تتمكن من استعادة ملامحها الأنيقة فقالت مصححة بنبرة رزينة

- اسمي جيهان يا سائد.. وهذه ابنتي زاد وصلت في وقت متأخر من ليلة أمس..

التوت شفتاه في ابتسامة قاسية وهو يرد مدققاً النظر في العينين القلقتين اللتين تراقبانه من خلف القناع

- سبق وتعارفنا.. أهلاً بك يا زاد...

لم ترد عليه، بل أطرقت بوجهها في حين سمع ثلاثتهم صوت نوران تقول بتذمر وهي تنزل السلم

- ما هذه الضوضاء؟!.. لما الجميع مستيقظ في مثل هذه الساعة!..

كانت في منتصف السلم مرهقة العينين غير واعية تماماً، حتى أبصرت وجه زاد المغطى بالقناع فتوقفت مكانها وكادت أن تقع وهي تشهق بخوفٍ واضعة يدها على صدرها قائلة قبل أن تستطيع منع نفسها

- بسم الله الرحمن الرحيم.. ما هذا!..

كانت هذه هي القشة الأخيرة التي أفقدت زاد بوادر تماسكها الهش، فتلوت من بين ذراعي أمها بقوة لتتحرر منها ثم انطلقت تصعد السلم جريًا كي تعود إلى غرفتها وتختبئ فيها.. وخلال مرورها بنوران والتي زاد خوفها، تراجعت للخلف خطوتين وقد بان عليها الفرع التام من زاد.. وكان هذا أكثر من قدرتها على التحمل فزادت سرعتها وهي تجري على درجات السلم وكأن الشياطين تلاحقها..

ساد صمت ثقيل مخيف، فهمست نوران بتلعثم مرتبكة تخاطب جيهان التي أخفضت وجهها بأسى

- أنا آسفة.. لم أقصد..

لم ترد جيهان لكن سائد تطوع قائلاً بسخرية

- العجيب أن جميعنا لم نتمكن من النوم في هذه الليلة المشحونة، إلا خطاب.. فهو على ما يبدو لا يزال غائباً في سابع نومة لا يدري عن عالمنا شيئاً وكأنه لا يحمل للدنيا أي هم.. هذا ما عليك البدء بإدراكه يا جيهان.. خطاب علواني يجيد الابتعاد عن مشاكل أفراد العائلة، وحين يقرر التدخل،

لا ينجح سوى في إفساد حياتهم.. أو تدميرها

رفعت جيهان عينيها إلى عيني سائد وما أن فعلت حتى
تجمد للحظة وهو يرى نظرة الانكسار في عينيها جراء ما
تعرضت له زاد للتو، مغلقاً بغلالةٍ من الدموع!..

تحرك شيء ما في حلقه، بينما التوت شفتاه.. لكنها لم تطل
النظر لعينييه، بل استدارت تنوي الصعود ثم همست بصوتٍ
خفيض

- أعتذر عما سببناه من إزعاج لكما.. بعد اذنكما..

راقبها في صعودها حتى اختفت عن أنظاره، ثم نقل عينييه
إلى نوران التي بادلتها النظر بغضبٍ قائلة، بنبرة اتهام

- شكراً جداً يا سائد.. شكراً على الجو المضطرب الذي
يحيط بك أينما ذهبت..

مالت ابتسامته وهو يرد بسخرية رافعاً حاجبه

- تعلمي أنتِ أولاً على ألا تجفلي رعباً لدى رؤية البشر مهما بلغت غرابة أطوارهم..

نفخت بنفاذ صبرٍ وهي ترميه بنظرةٍ قاتلة ثم استدارت لتصعد، فلم يتبقّ سواه واقفاً يحدق في السلم الذي جرت عليه صاحبة القناع..

و كانت ملامحه قد فقدت كل أثرٍ للسخرية وشعر بأنه أبعد ما يكون عن التسلية وأقرب ما يكون للضيق..

طرقت جيهان الباب مرتين ثم دخلت غرفة ابنتها وهي تناديهما برفق وحذر

- زاد، حبيبتي...

وكأن زاد كانت مستعدة فقد اتخذت موقف الدفاع على الفور وقفزت واقفة تقول بسرعة وبنبهة حادة

- أعتذر لأنني خرجت من غرفتي دون إذن.. لن يتكرر هذا..

تسمرت جيهان مكانها للحظات محدقة في ابنتها بصدمة،
ثم لم تلبث أن أغلقت الباب خلفها بإحكام ثم واجهتها قائلة
بحزم أزيد من هدوء صوتها المعتاد

- لا أريد سماع أي اعتذار بعد الآن.. هذا البيت هو بيتك من
الآن فصاعداً، أنتِ لستِ ضيفة هنا.. وإن لم يتحملك أصحابه
فسنغادر أنا وأنتِ سوياً..

صمتت قليلاً تلتقط أنفاسها بينما وقفت زاد أمامها مطرقة
الوجه.. ثم لاح على شفتي جيهان فجأة طيف ابتسامة
وقالت ببطء

- في الواقع خروجك من غرفتك وتفقدك البيت هو أكثر
خطوة شجاعة قمتِ بها.. أنا أريد منك الخروج بمفردك دون
انتظار إذن مني.. اخرجي للحديقة.. تعرفي إلى نوران..
ادخلي المطبخ.. هناك أيضاً أرجوحة في الحديقة، هل
تذكرين حبك للأرجوحة في بيتنا القديم؟.. امسكي رواية
واجلسي على الأرجوحة واسمحي للنسيم بملامسة وجهك..

ظنت زاد أن أمها تتكلم رمزياً فحسب.. إلا أن جيهان اقتربت منها بحذر حتى أمسكت بكفيها وتابعت بخفوت شديد كي تعطي عقلها الفرصة ليدرس الكلمات بتأنٍ

- ربما من الأفضل لك خلع هذا القناع يا زاد..

انتفضت زاد متحررة من بين كفيها وهي تتراجع للخلف قائلة بقوة - لا..

لكن جيهان لم تستسلم، بل قالت بإصرار

- بلى يا زاد، شكل وجهك ليس أكثر غرابة من هذا القناع الذي تضعينه.. صدقيني يا حبيبتي إنه ليس بالسوء الذي تتخيلينه، تلك الفظاعة التي تتخيلونها ما هي إلا وهم في ذهنك فقط.. ثم أنك ستجربين كافة الجراحات المطلوبة، لم يعد هناك شيء صعب في مجال التجميل و..

صرخت زاد بنبرة أقوى رغم ارتعاعها

- لا.. لن أجري أي جراحات، سيبقى وجهي كما هو حتى

آخر يومٍ في حياتي..

هتفت جيهان بلوعة - لماذا؟!.. لماذا يا ابنتي؟!.. لا أفهم
سر إصرارك..

ردت زاد بجنون - لأني أستحق هذا الوجه.. أنا أستحقه..

أطبقت جيهان عينيها قبل أن تدفن وجهها بين كفيها
لتنفجر باكية هاتفة باختناق - ساعدني يا الله..

وقفت زاد تراقب انهيار أمها بصمت تام وكأنها تمثال عرض
لا روح فيه، بذلك القناع الغريب.. ولم تجد سوى الهمس
بفتور

- سامحيني.. كنتِ كريمة معي للغاية، بينما أنا لا أستحق
منكِ هذا الفضل ومع ذلك تسببت لك في كل هذا الألم..

اندفعت جيهان تجري خارجة من الغرفة تغلق الباب خلفها
غير قادرة على المواجهة أكثر، بينما اتجهت زاد إلى كرسيها
أمام النافذة وجلست عليه واطعة كفيها على ركبتيها تتأمل

أوراق الخريف المتناثرة.. بصمت تام..

كانت جلسة الغذاء أسوأ مما تخيلت.. لقد توقعت فتور الترحيب ولم تكن لتلومهم عليه، إن كانت هي نفسها لا حيلة لها في الفتور الذي تسلل إلى قلبها تجاه أهلها على مدى سنواتٍ طويلة.. إنها نتيجة ربما كانت محبطة ومؤسفة بعض الشيء، لكنها لم خطأ أحد..

لكن ما لم تتوقعه أن يسود هذا القدر من التوتر!.. ولما التوتر من الأساس؟!..

التوتر يعني أن هناك معضلة لا حلول لها.. لكن إي معضلة وهي التي ستغادر بعد أسبوع وتغيب عنهم كما غابت لفتراتٍ طويلة!!..

على الأرجح مشكلة ما تخص واحدة من شقيقاتها، وإلا ما كان الجميع طلب التجمع في بيت الخالة فكرية..

إنها تعتبر المسئولة عنهن معنويًا خاصة بعد وفاة أمهن منذ عامين..

لا طاقة لها فعلاً على مناقشة مشكلة من مشاكل شقيقاتها، فعادة ما تلتزم الصمت في المرات النادرة التي اضطرت فيها لحضور مناسبة تخص إحداهن

وإحساسها لم يكن سببه كرهاً أو رفضاً.. بل ببساطة كانت تشعر بنفسها بعيدة، لا تفهم شيئاً من مشاكلهن.. لا تقدر على الإلمام بتفاصيل حياتهن..

حسناً يبدو أن هذا ليس يوم حظها، فلتتحمل الجلسة ولتحاول جاهدة إبداء رأيها حتى وإن خرج سطحيًا يثير السخرية..

يكفي أن الجميع اهتم بحضورها باعتبارها شقيقتهم الكبرى.. عليها أن تكون ممتنة لتلك اللفتة الطيبة..

كان وجهها منكبًا على طبقها، رغم أنها لا تكاد تمس الطعام فكلما رفعت عينيها تلحظ النظرات المتداولة بين الجميع

حول طاولة الطعام مما يجعلها تبادلهن النظر بتوجس وريبة..

و لقطع ذلك الصمت الثقيل، تكلمت الخالة فكرية تقول بنبرتها المضيافة العالية وعلى فمها ابتسامة كبيرة رغم الحذر البادي في عينيها

- لما لا تأكلين يا دنيا؟!.. هل تتصرفين كضييفة في بيت خالتك؟!.. أم أن طعامي لم يعد يعجبك!!

رفعت دنيا وجهها وابتسمت قائلة بصوتها الواثق

- أي مما قلت ليس صحيحًا يا خالتي.. أنا فقط أخشى أن يزيد وزني فلا يتحمل الحبل أردافي..

وكانت هذه كذبة، فهي تتمتع ببنيانٍ قوي العضلات، تأكل ما تريد ثم تحرقه بالتمرين المتواصل.. لكن ما يمنعها عن الأكل الآن هو التوتر الثقيل السائد..

ضحكت بعد جوابها التافه بصوتٍ عالٍ ناظرة حولها

متوقعة أن يشاركها الجميع الضحك من باب المجاملة على الأقل، إلا أن النظرات حدقت فيها بتعابير مختلفة، ما بين التوتر والجفاء.. والارتباك!..

يبدو أن هناك أمرًا خطيرًا بالفعل، والآن بدأت تشعر بالقلق من أن تكون واحدة من شقيقاتها تعاني مشكلة خطيرة..

لذا التزمت الصمت منتظرة انتهاء هذه الوجبة بفارغ الصبر..

وبعد الغذاء والذي بدا وكأنه استغرق شهرًا.. كانت دنيا جالسة أرضًا على البساط في غرفة الجلوس تضم ابن أختها هدى البالغ من العمر الآن ثمانية أشهر والذي لم تره منذ ولادته تقريبًا.. يا إلهي ما أذه!!.. إنه جميل بدرجة تسلب العقل والقلب!!...

كانت ترميه في الهواء ثم تعود وتلتقطه وكأنه كرة منتفخة وكلما فعلت ضحك فتضحك معه بسعادة، بينما يحاوطها الكثير من الأطفال.. بعضهم من أحفاد الخالة فكرية واثنان من أبناء هدى..

دخلت الخالة فكرية ومن خلفها هدى وبسمة تقفان لدى الباب، فبادرت خالتهن قائلة بلطف

- تعالي لنشرب الشاي في غرفة الضيوف يا دنيا..

بهتت ابتسامتها بعض الشيء ثم سألت ببطء وهي تنقل عينيها بين ثلاثتهن

- غرفة الضيوف!!.. لما لا نشربه هنا؟!..

تنحنحت خالتهن، ثم قالت بوداعة واضعة كفاً على الآخر

- غرفة الضيوف أهدأ بعيداً عن صخب الأطفال..
فشقيقاتك يردن الكلام معك في موضوع..

ها قد حانت اللحظة الحاسمة، تتمنى من الله ألا تكون مشكلة خطيرة تمر بها واحدة منهن، ثم تتمنى أن تنتهي الجلسة بأسرع شكلٍ ممكن..

لذا أجلس ابن هدى على الأرض بجوارها بحرص شديد،

ثم قفزت واقفة لكن قبل أن تتحرك نظرت إلى حفيد الخالة فكرية والذي كانت تشاغبه منذ قليل وقالت بنبرة سرية متواطئة وعيناها تتسعان كدائرتين

- عبد الله، انظر إلى هذا.. سأذهب إلى غرفة الضيوف دون أن أمس الأرض بقدمي..

ولتقرن قولها بالفعل انقلبت لتقف على كفيها، رافعة ساقيها لأعلى ثم بدأت تمشي متجاوزة بسمة التي تأوحت بغضب واضح لتندفع سابقة إلى غرفة الضيوف.. بينما هتفت طفلة أخرى ضاحكة

- مجددًا.. مجددًا...

حين وصلت دنيا إلى غرفة الضيوف، أنزلت ساقًا ثم الأخرى واستقامت واقفة بوجنتين حمراوين بفعل الطاقة والحركة ملتفتة إلى مجموعة النساء اللاتي وقفن يطالعهن بصمت تام

الخالة فكرية، أختها هدى، أختها بسمة، وأختها الصغرى

بثينة.. وإن كانت قد انتظرت من واحدة منهن تصفيقًا أو ضحكة فقد خاب أملها.. كن ينظرن إليها بملامح فاترة ونظراتٍ تقول الكثير لكنها لا تفعل هذا لأجلهن، بل هي تلعب مع الأطفال..

إنها تعشق الأطفال وتهوى ضحكاتهم..

وقفت مكانها تراقب الخالة فكرية وهي تغلق باب غرفة الضيوف بهدوء، بعد دخول شقيقاتها وجلوسهن كل واحدة على كرسي فسألت دنيا بنبرة متوجسة وهي تنقل عينيها بينهن

- ألن نشرب الشاي؟!..

استدارت الخالة فكرية لتواجهها ثم قالت بصوتٍ لطيف أقرب للترييت على خاصرة فرسٍ جامح كي لا ينفر ويفر سريعًا بكل عنفوانه..

- اجلسي يا دنيا.. هناك أمر مهم تريد شقيقاتك الكلام معكِ بخصوصه..

انخفضت دنيا ببطء تجلس على الأريكة المذهبة القديمة
في منتصف الغرفة، وانتابها شعور غريب وكأنها في محكمة..

حيث أن شقيقاتها جلسن أمامها يحدقن فيها بنظراتٍ
متفحصة مريبة..

تكلمت دنيا قائلة بحذر

- ما الموضوع؟.. هل الأمر خطير إلى هذا الحد؟!.. هل
جميعكن بخير؟..

ساد الصمت وكل واحدة فيهن تنظر للأخرى وكأنها تنتظر
منها أن تبدأ هي، فتتخاذل.. لذا كانت بسملة من امتلكت
الجرأة على الكلام فقالت بنبرة ثابتة صريحة

- حسنًا.. أنا من ستتكلم، طالما أن الجميع خائف..

راقبتهم دنيا بعينين حذرتين ملتزمة الصمت ثم استقرت
عينها على بسملة بترقب، فقالت شقيقتها بأكثر قدرٍ من
الهدوء استطاعته

- دنيا.. الأمر هو وباختصار.. أنتِ لم تعودِي في حاجة للعمل في السيرك بعد الآن، آن لك أن ترتاحي.. لقد تعبتي لسنواتٍ طويلة، قضيتِها رحالة بين المدن والبلدان ولم تنعمي باستقرارٍ أو راحة..

ساد الصمت مجددًا لكنه بدا أكثر قتامة ما أن انتهت بسمه من سرد كلماتها المنمقة، والتي سقطت على دنيا وكأنها قدرٌ من الزيت الساخن فظلت جالسة مكانها وأصابها متشابكة في حجرها لا تحيد بعينيها الصامتين عن عيني بسمه القويتين، ثم قالت بعد فترة بصوتٍ هادئٍ لا حياة فيه.. تمامًا كابتسامتها الواهية

- أنا لست متعبة.. أنا راضية عن حياتي تمام الرضا..

تحرك فك بسمه بانقباضٍ وهي تشدد قبضتها على ذراعي الكرسي قليلًا ثم حاولت مرة أخرى بنبرة أكثر تشديدًا

- ما أقوله يا دنيا، أننا وصلنا لبر الأمان بتخرجنا من الجامعات.. جميعنا..

لاحت ابتسامة أكثر شفافية على شفتيها وهي تومئ
برأسها قائلة بصوتٍ خفيض

- نعم وأنا فخورة بكن جدًا.. سعيدة من قلبي وأنا أرى
كل منكن وقد وضعت قدمها على أول طريق استقرارها
ونجاحها..

رفعت بسمه وجهها وردت بحزم

- إذن... ما الداعي لاستمرار عملك في السيرك؟!..

ارتفع حاجبا دنيا وهي تهتف بعدم فهم وصدمة

- ما الداعي؟!.. الداعي أنه عملي، محل رزقي!!..

قاطعتها بسمه قائلة بنبرة أكثر قوة - يمكنك إيجاد محل
رزقٍ آخر...

تراجعت دنيا في جلستها حتى استكان ظهرها المتصلب،
ثم أدارت عينيها بين الجميع واللاتي تخاذلت أعينهن

فتجنبن مواجهة النظرات.. حينها تبسم ثغرها لكنها كانت
ابتسامة تعجب وعدم ارتياح أقرب للتجهم

- لقد بدأت كلامك بأن عملي لم يعد له داعٍ لأرتاح.. والآن
تقترحين علي إيجاد محل رزق آخر!!..هل المشكلة في عملي
بوجه عام.. أم في.. السيرك على وجه التحديد؟!..

لم تتردد بسمة وهي تجيب باختصارٍ قاطع ضاغطة على
كل حرف وهي تنظر لعيني دنيا

- السيرك على وجه التحديد يا دنيا..

ارتفع حاجبا دنيا وهي تفتح فمها ضاحكة ضحكة عصبية
عابثة بينما توجهت ملامحها بشدة تعاود النظر لشقيقتها
هدى وبثينة واللتان أخفضتا وجهيهما بصمتٍ تام، فهتفت
بذهول

- منذ متى كان السيرك مشكلة؟!.. إنه المكان الوحيد الذي
عملت ودرست وعشت فيه لأكثر من عشرين عام!!

ردت بسمه بقوة وإصرار

- لأننا كنا مضطرين.. خمس بنات لسن بالحمل الهين خاصة بعد وفاة والدك، أما الآن فلم نعد في حاجة لعمل السيرك بل ومنذ فترة.. أصغرنا تخرجت من الجامعة كحال بقيتنا، اثنتان تزوجتا وأنجبنا.. وثلاث منّا لديهن عمل ودخل ثابت.. لم نعد في حاجة لعمل السيرك منذ فترة طويلة يا دنيا

شحبت ملامح دنيا تماماً حتى حاكت الجدار الأبيض من خلفها، وهي تستمع لأختها غير مستوعبة.. غير مصدقة..

وحين انتهت، مرت عدة لحظات حتى همست دنيا بصوتٍ رزين تتساءل ببطء

- الآن لم تعدن في حاجة لعملي في السيرك!!.. بعد أن كنت أقوم بتسليم أُمي كل ما أجنّيه أولاً بأول لسنواتٍ طويلة توقفت عن عدها..

أغمضت بسمه عينيها للحظة.. لكنها كانت مجرد لحظة واحدة فقط قبل أن تقول بنبرة صلبة غير متهاونة

- لم نقلل يوماً من مقدار ما قدمته لهذه الأسرة.. ونحن
ممتنات من قلوبنا لكن..

هتفت دنيا بغضب تقاطعها مرددة - ممتنات!!!.. وكأنها كلمة
تكريم في نهاية الخدمة بعد الرحلة الطويلة!!..

ثم همست بصوت ارتجف وهي تنقل عينيها بينهن واطعة
يدها على صدرها

- لم تعدن في حاجة لعملي في السيرك.. لكن ماذا عني
أنا؟!.. ماذا جنيت في نهاية المطاف؟!.. بالكاد أتممت تعليماً
متوسطاً، لم أتزوج ولم أنجب ولا أجيد أي مهارة أخرى.. هل
فكرت إحداكن في؟!..

هتفت بسمة بقسوة وكأنها لا تقبل بالاستعطاف سلاحاً

- إياك يا دنيا وأني تتخذي دور المُجبرة.. أنتِ لم تُجبري
على شيء بل كنتِ سعيدة بحياتك في السيرك غاية السعادة،
ربما تعبت وأنفقت وساعدت.. لكنك لم تضحى..

تجرات هدى على القول مقاطعة بأنين ضعيف

- بسمه!.. لن ننكر أن دنيا ضحت بالكثير..

ضحكت دنيا ضحكة مريرة ساخرة وهي ترفع كفها توقفها
عن المتابعة ثم قالت بصوتٍ مختنق

- لا.. معذرة.. أختك محقة، أنا لم أضحي بشيء..

ثم أعادت وجهها إلى بسمه ورفعت ذقنها مضيفة بجفاء

- أنتِ محقة يا بسمه، حياتي في السيرك لم تكن تضحية..
بل أحببت كل يومٍ فيها، لقد أحببت محل الرزق الذي أنفق
على هذه الأسرة حتى وجدت أولكن عملاً.. وبعدها، كما كان
على المساعدة في تجهيز أختيك في زواجهما كذلك.. ألم
يخبرك هذا بشيء هام؟؟..

لم ترد بسمه، بل ظلت صامته قاتمة العينين وهي تحقق
في عيني أختها المريرتين حتى تابعت دنيا بصوتٍ متحشرج

- إن السيرك لم يعد مجرد عملاً أو وظيفة بالنسبة لي..
السيرك أصبح حياتي التي لا أعرف غيرها، بل لن أجيد
الحياة خارجه..لا يمكنك اقتلاعي من عالمي وزرعي في عالم
آخر بهذه البساطة!

تدخلت الخالة فكرية وهي تقول بصوت حنون متردد

- يا دنيا، مصير أي شابة هو الزواج.. إن كنتِ لا تجيدين
مهارة سوى السيرك فانتظري نصيبك..

ابتلعت دنيا غصة في حلقها وهي تقول بصوتٍ قاسٍ
كالرخام ملتفتة إلى خالتها

- هل تظنين يا خالتي أنني أرفض الزواج؟!.. بل أتمناه،
لأنني أتوق لإنجاب الأطفال.. لكن لم يسبق أن تقدم أحد
لخطبتي، فماذا أفعل في شيء كهذا!!!!..

ردت خالتها متعجبة

- لا إله إلا الله.. وكيف سيتقدم رجل لخطبتك وأنت تقضين

حياتك متأرجحة فوق الحبال!.. كيف ستحملين طفله بعمل
كهذا!..

كتفت دنيا ذراعيها قائلة بابتسامة واهية

- إذن أنتِ تقترحين أن أتنازل عن حياتي في السيرك أولاً
ثم أجلس بجوار النافذة منتظرة أن يأتي النصيب كما قلت!..
لكن ماذا وإن لم يأتِ النصيب يا خالتي؟!.. ماذا سأفعل في
حياتي؟!..

ردت خالتها هاتفة

- ولماذا لا يأتيك نصيبك يا حبيبتى؟!.. أنتِ جميلة وطيبة
ولازلت شابة.. من هي في مثل عمرك لا تزال مطلوبة في
سوق الزواج، المهم أن تلحقي بالقطار قبل أن يَفُتِكَ..

سألت دنيا هذه المرة مكررة بنبرة شديدة القسوة وكأنها لم
تسمع شيئاً مما قالت خالتها

- وإن لم يأتِ!!!!..

تدخلت بسمه قائلة بنبرة جافة فظة

- بصراحة يا دنيا، عملك في السيرك بدأ يؤثر سلبيًا على حياتنا جميعًا.. هل يرضيك هذا؟!..

التفتت إليها دنيا عاقدة حاجبها وهي تهتف سائلة

- يؤثر عليكم سلبيًا!!.. فيما يؤثر عليكم عملي وأنا التي لا أراكم إلا مرتين أو ثلاث على الأكثر في العام!..

هتفت بسمه بحدة وحرارة

- لقد تغيرت أوضاعنا.. بتنا نخجل من أن تكون شقيقتنا الكبرى بهلوانة ومهرجة في سيرك!!

اتسعت عينا دنيا بشدة بينما هتفت الخالة فكرية بلوم وتأنيب

- بالهداوة يا بسمه، الكلام لا يكون بهذا الشكل!...

زفرت بسمه مشيحه بوجهها وكأنها تحاول تمالك نفسها
بينما ظلت دنيا جالسة تلهث بصمت شاعرة بوجع حقيقي
في صدرها، ثم لم تلبث أن رددت بصوت ميت وقد غامت
عينها

- الآن تخجلن مني!.. ولم تخجلن وأنتن تطلبن أكثر وأكثر..
ادفعي يا دنيا، ادفعي.. ادفعي..مرت فترات من حياتي
التزمت خلالها بعدة أعمال في السيرك كي يزيد أجري
وأتمكن من تلبية طلباتكن!!.. أنا حتى لا أتذكر أنني قمت
بشراء فستان جديد لنفسي!.. الملابس الجميلة الوحيدة التي
عرفتها في حياتي لم تكن سوى أزياء السيرك!

ردت بسمه بجفاء شديد

- نحن شاكرات يا دنيا.. لكننا كبرنا ولم نعد في حاجة لأي
مساعدة منك.. نحن الآن لا نتلقى إلا اللوم على عملك.. حماة
هدى لا تترك فرصة إلا وعابرتها بتجوالك لأشهر طويلة
دون أن يعرف أحد مكانك بخلاف رقصك وحركاتك أمام
الجمهور.. بثينة تخجل من اطلاع زميلاتنا في الشركة التي
وجدت عملاً فيها بشق النفس بحقيقة عملك..

ارتعشت شفتاها، إلا أنها أقسمت ألا تبكي أمامهن.. ستكون
ملعونة إن فعلت.. لذا همست بصوتٍ رزين متقطع تحاول
التغلب على الغصة المؤلمة في حلقها

- فاطمة لم تقل رأيها، أنا واثقة أنها لو كانت متواجدة الآن
لكانت..

قاطعتها بسمة قائلة ببرود هادئ وهي تنظر في عيني دنيا
نظرة صريحة واضحة

- فاطمة تواقفنا على كل حرف.. يمكنك الاتصال بها للتأكد
بنفسك..

كانت موجات الألم بداخلها تتصاعد تدريجياً كإعصارٍ
عنيف مهدد ببعثرة كيائها في لحظةٍ واحدة.. لكنها همست
بصوتٍ خفيض ساخر ببراعة

- وماذا عنك يا بسمة؟!.. ما وجه الحرج الذي تتعرضين له
بسببي؟..

لم ترد.. عند هذا السؤال بدا وكأنها اكتفت من الكلام
فصمتت

مجددًا حركت دنيا عينيها بينهن تعض على باطن شفتها
حتى أدمتها ثم وضعت ساقًا فوق ساق وكتفت ذراعيها قائلة
بنبرة جافة لا تشبه طنين الحزن في أذنيها

- أنا آسفة يا بسمة.. آسفة لسبيين، أولهما قيامي بالحركات
البهلوانية في عرض الطريق بالأمس، فقد أنبت نفسي
واكتشفت أنني بالفعل قد أكون غير قادرة على تمييز
تفاصيل ما يجب وما لا يجب في حياتكن.. أما الأسف الثاني
فهو رفضي أن أتخلى عن عملي وحياتي.. لن أتمكن من تلبية
طلبك فاعذريني..

ساد التوتر جو الغرفة وكأن شرارات كهربية أخذت في
الاشتعال حولهن.. هدى تنظر حولها مضطربة كالخالة فكرية
تماماً، أما بثينة فقد اكتفت بخفض رأسها وكأنها ندمت على
دخول مثل هذا الحوار من البداية..

بسمة ودنيا كان بينهما حرب نظراتٍ شعواء.. ما بين

جولات الاتهام والرفض.. الغضب وخيبة الأمل.. التباعد وكأن
صلة دم لم تجمع بينهما يوماً..

شعرت دنيا وأعماقها ترتج بأنها تجلس أمام غريبة لا
تعرفها.. بل عدوة..

انفجرت بسمة أخيراً صارخة بغضب وهي تفقد المتبقي من
سيطرتها على نفسها

- هل تظنين أنك ستبقين معلقة على الحبال، مرنة الجسد
إلى الأبد!!!.. كم عمرك الآن يا دنيا؟!.. ما هي إلا بضعة سنوات
وتتوقفين رغماً عنك إن لم يكن بإرادتك، فلما لا تبادرين أنتِ
من الآن واعتبريه جميلاً في حقنا..

عضت هدى على شفتها، بينما اتسعت عينا الخالة فكرية
تحدج بسمة وكأنها تحذرهما من المتابعة..

لكن دنيا كانت هادئة تماماً.. تساقطت خطوط وجهها
وتهدلت ملامحها، إلا أنها كانت هادئة وحين تكلمت قالت
بصوتٍ ميت

- حتى وإن انتهى بي الحال، أنظف روث حيوانات السيرك
فسأفعل.. وأبقى هناك..

قفزت بسمة واقفة وهي تضرب ذراعي الكرسي بكفيها،
هادرة بغضب

- إنه مجرد عناد إذن!!!...

نهضت دنيا أيضًا وهي ترد بقساوة شاعرة بالألم ينحر قلبها
إلا أنها رفضت إظهار شيء منه

- بل لأنني الآن فقط، تأكدت بأن السيرك هو البيت الحقيقي
والوحيد الذي يستحق الدفاع عنه..

ثم تحركت تنوي المغادرة بأسرع ما تستطيع كي تتمكن من
البكاء وحيدة، إلا أن بسمة قالت بصوت يرتجف رفضًا ويأسًا

- هناك شيء آخر.... نحن لم ننتهِ بعد..

ظلت دنيا واقفة مكانها توليها ظهرها، تدعو الله من كل

قلبها أن تنتهي تلك المحاكمة القاسية بأي طريقة، لكن الصدمة التالية كانت كالضربة على رأسها شعرت معها وكأنها ترنحت.. فقد قالت بسمه بنبرة مُرّة آمرة

- أنا وشقيقاتك اتفقنا على بيع شقة والدينا...

تسمرت دنيا للحظة قبل أن تترنح إثر الضربة الغادرة.. واستلزمها الأمر فترة كي تتمالك نفسها وتتمكن من الاستدارة إليها بعينين ذاهلتين وحاجبين منعقدين ثم همست بعدم تصديق

- تردن بيع بيت والدكن!!...

لم تجفل بسمه ولم يرف لها جفن بل ردت بقوة

- كل منا في حاجة لنصيبتها من ثمنه.. لكل منا مسؤوليات ضخمة ولا معنى لتركه على هذا الحال ونحن في احتياج شديد.

هزت دنيا رأسها قليلاً تحاول استيعاب ما سمعت ثم سألت

مستنكرة

- على مهلٍ كي أفهم ما تقولين.. تردن بيع البيت وأين ستذهبن!..

أجابتها بسمة بجدية وهدوء مما يدل على أن الموضوع سبق وفتّحَ بينهن وقد اتخذن قرارهن على ما يبدو وانتهى الأمر

- فاطمة وهدى تزوجتا ولهما بيتيهما.. وهما الأكثر منا حاجة لنصيبيهما في البيت نظرًا للمسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقهما الآن..

نظرت دنيا إلى هدى والتي جلست مرتبكة تفرك أصابعها المتشابكة فوق ركبتها وكانت تحاول تجنب المواجهة منذ البداية لكنها اضطرت للهمس بصوتٍ متخاذل يحمل الأسف

- أنا وفاطمة في أمس الحاجة لنصيبتنا يا دنيا.. تعرفين صعوبة الحال، ولا يرضيك أن تبقى فاطمة متغربة عن طفليها الصغيرين أكثر من هذا..

التنفس في حد ذاته بات أشبه بدواماتٍ حارةٍ ساخنة وهي
تحقق في وجه أختها المنخفض ثم التفتت تنظر إلى بسمه
وسألتها مصدومة

- وماذا عنك أنت وبثينة!!!.. هل ستبقين في الشارع بعد
بيع بيتكما؟!.. نصيباكما مجتمعان لا يكفي لتشتريا شقة
جديدة!!!..

تدخلت الخالة فكرية تقول متطوعة بصدق

- بثينة ستبقى معي..

نظرت إليها دنيا بدهشة بالغة ثم أشارت سائلة - وماذا عن
بسمه!!!..

بدا وكأن الخالة فكرية قد ارتبكت بعض الشيء إلا أنها
ردت بسرعة مصححة

- وبسمه بالطبع.. قصدت كلاهما..

رمشت دنيا وهي تنقل عينيها بين الجميع وسألت مجددًا

- هل هناك متسع في بيتك يا خالتي لاثنتين!!..

قالت هدى عارضة بسرعة

- اتفقنا أن تنتقلان بين بيت الخالة فكرية وبيتي، يمكنني
استضافة بثينة إلى أن يأتيها نصيبها وتتزوج.. تعرفين
أختك، خفيفة لا يشعر أحد بوجودها

كررت دنيا قائلة بغباء - وبسمة!!!.. لماذا تتغافلن عن وضع
بسمة!!!..

إن كانت بثينة خفيفة، سهلة المعشر، لا يشعر أحد بوجودها
فبسمة على النقيض تمامًا.. لكن هدى تلعثمت وهي ترد
بخفوت

- وبسمة بالطبع.. نحن فقط نأمل أن يكون نصيبها في
الزواج قريبًا.. بما أن الدور عليها..

هتفت دنيا بذهول ملوحة بكفها

- كيف أسمح بأن تقضي بسمه وبثينة حياتهما ضيفتين
على بيوت الناس، بعد أن كان بيت والدهما مفتوحًا
يضمهما!!!..

ردت الخالة فكرية متحسرة

- وهل تدرين شيئاً عنهما يا دينا في غيابك المستمر
وبقائهما وحدهما!!!.. الحال ليس كما كان حين كانت الشهامة
والنخوة هما الأساس.. نحن نخاف عليهما خاصة مع ظهور
بعض البلطجية في حيكم لا يقدر أحد على صدهم..

ساد صمتٌ طويل وهي تنقل عينيها بينهن ثم أطرقت
بوجهها لا تجد شيئاً آخر لتسأل عنه سوى شيء عديم
الأهمية فسألت بصوتٍ خفيض

- وماذا عني؟!.. أين سأملك حين أعود من رحلاتي!..

صرخت بسمه فجأةً بحدة مبالغ فيها، مبعثها السيرك وليس

البيت حقيقة

- صدقًا!!.. تريدين حرمان كلاً منا من نصيبها في البيت والتي هي في أمس الحاجة له لمجرد الإبقاء على الاستراحة التي تنزلين عليها مرة أو مرتين في العام!!.. لا يهملك إن هجم علينا واحد من البلطجية ذات ليلة وأنا وبشينة بمفردنا، لأنك تتصرفين كأختٍ كبرى بينما أنتِ في الحقيقة لا تعلمين أي شيء عنا!!..

أمسكت فكرية بذراع بسمه تمنعها عن قول المزيد بينما نهضت هدى هاتفة بذعر تقاطع ما يحدث

- حينها سنستضيفك يا دنيا أنا والخالة فكرية بالطبع.. ولو كانت فاطمة موجودة لقاتل نفس الشيء.. بيتونا كلها مفتوحة لك

أطرقت دنيا بوجهها صامته لا تجد ما تقول.. ربما كان لديهن الحق، ربما غابت طويلاً أكثر مما أدركت في الحقيقة..

ربما أعطت نفسها مكاناً هي لا تملكه بالفعل

تحرك حلقها بغصة مؤلمة ثم لوحت بكفها هامسة بصوتٍ
يبدو كحفيف أوراق الخريف، غريب على صوتها قوي
النبرات لا يمت له بصلة

- أفعلن ما اتفقتن عليه.. أنا موافقة على أي شيء..

أوشكت على المغادرة، إلا أنها رفعت وجهها وهمست
مبتسمة والدموع تحجب عنها الرؤية

- يا له من احتفال بذكرى يوم مولدي الثلاثين!!...

- يا خيبتني!.. ماذا تقول يا محمود!.. هذا ما كنت أخشاه
منذ اليوم الأول الذي سمحت فيه لدنيا بالتدريب في
السيرك، كنت أعلم أنك تنوي على شيء مخيف وها قد صدق
ظني!!..

مشت على أطراف أصابعها حافية القدمين متسللة لشق
الباب المفتوح قليلاً، في ساعة متأخرة يظنان أن جميع

البنات نائمات.. ولم يعلما أن الكبرى بينهما لا تزال مستيقظة
تسمع اسمها يتم تداوله بينهما مقترنًا بالكلمة الأحب لقلبها.. “
السيرك”

وقفت خلف الباب تطل بعين واحدة على والدها نصف
مستلقيًا وذراعه خلف رأسه يبدو عليه الشرود بينما تتربع
أُمها بجواره وعلى وجهها علامات الفزع والرفض.. وفجأة
تابعت بنبرة أشد حدة

- طلبت أن تذهب دنيا معك وأنت تسلم الملابس، لتتسلى
وتتفرج.. قلنا فلتذهب لا مشكلة، طالما أنها ستعود معك
كفها بيدك.. عرضت عليّ أن تتمرن على الحركات البهلوانية
كرياضة تفيد صحتها وجسمها.. قلنا لا بأس وإن كان الشك
قد بدأ يتسلل إلى قلبي وقتها.. منذ الخامسة وحتى بلغت
السابعة وهي تتمرن معهم كلما وصلوا المدينة حتى باتت
كالقردة تقفز على الجدران وفوق الخزائن.. لا تشبه الفتيات
في مثل عمرها بل أقرب للصبيّة في طاقتها وشقاوتها، والآن
تريد مني التخلي عن ابنتي وتضييع مستقبلها بيدي!!.. والله
لن يحدث يا محمود.. هل تسمعني!..

بدا والدها مثقل الذهن متجههم الملامح.. تبدو عليه الحيرة
الشديدة لا السعادة.. ثم قال ببطء وتردد

- لماذا تتخيلين ضياع مستقبلها؟!.. هل تظنين أن أبناء
عائلة سلطان جهلة غير متعلمين؟!.. أنت لا تعرفين شيئاً إذن،
أطفالهم يلتحقون بالمدارس.. يأدون اختباراتهم نهاية العام
وينجحون ومن لا ينجح يتوقف عن العروض تماماً إلى أن
ينجح.. هذه هي حياتهم جيلاً بعد جيل.. هذا دون ذكر أن
ابنتك تبدو كارهة الدراسة من الأساس، ما يتعلمه الأطفال
في ساعة، تحتاج هي إلى عشر ساعات كي تستوعبه، إن
استوعبت!

ضربت أمها صدرها بكفها هاتفة

- يا مصيبتى!!.. أنت تتكلم بجدية!!.. تريد ابنتك الكبرى،
أول فرحتك أن تكبر لتصبح ماهرة في سيرك يا رجل!!..

استقام جالساً بتبرم وهو يسند مرفقيه على ركبتيه مكفهر
اللامح، متباعد التفكير.. ثم قال بخشونة

- إنه كلام سابق لأوانه، ستكون مجرد طفلة تمارس هواية..
لاعبة صغيرة، تتلقى راتبًا صغيرًا على هوايتها.. أنتِ لم
تسمعي أفضل لاعب حركاتٍ بهلوانية وهو يقول أنها موهوبة
بالفطرة.. حين طلب أن تشاركهم العروض لنقص عدد
الناشئين لديهم منذ عامين، رفضت على الفور.. لكن حين
فكرت قليلاً، لم أجدها فكرة سيئة.. المبلغ الذي عرضه يمكن
أن يساعد، تعلمين أننا في حاجة كل قرش، وطالما أن البنت
ستكمل تعليمها..

صمت قليلاً محرّجاً أمام نفسه من المتابعة، بينما تابعت
أمها هاتفة بحرارة

- تريد أن تساعدك ابنتك ذات السبع سنوات يا رجل!!!.. ألا
تخجل من نفسك!!!..

استدار إليها زوجها وهو يقول بجدية

- اسمعيني فقط.. ما الفرق بيننا وبين عائلة راقية سعت
بكل جهودها كي تشتهر واحدة من أطفالها في عرض أو فيلم
ثم بدأت تدير أعمالها وتتقاضى ما تربحه الطفلة!!!.. هل

عليهم أن يخلجوا من أنفسهم أيضًا، أم أن بسطاء الحال فقط هم المدانون دائماً!!!..

هزت أمها رأسها نفياً وهي ترد بلوعة

- لا يا محمود أنت تخدع نفسك.. أنت تضحى بابنتك الكبرى حين ضاق بك الحال، رغم أنك الملوم منذ البداية.. تريد الصبي ولهذا أنجبت خمس بنات الواحدة تلو الأخرى ولا زلت في انتظاره.. كان عليك أن تحمد الله على ما رزقك وتكتفٍ كي تستطيع الإنفاق عليهن..

هتف والدها مصدوماً ممتقع الوجه- ألا أحمد الله كل ساعة وكل لحظة على بناتي؟!.. نعم كنت أريد الولد لا أنكر، لكن والله أنا أحب كل واحدة من بناتي أكثر من نفسي وإن كنت لا أزال أريد الولد فلكي يكون لهن السند من بعدي..

ردت أمها تهز رأسها بضعف

- وهل خوفك على البنت يجعلك ترميها للأغراب.. يعلم الله ما قد يصيبها، أين تبات ليلها وتحت أي سقف!!..

أجابها والدها بكلماتٍ خفيضة متقطعة

- أنا أعرفهم من أكبرهم لأصغرهم.. أهى الوحيدة التي
تدربت في السيرك!!..

غصت زوجته قائلة بصوتٍ مختنق

- وإن وقعت وكسر عنقها، بماذا ستنفعني حينها!!..

رد والدها قائلاً بحرارة مؤكّداً (حركاتها ستكون على الأرض
فقط.. هذا ما سأشترطه بالإضافة لإتمام تعليمها.. سيكونون
مسؤولين أمامي عن نجاحها..

صمتت أمها وقد بدا وكأنها فقدت كل الحنجرة لديها.. في
تلك اللحظة برقت عيناها وانتفض قلبها يرقص طرباً وقد
كان أجمل أيام حياتها.. ستحلق في سماء الخيمة المستديرة
الملونة.. من أسعد منها في هذا الكون!

أَلَقْتُ بِحَقِيْبَةِ مَلَابِسِهَا أَرْضًا مَا أَنْ دَخَلْتُ غُرْفَتَهَا فِي السَّيْرِكِ قَبْلَ أَنْ تَرْتَمِي عَلَى فِرَاشِهَا وَالْآنَ فَقَطْ.. الْآنَ فَقَطْ أَطْلَقْتُ الْعَنَانَ لِدُمُوعِهَا فَانْفَجَرَتْ بَاكِيةً..

لَا تَعْلَمُ كَيْفَ تَمَكَّنْتَ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى نَفْسِهَا فِي طَرِيقِهَا مِنْ بَيْتِ الْخَالَةِ فِكْرِيَّةٍ وَإِلَى بَيْتِهِمُ الَّذِي كَانَ، حَتَّى أَخَذْتُ حَقِيْبَةَ مَلَابِسِهَا الَّتِي لَمْ تَجِدِ الْفُرْصَةَ لِتَفْرُغَهَا حَتَّى.. وَفِي الطَّرِيقِ مِنْ بَيْتِهَا إِلَى حَيْثُ نُصِبَ السَّيْرِكُ.. حَيْثُ نُصِبَ بَيْتُهَا..

كَانَتْ صَلْبَةً الْمَلَامِحِ جَامِدةً الْعَيْنَيْنِ مَتَمَاسِكَةً حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى مَخْبَأِهَا.. وَهَنًا عَلَى فِرَاشِهَا أَلَقْتُ بِكُلِّ دُرُوعِهَا وَاسْتَسَلَمْتُ..

دَفَنْتُ وَجْهَهَا بَيْنَ الْأَغْطِيَةِ وَاسْتَمَرْتُ تَبْكِي طَوِيلًا مُحَاوِلَةً انْتِزَاعَ الْحَوَارِ الْقَاسِي الْمُهَيْنِ الَّذِي دَارَ فِي بَيْتِ خَالَتِهَا مِنْ رَأْسِهَا..

تَقَلَّبْتُ تَرْتَمِي عَلَى ظَهْرِهَا مُحْدِقَةً فِي السَّقْفِ بَعَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ غَائِرَتَيْنِ وَوَجْهَ صَلْبٍ..

لا.. لن تستلقي هنا لتبكي على بضعة كلماتٍ لا معنى لها.. لن
تسمح لنفسها..

فيما يههما رأيهن!!..

لا لن تبالي.. بلى تبالي، حين ظنت أنها لا تهتم كانت تكذب..
لطالما كانت تهتم في أعماق نفسها، لكن الحياة سرقت كلاً
منهن في دربٍ مختلف..

تهتم على الأقل بمرة واحدة تكن فيها لشقيقاتها شيئاً مثيراً
للإعجاب.. شخصاً ناجحاً..

ويبدو أنها كانت في انتظارٍ يومًا كهذا، ومع طول الانتظار
شاخ الأمل وتحولت في أنظارهن لمجرد شيءٍ محرج،
يخجلون منه ويتنصلون من انتسابهم له

قفزت من استلقائها فجأة واقفة برشاقة تزم شفيتها
بقساوة وهي تمسح الدموع عن وجهها ثم التقطت ملابس
التدريب لتضعها على عجل.. لا وقت لديها للبكاء، فلديها
عرض الليلة.

- لماذا تبكين؟..

لم تكن نبرة السؤال تلائم الاهتمام في حروفه، بل كانت
أمره خشنة توحى بالقسوة، فردت بصوتٍ مختنق من بين
نשיجها الذي خرج طفوليًا يهز القلب

- لأنني أتألم..

مجددًا هدر الصوت الصارم والذي لا يعرف مذاق التهاون

- لا أنتِ لا تتألمين، تابعي..

شهقت شهقة عالية وأطبقت جفنيها بشدة، معلقة على
الأعمدة الخشبية المتراسة، وزنها ليس بالثقيل، لكن رفع
ساقها لأعلى نقطة بات مؤلمًا على نحوٍ شنيع.. لا يمكنها.. لن
يمكنها..

لهتت هامسة بصوتٍ يائس - لن أستطيع..

لكن الصوت الغاضب ارتفع رافضاً

- بلى تستطيعين، تابعي..

بكت بصوتٍ عالٍ صارخة فيه باستجداء - أنا أتألم..

إن توقعت رافة منه فقد خاب ظنها فقد هدر غاضباً

- إذن انزلي واجمعي أغراضك واستعدي للعودة إلى بيتك،
لا أحتاج إلى أطفالٍ يكون هنا..

سكنت شهقاتها على الفور وشعرت بالخوف يشل أطرافها
الضعيفة للحظة وهي تستوعب معنى كلماته..

ثم أغمضت عينيها وأخذت تهمس دون صوت

- بلى أستطيع.. بلى أستطيع..

كان الألم يحفر أعلى ساقها كمنشارٍ صديٍّ، لكنها تجاهلته
وحاولت تخيل شيئاً آخر.. تخيلت تصفيق الجمهور لها
بضراوة جعلتها تهدر لاهثة بصوتٍ عالٍ من بين أسنانها

- واحد.. اثنان.. بلى أستطيع.. ثلاثة.. بلى أستطيع..

لم يكن قد استدار حتى سمع صوتها يعد صارخًا وحشية لا
استغاثة، فالتفت ينظر إليها، ثم رفع ذقنه مراقبًا بصمت وهي
تحارب جسدها بقوة إرادتها والهدف المائل أمامها ثم تنتصر
على موجات الألم التي تنهشه..

لم ير طفلة مثلها مصرة على التمرين من تلقاء نفسها، لا
مجبرة من والديها.. طفلة صغيرة تضع هدفًا نصب عينيها
وكأنها لا تبصر غيره في طريقٍ مستقيم..

كتف ذراعيه وعلى ملامح وجهه القوي تلوح علامات
الرضا.. حتى فتحت عينيها ونظرت إليه بشراسة ثم صرخت
مجددًا بقوة

- أستطيع فعلها يا عم جلال..

أوماً برأسه دون أن يبتسم، إلا أن الفخر بداخله كان ينمو
يومًا بعد يوم أسرع مما عرف مثله من قبل..

لقد دخلت دنيا دنياه فقلبتُها رأسًا على عقب ولونتها بألوان
البهجة والزهو، مسكين والدها والذي سلبه دنياه بموافقته
ومحض إرادته.. أتراه يقدر كم هي مبهجة تلك الحفنة
الصغيرة من الأشعة المشرقة كشمسٍ يشرق معها صباح
المكان الذي تتواجد به!

دلكت يديها بقوةٍ وهي تأخذ نفسًا عميقًا قبل أن تمسك
جيدًا بطوقٍ دائري كبير مربوط بحبل مثبت في قائم على
ارتفاعٍ عالٍ من الأرض يثير الفزع لمن يراه لأول مرة..

ثم ألقت بنفسها متشبثة بالطوق وهي تتأرجح به ذات
اليمين وذات اليسار بقوةٍ وزنها الذي تدفعه أكثر وأكثر وبينما
هي تفعل بدأت تدخل من الطوق ثم تتعلق بركبتيها، ثم ركبة
واحدة.. ثم تشد نفسها لترفع جذعها فتخرج به من الطوق
مجددًا..

وبينما هي تفعل هذا سمعت صوتًا أنثويًا يصرخ فجأة من أسفل

- دنيا.. ماذا تفعلين هنا وعلى طوقي!!..

للحظة ارتبكت واختل توازنها فلم تقدر حركة ساقها جيداً مما جعلها تتعثروبدلاً من أن تخرج من الطوق وقعت لتتمسك به بكفيها تتدلى منه وهي تتأرجح به بحركات عشوائية

بعض الصرخات علت من أسفل لكنها أطبقت عينيها بشدة كي لا تشتت تفكيرها أكثر واستعدت للألم الناتج عن ضربها بالسلم الطويل.. ها هو..

كادت الضربة أن تقصم خصرها، لكنها تحاملت وشدت على أسنانها محاولة ضبط أنفاسها وإيقاف حركات عضلاتها تماماً كي تبطئ من حركة الطوق..

ثم بدأت نبضات قلبها تهدأ وهي تسمع الصوت الجهوري

الغاضب يهدر مجلجلاً في فراغ الخيمة الواسعة

- التقطها من عندك يا يسري.. أمسكها بإحكام، افتحي عينيّك يا دنيا كي لا تصابين بالإغماء فترتخي قبضتاك..

فتحت عينيها بالفعل منفذة أمره وكأنه قانون مُلزم.. لكنها لم تنظر على الأرض بل ركزت على زميلها الواقف في انتظارها ليلتقطها، فتأرجحت بجسدها للخلف مرة واثنين حتى وصلت إليه بالفعل فأمسك بالطوق يثبتته قبل أن يشد على معصمها ليسحبها بجواره على المنصة العالية.. حينها فقط انحنت تجلس على ركبتيها واطعة كفيها على المسطح محاولة السيطرة على أعصابها وهي تتنفس بسرعة..

على الرغم من ارتعاش ركبتيها بشدة إلا أنها تمكنت من النزول على السلم بشكلٍ ثابت حتى قفزت لتستقر فوق الأرض أخيراً

اقترب منها جلال كما تجمع بعض لاعبي السيرك والعاملين فيه ولا يزال على وجوههم علامات الفزع.. فسألها بنبرته الصارمة والتي كانت مهتزة بعض الشيء على غير عادته

وكأنه لا يتنفس بصورة طبيعية

- هل أنت بخير؟..

أومأت برأسها ببطء دون كلام وكأنه اكتفى بإشارتها ردًا
ليستدر بعدها إلى منال التي كانت لا تزال واقفة خلفه
مغطية فمها بكفيها، فهدر فيها غاضبًا بصوتٍ جهوري جعلها
تقفز مكانها

- هل جنت؟!.. كيف تصرخين بهذا الشكل في لاعبٍ في
الهواء لتشتتي انتباهه!!.. كيف تقدمين على خطأٍ أحمق
مجنون كهذا!! كان يمكن لدنيا أن تقع وتفقد حياتها في لمح
البصر بسبب صرختك الخرقاء!!..

ارتعش صوتها وهي تهمس بضعف

- لم أقصد.. أنا فقط كنت أسألها عن سبب وجودها هنا
منادية لتسمعي..

لوح جلال بكفيه وهو يهتف فاقداً أعصابه

- وكأنك لا تعلمين شيئاً عن خطورة تمريناتنا!! سنوات
وأنتِ تتمرنين ثم تقدمين على تصرفٍ كهذا كاد أن يودي
بحياة زميلة لك!!..

لم تتحمل فانهارت باكية مما جعل دنيا تتدخل ما أن
وجدت صوتها وتمالكت أعصابها تماماً.. فقالت ممسكة
بساعد جلال تهدئه

- لا داعي لكل هذا يا ججل.. لم تكن المرة الأولى التي
يتشتت فيها انتباهي، وبصراحة كانت هناك أشياء تشغل
بالي وهذا هو ما تسبب في إجفالي لدى سماع صوتٍ عادي..

هدر جلال بصوتٍ أعلى، فلم تنجح سوى في زيادة غضبه
أكثر

- اخربي أنتِ.. في لعبتنا لا مجال لمراعاة الخواطر حين
تكون حياتكم معلقة على الحبال..

صمتت تماماً عالمة أن جلال قد وصل لحد الغضب الذي
يتوجب عليها معه أن تصمت حتى تمر الموجة.. في نفس

الوقت وصل رفيقي وهو يسأل متوتراً

- ما الذي يحدث؟!... ماذا يحدث هنا؟..

أجابه واحد من اللاعبين باختصار

- لقد نادت منال على دنيا وهي تلعب على الطوق فكادت أن تسقط..

انعقد حاجبي رفيقي بشدة بينما ازداد بكاء منال حرارة، لكنه التفت إلى دنيا وسألها بقلق

- هل أنت بخير؟...

فردت دنيا ذراعيها وابتسمت قائلة - كما ترى.. لم يكن هناك داعٍ لكل هذا الفزع وكأنها المرة الأولى التي نتعثر فيها!!

لم يتجاوب مع ابتسامتها بل سألها بجدية

- ماذا تفعلين هنا يا دنيا؟!.. ألم أطلب منك أن تنالي أسبوعاً

إجازة!..

امتقع وجهها، إلا أنها ردت بصوتٍ خفيض مضطرب

- ظروف عائلية يا عم رفيقي، حالت دون قدرتي على
المبيت في بيتي.. بعض أعمال الصيانة قامت بها شقيقاتي..

تنهد رفيقي وقد لانت ملامح وجهه، ثم ربت على كتفها
قائلاً بعطف

- لا بأس فهنا بيتك.. يمكنك زيارتهم ثم العودة إلينا،
فالأُسبوع لا زال ملكك.. اذهبي لترتاحي أو اخرجي
واستمتعي بوقتك إن كنتِ بخير

اهتزت حدقتها وهي ترد ببطء

- لا يا عم رفيقي.. لست في حاجة لإجازة، سأقدم فقرتي
اليوم طالما أنني هنا..

انعقد حاجباه وشدّد مجيئاً بنفاذ صبر

- سبق وتكلمنا يا دنيا وانتهى الأمر.. هذا الأسبوع ملك لمنال كي تقدم أولى عروضها الخاصة..

لم ترد دنيا، فلم تكن بالسرعة الكافية لتسبق جلال الذي هدر فجأة بصوتٍ اهتزت موجاته عبر خيمة السيرك

- طالما أن دنيا هنا، لن يقوم بفقرتها غيرها.. لا منال أو سواها، جدوا لكم عروضًا أخرى..

توتر الجو بشدة وتبادل كل من رفقي وجلال النظر بغضب، ثم لم يلبث أن قال رفقي على مضض واقتضاب في النهاية

- اذهبي لترتاحي يا دنيا قبل العرض.. وأنتم.. ليعد كل منكم إلى عمله أو تمرينه.. هيا..

هتفت منال والتي توقفت عن البكاء فجأة

- لكن يا عم رفقي، لقد قلت..

هتف رفقي غاضبًا - لا أريد المزيد من الجدل، هذا يكفي..

هيا كلّ إلى عمله..

ثم انصرف متذمراً بينما نقلت منال عينيها الباكيتين بين جلال ودنيا بعجزٍ قبل أن تعاود الانفجار في البكاء وهي تستدير لتجري مبتعدة..

ساد الصمت والجميع يبتعدون، منهم من يشد على كتف دنيا مطمئناً ومنهم من يضرب قبضتها بقبضته حتى بقيت هي وجلال وحدهما تماماً فسألها بجفاء

- إن كانت أعصابك لا تزال متوترة جراء ما حدث فأياك وتقديم العرض..

ابتسمت دنيا ابتسامة واهية وردت بتملقٍ رافعة حاجبها

- لقد تأخرت بعض الشيء، بعد أن طُحِت في الجميع...

ازداد تجهمه وهو يرد بخشونة - على كل إنسان أن يعرف مكانه وحدوده.. لكن هذا لا يعني أن نفقدك إثر خطأ غبي..
والآن اذهبي

تركها وابتعد، لكنها شدت معصمه تديره إليها فرمقها
عابثًا.. حينها تعمقت ابتسامتها وهي تهمس بصوتٍ مبحوح
ممتن

- شكرًا يا جلال.. يا كل أهلي..

اهتزت حدقتها بينما أوشكت ابتسامة على أن تشق طريقها
إلى فمه.. إلا أنه دفعها قائلاً بنفاذ صبر

- هيا اذهبي.. لقد وترتموني بما يكفي..

راقبته مبتسمة وهو يبتعد، حتى سمعته يقول في ابتعاده
دون أن يستدير إليها

- على فكرة، البكاء في عينيك ظاهرٌ للأعمى.. لدينا جلسة
بعد انتهاء عرضك..

ارتعشت شفتاها وهي تسبل جفניה بعض الشيء وأصابعها
تلامس الفراشة حول عنقها..

غبية ماذا يبكيك ولديك الأهل والبيت والسماء لتحلقي فيها!!!..

وجدت وجهها يرتفع مبتسمة شاعرة ببعض السعادة تبدد غيوم النهار الكئيب فاستدارت تجري لتستعد لتحليقها..

واقفة أمام المرآة تثبت شعرها في لفته الضيقة خلف عنقها، ترتدي ملابسها الحمراء اللامعة تبتسم لصورتها حين دخلت عليها نورا لاعبة الميزان في زيها الأزرق الشبيه بمشجعات كرة القدم في الأفلام وهي تدور بجذعها حول ساقها في زاوية قائمة ثم تقف مجددًا.. وهمست بنبرة سرية

- تكتكة.. هل تريدان معرفة سبب التوتر بين العم رفيقي والعم جرجل؟؟..

كانت تعلم أن طبع الوشاية والفتنة من عادات نورا والذي لن يتغير فيها مطلقًا.. إنها تحيا حياتها لتنقل الأخبار بين الناس وتطلب من كل منهم ألا يخبر أحدًا.. وكم تكره فيها

هذا الطبع وتنأى بنفسها عن معرفة أسرار الغير، فهي ببساطة غير مهتمة على الإطلاق ولا فضول لديها أو طاقة لتحمل تفاصيل حياة الناس..

لذا فهي في كل مرة تأمرها أمرًا ألا تشاركها بأي معلومات أو أسرارٍ تقع بين يديها.. لكن ليس هذه المرة..

تركت دنيا شعرها على الفور وهي تنظر في المرأة مخاطبة صورة نورا التي تقف خلفها ثم سألتها مباشرة وباهتمام بالغ دون تردد

- ما هو السبب يا نورا؟..

مالت نورا للأمام وهمست بنبرة متآمرة

- أنتِ السبب.. لكن لا تخبري أحد أنني أخبرتك..

اتسعت عينا دنيا وتكرر بصدمة رغم تشنج نظرتها وصوتها
- أنا!!!.. تكلمي بالتفاصيل فورًا..

همست نورا - العم رفقي، يريد أن تأخذ منال فقرتك خلال عام على الأكثر.. لكن العم جلال رفض واعترض وصرخ قائلاً أن دنيا لا زال أمامها سنوات طويلة يمكنها تقديم أفضل ما لديها خلالها لأن جسدها يساعد، فقال العم رفقي أن منال لاعبة ممتازة وأن فقرتك في حاجة لعمرٍ أصغر وطالما أن اللاعبة الأصغر موجودة لما نضيع سنوات من عمرها؟.. وأن لكل لاعب..

لم تسمع دنيا شيئاً من باقي الكلام فقد كان مجرد ثرثرة واهية بالنسبة لها، غير ذات قيمة.. لم تكن في حاجة لسماع المزيد.. لقد سمعت ما تحتاج إليه واكتفت..

اكتفت بالنظر إلى صورتها في المرآة بعينين ساكتتين تماماً كسكون ملامحها.. حتى بدت كتمثالٍ صلب، قوي لكن لا حياة فيه..

السماء تودعها.. إنها سنة حياة كل إنسانٍ عاش على ما أحبه..

أخذت نفسًا عميقًا وهي تغمض عينيها للحظة قبل أن تقفز بالطوق في الهواء لتبدأ فقرتها بحركاتٍ صاحبها أصوات الموسيقى الحماسية المخيفة وشهقات الجمهور.. تخرج من الطوق وتدخله في تأرجحه ثم تستقيم لتقف بأطراف أصابعها على حرفه ممسكة به كعجلة قيادة.. ابتسامتها عريضة مشرقة..

يراقبها جلال من خلف الستار مضيئًا عينيه، ثم عقد حاجبيه وهو يحاول تدقيق النظر أكثر.. قبل أن يلتفت هاتفًا بصرامة متوترًا

- مرزوق، هات المنظار المكبر بسرعة...

ناوله مرزوق المنظار الذي يراقب به اللاعبين وما أن وضعه على عينيه حتى تشنج جسده بالكامل للحظة وكأن شللًا أصابه!.. ثم أخفضه ببطء وهو يهمس بصوتٍ متقطع

- يا إلهي إنها تبكي!.. إنها تبكي على الطوق!..

أعاد المنظار بسرعة على عينيه والرعب يجتاح جسده

يراقب وجهها وحركات قدميها، تخدع الجميع بتلك الابتسامة الكبيرة بينما تبكي عيناها!!.. لن ترى بوضوح الآن!..

شعر جلال أنه لم يعد قادرًا على النظر أكثر لأول مرة في حياته، فأبعد المنظار عن عينيه وأولى العرض ظهره مستندًا إلى أقرب لوحٍ بكفٍ، أما الكف الأخرى فوضعها على صدره موضع القلب مباشرة..

مرت الدقائق وكأنها عمرٌ بأكمله.. عمر دنياها هنا في السيرك منذ اليوم الأول والذي رآها فيه لا تتجاوز الخامسة من عمرها..

يتوقع كل لحظة أن يسمع صرخاتٍ مرتعبة يعقبها صوت ارتطام قوي.. شعر بالدوار والأرض تميد من تحت قدميه حتى سمع صوت مرزوق أخيرًا يهتف في مكبر الصوت

- أمتعتنا الساحرة دنيا.. رائعة يا دنيا.. كنتِ رائعة..

ثم دوى تصفيق مستمر، حينها فقط مد يده مخاطبًا صبيًا من العاملين في السيرك قائلاً بصوتٍ متعثر

- هات كرسياً يا ابني.. لا أقوى على الوقوف أكثر..

ظلت منحنية خافقة القلب للتصفيق فترة أطول مما
اعتادت طوال السنوات وكأنها لا تريد أن تنهي تحيتها
للجمهور.. لكن

كل شيء لابد له من نهاية لذا استقامت أخيراً رافعة
ذراعيها بأنفاسٍ متسارعة ثم جرت في خطواتٍ رشيقة إلى
خلف الستار، وما أن دخلت حتى قفز جلال واقفاً من كرسیه
ليقبض بكفيه على كتفيها يهزها هادراً بغضب

- إياك والبكاء وأنت تؤدين فقرتك مجدداً.. إياك..

ارتعشت جراء الخوف الذي أبصرته على ملامحه المكفهرة
وفي عينيهِ السوداءوتين.. وكأنه ليس جلال الذي تعرفه!..

لم تر في عينيهِ أبداً نظرة خوفٍ على ساحةٍ تحمل السيرك!
لقد تغير.. لقد تغير كل شيء مع قرب النهاية!..

لمعت الدموع في عينيها، لكن هذه المرة كانت دموعها

محتجزة ترافقها ابتسامة ارتسمت على شفتيها وهي ترفع
كفها لتطبق بها على يده الممسكة بكتفها.. وتشد عليها
مطمئنة..

سارا جنبًا إلى جنب على طريق البحر، الصمت رفيقهما
لأكثر من ساعة.. لا يتعبان، لا يتكلمان.. وكأن نسيم البحر
برائحته المميزة في الليل هو غاية ما يحتاجه كلاهما في
تلك اللحظة.. لم تكن قادرة على الكلام أو راغبة فيه لكنها
خرجت معه خصبًا لأجله، لتخرجه من الحال الغريب
عليه..

ابتسمت دنيا قائلة بعد صمت طويل

- الجو بارد قليلًا.. يبدو أن الخريف قد بدأ بالفعل!..

لم يتجاوب مع ابتسامتها، بل رمقها بنظرة جانبية بطرف
عينيه ثم قال بهدوء متأملًا الليل أمامه

- أنتِ لا تبردين أبدًا يا دنيا..

ضحكت تهز رأسها وهي تدس كفيها في جيبى بنطالها،
تقفز بين حجرٍ وآخر من أحجار الرصيف وكأنها تعزف فوق
بيانو طويل ممتدة مفاتيحه إلى ما لا نهاية.. غريب أنه
يعرفها أكثر من أي شخصٍ آخر في هذه الدنيا..

لطالما شعرت دنيا أن حياتها بسيطة نفسيًا.. لا يشوبها
تعقيد أو ظلام، فلقد ساعدها القدر في وضعها في الدنيا
التي تمنتها تمامًا..

صحيح أنها ذقت مرار فراق الأب بوفاته وهي لا تزال
طفلة وكأن قلبه كان يشعر بدنو أجله ففكر في وضعها على
أول الطريق الذي ستساعد به شقيقاتها وتكن عونًا لأمها..

لكن حياتها في السيرك كانت أكثر إرهاقًا وانفعالا من أن
تسمح لها بالاستسلام للحزن.. الشيء الوحيد الذي كان
يتعبها هو عدم انتمائها لعائلة السيرك بصلة الدم، ولا تعلم سر
اهتمامها بهذه النقطة تحديدًا..

ربما كان ما تحتاج إليه هو الانتماء نفسه..

فراق أمها منذ عامين أوجعها بشدة، بل صدمها للدرجة التي أعجزتها عن البكاء حتى.. فقد كانت عازمة على قضاء وقت أطول مع أمها، لتعوضها عن غيابها الدائم.. وفجأة رحلت الأم قبل أن تجد الفرصة لذلك!..

حتى علاقتها بأمها كانت بسيطة للغاية.. تنتظر عودتها بعد شهورٍ لتحكي لها عن رحلاتها وعروضها، وربما تستمع منها لبعض المعلومات الخاصة من أم لابنتها وكأنها حصة صحية علمية تأخذ منها ما تحتاج ثم تعاود الترحال!

لا مشاكل مراهقة.. لا أسرار خفية.. لا تعقيد..

لذا فاجأتها نفسها اليوم وهي تكتشف بداخلها القدرة على الإحساس بهذا الكم من المرار لدى سماع شعور شقيقاتها الحقيقي..

توقفت دنيا فجأة تتأمل أمواج البحر اللامعة العالية والأضواء المنعكسة على سطحها، مما أجبر جلال على

التوقف متسائلاً

فابتسمت أكثر ومدت كفيها تمسك بيده بينهما.. تربت على ظهرها وتشد عليها، مما جعله يعقد حاجبيه بعدم راحة للحظاتٍ ثم قال بخشونة

- لن يعجبني ما سأسمعه..

لم تختفِ ابتسامتها وهي تشدد على كفه أكثر، ثم ردت بهدوءٍ ورزانة

- سيعجبك إن كنت تعرفني حق المعرفة.. أكثر من أي إنسان آخر في هذه الدنيا..

لم يسألها بل انتظر مترقباً بصمتٍ لا يقطعه سوى صوت الأمواج وضحكات البشر ممن يشاركونهما التمتع ببداية الخريف ليلاً.. لم يرف لها جفن وهي تقول ببطء دون أن تحيد بعينيها عن عينيهِ

- سأترك عرض الحركات البهلوانية الهوائية لمنال.. سأعتزل

التحليق

لم ينفجر ذاهلاً ولم ترسم الصدمة خطوط ملامحه، بل ظل واقفاً أمامها يطالعها بنفس الملامح الصلبة والعينين السوداوين ثم سألها آمراً

- من أخبرك؟..

أسبلت جفنيها كي لا يرى اضطراب حركة حدقتها المنكسرتين..

لا لن تسمح لنفسها بأن يرى فيها معلمها انكساراً.. بل سيكون اعتزالها أمامه مشرقاً، سيكون احتفالاً مدوياً، هو الجمهور وهو لجنة التكريم..

لذا أجبرت نفسها على رفع ذقنها والحفاظ على ابتسامتها التي كادت معها أن تسقط شفتاها المرتعشتان حطاماً وشظايا..

ثم قالت بخفوت وهي تهز رأسها ببطء

- لست في حاجة لأن يخبرني أحد.. أنا أعلم.. وإن كنت تعرفني حق المعرفة ستدرك أن انسحابي من تلقاء نفسي وأنا في أوج بريقي سيليق بي.. سيكون انسحابًا يليق بدنيا التي تبنيته موهبتها فأصقلتها وجعلت منها نجمة سيرك سلطان..

دنيا التي تلقيتها على يديك منذ اليوم لها في السيرك، لن تبقى الآن بالقوة والمহারبة عاماً أو عامين حتى تؤمر بترك العرض..

تحرك حلقه بصعوبة بينما ازدادت ملامحه تجهماً، بداخله شيء آخر.. شيء أكثر ضعفاً.. لكنه حين تكلم قال بخشونة وغضب

- لا زالت أمامك بضعة سنوات من التألق، فلما تسمحين بالتخلي عنها!..

مالت بوجهها قليلاً ثم همست بنعومة رغم أن صوتها كان أجوفاً

- تلك السنوات، سَتُؤَخَذ من عمر لاعبة ممتازة.. تلك السنوات سأسرقها من أفضل سنواتها البدنية، كي أقضي بها آخر سنواتي.. وهذا ليس عدلاً، فمنال فعلا ممتازة وتستحق العرض الأكثر بطولة في السيرك.. نجم السيرك دون منازع..

هدر جلال بصوتٍ مكتوم

- لا تماثل نصف موهبتك..

هتفت دنيا بحرارة تشدد على قبضته بين كفيها

- هذا لأنك لا تريد أن ترى فيها أكثر من هذا.. أنت تبحث فيها عن دنيا وهذا ليس عدلاً لها، عليك تقبل أن دنيا تكبر.. كما سأبدأ أنا في التأقلم

ساد صمت كئيب بينهما وكأن أمواج البحر باتت تعزف لحناً حزيناً.. حتى الضحكات خفتت وكأن حزنهما مسموع فغابت البهجة عن وجوه المارة بهما..

ربت دنيا على كفه مبتسمة دون أن تجد القدرة على

الكلام ثم تركتها لتستدير في مواجهة البحر وكذلك فعل هو..

صوت تنهيدة طويلة منها تصحبها دمعة معلقة على أهداب
عينها طرفت كي لا تسقطها فتبكي أكثر، جعلته يسألها دون
أن يلتفت إليها

- هل كان لزيارة شقيقاتك دخلاً في قرارك المتسرع؟!...

غصت دنيا بضحكة مختنقة، إلا أنها همست ضاحكة بعد
لحظات

- صدقني زيارة شقيقاتي تحثني على العكس تماماً لكن
لنقل أنه يوم حظهن والذي حالفهن وهجرني..

التقطت أذناها صوت ضحكة غاضبة متفهمة، ثم قال بعد
فترة بخفوت

- لكنك ستبقين في بيتك.. في السيرك..

التفتت إليه تسأل بدهشة وعيناها تلمعان بالدموع رغم

ابتسامتها

- وهل يمكن لتكتكة أن ترحل عن سيرك سلطان!!.. أينما
وُجِدَ السيرك وجدت تكتكة المخلصة والتي لن يهزمها عمر أو
جسد حتى وقت طويل جدًا..

“الابتزاز العاطفي.. إنه واحد من أسوأ أنواع العنف النفسي
الذي يُمارس ضد الضحية

نعم ضحية.. ضحية واقعة في منتصف دائرة لا تنتهي من
التهديدات..

تهديدات لا تستهدف الضحية نفسها، بل تستهدف عواطفها
وتجعلها تشعر بنفسها مذنبه مهما قدمت

.. كيف ستعايشين مع ضميرك إن لم تقدمي أكثر لمن
يهلك أمرهم!!..

.. إن لم تضغطي أكثر وتزيدي فأنتِ الملوثة على ما سيحدث..

.. إن لم تفعلي ما أريد، عقابك سيكون نابع من داخلك، وأنتِ ترين معاناتي..

تلك هي أدوات عقاب ضحية الابتزاز العاطفي

جميعها كلمات تقتل لا تدفع.. تسحق لا تحت

الابتزاز العاطفي، علاجه المقاومة لا الرضوخ والتصديق “

- لماذا تصرخ بي أنا يا مجدي؟!..

صرخت بسؤالها بغضبٍ شديد وقد علا صوتها وهي تقف على السلم الموصل لسكن الممرضات ممسكة بالهاتف على أذنها..

ثم أغمضت عينيها تهز ساقها بعصبية تضغط أسنانها وهي تستمع إلى أسطوانة التقريع المعتادة وكأنها جرعة يومية مجبرة على تجرعها بعد عناء يومٍ طويل تجعلها تلعن نفسها بسبب اللحظة التي قررت فيها أن تتصل به..

حين أنهى كلامه المتذمر بانتقادٍ مستمر، هتفت فيه بحدة وبصوتٍ بدا وكأنه لا يحمل من الأنوثة شيئاً، فلقد نسيت الأنوثة.. أو على الأقل كلما حاولت إيجادها، ساهم هو في محوها بانتقاده الذي لا ينضب

- ما ذنبي أنا إن كانت الخالة فكرية غير قادرة على رعاية أنس ومودة اليوم!!.. اتركهما لدى والدتك..

صرخ فيها بصوتٍ متشنج جعلها تبعد الهاتف عن أذنها وهي تطرف بعينيها شاعرة أن نبرته خنجراً اخترق طبلة أذنها

- هل والدتي هي المربية التي وظفتها لخدمة طفليكِ!!..

صرخت فاطمة والغضب يتزايد بداخلها أكثر وأكثر حتى

بدت وكأنها ترتعش وتنتفض من فرط الانفعال

- وهل خالتي هي المربية التي وظفتها أنت لطفليك!..

لم تكن تدرك لأي مدى ارتفع صوتها، حتى مرت بها واحدة من الممرضات في طريق نزولها لمناوبتها الليلية، فألقت عليها تحية مقتضبة متحاشية النظر إليها مما جعل فاطمة تشعر وكأن دلو من الماء البارد سقط فوق رأسها..

ردت فاطمة بصوتٍ خفيض، تهمس كلمة لم تحدد حروفها حتى.. ثم انحنى لتجلس على درجة السلم، مسندة رأسها إلى حاجزه بتعب..

عيناها غائرتان تحددهما دوائر وانتفاخات.. إرهاق العمل بريء منها، بل هي نفسها المرهقة مما برز أثره على صفحة وجهها وعلى هاتين العينين..

لا يزال يشكو.. ويشكو.. يندب حظه في الحياة برعاية طفلين وحده، لذا انتظرت حتى انتهى تماماً دون أن تقاطعه بكلمة أو حتى تغمض عينيها التائهتين.. حينها فقط همست

بصوتٍ خاوٍ

- هذا لن يفلح يا مجدي.. لا يمكننا المتابعة على هذا النحو..

ساد صمت مضطرب كادت أن تسمع خلاله صوت أنفاسه،
إلا أنه سألها في النهاية بصوتٍ غليظٍ محذرًا

- ماذا تقصدين بالضبط يا فاطمة!..

التقطت أنفاسها وهي ترفع رأسها عن حاجز السلم ثم ردت
بصوتٍ حازم

- أقصد أنا حالنا هذا لا يرضي أحدًا.. سأنتهي عقد عملي
وأعود..

كانت تتوقع جداله المعتاد، لكن ما لم تتوقعه فعلاً هو
صرخته الرافضة القاطعة بنبرةٍ أمريةٍ وكأنه الرئيس!

- لا يا فاطمة..

صرخته شعرت بها لكمة على وجهها.. تعرف رأييه سلفًا، لكن صرخته!... تلك التي لم تحمل ذرة تردد أو حنيًا للقاء بعد طول غياب..

ابتلعت ألمها ككأسٍ مرٍ دفعة واحدة ثم ردت بفتور وبصوتٍ ميت

- لا يمكنني التخلي عن طفلي أكثر من هذا.. ملعون المال الذي أخسر مع الربح به يومًا أعشه أمًا، أتمتع بأمومتي..

أراقب خلاله ابني وبنتي كي لا تفتني حركة قاما بها أو كلمة جديدة تعلمهاها!.. ملعون المال في الساعة التي أقضيها هنا وأنا أعرف أنه لا أحد متفرغ خلالها لرعايتهما.. أتساءل كل لحظة عن مكانهما وعن أي عين تراقبهما وهل تغفل أم تنتبه!.. سأرجع إليكم يا مجدي..

لحظة الصمت التي مرت بينهما أحييت الأمل في قلبها، لعله اقتنع.. لعل قلبه تأثر وأدرك فداحة جرمهما!..

لكن الكلمات التالية، الهادئة في نبرتها والقاتلة في فحواها،

كانت بمثابة سوّطا جلدها بوحشية

- ارجعي يا فاطمة.. ارجعي وتمتعي بأمومتك، العبي وهددي.. لكن كيف ستحملين عذاب رؤية الحاجة في أعينهما ونحن غير قادرين على تلبيتها؟!.. لو لم تجدي فرصة من البداية لما كان عليك لوّمٌ أبداً، لكن أن تكون فرصة منحهما حياة ميسرة بين يديك وتلقين بها فكيف ستعايشين مع قرارك في المستقبل حين تختلف الخيارات من أصغرها لأكبرها.. من ملبسهما لتعليمهما لعلاجهما... تخيلي أن يفتح لك الله باب رزق عجزت أنا عن الحصول على مثله، فتغلقه!.. هذا الرزق لم ترزقي به إلا لأجل هذين الطفلين فكيف ترفضينه!.. والله يا فاطمة ستندمين كل يوم من أيام حياتك إن نفذتِ قرارك، لن تطيقي اللوم الذي سيعذب نفسك وأنتِ تتخيلين كل لحظة اختلاف الحال.. كيف كانا وكيف أصبحا..

لم يكن في حاجة لإنهاء كلماته كي تتخيل الصورة التي رسمها.. تتخيل طفليها يطلبان ويطلبان فتعجز هي ووالدهما عن تحقيق ما يتمنيان.. تتخيل ضيق الحال، وتتذكر حالها في بيت والديها..

بالكاد تمر الأيام والحمل يتزايد على أمها وعلى شقيقتها الكبرى..

تتذكر فرحتها وزغاريد التهنئة مع أول عقدٍ سفرٍ نالته رغم صغر سنّها، بعد أن دارت على جميع مكاتب توفير عقود السفر، ولم تكن تلك الخدمة مجانية، بل دفعت مبلغًا ماليًا، حفرت في الصخر هي وأختها دنيا كي يدبراه..

تتذكر فرحتها بالراتب الأول وكيف استطاعت أن تساعد مع دنيا أخيرًا فعلى الرغم من أن فارق العمر بينهما عام واحد فقط إلا أن دنيا سبقتها أعوامًا وأعوامًا في الإنفاق على البيت..

مع عقد سفرها ظنت أن أيام ضيق الحال قد ولت.. وها هي الآن واقفة في مفترق الطرق والاختيار هذه المرة سيدفع ثمنه طفلاها!...

كان تفكيرها بالكامل وكل جوارحها منصبة على طفليها، لكن لا تعرف كيف همس لسانها بضعف وهي شاردة الذهن

- يا مجدي.. أنا.. أحتاج وجودي معك.. أنا.. افهم يا مجدي.. أحتاج لزوجي، أحتاج الشعور بنفسي زوجة وامرأة مجددًا.. لقد تعبت الوحدة

لم تتخيل في أسوأ كوابيسها أن تسمع نبرة السخرية اللاذعة الغاضبة في صوته والأقرب للتعجب وكأنها تشكو شيئاً تافهاً لا يستحق الذكر

- أهذا مجال للتفكير في نفسك واحتياجاتك!!.. أي أم تلك التي تقدم احتياجاتها على احتياجات أطفالها في زمن كهذا!!.. هل سيتحمل ضميرك قرارك هذا بعد فوات الأوان!!..

اتسعت حدقتها غير مصدقة لما سمعت!.. شعرت بنفسها تسقط من على ارتفاع شاهق لترتطم بالأرض بكل عنف!!..

الأعجب أنها شعرت بخجلٍ مريع من نفسها!.. كيف وضعت نفسها في موقف كهذا، لتشكو شيئاً كهذا!!..

ليتها ما نطقت.. ليتها ما فكرت سوى في طفلها، كي لا تظهر أمامه بهذا التخاذل المخزي..

انعقد لسانها وهي تنظر عاليًا تتمنى إنهاء المكالمة، إلا أنه
تكلم وقال بصوتٍ حنون فجأة يحمل كل العطف والتفهم

- يا فاطمة، نحن لن نعيش زمننا وزمن أطفالنا.. هذا
هو دورهما ليعيشا حياة ميسرة، وواجبنا تأخير رغباتنا
الشخصية

أمام هذا الهدف.. هل تظنين مثلاً أن وضعي أسهل من
وضعك!!.. أنا رجل تركت له زوجته الطفلين وسافرت، يدور
بهما بين البيوت ليعثر على من يقبل برعايتهما، إلى أن
ينتهي عمله.. أنا أطعم وألبس وأحمم متحملاً الصراخ والبكاء
وجنون الأطفال.. ومع ذلك هل سمعتِ مني شكوى!!..

هل سمعتِ مني شكوى!!!!..

إنها لا تسمع منه سوى العويل كل مكالمة!!.. لكنها ليست
شكوى مغطاة بالعجز وصعوبة التصرف ، بل هي أقرب
للكلماتٍ ممزجة باللوم والتقريع والتمعن في إحساسها بمدى
فشلها وعجزها عن القيام بدورها كأم مسئولة عن إيجاد عينٍ
ترعى الطفلين حين يكون هو غير متاحًا!!..

من عندها هناك وهي في الغربة، عليها التصرف!!..

لقد قالها صراحة، طالما أنها اتخذت قرار الاغتراب وترك الطفلين فعلية أن تكون قدر المسؤولية في توفير من يتحملهما خلال ساعات عمله.. أما هو فعليه العمل ثم رعايتهما بعد انتهاءه..

كانت خطة شاقة، بالغة الصعوبة على النفس والذهن وعلى الطفلين.. هو من وضعها ودبرها وحدد الأدوار فيها، ثم أقنعها بأنها لن تتحمل تأنيب الضمير في المستقبل إن لم تبصم موافقة على تلك الخطة!..

في غيابه تقسم كل لحظة أنها ما أن تسمع صوته حتى تعلن عزمها على تمزيق أوراق خطته.. وحين تسمعه يتضاءل عزمها مع كل كلمة تشعرها أنها المقصرة حاليًا، والملومة في المستقبل إن أغرقت كل السفن وعادت..

أتراها فعلاً مقصرة ولم تكن قدر المسؤولية الكبيرة التي اتفقا معًا على حملها!!!..

أتراه محق؟!..

- هل تكلمت مع سائد حول أي شيء ما مما قلناه يا صادق؟.. بخصوص.. بخصوص أي شيء يا صادق، أي شيء.. هل تكلمتما مؤخرًا؟!..

ابتسم ساخرًا وهو يرى والده يتكلم في الهاتف محتدًا، يصب جام غضبه على عمه المسكين والذي كرس حياته ليكون مستودع أفكار وأسرار أخيه خطاب.. تلك الأفكار التي لا يُطلع واحدًا من أبنائه عليها مطلقًا.. فهو لا يحتاج لآرائهم، بل يحتاج فقط لمن يسمع ثم يوافق بلا رأي، بلا شخصية..

وتلك هي وظيفة العم صادق.. يسمع ويوافق، ثم يصمت..

لكن إفلات الكلام من بين شفتيه، كان واحد من أكبر نواقصه.. الصفة التي استغلها سائد دون رحمة أو خجل ليعرف ما يجري.. وحتى الآن استطاع تكوين فكرة لا بأس بها..

على ما يبدو أن والده قد بدأ يفقد عقله..

سمع خطاب يقول بخشونة

- لقد أتى في زيارة مفاجئة، ناويًا البقاء معنا لفترة.. كنت أريد فقط التأكد إن كنت قد تكلمت معه بخصوص جيهان وابنتها زاد وهذا ما جعله..

تكلم سائد ضاحكًا ببرود من خلفه

- لا داعي لتعذيب العم صادق بسبب ظهوري الغير مرغوب فيه في هذا البيت..

استدار والده بسرعة وقد بدا مرتبكًا متجهًا، لكنه لم يلبث أن تكلم في الهاتف متابعًا باقتضاب

- سلام الآن يا صادق، أنا مضطر لإنهاء المكالمة.. سأعاود الاتصال بك..

ثم ترك الهاتف على سطح المكتب بعصبية واستدار يواجه
ابنه قائلاً بجفاء

- أرى أن خصلة استراق السمع قد أضيفت لقائمة عيوبك!..

ضحك سائد ببساطة وهو يدخل غرفة المكتب يتأملها
وكأنه يبحث إن كان قد تغير فيها شيء ثم قال وهو يقف
أمام المزيد من الصور الموضوعة على طاولة جانبية أسفل
نافذة كبيرة.. المزيد من الصور التي تضمه مع أسمهان
وسلسبيل..

و كأن هذا البيت ما هو إلا متحفًا للذكريات الحزينة

أمسك بصورة بإطار نحاسي مسح زجاجها بإصبعيه وقد
خبت ضحكته بعض الشيء يتأمل الوجهين الجميلين..

أسمهان وسلسبيل.. ملامحهما لوحة واسماهما نغمة تمس
الوجدان..

تكلم بصوت هازئ وإن كان قد بدا شاردًا بعيدًا

- تماماً كخصلة استنطاق العم صادق واستغلال طيبة قلبه
وسلامة نواياه..

حرك وجهه ناظرًا إلى والده، رافعًا حاجبيه منبهًا بنبرة
مخلصة خبيثة

- عليك البدء بالتفكير في العثور على كاتم أسرار جديد..
فالعم صادق لم يُجد المهمة يومًا على أي حال..

اختطف خطاب إطار الصورة من بيني يدي ابنه بغضب
كي يعيده لمكانه، لكن ليس قبل أن يتأمل الوجهين الجميلين
مرة إضافية تحمل أشد الاشتياق والألم..

لكنها كانت مجرد لحظة واحدة من الضعف، قبل أن يقول
بصوتٍ محتد

- ما تفعله مقرف.. أنت تتجاوز كافة الحدود معي وأنا
أحذرك..

مط سائد شفتيه قائلاً بلامبالاة وهو يدس كفيه في جيبه

- كل ما أفعله مقرف في نظرك، أتظنها وراثة!.. لكنها لن تكون من جانب أسمهان بلا شك..

هدر خطاب دافعًا سائد بكفيه فجأة حتى كاد أن يوقعه أرضًا، متمالكًا نفسه في اللحظة الأخيرة كي لا يصفعه..

كيف يصفعه في مثل هذا العمر، حتى أن هناك شعرتان بيضاوان بدأتا في الظهور على جانب رأسه!..

كانت أنفاسه متسارعة كحاله كلما اشتبك مع سائد فأدار ظهره لا يريد النظر للون الكره في عيني ابنه، ثم قال بصوت مجهد

- أسمهان!.. ما الذي يمكن أن تكون قد ورثته من أسمهان؟!.. أسمهان كانت كل ما هو جميل وحنون.. ليتك ورثت منها شيئًا واحدًا فقط، لكان هذب روحك الناقمة الحاقدة..

نبرة الحزن المريرة في صوته لم تكن جديدة على أذني

سائد، فحين يحكي خطاب عن أمه، يكون حزنه حقيقياً
وآلمه ناراً تكوي.. لكن حتى حزنه على والدته كرهه.. بات لا
يمثل لديه أي اهتمام أو تعاطف..

وإمعاناً في إيذائه سأله بصوتٍ مبهم فاتر

- ماذا عن سلسبيل؟.. ألم تترث كل جمال أسمهان، روحاً
وشكلاً!..

أغمض خطاب عينيه وهو يرفع وجهه شاعرة بالقبضة
المؤلمة تعتصر صدره أكثر فهمس باختناق

- كفى.. كفاك حقداً وحباً في تعذيبي.. كفاك.. ماذا تريد
يا سائد!!، كنت قد رحلت فظننتك قررت أن ترحم البيت
وساكنيه من كرهك، فلماذا عدت؟..

تصلبت ملامح سائد وقست شفتاه كحجرٍ ناتئ جاف
في صحراء جرداء خالية من أي خضار.. أما عيناه فكانتا
كفراغين أسودين كبيرين.. وحين تكلم أخيراً بدا صوته هادئاً
تماماً متجاهلاً الرد على سؤال والده

- فهمت من العم صادق أنك تفكر في ابنة زوجتك كعروس
محتملة لوائل..

تحركت شفتا خطاب بصمت وكأنه يشتم أو يلعن... لكنه
لم ينطق بشيء، بل ظل مديراً ظهره لسائد حتى يتغلب على
مرارة الذكرى التي أثارها في قلبه منذ لحظات فطفت على
سطح عينيه..

ولم ينتظر سائد الجواب، بل تابع بنبرة شديدة الإهانة في
نبرتها

- ثرى منذ متى تعرفها، كي تقرر أنها تصلح زوجة لابنك!..

تحرك خطاب مبتعداً وكأنه يحث سائد على الصمت
والشعور بأن الحوار معه غير مرغوب فيه، إلا أن سائد تابع
ضاحكاً بتعجبٍ شرس

- تنهرب من الجواب؟!.. إذن اسمح لي أنا بأن أجيئك، أنت
لم تعرفها إلا منذ أسبوعين فقط!.. تخيل!.. أسبوعان كانا
كفيلين بأن تفكر وتقرر أنها الأنسب لابنك!..

كان خطاب قد تمكن أخيرًا من التغلب على ثورة الأسي
التي اجتاحتها منذ لحظات، ثم قال بصوتٍ باهت مقتضب
- أنت تهذي كعادتك..

ارتفع حاجبا سائد وهو يهتف ضاحكًا بحنق - أهذي!!.. هل
أنا من يهذي؟!.. حقًا!!..

استدار خطاب إليه هادرًا بانفعال - احترم نفسك يا ولد ولا
تنس أنك تكلم والدك!!..

هتف ابنه بحدة - ليتني أنسى، صدقني تمنيت شهورًا
طويلة من نسيان أنك والدي.. لكن للأسف أنت من لا يسمح
لي بالنسيان بكلِ فعلة تقدم عليها ويدفع ثمنها أبناؤك.. وهذا
آخرها، فيما تفكر!!.. فقط قل فيما كنت تفكر وأنت تتوقع
شيئًا كهذا!

أخذ خطاب نفسًا عميقًا مضطربًا ثم قال بخشونة، متجنبًا
النظر لابنه

- كل هذه الثورة لمجرد أنني أفضيت بما في نفسي لأخي التافه والذي نقل حوارنا إليك بكل غباء ما أن استدرجته!.. لم أقرر شيء ولم أقل سوى أن الفتاة قد تكون مناسبة لوائل في المستقبل!.. هل ستحاسبني على مجرد تفكير طاف بعقلي!!.. أي إرهاب هذا الذي تمارسه على تفكير البشر!..

للحظات التوت شفتاه في ابتسامة واهية وهو يكرر ببطء

- أنا!.. هذه صفة لم أرثها من أسمهان قطعًا..

نظر إليه والده بعينين تتقدان غضبًا، إلا أن سائد رد بهدوء مفاجئ شديد التحول وكأنه فحّ يرقد مترقبًا لالتهام فريسته

- ثرى ما هي المواصفات المناسبة فيها والتي أحيث بداخلك هذا الاقتراح!..

لم يرد خطاب، بينما تبرع سائد معدًا على أصابعه

- تكبره بعامين.. مطلقة.. لم ترها أو تعرف عنها شيئًا قبل أسبوعين.. وماذا لدينا أيضًا؟!..

صمت قليلاً متظاهراً بالتفكير، ثم لم يلبث أن هتف مشدداً
على كل حرفٍ بصوتٍ صادم ضارباً رأسه بإصبعه

- أنها تضع قناعاً بالله عليك!!!!!!..

ازداد ارتباك خطاب، لكن لكي يخفي اضطرابه تكلم قائلاً
باستياء وتقزز

- كل ما تنطق به رجعي متخلف!.. وكأن العامين اللذين
تكبرهما عن وائل سيشكلان فرقاً!.. ومالها المطلقة! ماذا
يعيبها!!..

كان سائد ينظر إليه غير مصدقاً، ذاهلاً وهو يهز رأسه ثم
لم يلبث أن أطرق برأسه محدقاً في الأرض وكأنه غير قادرٍ
على تحمل المزيد.. وكأنه يحاول التقاط أنفاس السيطرة كي
يتغلب بها على دقائق قلبه الهادرة من فعل الغضب..

وبعد لحظاتٍ فتح كفه ثم قبضه بشدة حتى ابيضت
مفاصل أصابعه ثم سأل والده بجمود مدعيًا الصبر والذي

كان مجرد زيف ساخر

- لا بأس، أنا رجعي متخلف.. عنصري ومتنمر وكافة الصفات التي يمكنك رمي بها، لكن هلا جاوبتني على مجرد سؤال تافه.. ما حكاية القناع إذن؟..

توتر والده أكثر إلا أنه قال مختصرًا وهو يلوح بكفه

- تعرضت لحادث ترك بعض الآثار على وجهها.. هل تدينها على هذا أيضًا؟!..

صمت سائد للحظة وهو يشرد بعينه تجاه الباب، ثم لم يلبث أن سأل

- ما هو الحادث؟.. ولما لا تغطي وجهها بصورة أكثر طبيعية إن كان يضايقها مظهره!..

تأفف خطاب مستديرًا لينظر من النافذة لا جواب لديه على ما يبدو، لكن سائد لم يتراجع بل سأله بإصرار

- ما هو سبب طلاقها إذن؟..

مجددًا تجاهل الرد عليه مما جعل سائد يهز رأسه وهو
يضيف زاهلاً

- أنت حقًا لا تعرف أي شيء عنها أليس كذلك!.. وعلى
الرغم من ذلك راودك اقتراح أن تكون عروس لابنك!..

رد خطاب بصوتٍ خفيض بعد فترة دون أن ينظر لابنه

- أعرف جيهاً جيداً.. ومعرفتي بها تكفيني لأدرك أن ابنتها
لا يعيبها شيء.. طلاقها أو وجهها.. ويؤسفني جداً أن تفكر
أنت بهذا الشكل..

تراجع سائد خطوتين مبتسماً ابتسامة قاسية سوداء، ثم
قال بصوتٍ خفيض

- يا إلهي، لقد سلبت تلك المرأة عقلك فعلاً!..

استدار خطاب إليه يواجه عينيه للمرة الأولى منذ أن بدأ

هذا الحوار ثم قال بثبات

- بل سلبت قلبي يا سائد وهذا شعور كنت قد نسيتته منذ زمن طويل جدًا.. لقد وجد كل منا في الآخر ما افتقده في حياته، لكن مهما بلغ افتتاني بها فهو ليس السبب في تفكيري بابنتها كزوجة لوائل.. لقد رأيت فيها الظروف المناسبة تمامًا.. شابة مطلقة، أي أنها تملك نضجًا يجعلها قادرة على مساعدته.. وإن كان وجهها مصابًا إلا أنها تملك جاذبية تنفع شاب مثله..

صح سائد بقرفٍ وكأنه ينطق شيئاً مشيناً

- تقصد جسداً رائعاً...

هتف خطاب مصدومًا من بين أسنانه وعيناه تشتعلان
ازدراءً- أنت مقرف، عديم التربية.. حيوان..

هذه المرة لم يضحك بل مال إلى والده يهمس بشراسة من
بين أسنانه

- أنت لا تريد له سوى امرأة تمتعه وتساعده على ذلك لقلة خبرته!..

رد خطاب بصوتٍ مختنق وهو يضرب سطح المكتب بقبضته

- طالما في إطار الزواج على سنة الله ورسوله فما المشكلة!.. أخوك شاب ويحتاج لزوجة في حياته عليها تساعده على حل مشكلته وتلبيه احتياجاته، ولقد حاولت أن أخطب له مراتٍ ولم تقبل به أي عرويسٍ أو أهلها ما أن يجلس معهم!.. إن كنت تهتم بأخيك لما نظرت إليّ بكل هذا القرف والازدراء الذي تنظر به إليّ الآن.. أخوك شاب يحتاج زوجة.. ولأن لديه ظروف خاصة، فلن تناسبه إلا شابة لديها ظروف خاصة أيضًا..

ساد صمت طويل وكلّ منهما ينظر للآخر نظرة نارية غاضبة بينما القلوب مشحونة بالكثير والكثير..

الكثير من الألم، أكبر من أن يقدر الغفران على تجاوزه..

كان خطاب هو من أشاح بوجهه ليقول بصوت أجوف خفيض وكأن حدة المعركة بينهما قد أرهقته

- لماذا تهتم يا سائد؟.. لم يسبق أن شغل بالك أمر يخص وائل أو أخته.. عد أنت لحياتك مبتعدًا عنا كما كنت واطرنا نحاول تبديد بعض من الألم الذي سكن هذا البيت طويلاً.. جيهان هي الأمل الذي عثرت عليه بعد عمر، وهذا البيت يحتاج إليها.. يحتاج للأمل.. أرجوك لا تصر على إبقاء الألم عقابًا لي، فقد عوقبت.. والله عوقبت حتى وإن لم تصدق

اهتزت حدقتا سائد للحظة وقد شحبت ملامحه، بينما تقلصت عضلات حلقه فاستدار عن عيني والده لكنه حين تكلم قال هازئًا

- جيهان هي الأمل الذي يحتاج إليه البيت.. والمصنع أيضًا؟!..

اتسعت عينا خطاب للحظة بغضب قبل أن يهمس من بين أسنانه مكلّمًا نفسه وهو يميل بوجهه - يا غبي يا صادق!..

ضحك سائد ضحكة عالية كان ممتنًا لقدرته على إصدارها
فللحظة كادت مشاعره أن تتغلب عليه ثم قال ببساطة

- أخبرتك أنه يتوجب عليك تغيير كاتم أسرارك..

زم والده شفتيه وهو يقبض كفيه، لكنه رد بقساوة - نعم،
قد تساعد جيهان في المصنع في أوقات فراغها.. هل لديك
مانع؟

ضحك مجددًا وهو يرجع رأسه للخلف بدرجة جعلت
خطاب يفقد أعصابه ويصرخ عاليًا

- قل أن المصنع هو لب اهتمامك.. كدت أن أصدق تلك
المسرحية الرخيصة الخاصة بأخيك والذي لم تهتم به من
قبل أبدًا.. لا تخف على ميراثك يا سائد، على الرغم من أنك
أنت من قرر ترك البيت والتخلي عن عمله في المصنع، إلا أنك
ستنال ميراثك ولن يسلبك أحد قرشًا من حقك بعد موتي..

كانت ملامحه جامدة تمامًا كعينييه وجسده.. لا قبس من
شعورٍ مر على وجهه، بل كان قاسيًا.. قاسيًا حد النفور، خاصة

حين رد معقبًا ببساطة وهو يهز كتفه

- على المرء أن يطمئن على حقوقه..

انعقد حاجبا والده بشدة وكأنه تلقى لكمة موجهة في معدته، لكنه استدار أمرًا بصوتٍ باهت

- اخرج من هنا.. واخرج من البيت، عد من حيث جئت.. فلا مكان لك بيننا..

التقطت أذناه صوت ضحكة ساخرة، ثم وقع أقدام ابنه وهو يبتعد حتى صفق باب المكتب خلفه بعنف، حينها التفت خطاب يتأمل الصورة التي سبق وأمسك بها سائد.. يتأمل الوجهين الجميلين طويلاً بملامح تعمقت خطوطها حتى أصبحت نقوشًا محفورة ثم أغمض عينيه ليضم الصورة إلى صدره ويربت عليها ببطء وحنان .

جلست على درجات السلم القليلة أمام باب البيت في

ساعة الغروب مكتفة ذراعيها حول ركبتيها وبجوارها على الأرض كوب شاي ترتشف منه كل حين بصمتٍ تام..

لقد اعتادت العزلة حتى باتت ترتاح لها، وإن كانت ليست خيارها منذ البداية.. العزلة هي نصيب كل من قُدِّر له أن يدخل هذا البيت ويسكنه بين أنسجة العنكبوت وذكريات الماضي

بيت كئيب وساكنوه أكثر كآبة.. لكنهم أفضل من الورود والنعناع وطيور الكناري في بيت أمها على أي حال..

سمعت وقع خطوات غاضبة خلفها ينوي صاحبها مغادرة البيت على ما يبدو، فدعت الله من كل قلبها أن يكون هو المغادر..

توقفت الخطوات للحظة ثم عاودت الحركة ببطء خلفها ذهابًا وإيابًا مما جعلها ترفع حاجبها بتوجس مرهفة السمع..

إنه هو.. وهي تعرف أنه هو من يتمشى خلفها!.. هل ضاقت به الدنيا كي لا يجد مكانًا يتمشى فيه سوى مقدمة باب

البيت التي تحب أن تجلس على سلالها!!..

ها هو يتحرك حتى اقتحم مجال رؤيتها..

اختلست نوران النظر إليه بطرف عينيها وهي تراه واقفاً
بملامح متجهة مستنداً بمرفقه إلى حاجز السلم الصغير،
ناظرًا للحديقة بعينين.. تُصارِعان..

كصفة دخيلة على هاتين العينين، اللتين ما عرفتهما خلال
طفولتها ومراهقتها إلا جامدتين بعيدتين..

عينا سائد كانتا العنوان الواضح عن طبيعة شخصيته
الجامدة اللامبالية.. لا تتذكر أنه اهتم بها يومًا، وكأنه لا
يبصرها من الأساس.. حتى حين تشي به لدى أمها على
جريمة ارتكبتها، لا ينفعل ولا يهددها.. بل يتجاهلها تمامًا
وكانها نكرة..

وكانه يهزأ من محاولة الإيقاع بمكانته عند أمها واثقًا أنها
مهمة مستحيلة لا يلزمها أي انفعال..

يمر بها في ذهابه وعودته.. لا ينطق بالتحية إلا إن ألقته
هي، فيرد عليها باقتضاب..

حتى الشجار لم يكن موجودًا بينهما، وكأنهما غريبان تحت
سقف بيت واحد..

كانا كحزبين.. حزب يضمها ووائل.. وحزب يضمه مع
سلسبيل..

في حزبه مع سلسبيل، كانت ترى تغير الجمود الطبيعي في
عينيه إلى حب جارف، واللامبالاة تنقلب إلى اهتمام وأسرار
متبادلة بينهما، كما يجمعهما حب المشاغبة والمزاح..

مع سلسبيل، كان سائد ينقلب شخصًا آخرًا.. ينقلب إنسانًا
يحمل المشاعر بكافة أنواعها

وبعد رحيل سلسبيل فقد هذا الجانب تمامًا وكأنه رحل
معه، فلم يتبق منه سوى الجمود وفقدان الروح..

سلسبيل..

لطالما كانت مثار غيرتها ونقمتها.. ليس لأنها الأجل شكلاً
وهذا صحيح بلا شك.. لكن بالنسبة لها الشكل ما هو إلا غلاف
فارغ زائل

ولا تغار منها لأنها كانت تحمل شعلة من الحياة، والتي لا
تعرف مثلها في نفسها الميالة للعزلة والسكون الدائم..

بل كان مبعث غيرتها، أن الحزب الذي ضم سلسبيل كان
الحزب الرابع والذي ثقلت كفته..

فحزبها ضم حب أخيها سائد واهتمامه البالغ، كما ضم دعم
أمها حنان.. حنان التي كان يفترض بها أن تكون أمها هي
والموالية لها قلباً وقالباً.. لكنها وزعت حبها بالتساوي على
أربعتهم دون تفرقة.. أهذا عدل؟!..

أما حزبها فعلام ربحت فيه؟!.. شقيقها وائل والذي قرر أن
ينأى بنفسه عن العالم وساكنيه بالفطرة فبالتالي لم يكن في
صفها مطلقاً..

ثم حب أمها والذي لم تتميز به عن سلسبيل وسائد في

شيء.. لقد أحبتهما حنان منذ اليوم الأول لدخولها البيت،
قبل حتى أن تحب طفليها اللذين أنجبتهما فيما بعد..

أما بالنسبة لوالدهم خطاب، فقد كان خارج المنافسة من
الأساس.. لم يهتم يومًا بواحدٍ من أبنائه حتى أصبح جميعهم
شبابًا، فقد أوكل المهمة لحنان وبقي هو غارقًا في عمله، لا
يشاركه سوى ذكرى أسمهان..

لقد حاولت اجتذاب اهتمام والدها لتكون مميزة ففعلت
عكس كل ما تقوم به سلسبيل.. سلسبيل المتمردة الراضية
لتحكمه بطموحها وتعمره كسر شخصيتها..

فالتزمت هي بقول نعم وحاضر.. وباتت الابنة المطيعة عليها
تحظى باهتمامه، لكنها لم تنل أي تميز..

لقد فشلت الخطة.. كما فشلت في الرجوع لطبع آخر غير
الذي التزمت به.. فبقيت الفتاة التي لا تقول سوى نعم

سائد لم يكن يومًا أخاها.. كان شقيق سلسبيل فقط..

لكن ما لا تفهمه هو سبب التغير الطارئ عليه مؤخرًا
تجاهها!!! لا يراها إلا ويستفزها حد الاختناق وكأنها اكتشف
وجودها حديثًا فوجد فيه التسلية والتسرية عن النفس..

يتعمد إحراجها ولا يهدأ له بال حتى يسمع صراخها
الغاضب ويرى احمرار وجهها المنفعل!..

لم تدرك أن ملامحها في تلك اللحظة بدت شديدة التجهم
خلال شرودها وأن عينيها مثقلتين وداكنتي التعبير حتى
أجفلت على صوت سائد يأمرها بصوت بارد فظ

- نوران.. اذهبي وأعدي لي كوب شاي..

اتسعت عيناها وحاجباها يرتفعان ببطء غير مصدقة لما
سمعتة للتو، ثم لم تلبث أن هتفت مستنكرة

- حضر ما تريده بنفسك!..

لم يرف له جفن وهو يرمقها ببرود أكبر وبلادة، لكن مع
زيادة لمعان الخطر في عينيه ثم قال مشددًا

- حين يطلب أخوك الذي يكبرك بثمانى سنواتٍ كاملة شيئاً
تقفزين من مكانك لتحضره..

أخذ ضغط دمها في الارتفاع وتنفسها في التسارع وهي
تفكر في العبارة الحاقدة التي سترميه بها، عاجزة أن إيجاد
الكلمات الشريفة كفاية..

وعلى ما يبدو أنه استطاع قراءة الألفاظ السيئة التي تريد
رميه بها في عينيها فحذرهما قائلاً ببطء

- فكري جيداً قبل التهور بالتجاوز معي.. والآن اذهبي
وأعدي الشاي..

قفزت واقفة بالفعل وهي تنفض تنورتها العملية من الغبار
ثم أمسكت بكوب الشاي الخاص بها قبل أن تقول بجفاء وقد
تمالكت أعصابها واستعادت طبيعتها الرزينة المثالية

- يمكنك أن تطلب من فتحية، والآن بعد إذنك سوف..

حاولت دخول المنزل، لكنها فوجئت به يعترض طريقها..

تحركت يميناً فوقف أمامها، تحركت يساراً فمنعها مجدداً..

حينها توقفت ورفعت وجهها إليه بشكٍ متسائلة

- هل أنت متعاطٍ شيئاً؟!.. ماذا أصابك؟!.. تبدو وكأنك تتعاطى شيئاً مؤخراً!!..

لم يبدُ على ملامحه الدهشة من سؤالها والذي بدا حقيقياً وكأنها تشك فعلاً في أمره، بل ازداد انعقاد حاجبيه وهو يجيبها بخشونة

- عليك أن تتعلمي الكلام بتهذيبٍ مع أخيك الأكبر يا نوران، صدقاً.. صحيح أنك كبرت قليلاً على هذا، لكن الأوان لم يفت بعد لتأديبك..

ثم أقرن قوله المستفز بالفعل حين أحاط عنقها بذراعه مخفضاً رأسها كلاعب مصارعة آمراً بفضاظة

- اعتذري..

صرخت نوران بجنونٍ وهي تحاول ضربه بقبضتها الحرة
دون جدوى

- لن أعتذر، ماذا أصابك؟.. هل جنت؟.. يا أبي.. يا أبي..

بدا سائد مسترخياً تماماً لا يبذل أي جهد للسيطرة على
مقاومتها الواهية ثم رد ببساطة

- لن ينقذك أحد من الاعتذار، والدك على الأخص لن يتدخل
فهو لا يتمنى شيء في تلك اللحظة بالذات سوى أن يختفي
من على وجه الأرض..

أخذت تتملص منه ضاربة الأرض بعصبية مما تتسبب في
انسكاب نصف الكوب المتبقي على قميصها الحريري..

ذعرت نوران وهي تنظر للبقعة المنتشرة على قميصها ثم
صرخت بأسى

- انظر ماذا فعلت بقميصي المفضل!!..

تركها سائد ببطء وهو يسألها - هل كان ساخناً؟!...أنا آسف
يا نوران كنت أمزح معك فحسب..

كانت تعاني من فورة الغضب التي شلت أطرافها، لكن
سؤاله العابر لجمها للحظة واحدة فقط.. فقط لحظة قبل أن
ترد عليه ببرودٍ جليدي مبتسمة

- لما لا تتأكد بنفسك؟!..

وقبل أن يفهم مقصد سؤالها مدت يدها بكوب الشاي
لترميته بالمتبقي فيه والذي كان باردًا فعلا إلا أنه ترك بقعة
مشابهة بدأت تتسع على قميصه!...

ارتفع حاجباه مصدومًا وهو يفتح ذراعيه ناظرًا للقميص،
مما جعل ابتسامتها تتألق بلون الظفر فرفعت ذقنها وتابعت
بلطفٍ وتهذيبٍ شديد

- بعد إذنك يا سائد، أنا مضطرة للدخول فلدي الكثير من
الأشغال.. أنت أيضًا لا تشغل نفسك أكثر من هذا، لقد قمت
بالواجب ووفيت.. إن غادرت البيت الآن فلن يلومك أحد..

ثم انسحبت من أمام عينيهِ المهددتين بأناقة، مفرودة الظهر..

كان لا يزال متجهماً فارداً ذراعيه لكن خلال لحظتين بدأ طيف ابتسامة في رفع زاويتي شفتيه..

ابتسامة لم تكتمل حين لاحظ حركة خلف النافذة التي تعلوه والمطللة على الحديقة الأمامية فرفع رأسه مدققاً النظر في الستار المسدل، لكنه لاحظ وجهًا يراقبه من خلف هذا الستار، لا يظهر منه سوى جزء بسيط وأصابع ممسكة بطرف الستار..

وجه سرعان ما أختفى في لمح البصر ما أن رآه.. وجه أبيض صلب لا ملامح له!..

وجه خلف الستار الحاجب لغرفة.. زاد .

دخلت من باب البيت وهي تنفض قميصها، مرتعشة من

شدة الحنق.. شفتاها تتحركان بشتائم هامسة حتى كادت أن ترتطم بجيهان في منتصف البهو مما جعلها تقف على الفور، محاولة استعادة هدوء ملامحها والبسمة الفاترة على شفتيها قائلة بلطف

- مرحبًا جيهان..

بدت جيهان شاحبة الملامح قليلًا، لكنها سألت بقلق واهتمام

- هل أنت بخير يا نوران؟!...

أجابتها معمقة ابتسامتها ببشاشة لا تملكها في الواقع

- بالطبع أنا بخير تمامًا.. لما لا أكون؟!..

ترددت جيهان للحظة وهي تنقل عيناها بين نوران والباب خلفها، ثم قالت بخفوت

- رأيته تدخلين من باب البيت وعلامات الغضب تبدو

عليك وكنت تشتمين أحدهم!.. وما هذا؟!.. هل وقع الشاي عليك؟!.. هل أحرقت نفسك؟!..

أقلت السؤال الأخير بنبرة أكثر قلقًا حين لاحظت البقعة على قميصها، إلا أن نوران ردت بلطف زائد

- كان مجرد غباءٍ مني، فلم أكن منتبهة.. كما أن الشاي كان قد برد بالفعل.. شكرًا لقلقك يا جيهان..

حاولت تجاوزها والمرور إلا أن جيهان اعترضت طريقها وبدأت أكثر توترًا وهي تشبك أصابعها مما أثار بداخل نوران رغبة في الصراخ بجنون

“ما بال الجميع اليوم يعترضون طريقي!..”

إلا أن ملامحها ظلت على ابتسامتها المجاملة الأشبه بابتسامات تماثيل العرض وربات البيوت في الزيارات الغير مرغوب فيها..

رمشت جيهان بعينيها عابسة الملامح يبدو عليها بعض

الخوف، وكأن على لسانها كلامًا تود قوله لكن التردد يمنعها،
فانتظرت نوران ضاغطة على أسنانها بشدة خلف تلك
الابتسامة المنمقة.. حتى رفعت زوجة والدها عينيها ناظرة
إليها أخيرًا سائلة ببطء

- نوران أريد سؤالك عن شيء، وقد شجعني لطفك في
استقبالي وتقبل وجودي هنا في البيت بهذه السرعة.. هل..

هل سائد رافض لوجودنا فيه؟.. أو على الأقل، وجود
ابنتي؟..

تظاهرت نوران بالدهشة البالغة وهي تهتف مستاءة

- آه لا!.. ما الذي جعلك تظنين شيئًا مريبًا كهذا يا جيهان؟!

بدت جيهان أكثر ترددًا إلا أنها جاوبت بخفوت أقرب
للهمس ناظرة للباب من بعيد خوفًا من أن يسمعها أحد

- لا أعلم.. لكن تصرفاته بدت لي غريبة مقلقة منذ ليلة
أمس، واليوم صباحًا.. كما أنني سمعت منذ قليل أصواتًا تبدو

كشجارٍ بينه وبين والده في غرفة المكتب وأظنني سمعت اسم زاد في حوارهما.. لكنني ابتعدت دون أن أتأكد..أنا..

أنا أعرف أنكم جميعًا بعد أن فوجئتم بخبر زواج والدكم، لم يمر الوقت الكافي حتى صدمتم بخبر مجيء زاد معي إلى هنا..

وربما فاق ذلك قدرتكم على تقبل التغيير السريع الذي طرأ على حياتكم.. لكنني حين تزوجت خطاب لم يكن لدي علم أن زاد سوف.. أقصد أنها.. لقد فوجئت بها..

بدى تلعثمها في الكلام غريبًا في نهاية كلامها وكأنها تخاطب نفسها وقد اختنق صوتها وظهرت الدموع في عينيها الشاردتين.. فأحست نوران بالفضول لتعرف المزيد عن ابنتها الغريبة والمخيفة زاد..

لكن صمت جيهان المفاجئ وتوتر جسدها وكأنها أدركت ما تقوله فانتبهت لنفسها وتوقفت على الفور جعل نوران تغتاض، ومع ذلك أمسكت بكف جيهان وقالت بلطف

- أنتِ وزاد أكثر مرحب بكما هنا، فهذا بيتكما.. أما عن سائد فلا تهتمي كثيرًا بتصرفاته، إنه لا يقدر على منع نفسه من تكدير الجميع.. هذا طبعه وقد اعتدنا عليه..

إن كانت تريد بكلامها هذا أن تطمئن جيهان، فقد فشلت تمامًا، لأنها لم تنجح إلا في زيادة قلقها وامتناع وجهها.. وكم بدت جيهان في تلك اللحظة كطفلة تائهة عاجزة عن اتخاذ القرار المناسب!..

لكنها بعد لحظة نظرت إلى نوران وهمست بصوتٍ مترج وبعينين متوترتين

- نوران، هلا بقيتما أنتِ وشقيقك وائل فترة أطول معنا أرجوكم؟..

صمتت للحظة وهي تشيح بوجهها قبل أن ترفع كفيها تغطي بهما فمها مفكرة، ثم هزت رأسها يأسًا

- ما الذي أقوله؟!.. هذا ليس الانطباع الملائم الذي قد أمنحه لوالدتكما وأنا أبقىكما هنا فترة أطول مما ظنت ومنذ

اليوم الأول..

لم تكن يومًا مهمة لأي أحد سوى أمها.. وجيهان لا تطلب بقائهما إلا لينشغل سائد بهما مكدرًا حياتهما عله ينسى وجود زاد

لكنها لم تنطق بأي مما فكرت به بل مالت نوران بوجهها المبتسم تشدد على أصابع جيهان قائلة

- لم نعد أطفالاً في حاجة للمبيت مع أمنا كل ليلة.. أمي هي من تشجعنا على قضاء وقت أطول مع أبي، فإن كنت لن تشعري بالتعدي على خصوصيتكما في بداية زواجكما وتفضلين بقائنا فعلاً.. إذن يمكننا البقاء فترة أطول..

تأوهت جيهان مرتجفة وهي تلوح بكف نوران الممسكة بيدها وكأنها ودت في لحظة ضعفٍ لو ضمتها إلى صدرها ممتنة ثم همست بصوتٍ مبحوح وقد عادت الدموع لتظهر في عينيها من جديد

- كم أنت جميلة!.. وكم أنا محظوظة بوجودك هنا.. شكرًا

لك.. شكرًا لك..

بدا وكأنها غير قادرة على الكلام أكثر.. فتركت كف نوران لتبتعد واضعة يدها على قلبها بعد أن نالت ما تريد ولم يعد هناك شيء ليقال.. حينها أسقطت نوران قناعها البشوش وعادت لملامحها الموحشة شاعرة بالوحدة أكثر من ذي قبل..

يبدو أن زاد ستكون هي محور الاهتمام في الأيام المقبلة!.. لكن ما الجديد..

بعض الناس خلقوا ليكونوا أبطالاً على المسرح وبعضهم خلقوا كمتفرجين.. وبالنسبة لها فقد أتقنت دور المتفرج منذ سنواتٍ طويلة..

واحد.. اثنان.. ثلاث.. تغمض عينيها وهي تعد بصوتٍ خفيض منسجم مع دقائق الساعة التي لا تفارقها مطلقًا..

مائة وخمسون.. مائة وواحد وخمسون.. مائة واثنان
 وخمسون.. مائة و...

قاطعها صوت طرقاتٍ هادئةٍ على باب غرفتها فتوتر
جسدها على الفور وصمتت تماماً ملتفتة تراقب الباب بحذر
وهي تكتُم أنفاسها..

هذه ليست أمها دون شك، فأمرها تدخل دون أن تطرق
الباب..

قررت ألا تصدر صوتًا عل الطارق يظنها نائمة فيبتعد.. لكن
صوت الطرقات مجددًا جعلها تنتفض وتنهض من مكانها
لتقترب من الباب بحذر حتى وقفت خلفه وكفيها على
سطحه ترهف السمع..

طريقة جديدة تحت أذنها مباشرة أجفلتها فكادت أن تشهق
لولا أن كتمت فمها بيدها في آخر لحظة..

ازدردت لعابها ثم همست بصوتٍ خفيض مرتاب

- من؟!....

بدا أن الطارق شك في سماع شيء ما.. فطرق الباب من جديد بقوة أكبر مما جعلها ترفع صوتها بنبرة متوترة خشنة

- قلت من؟!..

ساد الصمت للحظة، ثم جاءها صوت أنثوي يرد بتوجس وإنما بمودة مبالغ فيها

- أنا.. أنا نوران.. ابنة زوج والدتك.. قابلتك اليوم صباحًا على درجات السلم..

انعقد حاجباها بشدة وتقلصت أظافرها على سطح الباب الخشبي مصدرة صوتًا خادشًا، لكنها ردت بعدم ترحيب بعد لحظات

- نعم؟!..

لم تر نوران التي تقف على الجانب الآخر رافعة حاجبيها

تدير حدقتي عينيها متسائلة إن كان تصرف زاد يماثل
ارتدائها قناعًا في غرابة الأطوار!.. لكنها ردت ضاحكة بحذر
تظهر ربيتها بين طيات سؤالها

- هل يمكنك فتح الباب؟.. أنا لا أعض

ظنت أنها سمعت صوت شيء ارتطم بشيء آخر.. أو ربما
صوتها هي.. كان شيئاً غير محددًا إلا أنه بدا غريبًا ومخيفًا
للدرجة التي جعلت نوران تتراجع للخلف خطوة بخوفٍ
حقيقي..

وبعد لحظاتٍ سمعت صوتها يقول ببطءٍ وعلى كرهٍ شديدٍ

- لحظة....

ساد الصمت مجددًا مما جعل نوران تهمس لنفسها باستياءٍ
بالغٍ أقرب للامتنعاض

“لم يكن ليضرك إظهار بعض الحماس من باب اللياقة على
الأقل!..”

ثم تأففت بنفاد صبر متسائلة عما تفعله تلك الشابة الغريبة!.. حينها فتح الباب بحذر، لمجرد شق ضيق، فمالت نوران بوجهها تنادي باستغراب

- زاد!... هل أنت بخير؟.. إن كنت غير مرتدية ملابسك مثلاً فلن أنظراً!..

رفعت حاجبها أكثر، حتى لمحت نصف وجه زاد يظهر من خلف حافة الباب،.. كانت تضع القناع!..

يا إلهي!.. هذا شيء مخيف حقاً!..

ابتلعت نوران ريقها ثم قالت بابتسامة عريضة مهتزة وترفع كفها ملوحة

- مرحباً.. هل تذكرتني؟..

ضيق زاد عينيها بعض الشيء، لكنها ردت بعد فترة بخفوت دون ابتسامة أو أي تعبير محدد

- أهلاً..

وقعت الابتسامة عن وجه نوران على الفور، تبادلها النظر
بدهشة وشعور بالإهانة من ذلك اللقاء الفاتر، ثم لم تلبث أن
قالت بنبرة جدية وإن كانت لطيفة

- أنا أتفهم شعورك في هذه اللحظة، لقد كان تصرفي هذا
الصباح عديم التهذيب قطعاً.. ولذلك جئت أقدم لك اعتذاري

بدا الحذر على عيني زاد من خلف القناع، لكنها اضطرت
للقول بعد لحظات ببطء

- ليس هناك ما تعتذرین عنه....

مالت نوران بوجهها تسأل بشك - أتعين أنك لست غاضبة
أو أنني.. لم أجد شعورك؟..

أسبلت زاد جفنيها بعض الشيء ثم ردت بجمود

- طالما أنني أضع قناعاً بمحض إرادتي، يتعين علي تقبل

إجفال من يراه..

أومأت نوران بوجهها برهبة، وكأنها ارتاحت بعض الشيء
كون تلك الشابة تتكلم ببعض المنطقية.. لقد شكت في لحظة
أنها قد تهجم عليها أو تقدم على تصرف غير سوي يلائم
ارتدائها قناعًا..

تنحنت قليلاً ثم ابتسمت قائلة بتهذيب

- هذا كرم منك في الواقع.. حسناً إذن بما أننا نبدأ تعارفًا
جديدًا نعوض به البداية السيئة هذا الصباح، فقد جئت
أدعوك لتناول طعام العشاء معنا بالأسفل.. لقد سألت جيهان،
لكنها أكدت أنك سترفضين اقتراحي فوعدتها واثقة أنني
سأتمكن من إقناعك.. أرجو ألا تخذليني..

انقبضت أصابع زاد على حافة الباب قليلاً، ثم ردت بعد
فترة وكأنها كانت تفكر في الأمر بالفعل، لكن الجواب جاء
قاطعًا فظًا

- لست جائعة....

ففاظظتها وااختصارها في الرد منع نوران من المحاولة أكثر
فقالآ تهز كآفها آسألها باآآعآاف لآف وكأنها آرجوها

- ربا مرة أخرى إذن؟..

عادت زاء لآآفض آفنيها، لكنها ردت بآفوت وكأنها
آصارع نفسها- ربا..

آظاهرت نوران بالآماس لهذا الوعد.. إن آم اعآباره وعدًا
بالآعل، فمآآ آدها قائلة بباءرة آرحفب وسلام

- آآرفت بآعرفآك آا زاء وآآوق لآكوفن صاءقة قوية
بفبنا..

نآرت زاء لكف نوران المآآة بقلق واضح آآى أن الآوتر
آهر على آسآها على الفور مآ آعل نوران آقلب كفها
آنآر في رآآها بشكٍ آم أعاءآها لوضع المصافآة من آآف
مآآرة باآآفاء آآلى بالآ..

لكن فبآو أن زاء قد شعرت بالآرج من مآ فظاظآها

وسوء تهذيبها، فاضطرت لفتح الباب قليلاً ثم مدت يدها على مضض.. لتمسك بها نوران والتي لم تكتف بل اقتربت منها تقبل وجنتيها ذات اليمين واليسار وعلى الفور شعرت بتشنج زاد التي حاولت ارجاع رأسها للخلف قدر الإمكان لكن نوران نجحت في تقبيل وجنتي القناع ثم تراجعت للخلف مبتسمة وهي تقول وكأن شيء لم يكن

- أنا مضطرة للنزول الآن لتجهيز عشاء العروسين.. أراك قريباً؟..

أومأت زاد برأسها بتردد، ثم أغلقت الباب قبل حتى أن تتحرك نوران من مكانها والتي اتسعت عيناها رافعة حاجبيها ثم سارت ببطء في الرواق وهي تقلب كفيها هامسة لنفسها بعجب

“ أكان ينقصنا المزيد من المصائب!.. ”

ألف ومائتان وثلاثون.. ألف ومائتان وواحد وثلاثون.. ألف

فتح الباب هذه المرة دون طرقٍ عليه، مما جعلها تنحني بسرعة قائلة وهي تمسك بقناعها الموضوع أرضًا بجوار قدمها

- انتظري من فضلك..

وحاولت بأصابع مرتعشة متعثرة أن تثبته حول وجهها فهتفت أمها بصوتٍ ينضح ألمًا وصدقًا مكررة مرة أخرى بل مرة عاشرة

- صدقيني يا حبيبتي... أرجوكِ صدقيني الأمر ليس بمثل هذا السوء الذي تتخيليه..

لم ترد زاد عليها وكأنها لم تقل شيئًا حتى انتهت من وضع القناع، فأغمضت جيهان عينيها طويلاً.. وحين طال الصمت تجرأت زاد على القول بصوتٍ خفيض دون أن تستدير إلى أمها

- أعرف أن هذا البيت هو بيتك الآن وأنتي ضيفة فيه..
وأعرف أنه لا يحق لي أن أطلب أي شيء منك.. لكن هو..
رجاء.. هلا طرقتِ الباب قبل دخولك للغرفة؟..

ساد الصمت خلف ظهرها فلم يكن لديها فكرة عن التعبير
الذي ارتسم على وجه جيهان، لكنها سمعتها تقول بنبرة
خفيضة حازمة ربما للمرة الأولى منذ عودتها

- أنا أتعمد دخول الغرفة دون أن أطرق الباب.. كي لا تجدي
الوقت لوضع هذا القناع المقيت، لكنني لم أنجح في هذا
حتى الآن..

مالت زاد بوجهها تسأل بنبرة خفيضة - ألا يحق لي بعض
الخصوصية؟!..

لم ترد أمها على الفور بل ظلت تنظر لابنتها بأسى ثم
همست بنفس الصوت الرزين

- إن أردتِ الخصوصية التي تطلبين لكنتِ أغلقتِ الباب
بالمفتاح.. لكنني لاحظت أنك لا تفعلين..

صمتت قليلا ثم سألتها بحذرٍ أكبر- هل تخشين إغلاق الباب
بالمفتاح أم ترفضين هذا يا زاد؟..

لم ترد.. لم تحاول الرد مطلقًا..

اقتربت منها جيهاً حتى أمسكت بكتفها لكن زاد أشاحت
بوجهها جانباً فقالت أمها بخفوتٍ تترجاها

- اشرحي لي يا زاد.. تكلمي وأنا على استعداد للسمع دون
النطق بكلمة..

مجددًا لا رد.. فتنهدت وهي تهز رأسها بيأسٍ ثم حاولت
مجددًا فهمست

- لم نتكلم أبدًا منذ عودتك يا زاد.. أعني كلامًا حقيقيًا... لقد
غبت ثمانى سنوات يا حبيبتي.. ثمانى سنواتٍ كاملة مؤلمة
معذبة لقلب أمك، ألا تشفقين عليها؟! متى تحكين؟! متى
تخرجين ما تكتمين في قلبك فيستقبله قلبي ويحمل عنك
بعض من ألمك؟..

أغمضت زاد عينيها تحت القناع، فتركها أمها وهي تتنهد
نحيبًا مؤلمًا واستدارت هامسة بصوتٍ مختنق

- سامحيني.. سامحيني يا زاد.. كنت أنا السبب..

رفعت زاد وجهها تنظر إليها وكأن القناع قد اتخذ تعبير
الصدمة فتشكل خطوطًا ترسمها.. ثم تكلمت أخيرًا بصوتٍ
متقطع

- كرم بالغ منك أن تنسبي الجرم لنفسك.. شكرًا..

هزت جيهان رأسها مختنقة وقد فقدت الأمل في هذه
اللحظة فقالت بصوتٍ واهٍ كي لا تنفجر في البكاء

- سأتركك لعزلتك لبعض الوقت يا زاد، لكن تذكرني أن أمك
الآن موجودة على الجانب الآخر من الرواق.. لا يفصلك عنها
سوى باب، اطرقه فحسب.. واتركي الباقي لي..

توجهت للباب وأمسكت بمقبضه تنظر إليه ثم حادت
بعينيها تجاه عيني زاد وقالت بهدوء

- سأترك هذا الباب مفتوحًا بعض الشيء.. لبعض الوقت،
ثم بإمكانك إغلاقه بعد ذلك، فقط تمتعي بالنظر إليه مفتوحًا
قليلاً.. ربما بعدها فكرت في الخروج منه كما فعلت هذا
الصباح..

ابتسمت متابعة بصوت هامس على الرغم من الدموع في
عينها - أنا فخورة بك يا حبيبتي..

تسير بخطوات واسعة وبخلاف جسدها المشدود
وخطواتها الأنيقة وذقنها المرفوع، كانت شفتها ترتعشان
وكأنها على وشك البكاء.. تنتفض وجسدها يرتج بكل خلية
فيه، التنفس في حد ذاته بات مهمة شاقة وكأنها تعاني نوبة
اختناق.. تتحرك باتجاه غرفتها والأصوات تتداخل في عقلها
حتى وقفت أمام الباب وأوشكت على أن تمسك بمقبضه..
لكنها كانت لحظة واحدة فقط قبل أن تتراجع وتعود في خط
مستقيم بخطوات أسرع من ذي قبل حتى وصلت إلى غرفة
بعينها فرفعت قبضتها لتطرق الباب بنعومة..

كان على وشك ارتداء قميصه القطني ممسكًا به حتى
سمع صوت طرقاتٍ على الباب مما جعله يتأفف بنفاذ صبر،
يبدو أن نوران اكتشفت أنها لم تنل حقها كما يجب وأتت كي
تكمل.. فلا احتمال أن يطرق بابه غيرها في هذا البيت..

حسنًا لقد أتت لتتلقى ما فيه النصيب، قسمًا بالله سيفرغ
فيها شحنات اليوم كاملة..

لكن ما أن فتح الباب حتى تسمر مكانه رافعًا حاجبيه وهو
يرى جيهان واقفة أمامه تبتسم ابتسامتها الرقيقة الراقية ثم
بادرت بالقول بصوتها اللطيف

- مساء الخير يا سائد..

رفع يده تلقائيًا بالقميص أمام صدره ولم يرد عليها على
الفور، بل مد رأسه خارج الباب ناظرًا في الرواق الخالي ثم
أعاد عينيه إليها وهو يقول ببطء

- مساء الخير.. هل ضللت الطريق؟!..

لم تفقد ابتسامتها بل أجابت بكل هدوء محافظة على
رباطة الجأش

- بل أتيت أكلّمك في موضوع مهم..

تحركت حدقتاه وهو يرفع حاجبًا ثم قال ببطء أكبر- هل
يمكنني ارتداء قميصي على الأقل؟...

هزت رأسها نفيًا وهي تقول ببساطة رغم النبرة المهددة
الخفية في صوتها

- لا داعي.. مجرد كلمتين فقط.. لا تحاول ازعاج زاد بعد
الآن، إن كنت رافضًا لزواجي من والدك فما عليك سوى
القول.. حينها سأخذ ابنتي وأرحل حتى وإن رفض خطاب..
لكن لا داعي لأن تتخذ طريقًا ملتويًا من خلال زاد، لقد عانت
ابنتي كثيرًا ولم أكد أصدق بعد أنني استعدتها بعد غياب
طويل..

ضاقت عينها سائد وهو يستمع إليها دون أن يحاول
مقاطعتها فصمتت للحظة وهي لا تزال مبتسمة ابتسامة

شبيهة بابتسامة أخته نوران حين تكره أحداً.. أتراها جلست مع نوران أكثر من اللازم فنضحت عليها!..

تكلمت جيهان أخيراً قائلة بكل هدوء متابعة

- لا أظنك بالسوء الذي تدعيه.. لكن توجب عليّ تنبيهك على كل حال...

ساد الصمت للحظة وقد ارتفع حاجبه أكثر وأكثر.. فقالت بوداعة

- سأتركك الآن لتتابع ما كنت تفعل، ولتفكر فيما قلته.. تصبح على خير..

ثم أولته ظهرها وابتعدت عنه بخطواتٍ ثابتة وقد غابت الابتسامة أخيراً عن وجهها.. لطالما كان الجميع يشيد بحسن تصرفها ورجاحة عقلها دائماً فما الذي فعلته للتو!!.. هل تسرعت وأثارت استفزازة!..

أخرج سائد وجهه من الباب خلفها وقال ملوحاً بكفه

ببراءة- لم أفعل سوى سؤالها عن اسمها!!..

رفعت جيهان كفها تلوح له دون أن تستدر بل تابعت طريقها أما هو فظل واقفًا يراقبها حتى اختفت عن ناظره ثم ابتسم ساخرًا لاحظ فجأة أنه لا يزال ممسكًا بالقميص أمام صدره كالأخرق فتأفف يرميه في الغرفة قبل أن يدخل صافقًا الباب خلفه بعنف..

حانقًا في الواقع، فما كانت السخرية التي ادّعاها إلا مجرد قناعًا أخفى به اضطرابه..

- كريم

أن يسلبك أحدهم فكرة، سبق واستنزفت ذهنك لتعثر عليها، محاولاً استحضار الجزء النقي من مشاعرك والذي يتوهج تحت غبار الروتين والصدأ قابلاً منتظرًا أن تكشف وهجه مزيحًا الستائر المعتمة عنه.. لتطعم به تلك الفكرة فتخرج منها شيئًا من وحي إبداعك لاهثًا من فرط الحماس..

ثم يسلبك إياها أحدهم!..

هكذا بكلِ بساطة!.. أتسلب الأفكار كما تسلب حافظات النقود والملابس من على الحبال!..

لطالما رأى أمامه حالات سرقات الأفكار، لكن حتى مع أكثرها جرأة ووقاحة لم تصل إلى حد السرقة بمعناها المجرد!!

أن تُسرق فكرتك وجهودك لا لتنفيذ مثلها.. بل لشركل أنت خارجها في غمضة عين وأنت لا تعرف كيف حدث هذا وبتلك السلاسة!..

هذا هو ما جال في عقله بصوتٍ ساخر وهو يجلس أمامهم ينقل عينيه بينهم.. يتساءل بخلاف تساؤلاته الأولى، سؤالاً آخرًا مختلفًا.. كيف رأى فيهم الشركاء من قبل!!..

شركاء في فكرته، لا في مشروع مادي حدوده الربح والخسارة!..

كيف رأهم زملاء فكرة فنية!!! فحين ينظر إليهم الآن واحدًا
تلو الآخر لا يرى سوى رجال أعمالٍ باردي المظهر والتعابير!

كيف عمت عيناه عن رؤية الاختلاف!..

لقد كان جالسًا أمامهم مرتديًا ملابس المريحة البسيطة،
ماددًا ساقيه تحت الطاولة مكتفًا ذراعيه، بينهما يرتدون
الخلل الرسمية وربطات العنق لمقابله هو!.. صديقهم!.. أو
كان صديقهم!..

كانوا يومًا بعيدًا مجموعة من الأصدقاء، طلاب في المعهد
سقف أحلامهم السماء..

جمعتهم أحلام الإبداع وتقديم عروض تجوب العالم.. كانوا
يملكون الثقة والحلم ولا شيء آخر غيرهما..

كان هذا قبل أن تستقبلهم الدنيا الشرسة بذراعيها
كالمطرقة والسندان لتثبت لهم أن الأحلام لا مكان لها على
سطح الأرض

فشل بعد فشل.. حتى بدأ اليأس يتسلل إليهم واحدًا تلو الآخر ثم تفرقت بهم الطرق محاولين إيجاد مكان لهم على الأرض طالما أنهم لم يتمكنوا من لمس السماء.. كانت فرحته لا توصف حين عثر على واحد منهم ليفاجئ بأنه على اتصال بالباقيين..

أجفله أنهم تحولوا لرجال أعمال أو على الأقل أصحاب أعمال يمولها رجال الأعمال ذوي الصيت والنفوذ وقطعًا..

الكثير من المال.. الكثير والكثير مما يفوق أحلامهم القديمة ويطمسها تمامًا.. فتغيرت أشكالهم وملابسهم.. كما تغيرت ملامحهم ونظرات أعينهم..

كيف أغفل عن حقيقة واضحة وضوح الشمس!!..

لقد بقي هو كما كان، نفس الأحلام العريضة والتي لم يتحقق منها سوى الشيء اليسير.. أما الفنان منهم فقد تحول إلى النوع التجاري من الفن.. الأرخص قدرًا والأعلى ربحًا..

لم يحاكمهم، ولم يدينهم.. بل لمعت في ذهنه فكرة زاغت

لها عيناه..

لما لا تجمعهم الأحلام من جديد!.. وهذه المرة لديهم التمويل من خلال واحد من أكبر رجال الأعمال في البلد والذي تتعامل معه - نسرين.. زميلته والتي كانت راقصة باليه ذات يوم تتحرك على أطراف أصابعها وكأنها لا تلامس الأرض..

كانت كالفراشة ترفرف بجناحين بألوانٍ براقّة، حين كان ينظر إليها يحس أنها لا ترقص بل تعزف لحنًا بأطراف أصابعها..

لم يعثر على مثلها أبدًا..

حتى هي لم يعثر عليها بعد لم شملهم مجددًا.. فتلك التي تجلس أمامه خلف طاولة اجتماعات عريضة ترتدي حلة رسمية ضيقة وازدانة ساقًا فوق أخرى ترمقه بصلافة وكأن عينيها حذرًا لا أثر فيه لأي لحنٍ من أي نوع..

لم تعد فراشة الماضي..

لقد ثقلت.. ثقلت جدًا وكأنها باتت غير قادرة على تحريك قدميها والقيام من فوق ذلك الكرسي والذي تبدو وكأنها التصقت به!..

لا لم يزد وزنها جرامًا واحدًا، بل حافظت على رشاقتها ببراعة رغم مرور السنوات الطويلة.. لكن الثقل كان بداخلها بوزن أرقام تسبقها أصفار كثيرة..

الآن فقد استطاع أن يرى فيها ذلك البرود الذي جمده.. أين كان ذلك البرود ساكنًا وعيناها تتألقان ما أن أخبرها عن فكرة العرض الذي يحتاج إلى من يتبناه..

عرض ضخمة يحمل اسمه، ليس واحد من عروض الباليه الكلاسيكية القديمة الشهيرة.. بل عملٌ كاملٌ من بدايته لنهايتها كقصة تعرض لأول مرة في حفلٍ دولي كبير يضم العديد من العروض لكل من تقدم باحترافية ولديه العرض المميز اللائق ببلده..

ولكل من لديه الفكرة..

وهو كان يمتلك الفكرة.. ولديه العرض..

لكن الفكرة تحتاج ممول، أو ما يعرف بالراعي الرسمي..

ترجأها أن تتوسط له لدى رجل الأعمال الشهير كي يتبنى فكرة هذا العرض ولديه الفريق الكامل الذي سعى لتدريبه بكل طاقاته..

ولم يلقاه.. بل كانت هي الوسيط بينهما والتي أبلغته ذات نهارٍ رائع أن الممول وافق ويدعم الفكرة بكل ما لديه..

لم تسعه الفرحة حتى أنه نسي نفسه وأحاط خصرها بذراعيه يرفعها عن الأرض ليدور بها صارخًا وهي تشاركه الصراخ ضحكًا مجنونًا وكأنهما عادة شابين في مقتبل عمرهما قبل أن تفرقهما الحياة بدروبها.. وكانت بداية جذوة جعلت صراخهما يخفت تدريجًا وكلّ منهما ينظر للآخر بتردد.. تلك اللحظة سأل نفسه.. هل يعقل أن تكون الحياة قد خبأت له المزيد والمزيد منها!!.. بعد كل تلك السنوات لم ينجح أي منهما في علاقة.. ومنذ رآها شعر بشيء يتقد بداخله..

لقد حملت الأيام التالية له مذاق الأمل.. الفرحة.. والنجاح..
وشعلة الرغبة تقديم الأكثر والأكثر.. كما حملت له مذاق
الحب.. أو ما توهم وفصًا تسميته حبًا بكل سذاجة!

الآن وهو جالس تفصل بينه وبينها تلك الطاولة الضخمة
المقيبة وكأنها مائدة زفافٍ دون طعام أو مدعوين..

انخفضت عيناه لتتأمل الخاتم الضخم الذي زين إصبعها
حديثًا.. يا له من حجرٍ بارد قاسٍ يماثل بريقه بريق الجليد
في عينيها!!!..

تراجع في مقعده وهو يرفع وجهه، ليقابل هاتين العينين
الباردتين ثم سأل بصوتٍ جامد

- ماذا تعنين بالضبط بعبارة " لكي ننقذ السفينة بمن عليها،
على واحد أن يقفز"؟!..

أسبلت جفניה وهي تتلاعب بقلمها على سطح الطاولة
دون أن يظهر أي ارتباك على ملامحها، وعلى ما يبدو أنه لن
يحصل على ردٍ منها..

لذا تطوع حسام الجالس بجوارها على القول ببطء مدعيًا
الحرص

- الأمر لا ينجح يا كريم.. التعاون بات مفقودًا بين القائمين
على العرض، وهذا مؤشر سيء.. لقد تم دفع الكثير، وحين
أقول الكثير.. فهذا يعني الكثير.. جدًّا.. لكنك بالطبع لا تهتم
بالأرقام..

صمت للحظة وهو يلوح بكفيه، ثم تابع ممتعضًا

- لأنك فنان.. كما تتشدد علينا بالقول كل حين وكأننا لسنا
خريجي معهد واحد..

أمال كريم وجهه كي يواجه حسام بما أنه اتخذ على عاتقه
المهمة الصعبة بضرب الرصاصة الأخيرة بينما تخاذل البقية
معتمدين على أن يتحلى باللياقة الكافية ليقفز من تلقاء
نفسه..

لكنه رد بصوت هازئ

- خاصة وأنت أنت بالذات يا حسام، عملت- (بالفن بعكسهم.. صحيح أنه نوع مختلف من الفن، لكنك تسميه فنًا..

زم حسام شفتيه وهو يتراجع في مقعده ملتفتًا ينظر للجنة الحكم المنعقدة ضد الزميل المجنون، فبادلوه النظر بنظراتٍ ما بين ارتباكٍ وأخرى ذات مغزى استطاع أن يلمحه بشكلٍ لا بأس به..

الآن مالت نسرين للأمام مشبكة أصابعها فوق الطاولة ثم قالت بصوتٍ هادئٍ إلا أنه كان أشد نبرة وأكثر قسوة

- اسمع يا كريم.. لقد انقسم فريقنا حزين، مما أفسد سير التحضير والتدريب على العرض.. حزب يضمنا جميعًا، أما الحزب الآخر..

صمتت وهي تهز رأسها رافعة حاجبها بعلامة لم يفتها معناها، ثم أضافت متنهدة بتعب

- فلا يضم سواك..

كتف كريم ذراعيه ناظرًا لعينيها، فتبادله النظر دون أن
يرف لها جفن.. كيف أعمت فرحته ببدء حلمه، قلبه عن رؤية
هذا الجليد في عينيها!!..

تكلم سائلًا بصوت أجوف دون أن يرفع عينيه عن جبلي
الجليد في هاتين العينين الناظرتين إليه بجفاء وكأن شيئًا لم
يجمع بينهما ذات يوم..

- والمراد يا نسرين؟!..

تنهدت مجددًا وهي تنظر إليه نظرة عتابٍ وكأنها تلومه
على تضييع الوقت في المناورات التي لا طائل منها، لكنها
طاوعته وأجابت بقسوة

- على واحد من الحزبين الانسحاب..

مالت شفتاه في ابتسامة واهية ثم رد ببديهية - إذن
انسحبوا..

الآن بدا وكأن الجبل الجليدي قد تحول إلى آخر لاهب

لدرجة التي جعلته لا يصدق هذا التحول المخيف السريع
الذي طرأ عليها..

لقد اشتعل الغرور والقسوة في عينيها ومالت ناحيته
مجددًا قائلة بصوتٍ لم يرتفع وإن كانت نبرته مخيفة في
خفوتها.. حتى أنها كانت تبتسم!

- يبدو أنك لا ترى الصورة بوضوح يا كريم... حين وضع
رجلنا كل هذا القدر من المال لدعم ذلك العرض الذي عشت
تحلم به طوال عمرك، فهذا لا يعني إطلاقًا أنه مستعد على
الانسحاب أو خسارة ما دفع، بل على العكس، لقد وضع كل
قرشٍ ليربح في المقابل أضعافًا.. أم ظننته حقًا يهتم برفع
راية الفن الراقي!!..

التوت شفتاه كعضلات حلقه المتشنجة، إلا أنه رد مبتسمًا
بسخرية يحني رأسه

- حاش لله.. لم أصل لهذه الدرجة من السذاجة بعد، لكن
من طلب أن ينسحب- رجلكم؟!... أنتم المستائين فلتنسحبوا
إن أردتم..

التفتت تنظر إلى أعضاء حزبها مبتسمة، تماماً كما توالى ابتساماتهم التي تحولت لضحكاتٍ صامتة، فعادت ونظرت إليه بابتسامة أكبر ثم قالت بهدوء محاولة أن تجلي صوتها وكأنها تهزأ به

- لا زلت غير قادرًا على رؤية الصورة بشكلٍ واضح يا كريم.. فانسحابنا..

صمتت للحظة وابتسامتها تزداد خيلاء، مشيرة بإصبعها لنفسها ثم للجالسين على جانبيها ثم تابعت بنبرة فظة

- يعني انسحاب رجلنا.. يبدو أنك نسيت اليوم الذي جئت ترجوني كي أتوسط لك فقط ليوافق على أن يقابلك..

زالت الابتسامة المزيفة عن شفتيه وحل محلها الروح الحقيقية الفهانة..

الآن فقط تمكن من رؤية الصورة بوضوح فعلا.. كم كان مخدوعًا غبيًا!..

لكنه أفاق للتو، ولن يسمح لأي منهم أن يسلبه حقه.. حلمه..

تكلم كريم قائلاً بصوتٍ خفيضٍ يحمل من بين طياته التهديد لكل من يحاول المساس بذلك الحلم وما رافقه من تعب

- إن أردتم الانسحاب جميعكم.. ورجلكم بتمويله، فلتفعلوا.. لا أعرف كيف أقدر على المساعدة أكثر!..

تراجعت نسرين في مقعدها ترمقه بنظرة جادة ثم قالت بنبرة عملية قاطعة وكأنها تتكلم مع واحد من موظفيها

- أنت من سينسحب يا كريم..

على الرغم من أنه أدرك منذ فترة لأي اتجاه يسير هذا الحوار، إلا أنه حين سمع أمر الطرد وبذلك الطريقة الباردة والتي لا تعرف شيئاً عن الصداقة، أو حتى الزمالة القديمة أحس بلكمة في منتصف صدره..

أما الشاعر الحديثة فقد أدرك مسبقاً، أنها وُئِدَت قبل أن

تولد.. وها هو الخاتم الضخم الذي تضعه في إصبعها يمثل
النهاية الساخرة الحزينة في طقوس وثنية رافقت ذلك الواد
المريـر..

دفن كل مشاعره في زاوية منسية من زوايا قلبه واستجمع
قواه ليتمكن من التركيز على حلمه فسأل ببطء مشددًا على
كل حرف من كلماته

- هل جنتِ؟!..ذلك المشروع كان فكرتي من بدايته إلى
نهايته!.. من الفكرة ذاتها وحتى القصة.. كنت أنا من كتبها كما
رآها ونفذها بفريق عالٍ كنت أنا من دربه أيضًا!.. إن انسحبت
فمن ذا الذي قد يبقى وله في هذا المشروع شيء مما قدمته
أنا!..

ساد صمت جاف بين الجميع وهم يتبادلون النظر بنظراتٍ
ذات مغزى أثارت بداخله جنون الحرب، لكن أيضًا يأبى أن
يعترف بأنها أثارت الخوف كذلك..

لقد اتخذوا قرارهم والثقة بادية على وجوههم وكأنه أمر
مفروغ منه، ولا يبقى من المهمة الثقيلة فقط سوى حرج

الانتهاء منها!!

بعد ذلك السيل من حوار النظرات الصامت بينهم وكأن لهم لغة يفهمون مرادفاتهما دون الحاجة للمناقشة، التفتت نسرين إليه وقالت بصوت هادئ ألطف نبرة

- ستتقاضى ثمن الفكرة والمجهود الذي قمت به...

ارتفع حاجباه ذاهلا يتنفس بصوتٍ بدا مسموعًا في سكون الغرفة الباردة الأشبه بكهفٍ أنيق ثم همس محاولًا نفسه

- أتقاضى ثمن الحلم وانصرف؟!..

تنهدت قائلة بعصبية ونفاد صبر

- كفى كلامًا عن الحلم وانزل معنا على أرض هذا الواقع يا كريم.. إنه مشروع تجاري وليس حلماً، بل ولم يكن حلماً في يوم من الأيام.. وهذا هو ما عجزت عن استيعابه منذ اللحظة الأولى فتحولت عائقًا رافضًا لكل ما يضمن زيادة الربح منه.. الفكرة يمكننا شرائها، أما أنت فلم تكن لتقدر على تنفيذها

بمفردك.. بمفردك كانت لتظل مجرد أوراقًا اصفر لونها في
أحد أدراج مكتبك.. الفكرة تصبح واقعًا حين تتوقف عن
النظر إليها كحلم وتقتنع بشروط هذا الواقع الذي ستنفذ على
أرضه..

صمتت قليلا وقد بدا شيء على ملامحها وكأنه لمحة
اعتذار.. مجرد لمحة اعتذار قبل أن تطلق سهمها الأخير قائلة
بهدوء وثبات

- لم تكن نحب أن تصل الأمور بيننا لمفترق الطرق، لكن
للأسف.. لقد تم اتخاذ هذا القرار بالإجماع من العاملين على
المشروع.. سيتم استبدالك، بمخرج ومدرب آخر.. على أن
تعوض ماديًا عن القصة والمجهود..

كان قد حضر الكثير من الكلام خلال ليلة كاملة قضاها
يسجل اعتراضه ورفضه لكافة الحلول التي قد تخل برؤيته
الخاصة

لهذا العرض تماماً كما رسمها..

لكن في أسوأ تخيلاته لما قد يصل إليه هذا الاجتماع لم يتخيل أن يتم صرفه ليخرج خالي الكفين من العرض الخاص به!..

لا يدرك ما الذي حدث في الدقائق التالية وكأن الذاكرة قامت بمحو تفاصيل صدمته.. لكنه أفاق على صوته المجنون وهو يصرخ عاليًا محاولًا التهجم عليهم، وأفراد الأمن اللذين تم استدعائهم يقيدون حركته بقوة عضلاتهم بينما تراجع القائمين على تنفيذ العرض للخلف يحاول كلا منهم إما تعديل ربطة عنقه أو الإشاحة بوجهه ونسرين تصرخ بغضب

- أخرجوه.. لا أريد أن يطاله أي أذى.. فقط تأكدوا من إخراجه من هذه البناية..

- الفصل الثالث

تاريخ اليوم / الثاني والعشرون من شهر مايو

الاسم / ريم

رفع وجهه عن دفتره بعد أن سجل تاريخ الجلسة واسم
المتريدة على عيادته وابتسم بلطف ثم سألها

- مرتاحة؟..

تأملها للحظة في جلوسها الواصل، تضع ساقاً فوق أخرى..
تبدو أكثر هدوءاً وثقة عن المرة السابقة..

يستطيع قراءة حركات جسدها والتي ارتاحت عن ذي قبل،
وبدأت ترجع لطبيعتها الحقيقية.. الخلاء وحب الاستعراض

الغرور.. والشعور بالأفضلية..

ابتسمت وهي تزيج شعرها الأحمر لخلف كتفها مجيبة
بهدوء

- يمكن القول أنني أكثر ارتياحًا عن المرة السابقة..

رد على ابتسامتها بأخرى أكثر رزانة ثم رفع كفه معقبًا
بمرحٍ مهني- وهو المطلوب أليس كذلك؟..

اكتفت بابتسامة رافقها تأملا في عينيها وكأنها تحاول
قراءته كما يحاول قراءتها.. ثم تابع يقول بادئا الجلسة

- هل تحبين الكلام في نفس المعضلة التي تشعرين بها في
نفسك، أم لديك شيء آخر تفضلين الكلام عنه هذه المرة؟..

لم تقفد ابتسامتها وهي ترد ببساطة دون أن تحيد بعينيها
عن عينيها

- قد أنت سير هذه الجلسة وأنا معك..

ابتسم ابتسامة متزنة مخفضًا رأسه يخط شيئا مبهمًا وكأن

له مدلولًا ما في رأسه..

إنها تمنحه القيادة لتراقبه وتعرف مداه كصياد يترقب
فريسته ليدرس أبعاد قوتها ومهاراتها قبل أن يهجم عليها..

رفع وجهه وسألها وعيناه تدققان النظر بكل حركة تقوم بها

- حب التحكم بإنسانٍ والذي تظنين، أو كما ترين أنك
تعانين منه.. أهو موجه للرجال تحديدًا، أم رجالًا وإناثًا؟..

مالت ابتسامتها وكأن شيئًا ما قد بعث في نفسيتها تسلية،
لكنها ردت مصححة بصوتٍ مميز

- أولًا أنا لا أعاني.. بل على العكس، أنا أتمتع بذلك..

حرك ظهر إصبعه تحت ذقنه يراقبها مفكرًا ثم قال بتعقيب
- يشعرك باللذة...

أومأت برأسها مبتسمة ببطء وكأنها تشاركه روح اللذة..
ومجددًا ابتسم لنفسه فاهمًا أبعاد لعبتها إلا أنه سألها بجدية

- وثنائياً؟...

شردت بعينيها للحظة ثم أعادتهما إلى عينيهِ وأجابت

- الشعور بالتحكم في إنسانٍ تسيره وفق ما تحب، فارقاً عليه السيطرة يشعرك بالأهمية.. بالقوة.. السيطرة على رجلٍ ضعيف والتحكم بحياته يبهجني، ولا أظنني جربت ذلك مع امرأة من قبل.. لكن أعتقد المتعة ستكون ذاتها، لكن نجاح ذلك يعد احتمالاً بعيد المنال..

سألها باهتمام بالغ

- لما يعد التحكم بامرأة احتمالاً بعيد المنال؟..

مالت بعينيها تفكر في جوابٍ لسؤاله ثم هزت كتفيها سائلة بدورها

- لماذا تقبل أي امرأة أن تتحكم بها امرأة أخرى مهما كانت طبيعة الصلة بينهما؟!..

سألها على الفور - ولما قد تقبل بهذا من الرجل؟.. أهو الحب
مثلا؟..

ضحكت ضحكة تحمل النفور من الفكرة ثم قالت

- الحب لا علاقة له بالأمر، الحب كلمة مقززة فيما نتكلم
بخصوصه!.. إنها الرغبة.. الرغبة في إرضاء الشريك تجعل
منها مطية..

سألها مجيبًا في ذات الوقت

- إذن العقدة في العلاقة بين الرجل والمرأة على وجه
التحديد؟.. وتلك هي عقدتك كما تظنين، التلذذ بالتحكم
والسيطرة على رجلٍ أضعف منك، وهو يقبل بهذا إرضاءً لك..

رفعت عينيها مفكرة في كلامه، ثم هزت كتفها وأومأت
موافقة تقول

- ربما....

وضع ساقًا فوق أخرى متراجعا في مقعده ثم سألها ببطء

- هل فكرت يومًا في احتمالية أن ترضخي لرجلٍ رغبة في
إرضاءه بعد عجزك عن فعل العكس معه هو تحديدًا يا ريم؟..

برقت عيناها وابتسمت ابتسامة متلعبة وهي تنظر في
عمق عينيه ثم ردت مفرقة بين الكلمات كي تؤكد عليها

- لم يخلق بعد.. ومن لم يخلق بعد، ما الداعي لشغل بالي
بالتفكير في الاحتمالات معه!!..

- ترقص على سطح القمر

أيام الخريف تمر بسرعة تساقط أوراقه.. وكأن الحنين
مقدر له أن يكون قصير العمر..

أيام تمر بلمح البصر على هذا البيت، لا يقدر أصحابه على
اللاحاق بها لسرعتها أو حتى على التقاط أنفاسهم،

تأتي بأناسٍ وترحل بآخرين.. أما الثابتين هم الأسوأ حظًا
في قائمة الحزن، لا يملكون إلا تقبل الحال وبعض ذكريات
الخريف..

كلما مشى في الرواق الطويل، لا يرى سوى الغرف المغلقة..
خلف باب كل منها إما وحدة وإما ألم..

غرفة يجلس خلف بابها أخوه وائل.. والذي أغلق بابها
يفصل بينه وبين العالم رافضًا التداخل مع البشر بعد أن أعلن
في سن مبكر عن عجزه التام في التعامل معهم..

باب نوران..

والتي كانت أفضل حالا من شقيقها، لكن الباب الذي
أوصدته كان بداخلها، رافضة لأحد الدخول

لا تسمح إلا بما تحب أن تسمح به فقط.. ما تختار أن تربيه
للناس من ابتسامة وتهذيب ولباقة في الكلام مانعة أي منهم
من مجرد محاولة الذهاب لأبعد من ذلك.. حينها تكون قادرة
على محوه من حياتها بفرقة إصبع .

غرفة أسمهان..

ذلك المحراب الذي رفض خطاب لسنواتٍ طويلة أن يعبث أحدهم بمحتوياته.. حتى بعد زواجه من حنان.

لقد كبروا جميعًا على رؤية والدهم وهو يدخل ليتأمل غرفتها ليتأمل صورها، يتأكد من وجود كل شيء في مكانه ويبقى مع ذكراها لبعض الوقت ثم يغادر بهدوء..

غرفة أخرى مغلقة.. تلك التي لم يدخلها منذ أن رحلت صاحبته.. منذ أن رحلت سلسبيل

توقف أمام الغرفة للحظة ينظر إلى بابها المغلق دون أي تعبير..

لا يمر أمام بابها إلا ووقف.. وكأنه على وشك أن يطرقه، لكنه لا يفعل.. بل يتابع سيره بكل هدوء، تماماً كما فعل الآن..

ثم هناك تلك الغرفة!!..

والتي باتت مؤخرًا تسيطر على عقله أكثر مما يفضل..

لا ينكر أنها تثير اهتمامه رغم أنه لم يلمحها سوى مرات معدودة خلال الأسبوعين الماضيين، وليته رأى وجهها!..

بل لم ير منها سوى قناعًا أبيضًا.. وجسدًا رائع التكوين!..

زم شفتيه شاعرًا باضطراب كرهه في نفسه.. ربما لا يحق له أن يدين نفسه على الإعجاب بتلك الرشاقة التي رآها، فالإعجاب شعور لا سبيل للتحكم به.. لكن حين يكون موجهاً لجسد امرأة تضع قناعًا فوق ملامح مشوهة يصبح مريضاً بلا شك!!..

كما أنها امرأة مشكوك في نوايا تواجدتها هنا ونوايا أمها.. ربما كانت نوايا والده واضحة تماماً، لكنه لم يقرر قناعة خاصة حول الأم وابنتها بعد..

الفضول بداخله يتزايد، ومشاعر متناقضة ما بين اهتمام وشك ورفض لأن تُفرض على وائل في يوم ما، استغلالاً لعدم قدرته على التعامل مع الآخرين.. ثم الرغبة النهمّة لمعرفة كل

ما يخص تلك الشابة غريبة الأطوار..

لقد عاد لعمله، لكنه لم يترك البيت حتى الآن، مستمتعًا
بفرض نفسه على جميع الكارهين لوجوده هنا..

إنها متعة في حد ذاتها..

نزل ناظرًا حوله بملامح متبلدة على الرغم من كذبها، فقد
كان يخفي خلفها رغبة غير مفسرة في أن يلمح صاحبة
القناع هنا أو هناك..

البيت هادئ تماماً وكأن ساكنيه من الأشباح.. وائل لا يغادر
غرفته، ونوران في زيارة لأمها..

أما خطاب وزوجته فقد خرجا في عشاءٍ رومانسي للمرة
الأولى!!..

ضحك ضحكة ساخرة مزدرية وهو يهز رأسه متعجبًا من
الجنون الذي أصاب والده على كبرٍ بسبب تلك المخلوقة التي
وقع في أسرها ونجحت في وضع خاتمه في إصبعها بعد كل

تلك السنين!..

ربما لو عرفت جيهان أنه رجع من عمله خلال خروجهما
بينما ابنتها في البيت لأصابتها صاعقة أوقفت شعر رأسها

ضحك مجدداً وهو يتذكر نظرات التهديد التي ترميه بها
كلما سألها متعمداً عن صحة ابنتها كبادرة اجتماعية بما أنه
رجل مهذب يعرف أصول اللياقة!..

إنها تبالغ في حمايتها وكأنها طفل رضيع!.. ومع ذلك
استطاع أن يلمح انقطاع العلاقة بينهما تماماً!.. وكأنهما
غريبتان!

سمع صوت فتحية واقفة في المطبخ تغني وهي تقوم
بغسل الأطباق منفصلة عن العالم فاقترب منها قائلاً بنبرة
متملقة

- بلبل يشدو في بيتنا!..

انتفضت فتحية شاهقة وهي تضع يدها على صدرها، قبل

أن تهتف لاهثة

- أفزعني يا أستاذ سائد.. متى نزلت ومتى دخلت المطبخ!..

أجابها سائد مبتسمًا وهو يفتح القدور ناظرًا إلى ما تخبئه-
كنت محلقة على جمال نغمات صوتك..

ضحكت وقد توردت وجنتاها قائلة

- أسعد الله قلبك يا أستاذ سائد..

نظر إلى باب المطبخ وكأن هناك ما يشغل باله فتتبعت
نظرته، إلا أنه سألها بنبرة عابرة

- ألم يعد أبي وزوجته من الخارج بعد؟..

ردت فتحية بحيرة - لا والله.. هل أحضر لك الطعام؟..

نظر إليها نظرة مفكرة طويلة، ثم قال - نعم يا فتحية من

فضلك..

أومأت برأسها وهي تسارع بتجفيف يديها، بينما وقف خلفها وعلى وجهه علامات اهتمامٍ بالغ، إلا أنه حين تكلم بدا صوته

لا مبالياً بطريقة مبالغ فيها..

- لا بأس إن دعوت ابنة جيهان لتأكل معي.. إنها ضيفة ولا يصح أن تأكل بمفردها في غرفتها..

التفتت إليه فتحية قائلة بدهشة - لكن هذا ما تفعله منذ جاءت إلى هنا..

عقد حاجبيه قائلاً بتنازل وهو يلوح بكفه- نعم صحيح.. لكنها المرة الأولى التي تتركها أمها وتخرج يمكنها أن تأكل معي لا بأس بذلك يا فتحية..

هزت رأسها نفياً قائلة - لا تشغل بالك بها يا أستاذ سائد، لا أظنها تأبه لمثل تلك الذوقيات وتفضل عزلتها، كالأستاذ وائل

تماماً..

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يراها توليه ظهرها متابعة عملها
بكل بساطة، فقال من خلفها مستاءً

- ربما لا تهتم بتلقيها، لكن عليها بدء الاهتمام بمراعاتها..
رفضها الدائم للأكل مع باقي سكان البيت يعد قلة ذوق..

التفتت إليه مؤنبه وهي تقول بتعاطف

- لا يا أستاذ سائد!!.. المسكينة تخجل من وجهها، ليس من
العدل أن نحاسبها على ما لا تقدر عليه

سألها بنبرة غريبة وقد غلبه اهتمامه

- هل رأيته؟.. أقصد وجهها..

نظرت إليه، ثم إلى الباب قبل أن تهمس له سرًا- إنها تفعل
المستحيل كي لا يراه مخلوق.. حين أدخل لها الطعام، لا
تفتح الباب إلا من خلف القناع.. قلبي مشفق على الفتاة

المسكينة جدًا، وددت لو آخذها بين أحضاني لأخبرها أن
الشكل ليس كل شيء.. لكنني أخشى أن تخرجني، فهي غير
اجتماعية تماما كالأستاذ وائل.. لقد لاحظت أنهما يتشابهان
في الكثير من الصفات..

مط سائد شفتيه مجددًا ممتعًا لكنه تجنب الرد الساخر
الذي أوشك على إلقائه وظل صامتًا للحظات قبل أن يقول
منزعجًا

- اذهبي ونايها هيا.. أنا لا أحب الأكل وحيدًا، أي معاملة
سيئة تلك التي يعاملني بها الجميع هنا!..

استدارت فتحية إليه قائلة بحرارة

- لا عاش ولا كان من يسيء معاملتك يا أستاذ سائد.. هل
تحب أن أجلس معك وأنت تأكل لأسليك؟..

تراجع رأسه للخلف وهو يزم شفتيه ضاغطًا أسنانه شاعرًا
بالدم يغلي في عروقه لكنه أجاب باقتضاب متكلفًا ابتسامة
صغيرة

- لا بأس يا فتحة.. لا تشغلي نفسك بي...

ثم سكت وهو ينظر لباب المطبخ مكتفًا ذراعيه وعلى وجهه علامات الشرود والتجهم، فراقبته فتحة لفترة ثم قالت بمكر

- بالمناسبة... لقد كانت هنا في المطبخ قبل نزولك..

أجفل سائد وهو ينظر إليها ذاهلاً ثم هتف قبل أن يستطيع منع نفسه - لا؟!.. أين؟!..

وحين ارتفع حاجبا فتحة متسائلة عن سبب موقفه قال على الفور ودون تفكيرٍ مجددًا - من؟!.. من تقصدين؟!..

ارتفع حاجباها أكثر إلا أنها ابتسمت ابتسامة لم تعجبه وردت تمط شفتيها

- من كنا نتكلم عنها، ابنة السيدة جيهان.. وهل هناك غيرها وغيرنا في البيت؟!.. سلامة عقلك يا أستاذ سائد

ازداد تجهم الاضطراب على ملامحه فسارعت تتابع كلامها
ببراءة

- تتحرك مثلك تماماً دون صوت يا أستاذ سائد.. استدرت
منذ قليل وكاد قلبي أن يتوقف فزغاً حين رأيته تقف خلفي
بباب المطبخ صامتة تماماً..

مالت عيناه للباب وكأنه يتخيل وقوفها هناك، ثم سأل
باهتمام - ماذا أرادت؟..

ابتسمت مجدداً مجيبة - لا أظنها عرفت بوجودك لهذا
تجرات وخرجت من غرفتها كما تجرات على مطلبٍ غريب..
كانت تسألني إن كان في البيت مكان واسع، لا يدخله أحد..

ضاقت عيناه بعدم فهم متسائلاً فهزت فتحية كتفها تقول
بحيرة

- علمي علمك يا أستاذ سائد.. أظن المسكينة ملت احتجاج
نفسها في الغرفة ومع ذلك لا رغبة لديها في الاختلاط
بالناس، لذا أشرت عليها بالسطح.. لقد كان هذا أطول حوار

جرى بيني وبينها كما أظنها تعتبرني الأقرب لها من بين الجميع هنا بعد أن اعتادت دخولي غرفتها يوميًا أكثر من مرة

رفع رأسه لأعلى بدهشة.. بينما مالت تجاهه وهي تضع كفًا على كف تسأله مبتسمة

- هل أحضر لك الطعام يا أستاذ أم تفضل أن تطلب منها بنفسك أن تشاركك؟.. من يعلم! قد تستطيع إقناعها..

بادلها سائد النظر دون رد.. ثم رفع عينيه لأعلى وعلى فمه.. ابتسامة

إن كان يجيد شيئًا فهو التسلسل دون صوت، لقد تردد للحظة يؤنب نفسه على محاولة انتهاك خصوصية ضيفة..

لكن الضمير بالنسبة له مات بعد لحظتين فقط مقنعًا نفسه بأنه في بيته، وأنها إن أرادت خصوصية فلتتابع التزام غرفتها..

أما السطح فمكان مفتوح، يحق له كفرد من أفراد هذا البيت أن يستنشق فيه الهواء العليل بعد عناء يومٍ طويل..

للسطح باب بلا قفل، يظل مواربًا بعض الشيء.. اقترب ليطرقه إرضاءً للنفس الأخير المتبقي من أنفاس ضميره، لكن قبل أن يفعل توقف مشدوهاً حين أبصرها!!..

لم تكن تلك التي يراها الآن هي ذاتها الفتاة المختبئة خلف باب غرفتها.. ومن خلف الباب، قناع مريب كإنسانة عاجزة مشوهة النفس قبل الوجه..

التي يراها الآن تبدو وكأنها طائر حر محلق، يعد احتجازه في قفصٍ معجزة غير قابلة الحدوث!

كانت صاحبة القناع تجوب السطح على أطراف أصابعها وكأنها ابتكرت طريقة لتهزم بها قوانين الجاذبية..

إنها ترقص على سطح القمر!

انعقد حاجباه بشدة وهو يحس تجاوبًا بداخله فاق حدود

المعقول، فهو لم ير جمالاً كهذا الجمال من قبل!..

تتطاير.. تدور وتدور ومع دورانها يلتف شعرها حول القناع
يخفيه فتبدو وكأنها تسعى لملامسة السماء بكفيها العاليتين..

كان عاقداً العزم على اقتحام خلوتها بالقوة وهو يصعد
الدرجات الموصلة لهذا السطح.. لكن الآن باتت لديه مهمة
أكثر أهمية

وهي التسلل عائداً من حيث أتى.. فلو باغتتها لفرت تختبئ
في كهفها المظلم كما تفر الفراشات وحينها لن تعود للسطح
مجدداً وهو لا ينوي حرمان نفسه من هذا العرض مطلقاً..

فإن أراد الإمساك بفراشة، عليه أولاً اكتساب ثقتها ليتمكن
لاحقاً من الإمساك بجناحيها.

ابتسامتها الضعيفة كانت تحوي حرجاً وأسفاً.. أسف لكل ما
يقدمه لها محاولاً إسعادها بشتى الطرق بينما هي غير قادرة

على مبادلتة العطاء بالمثل.. بل أنها حتى غير قادرة على استقبال ما يقدمه بكل كيانها.. غير قادرة على الفرح..

كيف لها أن تفرح وابنتها الوحيدة التي ضاعت منها لسنوات طويلة عادت فجأة على هذه الحال المؤذية والمُفتتة للقلب!!..

أما ابتسامته فكانت كبيرة عريضة، مراقبًا الطاهي الذي بدأ في تقطيع اللحم المشوي أمامهما بمهارة وسرعة بحركاتٍ بهلوانية يدوية.. حتى انتهى بتوزيع ما حضره في طبقيهما بشكلٍ مزين أنيق، وفي نفس الوقت بدأ النادل في إشعال شمعة جميلة مزينة بزهور الياسمين مما أضفى جواً شاعرياً يدفئ الإحساس.. لكن المؤلم أن هذا الجو لم يزددها إلا حرجاً وحزنًا..

انتظر خطاب انصراف النادل ثم مال إليها مبتسمًا سائلًا بخفوت

- هل أعجبك المكان؟...

ردت مبتسمة تلك الابتسامة الجميلة التي جعلته صبيًا من جديد ثم همست بضعف متجنية التدقيق في حدقته

- المكان رائع.. لكن لم يكن عليك اختيار مكانٍ مكلفٍ إلى هذا الحد يا خطاب.. إنه عشاء بسيط، وليست مناسبة خاصة

عقد حاجبيه متظاهرًا بالتجاهل دون أن يفقد ابتسامته قائلاً بنبرة ممازحة جريئة

- كيف أمكنك قول هذا!!!.. إنه العشاء الأول لنا خارج البيت منذ عودتنا، إنها بكل تأكيد مناسبة خاصة تستحق الاحتفال بها كل عام من أعوام عمرنا القادمة..

غابت ابتسامتها تماماً.. لم تعد قادرة على فعل هذا به أكثر من هذا.. أمام كل ما يقدمه، عليها أن تفضي إليه بما في نفسها بكل صراحة، والذي وافقت على ترك زاد وحدها في البيت والخروج معه للكلام فيه تحديداً..

لاحظ خطاب تغير ملامحها الغريب، كما شبكت أصابع كفيها تحت ذقنها دون أي محاولة لتذوق محتويات الطبق

الشهية..

ترك الشوكة والسكين جانبًا بحرص، ثم سألها بصوتٍ هادئ
وإن كان قلقًا غير ثابت

- ماذا بك يا جيهان؟.. تبدين مختلفة، بعيدة مهما حاولت
التقرب إليك.. افتحي قلبك لي، هل من الصعب الوثوق
بي؟!..

زادتها كلماته شعورًا بتأنيب القلب تجاهه.. فأسبلت جفنيها
غير قادرة على مواجهة عينيه، فقد حانت اللحظة..

همست جيهان بصوتها الرقيق الأبح، ثقيلًا متنهدًا

- خطاب.. لقد عرف كلانا الآخر خلال أكثر أيام حياتينا
وحدة وحزنًا وفقدًا.. لقد وجد كلٌ منا في الآخر السلوى..
الأذن التي تسمع.. والقلب الذي يهتم.. والعين التي ترى..
والصوت الذي يسأل عن حال الآخر، بعد أن كان قد شعر
بنفسه عبئًا على هذه الحياة.. على الهامش لا محل له في
القلوب.. يقاسي مرارة الفقد ليتجرعها كسم زعاف كل ليلة

يقضيها وحيدًا

اضطربت عيناه شاعرًا بالخلل بين أسطر كلامها الحزين
الخفيض، فلم يقدر على مقاطعتها.. ولم تكن في حاجة لرد
منه، بل تابعت بصوتٍ أكثر ضعفًا

- لقد ضاعت بنتي مني لسنواتٍ طويلة.. ثمان سنوات يعد
عمرًا طويلًا في فراق وحيدتي، لم أفقد الأمل خلالها، بل
حاربت وحاربت لكي أجدها.. وفي النهاية استسلمت..

أخفضت وجهها والدموع الناعمة تنساب على وجنتيها،
الغصة في حلقها تكاد تخنقها، تهز رأسها نفيًا وكأنها غير
قادرة بعد على الاقتناع أو التصديق.. ثم همست بصوتٍ ذي
نشيحٍ خافت

- عشت وحيدة لسنوات حتى دخلت حياتي.. وجدت فيك
الأنس والعطف والصدقة..

حين صمتت سألتها بصوتٍ جاف جاد - فقط؟!.. أهذا هو كل
ما شعرت به تجاهي؟!.. لأنه إن كان لا شيء آخر فمن

الطبيعي جدًا أن تختفي الحاجة لي بعد عودة زاد..

رفعت إليه عينين باكيتين، ثم همست مبتسمة ابتسامة
حزينة تترجاه

- ليس هذا فحسب.. لقد أحببتك يا خطاب..

التوت شفتاه بشبه ابتسامة لكنها خبت لا يريد أن يخدع
نفسه حتى يسمع ما لديها كاملاً، وبالفعل تابعت تقبض
أصابعها



- لا زلت غير مستوعبة فكرة عودتها المفاجئة بعد كل هذه
السنوات.. وتحديدًا بعد زواجنا بأسبوعين!.. الصدمة كادت
تودي بحياتي، حتى أنني أصبت بالإغماء بين ذراعيك..
وحين أفقت ظننته مجرد حلم كآلاف الأحلام التي راودتني
في غيابها..

ساد الصمت بينهما وهو ينظر إلى رأسها المنخفض تحاول
التغلب على مشاعرها في مكان عام، لكنه قال ببساطة رغم
أن ما يشعر به أبعد ما يكون عن البساطة

- إذن ينبغي أن تكون الفرحة فرحتين بالنسبة لك.. لا أن تكوني حزينة ومتباعدة على هذا النحو!..

تحرك حلقها بصعوبة، ثم هزت رأسها تهمس بأسى

- الحال الذي رجعت به زاد.. أي أم تفرح بعودة ابنتها الوحيدة وهي على هذه الحال!!.. البنت استنزفت جسداً وروحاً

مد يديه ليلتقط بهما كفها يمسك به بينهما بقوة يمنعها من سحبها حتى اضطرت للنظر إلى عينيه بعينين دامعتين معذبتين، فانتظر للحظة يطمئنها قبل أن يقول ببطء كي تستوعب رغم الحزن الدفين في صوته

- أن تعود مستنزفة لتعالج، أفضل من فقدانها للأبد، أسأليني أنا عن فقدان الابنة.. عليك أن تكوني شاكراً ولا تتعجلي عودتها لطبيعتها..

أومأت برأسها تمسح الدموع عن وجهها بكفها الحر ثم قالت متأوهة بألم

- يا إلهي.. أنا آسفة يا خطاب، لم أقصد مطلقًا نكأ جرحك..
سامحني أرجوك أنا ممتنة للدرجة التي تجعلني راغبة في
البقاء جاثية على ركبتني أمام سريرها لا أفعل شيئًا سوى
مراقبتها في نومها والتأكد بأنها أمامي، آمنة..

صمت قليلًا وبدا أن القادم هو أصعب ما ستنطق به، لكنها
رفعت وجهها وتابعت بخفوتٍ شديد وبنبرة فيها من التوسل
كي يستوعب موقفها

- زاد في حاجة لمساعدتي وتفرغي الكامل لها، لو كنت أعلم
بعودتها لما جرؤت على التفكير في الزواج.. والآن حدث ما
حدث وأنا عاجزة عن منح نفسي بالكامل لها.. أنا غير قادرة
على الشعور بطعم السعادة.. الخروج والعمل والتنزه والتمتع
بالحب بينما عادت ابنتي للتو من تجربة مؤلمة مضنية..

عادت لتصمت ثم نظرت إليه بعينين متوسلتين وهي
تضغط بأصابعها فوق أصابعه وهمست

- لقد خرجت اليوم معك، آملّة أن تسمعني وتتفهم موقعي..

أنا.. أنا أريد الطلاق وأرجو أن تسامحني يومًا..

ترك يدها وهو يهدر ذاهلاً- ماذا؟!....

التفتت إليهما الأنظار بفضول فارتبكت ونظرت حولها بوجه شديد الاحتقان ثم أعادت عينيها الحمرواتين إليه وهمست باكية تترجاه

- خطاب أرجوك اخفض صوتك وتفهم موقعي..

لم يأبه للعرض المجاني الذي يقدمانه للناس من حولهما بل أشار متجهماً للنادل طالباً منه حساب طعام لم يتذوقا منه شيئاً.. ثم نهض ممسكاً بمرفقها ليساعدها على الخروج دون كلمة واحدة..

آثرت جيهان التزام الصمت إتقاءً للفضيحة العلنية وانتظرت حتى استقلا السيارة، وما أن جلس خلف المقود حتى همست بصوتٍ خفيض مرتعش

- يا خطاب على الأقل اسمع دفاعي علك تتمكن من تفهم

موقفي...

استدار إليها رافعًا كفه قائلاً بصرامة وعيناه تلمعان
بالغضب

- لا مزيد من الكلام عن الجنون الذي سمعته منك قبل قليل
يا جيهان.. بالنسبة لزاد، لدي ترتيب لها أثق أنه سيربطها
بك أكثر.. علينا فقط أن نتمهل في تطبيقه ولا نتعجل.. أما
الطلاق فهذا لن يحدث، لا يحق لك.. هل تسمعين.. لا يحق
لك..



أغمضت جيهان عينيها بأسى وهي ترجع رأسها للخلف إلى
ظهر المقعد شاعرة بالإعياء.. لم تهتم تماماً بالترتيب الذي
يتكلم عنه فهو سيفشل في كل الأحوال..

خطاب لا يعرف الكثير عن زاد.. لا يعرف سوى أنها شابة
مرت بتجربة زواج فاشلة.. أما وجهها فهو حادث شكلي
يسهل التغلب عليه..

خطاب لا يعرف الكثير، ولا يرى أبعد مما يريد أن يراه..

لكنه محق في شيء واحد.. لا يحق لها أن تقابل لطفه وحبه
بمثل هذا الجفاء وقسوة القلب.. لم تكن يومًا قاسية القلب
مع أي مخلوق، لكن ما السبيل وقلبها ممزق بينه وبين ابنتها..
ليتها ما تعجلت في هذا الزواج.. ليتها انتظرت لأيام..
مجرد أيام.. ليتها..

ألفان وثلاثة وأربعون.. ألفان وأربعة وأربعون.. ألفان خمسة
و..



قاطع عدها الرتيب شديد الانتظام، طرق على باب غرفتها
فاستدارت بسرعة مجفلة.. وحين لمحت المقبض يتحرك
سارعت تمسك بالقناع لتثبته على وجهها..

دخلت جيهان في اللحظة التي انتهت فيها زاد من تثبيت
القناع فوقفت جامدة الملامح تراقبها، غائرة العينين بعد
بكاءٍ استمر طويلا، لكنها تمكنت من الابتسام والقول بصوتٍ
خفيض

- لقد طرقت الباب هذه المرة.. فشلت في مهمتي كالعادة،
لكن.. ربما في يوم آخر سأنجح..

تتكلم مثل نوران.. تضع قناع التهذيب واللباقة لتخفي ألمها
العنيف خلفه، بينما بدت زاد مترددة من خلال حركات أصابع
كفيها البطيئة ثم همست بصوتٍ مبهم

- شكرًا...

لم تكن قد انتبهت لشيء تمسك به جيهان حتى مدت به
إليها تقول بلطف وحنان - هذا لك يا حبيبتى...

نظرت زاد إلى اللعبة المستطيلة في يد أمها دون أن
تأخذها ثم رفعت وجهها إليها وسألت بتردد

- ما هذا؟..

تطوعت جيهان بفتح اللعبة لتخرج منها هاتفًا حديثًا قائلة
بخفوت وحذر وكأنها تعالج جرحًا دقيقاً

- لا أعرف لماذا لا تملكين هاتفًا خاصًا بك.. لكنني لن أضغط عليك بالمزيد من الاستجابات، سأنتظر حتى تأتيين إلي من تلقاء نفسك، شاعرة بالحاجة للكلام.. وحتى تأتي تلك اللحظة أعدك أنني سأزودك بكل ما نقصك في يوم من الأيام..

انتهت جيهان من الكلام الهادئ ثم مدت الهاتف إلى زاد التي وقفت مكانها تنظر إليه بعينين واسعتين دون أن تمسك به، فانحنت أمها لتفتح راحتها وتضع فيها الهاتف وكأنها تتعامل مع طفلة تحتاج للمساعدة في كل حركة ثم قالت باقتضاب

- لقد قمت بتجهيز الهاتف بمعظم التطبيقات التي قد تحتاجين إليها وأنشأت لك حساباتٍ عليها كلها.. يمكنك تسلية نفسك به والتطلع إلى الدنيا من خلاله.. حتى تقرري الخروج لها بنفسك

ساد الصمت المهيّب بينهما، وزاد تتطلع للهاتف بما يشبه صدمة أدمت قلب أمها.. والتي أرادت أن تهجم عليها لتعانقها بشدة تحول شعرها الجميل الذي كانت تضفره لها في طفولتها، مجرى لدموعها المنهمرة..

لكنها تراجعت للخلف كما وعدت نفسها والثبات يحفر في
ملامحها كخناجر مؤلمة، ثم قالت بخفوت

- سأتركك مع هاتفك وإن أردت السؤال عن أي شيء
تجهلين التعامل معه.. تذكرني أنني على الجانب الآخر من
الرواق

هذه المرة لم تنطق زاد بكلمة شكر.. فقد انشغلت بالفعل
بالهاتف وكأنه واحد من أعاجيب الدنيا!!..

على الهامش

على جانب الحياة الفارغ تجد نفسك قد أخرجت منها

على هامش الدنيا واقف ترقبها عبر الحدود الشفافة إمعاناً
في السماح لك برؤية مكانك قد شغله غيرك وأنت ببطاقة
حمراء رميت منسياً

على الهامش تفقد كل شيء ولا تملك سوى الكثير من
الوقت لتفكر متى أخفقت وبأي ذنبٍ تمت إدانتك وحكم
عليك أن تكون مجرد نكرة!

هشام

- نعم لقد أخفقت.. تماماً كما أخفقت أنا، لكن الفارق بيني
وبينك أنني أدركت خيوط اللعبة منذ البداية وعملت جاهداً
عليها بكل براعة.. لكن إخفاقي كان بسبب خطأ واحد لعين
صغيرة!!.. أما أنت فقد كنت غيباً مغيباً ساذج الثقة والنوايا
طوال الوقت.. فبأي حقٍ نتساوى أنا وأنت ملقاً بنا على
الهامش!!..

لم يكن لديه القدرة على سماع الثرثرة الناقمة من شقيقه
في تلك اللحظة بالذات.. كل ما يريغه هو الانفصال عن
الواقع والحياة مرمياً على أريكته الواسعة كما هو الآن ومنذ
أيام.. لا يخرج، لا يرد على اتصالات، لا يستقبل زواراً..

مشعث الشعر؁ غير حليق الذقن.. عيناه ميتتان كما ماتت
حياته وهو لا يزال على قيدها؁ مسجل بين الأحياء..

في خانة السذج والأغبياء كما قال شقيقه للتو..

متمتعًا بالقضاء على المتبقي من مهنته عبر الأكل ثم الأكل
ثم الأكل.. يكثر من الأكل السريع وشرب الصودا..

طعام يمقته ويأنف منه فيزده قرقًا؁ لكن بداخله لذة إيذاء
نفسه لدرجة أن وزنه زاد خلال أيام حوالي كيلوين من
الجرامات والدهون!!..

أيام طويلة لا يفتح الباب لمخلوقٍ يدق جرسه.. لكنه نسي
المفتاح الذي يملكه شقيقه والذي دخل الشقة آخذًا علبة
من علب الصودا يتجرعها قبل أن يلقي بنفسه على الكرسي
الوثير المقابل للأريكة الملقى عليها هو..

زفر كريم بنفيسٍ بطيء وهو يضغط جبهته محاولا التخلص
من تأثير آخر ثرثرة يتمنى سماع مثلها في الوقت الحالي..

لكن نبرة هشام والطريقة التي يتكلم بها، جعلته يدير رأسه ليتأمله طويلاً من تحت جفنين مثقلين شبه مفتوحين..

شكلاً يكاد يكون هشام على العكس من شقيقه في تلك اللحظة.. مرتدياً واحدة من حله الأنيقة الغالية، مصففاً شعره بعناية..

حذاؤه لامع كالمرآة وقميصه ناصع البياض خالياً من أي تكسر.. الشيء الفوضوي الوحيد هو ربطة عنقه التي فكها قبل أن يرتمي على الكرسي مادداً ساقيه.. تبدو على وجهه علامات اليأس والسقوط من ارتفاع شاهق

تنهد كريم ضاغظاً جبهته مجدداً ثم سأله بجمود

- ماذا حدث؟....

أدار هشام عينيه لعيني شقيقه، ثم ضحك ساخراً بمرارة وهو يقول

- ماذا حدث؟!.. الذي حدث هو ذاته ما حدث لك.. أصبح

كلانا على الهامش.. أصبحنا نكرة، مكللين بأكبر صفقة
ضربتها الحياة على مؤخرة أعناقنا..

أغمض كريم عينيه واضعًا ذراعه فوقهما، بينما تابع هشام
مكلمًا نفسه بنبرة ترتعد قهراً

- كيف انتهى بنا الحال في جانب واحد خارج اللعبة!!..
في حين كنت أنا من يلومك على سذاجتك وغباء ثقتك في
الآخرين!!..

أزاح كريم ذراعه عن عينيه ناظرًا لأخيه لحظاتٍ ثم سأل
باقتضاب وكأنه يقر أمرًا واقعًا

- لم تنل الترقية..

أرجع هشام رأسه للخلف محدقًا بالسقف وهو يقول بصوتٍ
أجوف

- فعلت كل ما ينبغي فعله.. لم أكتفِ بالاعتماد على
استحقاقي لها لأنني الأكفأ وتلك حقيقة لا يمكن لأحدٍ أن

ينكرها، بل اعتمدت على ذكائي كذلك لقد..

قاطعه كريم قائلاً بصوت هادئ - تملقت.. داهنت.. ثم
صدقت رضاهم عنك..

غامت عينا هشام فأغمضهما دون أن ينطق بكلمة واحدة
فسأله كريم حازماً..

- ماذا فعلت؟..

أجابه هشام بكلمة واحدة دون أن يفتح عينيه - استقلت...

ساد صمت طويل، قبل أن يستقيم شقيقة ليجلس على
حافة الأريكة مسنداً مرفقيه إلى ركبتيه محدقاً في الأرض
ثم رفع عينيه إلى هشام وقال باقتضاب

- يمكنك المبيت هنا الليلة.. نستطيع طلب المزيد من
البيتزا، لقد اكتشفت مؤخراً متعة عظيمة في الاحتفال
بالفشل.. إحساسك الذاتي بالرتاء على النفس مرفقاً إياه
بالكوميديا الساخرة في الاحتفال يشعرك بالرضى وكأنك لا

تهتم.. لكنك في الحقيقة تهتم لكن على الأقل سيمنعك هذا
عن البكاء بمفردك في الحمام وهذا رثاء أفضع وأكثر إهانة
للنفس.. ما رأيك؟..

رفع هشام وجهه ينظر إلى كريم بملامح متبلدة، ثم قال
بجفاء

- من جهة أنني سأبيت ليلتي هنا، فأنا كنت سأبيت ليلتي
هنا دون انتظارٍ إذن منك.. لكن الدعم الذي أحتهجه منك
مختلفاً قليلاً عن البيتزا، وإن كان يحمل شيئاً من نفس
المرح..

انعقد حاجبا كريم بتوجس، فلوح هشام بكفه قائلاً -
ستأخذ أولاد أختك سارة للسيرك...

الآن ارتفع حاجباه وهو يكرر ببلادة- السيرك؟!.. ألا يزال
هناك أطفال في يومنا هذا يصرون على الذهاب للسيرك؟!

فتح هشام كفه وهو يمسك شفتيه امتعاضاً وكأنه يسأل
نفس السؤال.. إلا أنه أجاب بملل

- اتصلت بي أختك اتصالاً مطولاً لم أفهم منه سوى أن هناك حالة وفاة وعليها الذهاب.. لكن الأطفال سينهارون لأنهم كانوا في انتظار زيارة السيرك منذ فترة طويلة، ولا تريد أن تخذلهم!!!.. أخبرتها أنني قد استقلت لتوي وأناي ربما أشعر ببعض الإحباط جراء ذلك، لكن لا أظنها سمعتني من الأساس!!..

ردد كريم قائلاً بتنصل من المسؤولية - لا لا.. لا تحاول.. أنا غير قادر على تقديم أي خدمات للمجتمع الآن، كل ما أريده هو تعاطي المزيد من الأطعمة الغير صحية فقط.. لا تفرض علي ما لم تستطع رفضه أمامها..

فتح هشام كفيه سائلاً بدهشة - لماذا يتجاهل الجميع حقيقة تقديم استقالتي!!!..

أجابه كريم وهو ينهض من مكانه قاطعاً - على الأقل قدمت استقالتك بمحض إرادتك ولم يتم طردك من مشروعك بعد أن سلبوك إياه

هتف هشام من خلفه - لقد حدث هذا منذ أيام، تمكنت

خلالها من الرثاء على نفسك بما فيه الكفاية.. أريد فرصتي
أنا أيضًا

أغمض كريم عينيه رافعًا رأسه وهو يتنهد بصوتٍ عالي
يائس

السيرك.. ربما كانت النهاية الساخرة المثالية لتكمل لوحة
الاحتفال بالرثاء على النفس بعد أن أصبحت على الهامش..

العرض الأخير

- سيداتي آنساتي وسادتي.. فقرة اليوم هي أكثر الفقرات
تميزًا، ليس فقط لأنها نجم السيرك المفضل لدى رواده، لكن
لأنها ستكون العرض الأخير لبطلتنا الرائعة والتي لعبت
لسنواتٍ على الحبل وبالطوق وفوق الأرجوحة.. سلبت
أنفاسنا وعجزت الأعين عن الإغماض بينما هي تلعب في
الهواء وكأنها تمشي على الأرض!

من منكم لم يرها في عرض من قبل!.. من منكم يراها لأول مرة؟!.. فيما كنتم تفكرون حين ضيعتم الفرصة!

لكن ها هي فرصتكم الأولى والأخيرة لتتسارع دقائق قلوبكم، لتسلب منكم أنفاسكم.. لتسحر أعينكم

معكم بطلّة الألعاب البهلوانية في الهواء.. الساحرة
دنيا!!!!!!

زم شفتيه وهو يحاول تكبيل ابن شقيقته كي يتوقف عن ضرب ظهر الكرسي أمامه بقدميه، فيتذمر الجالس عليه ويعتذر هو للمرة العاشرة..

لا يعلم لماذا أثار فيه هذا التقديم نوعًا من الشجن!.. يبدو أن هناك من أصبح على الهامش مثله هو وهشام..

العرض الأخير لبطلّة الفقرة المسماة بنجم السيرك.. أتراها نهاية برضاها أم تم ركلها بالقوة كالخيل العجوز!

و هل هناك من يختار نهاية فقرته في الحياة برضاه؟!..

أتراها راضية عن مسيرتها السابقة لأعوام أم ستقضي ليلتها
تبكي على وسادتها متسائلة عن السبب الذي سيحثها على
النهوض غدًا!

يبدو أن ضربة الغدر التي تلقاها مؤخرًا جعلته مرهف
الحس، للدرجة التي يشفق معها على لاعبة في السيرك لم
تخرج لإداء فقرتها بعد.. بل دون أن يعلم إن كانت النهاية
باختيارها أم رغماً عنها..

من يعلم ربما ادخرت ما يكفيها فقررت بسلام نفسٍ مثالي
التنازل عن المجازفة بحياتها والسفر في رحلة طويلة على
شواطئ الجزر لتتمتع بما فاتها خلال سنواتٍ طويلة من
التدريبات الشاقة المؤلمة..

ارتفع صوت مقدم الفقرات مجددًا في مكبر الصوت
بطريقته الاستعراضية مستدرجًا

- قبل أن تخرج بطلتنا المحبوبة لا يساوركم القلق بشأن
فقرة الألعاب البهلوانية في الهواء.. هل ستتوقف؟!.. هل
سيخبو بريقها؟!.. بالطبع لا، سيكون معنا من الغد بطلة

جديدة ستسحركم وتسرق أنفاسكم وتبهركم.. الرائعة منال
فلتترقبوها ونعدكم أنكم لن تتركوا لها فقرة إلا وتسابقتم
لحضورها..

ضحك كريم وهو يميل برأسه ساخرًا من مدى قساوة
الإعلان!.. يا لها من نهاية تدرك معها البطلة الموشكة على
المجازفة بحياتها والواقفة خلف الستار، أنها قابلة للاستبدال
بمنتهى السهولة واليسر!.. النهاية المثالية لإشعار الإنسان
بأنه غير ذي قيمة ولم يكن من قبل!..

تتنفس ببطء.. تعد مع أنفاسها المترددة على صدرها.. تنفخ
بثباتٍ وتغمض عينيها.. تود لو استطاعت أن تصم أذنيها عن
هذا التقديم..

للمرة الأولى تشعر بالتقديم لخروجها وحشيًا.. شرسًا..

التقديم الذي كان يشعرها بأنها تلمح كنجمة في السماء..
بدا لأذنيها الآن رسالة استبدال، فلتسرع بتقديم فقرتها

الأخيرة لأن هناك من ستحل محلها.. والجمهور لا يكاد يقوى
على الانتظار للغدا..

تحاول ألا تبكي، فقد وعدت جلال ألا تفعل أبدًا.. لكن
الحريق في عينيها يتوسلها كي تطلق مخزون الألم القابع
خلف هاتين العينين..

جلال.. لا يقف خلفها، ولن يحضر العرض الأخير ولم تكن
لتلومه.. فلو كان الأمر بيدها لما حضرت هي نفسها العرض
الأخير..

مع سماع النداء الثاني لاسمها والتصفيق العالي المدوي
أخذت نفسًا أعمق ثم اندفعت تجري وعلى وجهها ابتسامتها
الكبيرة المعروفة..

كان العرض الأخير كما ينبغي له أن يكون.. كانت أفضل
المرات التي لعبت فيها على الأرجوحة وبالطوق..

شعرت بنفسها تحلق وسط الصيحات المرتعة والموسيقى
الحماسية.. دقائق قلبها كانت قرع الطبول وذراعاها جناحان..

دقائق لم تر أبعد من نهايتها وكأنها استمرت دهرًا وحين انتهت.. لم تصدق كيف مرت كلمح البصر لتضع نقطة آخر الحكاية..

وقفت رافعة ذراعيها تتلقى التصفيق المتزايد دون توقف وأنفاسها تتسارع على الرغم من شعورها بالاختناق.. والابتسامة على وجهها باتت مؤلمة بشكل لا يصدق حتى أن عضلات وجهها ارتجفت مما تسبب في إفلات شهقة نحيب خرجت من أعماق قلبها.. ولا يزال فمها المطلي باللون الأحمر اللامع مبتسمًا ابتسامته الكبيرة!

كان هذا واحد من أفضل العروض التي شاهدها في حياته.. تمتلك بطلته مهارة لا تقل عن مهارة أفضل لاعبي الحركات البهلوانية الهوائية في العالم..

شردت عيناه بتفكير عميق خلال الفقرات التالية والتي لم ينتبه لشيء منها، مفكرًا في لاعبة الفقرة الأهم على الإطلاق..

ذاكرته تستدعي كل حركة من حركات جسدها اللين
المرن ببراعة تحسد عليها.. لديها مقومات رائعة لكن لا تبدو
وكأنها في مقتبل العمر.. على الرغم من بعد المسافة التي
كانت تفصل بينها وبينه كمتفرج، إلا أنه يستطيع تقدير عمر
جسدها بالتقريب

هذا بخلاف استنتاج السبب في كونه العرض الأخير لها
رغم أنها تمتلك مثل تلك المهارة المهيبة..

أفاق من شروده على سماع اسمها ينادى من جديد في
مكبر الصوت، لم ينتبه لما يتم الهتاف باسمها مجددًا بما أنها
أنهت مشوارها الاستعراضي؟.. أتراها سمحت لنفسها بتقديم
عرض إضافي؟!.. لا يمانع إطلاقًا في رؤية مهاراتها مجددًا

فضيق عينيه محاولاً تتبع خروجها.. ثم بدأت في الاتساع
تدريجياً وهو يرى دمية قماشية كبيرة تخرج متشقلبة!

أو هكذا بدت له.. وجه دمية مزين بأصباغ حمراء وبيضاء..
لها شعر من الصوف الأرجواني متناثر عليه ربطة طفولية

براقة.. ترتدي فستانًا منفوشًا فوق جوارب مخططة والكثير
من الشرائط اللطيفة!

أخذت ترقص وهي تحرك ساقها بحماقة منقطعة النظر
ومع ذلك كانت تتطلب لياقة عالية جدًا في تنفيذها..

أيعقل أن تكون هي؟!.. هي ذاتها المسماة تكتكة؟!..

ارتفع حاجباه وهو يرى خفة ظلها وبراعتها في التمثيل
كذلك لدرجة أنه انفجر في الضحك عدة مرات!..

حين انتهى العرض وجد نفسه يصفق عاليًا مع الجمهور
فتوقف على الفور ناظرًا لكفيه بعدم تصديق قبل أن يحرك
عينيه متتبعًا اختفائها جريًا خلف الستار!

حينها حك فكه شارد الذهن بشكلٍ مستعصٍ، فلم يشد
انتباهه أي شيء آخر بعدها!..

تم البيع.. خلال أقل من شهر كان البيع قد تم!

و هي التي كانت تظن أن إيجاد المشتري سيستغرق وقتًا طويلاً، وقد لا يجدن مشتريًا من الأساس.. لكن اتضح لها أن المشتري كان موجودًا وأن القرار تم اتخاذه قبل عودتها.. تلك المقابلة في بيت الخالة فكرية لم تكن إلا إبلاغًا لها بما سيحدث..

لكن على أية حال، كانت صادقة حين طلبت من شقيقاتها أن يفعلن ما يردنه بالبيت وخلافه..

حين اتصلت بها هدى اليوم شعرت بفرحة حقيقية توهجت داخلها، فقد ظنت أنها تود مصالحتها قبل أن تسافر مع عائلة السيرك كي لا ترحل مكسورة الخاطر.. حينها تأكد لها أنها تهتم بما تراه شقيقاتها فيها صدقًا وأن لا مبالاتها القديمة وتباعدها

ما كان إلا مجرد قناع تخفي به قلقها حيال نظرتهم لها إن ازداد تعمق علاقتهم..

مع أول تحية من أختها شعرت بأنها قد نسيت كل ما قيل في تلك الجلسة الغير موفقة ببيت الخالة فكرية، وأن اتصال شقيقتها عندها أغلى من أي شيء آخر..

لكن كلمات هدى التالية بعد التحية أحبطت كافة ظنونها العاطفية السخيفة، فما اتصلت بها إلا لتعلمها بضرورة حضورها لإتمام البيع ..

و قد حضرت بالفعل.. وتم البيع في هدوء تام..

لم يكن لها أي متعلقات خاصة في البيت لتجمعها، مجرد ملابس بيتية قديمة تستخدمها ما أن تعود من رحلاتها..

لا أغراض.. لا تاريخ لها بين جدران ذلك البيت..

شيء واحد أثار في نفسها بعض التأثير.. وهو طلب فاطمة المفاجئ بأن يتم وضع نصيبها من بيع البيت في حساب دنيا الشخصي..

لم تختار زوجها مجدي لتأتمنه على نصيبها بما أنه يحمل

توكيلا منها للتصرف بحسابها الشخصي.. ولم تختار أي واحدة من شقيقاتها.. اختارت دنيا فحسب.. وعلى الرغم من شعورها بالتأثر، لكن داخلها القلق حيال أسباب عدم ثقة فاطمة بزوجها، لدرجة أنها لم تخبره بموعد إتمام بيع البيت كي لا يفتعل المشاكل إن عرف بنيتها.. أتراها فقدت الثقة فيه؟!.. لكن لماذا؟!..!!

بعد الانتهاء من كافة الإجراءات وقفت دنيا أمام شقيقاتها وحقيبة صغيرة على ظهرها، تنظر إليهن واحدة تلو الأخرى ثم ابتسمت ابتسامة لطيفة وقالت بخفوت

- مبارك عليك بيع البيت... تصرفن بحكمة في أموالكن ولا تسرفن.. ولا تقلقن بخصوص نصيب فاطمة، إنه في أمان تام وسيكون أمامها كاملاً ما أن تعود بالسلامة..

هزت هدى رأسها وهي تقول بخفوت

- لم ولن يحدث أن يداخلنا الشك بك ولو للحظة يا دنيا.. نصيب فاطمة سيزيد بين يديك، كما كنتِ تفعلين دائماً..

تعمقت ابتسامة دنيا وبدأت غير قادرة على الرد من فرط تأثرها، فسعلت تجلي حلقها.. ثم قالت بصوتٍ مرح رغم روح الجفاء التي لا تزال مهيمنة على الأجواء حتى مع وجود الكلمات الجميلة

- إذن.. سأغيب لشهورٍ طويلة وأن الأوان كي أودعكن..

تمنت لو تقدمت إحداهن لمعانقتها، لكن التردد كان باديًا على الجميع.. بثينة وحدها هي من تقدمت لتقبل وجنتيها قائلة بلطف

- اعتنِ بنفسك يا دنيا.. ولا تجازفي كثيرًا..

ارتفع حاجبا دنيا بدهشة بالغة، فقد كانت المرة الأولى والتي تبدي فيها إحداهن قلقاً أو تطلب منها الحذر!!.. لم يسبق أن كان الخوف الذي تراه في أعين الجمهور وتسمعه عبر صيحاتهم، موجوداً في بيتها!!.. في بيتها كانت كمن يمتهن عملاً طبيعياً تماماً بسبب الاعتياد على مدار سنواتٍ طويلة..

اختلج قلبها من التحذير اللطيف، فاحتفظت به لنفسها
بعض الوقت رافضة إخبار بثينة أنها انتهت من المخاطر
والمجازفة..

و أنها سبق وقدمت العرض الأخير..

تكلمت بسمه قائلة بصوت مبهم غريب

- ألا يمكنك أن تعيدي التفكير مرة أخرى بخصوص ترك
العمل في السيرك؟..

نظرت دنيا إلى عيني شقيقتها طويلاً.. فماذا تقول لها
الآن!.. إن كانت رفضت ترك أهم فقرة في السيرك والتي
تعد نجمته والأروع فيه.. فهل تخبرها الآن بأنه لم يبقَ لها
هناك سوى أن تكون مجرد مهرجة!!.. لأن لا شيء آخر لديها
ولا حياة تعرفها خارج خيمة السيرك!.. يا إلهي ستموت إن
اضطرت للاعتراف ورأت نظرة بسمه لها..

لذا تجاهلت الرد وأبقت على ابتسامتها قائلة

- إلى اللقاء يا بنات.. أراكن على خير، اعتنين ببعضكن..

تنهدت بسمة تنهيدة مثقلة كبيرة بينما استدارت دنيا لتغادر
بسرعة قبل أن تغلبها عواطف جديدة عليها.. لما تبدو الحياة
أكثر تعقيدًا مؤخرًا!!!..

اليوم لن تتصل به.. على الرغم من شوقها المهلك لسماع
أخبار طفليها ورؤيتهما عبر اتصالٍ مصور، إلا أنها كانت
من التعب نفسيًا وجسديًا ما يمنعها من تلقي جرعة اللوم
والتقريع اليومية من زوجها مجدي.. في الأسابيع الأخيرة
زاد الجرعة جدًا حتى باتت تكره اللحظة التي تسمع صوته
فيها..

اليوم لن تقدر مطلقًا على خوض اتصالٍ كهذا.. كل ما تتمناه
هو النوم فقط.. لا شيء أكثر أو أقل..

تحممت وبدلت ملابسها ثم وضعت رأسها على الوسادة
تحقق في السرير الذي يعلوها بصمت، تدعو أن يزورها النوم

سريعًا كي لا يرهقها الفكر وجلد الذات..

ترى ما السبب الذي جعلها في اللحظة الأخيرة تخفي عن مجدي موعد إتمام بيع البيت، واختيارها لدنيا كي تحتفظ لها بنصيبها؟!..

هالها الجواب الواضح وضوح الشمس.. ثقتها في مجدي تتضاءل مع الأيام، بينما ثقتها في دنيا ثابتة راسخة كالجبال..

يكفيه أنه يضع خطة صرف راتبها كاملاً.. لا داعي لأن يضع يديه على نصيبها من البيت كذلك.

حدقت في السرير العلوي بصمت مفكرة، ربما بهذا النصيب يمكنها إنهاء عقد العمل هنا والعودة لطفليها.. يمكنها أن تبدأ به مشروعًا صغيرًا يدر لها ربحًا مع دخلها من وظيفتها.. حينها تستقر بها وبطفليها الحياة، فلا تحتاج للسفر من جديد..

عليها أن تفكر بنفسها وحيدة دون أن يتدخل مجدي

ليسيطر على عقلها ويشعرها بمدى أنانيتها وتجاهلها مصلحة
الطفلين..

كادت عيناها أن تغمضا بتعبٍ مؤلم، فتقلبت مرحبة بالنوم
الذي سيغيبها عن مرارة الواقع.. لكن اتصالاً جعلها تنتفض
جالسة لتسارع بالإمساك بالهاتف شاعرة بالقلق على طفلها
دون مبرر وما أن ردت حتى وصلها صوت مجدي يهتف
ذاهلا

- هل صحيح أن البيت قد تم بيعه؟.. وأنكِ سلمتِ نصيبك
لأختك دنيا؟!.. وثقتِ في أختك المهرجة دون زوجك!!

تحركت واحدة من الممرضات في نومها متقلبة مما أخبرها
أنها سمعت صوت مجدي العالي وما قاله.. فنهضت فاطمة
مسرعة لتخرج من غرفة السكن وهي تربط دثارها ثم قالت
بغضب

- لا تتكلم عن دنيا بهذا الشكل يا مجدي.. لا تنس أنها
أختي.. أم تراك نسيت كم ساعدت في زواجنا تلك المهرجة
التي تتكلم عنها بهذا الشكل!

ضحك مجدي بعصبية وهو يقول ساخرًا بصوتٍ حاقـد

- ما سبب هذا الاحترام المفاجئ للسيدة دنيا!!.. لقد
اقتربتـن من حد التبرؤ منها!!

برقت عينا فاطمة بشراسة وهي تهتف غاضبة غير مبالية
بصوتها العالي

- اسمع يا مجدي.. هذا موضوع خاص بيني وبين شقيقاتي
ولا دخل لك به..

بدا وكأنه صدم من شراستها وجوابها القاطع، لكن صدمته
لم تتعد الثائيتين قبل أن يهدر في الهاتف بجنون

- أهذا هو ردك؟!.. إذن اسمعي ردي، أنا لا أقبل أن أكون
محل شكٍ بينما أختك المهرجة هي موضع ثقتك والتي
تضع يدها على مال ولديك، ألم تفكري بهما إن خانت أختك
الثقة!!!.. ما أدراك بحياتها في غيابها الطويل ومع من تختلط
وتعيش؟!..

هل تعلمين عنها أي شيء من الأساس؟!.. اتقي الله في طفليك ولا تكوني معتوهة.. ابليغيها أنني غداً صباحاً سأذهب إليها لتتم نقل نصيبك إلى حسابك الشخصي.. وإلا سيكون لي تصرف آخر لن يعجبك..

ثم أغلق الاتصال في وجهها فأنزلت الهاتف مرتعدة تنظر أمامها بعينين زائغتين..

كانت تقوم بتوضيب أغراضها في حقيبتها استعداداً لتنقل السيرك غداً.. تحاول التركيز فهي تكره أن تضيع شيئاً وإن كانت لا تمتلك الكثير.. لكن ربما يمكنها الآن شراء بعض الأشياء الجميلة بما أنها أصبحت بين يومٍ وليلة خالية المسؤولية، تمتلك مبلغاً لا بأس به.. بلا تدريباتٍ شاقة إلا ما يكفي فقط ليبقي الجسد مرناً.. وقابلاً للقيام بفقرة تكتكة..

توقفت أصابعها عن العمل قليلاً وقد شردت عيناها مفكرة بأسى.. ترى كيف سيكون شكل حياتها المقبلة؟!..

أي هدف يمكنها أن تسعى له؟!.. كيف هي الحياة بلا شرارة متقدة!، تلك التي تشعر الإنسان أنه لا يزال على قيدها..

تنهدت بصمت، حزينة الملامح.. ثم لم تلبث أن ابتسمت وهي ترى وردة حمراء كبيرة مصنوعة من البالونات الأسطوانية الرفيعة تقدم إليها..

التفتت تنظر إلى كشكول الذي كان يقدمها لها صامتًا وعلى وجهه علامات الخجل، قالبًا شفثيه كالأطفال تجاوبًا مع ملامحها الحزينة..

أخذت منه الوردة وهي تنحني شاكرة بطريقة استعراضية ثم عادت لعملها بتحضير أغراضها.. لكن وردة أخرى صفراء قدمت إليها جعلتها تضحك قائلة بخشونة

- اذهب لحالك يا كشكول ودعني أنهي عملي..

ضم قبضته تحت عينه وكأنه يبكي فأمسكت بكتفيه تديره وتدفعه بعيدًا قائلة بصرامة

- لا وقت لدي للعب.. اذهب الآن وربما لعبنا قليلا غدًا
صباحًا قبل الرحيل..

و بينما هي تغلق حقيبتها ارتفع رنين هاتفها فأمسكت به
تتساءل عمن يتصل بها في مثل هذا الوقت المتأخر..

ثم شعرت بالقلق فجأة لترد بسرعة

- مرحبًا فاطمة.. هل أنت بخير؟.. هل الأولاد بخير؟..

قاطعتها فاطمة قائلة بجدية بالغة رغم ارتعاش صوتها

- اسمعيني جيدًا يا دنيا، لا يمكنني أن أطيل الكلام معك
الآن فقد أزعجت باقي الممرضات بما يكفي خلال ساعات
راحتهن.. سيأتيك مجدي غدًا في الصباح الباكر طالبًا منك
تحويل نصيبي من حسابك إلى حسابي..

ارتفع حاجبا دنيا قليلا ونظرت حولها مفكرة ثم ردت

- حسنًا لا بأس.. لكن عليه ألا يتأخر فنحن سنغادر تقريبًا

الساعة...

قاطعتها فاطمة لتقول بنبرة أكثر تسلطًا وحدة

- لقد اتصلت بك لأحذرك من تنفيذ مطلبه.. إياك وأن
تفعلي..

تسمرت دنيا مكانها عاقدة حاجبيها ثم سألت أختها بقلبي
حقيقي

- هل كل شيء على ما يرام؟.. أهنأك مشاكل بينكما؟..

تنهدت دنيا بنفاذ صبر قائلة

- نفذي ما أقوله فقط يا دنيا، لا وقت لدي للمزيد من
الشرح.. اسمعي يمكن لمجدي أن يكون شديد الإلحاح
تنفيذًا لمطالبه.. ويمكنه أيضًا أن يكون عديم التهذيب أقرب
للهمجية حين لا يتم شيء على هواه.. في كل الأحوال
اصمدي ولا ترضخي.. هل تقدرين على التصدي له؟..

مالت شفتا دنيا في ابتسامة ساخرة واثقة وهي ترد
بتصلب

- حبيبتي، أنتِ تكلمين من تنام في مكانٍ واحد مع الأسود..
أفلن أقدر على مجرد شخصٍ ثرثار أقصى ما يمكن أن
يسببه من أذى هو بعض الصداع والذي يعالج بقرصين من
المسكن!!..

ابتسمت فاطمة رغم الحزن الذي حول عينيها لبركتين من
الأسى فلم تستطع الرد.. حينها عرضت دنيا بجدية

- يمكنني أيضًا خطف الطفلين منه إن كانت المشاكل بينكما
شديدة الخطورة وتخشين أن يهرب بهما مثلاً!!..

ضحكت فاطمة تغص بشهقات بكائها غير قادرة على منع
نفسها مما جعل دنيا تسألها بصوتٍ خفيض مضطرب

- ما الأمر يا فاطمة؟.. أهو سيء إلى هذا الحد؟!!..

مسحت فاطمة وجهها بكفها ثم قالت بصوتٍ مختنق متعثر

- خطبة بسمه ستكون غداً مساءً يا دنيا..

ساد الصمت للحظة قبل أن تسألها دنيا بغباء - بسمه من؟!..

أجابتها فاطمة بصوتٍ له نسيج خفيض - بسمه أختك..
ستخطب غداً..

رمشت دنيا بعينيها وهي تقول بتردد ذاهلة

- إلى من ستم خطبتها؟!.. وكيف؟!.. ولماذا لم تخبرني أي
منهن؟!.. ألم تتمكن من تقديم موعد الخطبة يوم واحد فقط
كي أتمكن من الحضور؟!.. ولماذا لم تعرفني على خطيبها
وأسرته من الأساس؟!.. لقد بقيت هنا لشهرٍ كامل ولم تخبرني
أو تحاول دعوته!..

لم ترد فاطمة، بل التزمت الصمت لكن دنيا استطاعت أن
تسمع صوت تنفسها المضطرب الخافت ففغرت فمها للحظات
ثم سألت ضاحكة بعصبية وبذهولٍ أكبر

- هل تعمدت ذلك؟!.. أتخجل بي أمام خطيبها وأسرته؟!..

لكن حتى وإن تمكنت من عدم دعوتي لحضور خطبتها أي فارق سيشكل هذا التصرف في حين سأظل أختها شاءت أم أبت؟!..

تكلمت فاطمة بصوتٍ باهت لا يكاد يسمع

- كانت صريحة مع خطيبها لكنه أمرها أن تخفي أي شيء يخصك عن أسرته ليقبلوا بإتمام الخطبة.. في البداية رفضنا جميعًا، لكنها بدت موافقة يسيرها خلفه كمن لا رأي لها أو إرادة، فلم نستطع فعل شيء أمام عنادها.. لقد تم كل شيء في بيت الخالة فكرية كما ستتم الخطبة هناك أيضًا..

كانت دنيا لا تزال فاعرة فمها تستمع إلى كلمات كالرصاصة تضرب أذنيها بلا رحمة!.. ثم همست ذاهلة وكأنها تحاول التأكد مما سمعت

- هل تقصدين أنها قامت بحذف وجودي في الحياة من الأساس؟!.. لا يعلمون أن هناك أخت كبرى اسمها دنيا؟!..

بدا صوت فاطمة شديد الاختناق وهي تهمس بأسف

- لم تكن لتقدر على تأليف سلسلة طويلة عريضة من الأكاذيب عنك، والتي سرعان ما ستكشف بطريقة أو بأخرى لذا..

صمتت غير قادرة على المتابعة، لكن دنيا كانت هي من تابعت قائلة بصوتٍ باهت منطقي

- لذا رأت أن تقوم بمحوي أسهل وأنظف للجميع!..

همست فاطمة بخفوت

- اذهبي إليها يا دنيا ولا تتركها فريسة لشخص لا يراها جيدة بما يكفي.. عليه أن يقبل بها كما هي، وأسرتها جزء من حقيقتها لا يمكنها محوه أو إخفائه حتى وإن كانت رافضة له..

- أهلاً مجدي.. بما أستطيع أن أخدمك؟..

كان يتحرك حول نفسه، يتأمل المكان بقرفٍ مبالغ فيه
وكأنه يزدري السيرك بمن عليه ومع ذلك لم يأبه به أحد فقد
كان الجميع مشغولون في التجهيز للرحيل..

استقرت عيناه على دنيا أخيرًا والتي بدت مسالمة مبتسمة
بوداعة فقال بخشونة

- لا أهلاً ولا سهلاً.. اسمعي يا بنت الناس، لم آتِ إلى هنا
لأحصل على ترحيب أو مجاملاتٍ فارغة.. لقد أتيت لشيء
واحد فقط وأظن أن فاطمة قد أبلغتك به..

تظاهرت دنيا بالتفكير محاولة التذكر ثم أعادت عينيها إليه
قائلة بحيرة

- لا أظن أنني أفهم قصدك.. هلا أخبرتني بما تريد؟..

أغمض مجدي عينيه يزفر نفسًا من بين أسنانه قائلاً
بصوتٍ متشنج جاف

- ها قد بدأنا اللف والدوران.. نفذي ما طلبته منك فاطمة يا

دنيا ولا داعي للمراوغة..

اتسعت عيناها ببراءة تقول

- صدقني لا شيء مما أبلغتني إياه فاطمة لم ينفذ.. ماذا تريد تحديدًا؟!..

عقد حاجبيه يسألها بشك

- ألم تتصل بك فاطمة ليلة أمس؟!... ألم تقل شيئًا؟!..

هزت دنيا رأسها بعدم فهم ثم قالت متنهدة

- ليتك فقط تخبرني بما تريده فلدينا الكثير من التحضيرات للسفر..

نظر مجدي حوله بعبوس شديد ثم سألها بصوت مرتبك

- ألا يوجد مكان نستطيع الكلام فيه على انفراد؟..

ردت عليه بأسف وهي تشير حولها

- للأسف يا مجدي، كما ترى تم رفع الخيمة.. نحن لا نعمل في مكاتب كما تعلم، لذا هذا هو المكان الوحيد الذي تستطيع الكلام فيه..

زفر بنفاذ صبرٍ ثم قال بعصبية وإن كان قد أخفض صوته قليلاً

- سنذهب أنا وأنتِ الآن.. لتحولي نصيب فاطمة من بيع البيت من حسابك الشخصي لحسابها الشخصي..

ضاقت عينا دنيا وهي تمد رأسها سائلة

- ارفع صوتك، لم أسمعك...

لم يجد مجدي الفرصة ليكرر ما قاله، فقد تطوع العم مرزوق والممسك بمكبر الصوت مارًا من خلفه في تلك اللحظة بالقول في المكبر

- يقول أنه يريدك أن تحولي نصيب أختك في بيع بيت والدها من حسابك إلى حسابه.. أقصد إلى حسابها..

التفت الجميع ناظرين بنظراتٍ ضاحكة بينما اكفهر ملامح مجدي والذي قبض على مقدمة قميص العم مرزوق يوشك أن يزهدق روحه وهو يهدر بغضب

- هل تستخف ظلك يا هذا!!.. أتريد أن ترى ردة فعلي على رجل مسن مثلك؟!!..

هتف مرزوق مرتعّبًا في مكبر الصوت

- النجدة.. النجدة يا سادة يا كرام.. ثور هائج في السيرك.. أقصد زوج هائج في السيرك..

هزه مجدي بجنون محاولا انتزاع مكبر الصوت، بينما اقتربت دنيا منه لتمسك بساعده بقوة محررة العم مرزوق من بين قبضتيه

ثم قالت بصرامة وقد زال العبت فجأة ليحل محله الصلابة

والبأس

- كلامك معي أنا يا مجدي..

التفت إليها لاهثًا محاولًا ترتيب ملابسه ثم هتف بجفاء
وفظاظة

- لا مزيد من الكلام، لتنفذي فقط ما أخبرتك به.. هيا..

ظلت واقفة مكانها هادئة الملامح رغم العينين القويتين
الصريحتين بلا وجل أو خوف.. ثم كتفت ذراعيها ترد بكل
بساطة دون أن يرف لها جفن

- هذا لن يحدث إلا حين تأذن صاحبة الأمر.. والآن بعد
إذنك أنا مشغولة..

بدأ مجدي في الهاتف بصوت عالٍ بهمجية

- هذا ما كنت أخشاه، تظنين أنك قادرة على سرقة نصيب
أختك ظنًا منك أنه لا رجل لها يدافع عن حقوقها مثلك.. لا

والله أنا سوف..

قاطعه صوت رجولي مجسم الأبعاد جهوري دون حتى أن
تعلو نبرته

- مشاكل يا دنيا؟!..

نظر مجدي خلف كتفها ليرى من ورائها رجل ضخم يساوي
ثلاث أضعاف حجمها على الأقل، مخيف الملامح..

عضلاته لم ير مثلها من قبل كما لم ير شاربًا طويلًا مثل
شاربيه!! ، ممسكًا سوطًا جلدًا أسودًا ضخمًا في يده..

ظلت دنيا واقفة مبتسمة مكتفة ذراعيها بكل ثقة ثم
أشارت بكفها للخلف قائلة

- عم بدوي.. مدرب الأسود..

تحرك حلق مجدي وهو يقول بتردد - كلامي معها....

سألها العم بدوي بخشونة دون أن يزيح عينيه المشككتين
عن مجدي - هل تريدان الكلام معه؟...

ردت دنيا مشددة على كل حرف دون أن تحيد بعينيها عن
عيني مجدي

- الكلام انتهى يا عم بدوي...

رفع العم بدوي السوط وكأنه ينزع سيفه من الغمد قائلاً
بصرامة

- سمعت السيدة.. والآن أريدك أن تخرج من هنا بكل هدوء
دون أن تنظر للخلف..

انعقد حاجبا مجدي بشدة وقد شحبت ملامحه، لكن حين
بدا عليه التردد سقط السوط لاسعًا على الأرض بكل قوة
وبصوتٍ مفزع جعله يقفز في مكانه لابتعد للخلف جريًا..
لكنه قال هاتقًا بقسوة

- تهددني ببلطجية السيرك يا دنيا؟! لا بأس.. أنا سأريك

وسترى شقيقتك قبلك..

لسعة أخرى من السوط على الأرض جعلته يقفز مجددًا
قبل أن يغادر السيرك مهرولًا تعقبه ضحكات الجميع بينما
رفعت دنيا كفها مفرودة فضربتها قبضة العم بدوي الضخمة
قبل أن يستدير عائداً إلى عمله..

أخذت دنيا نفسًا عميقًا، ثم اتجهت للشاب الواقف يساعد
في نقل الأغراض وقالت بنبرة أمرة

- كشكول، أنت لن تغادر مع الباقيين.. ستبقى معي الليلة ثم
نلحق بهم غدًا بالقطار..

ارتفع حاجباه كما اتسعت عيناه.. وفتح فمه ينوي السؤال
إلا أنها ابتعدت دون أن تترك له الفرصة..

تعالى الزغاريد في حفلٍ متواضع بسيط وإن كان قد بدا
عليه التحفظ والرسمية، والجميع يقيمون بعضهم البعض

رغم العدد المحدود جدًا من المدعوين..

من جانب بسمة لم يتواجد بجانبها سوى الخالة فكرية وأسررتها.. وشقيقتها هدى وبثينة.. وصديقاتها واللاتي لم يتجاوز عددهن عن الأربع صديقات.. أما من جهة العريس فقد أتى بالكثير من أقاربه حتى ازدحم البيت تمامًا..

كانت بسمة تبدو جميلة للغاية في فستانٍ أنيقٍ غالي الثمن رغم بساطة طرازه.. شعرها مصفف بعناية على جانب كتفها، تلبس خطيبها خاتم الخطبة في إصبعه كما فعل قبلها..

أمه تبدو طيبة لكنها كانت شديدة التدقيق في كل مدعو، محاولة أن تتبين مستوى عائلة العروس التي أصر ابنها على أنه يعرفها حق المعرفة، واثق من سلامة اختياره..

لم يكن مستواه المادي يختلف عن مستواها بكثير، فقد كانت أسرته مستورة الحال.. لكن والده كان موظفًا حكوميًّا..

مستواهما الآن في الظاهر متقارب.. أما في بداية الحياة فقد عانت بسمة وشقيقاتها وأمه من ضيق الحال بعد وفاة

الأب والذي لا معاش له..

لكن مرت الأيام وكبرت البنات وتخرجن.. منهن من تزوجت
ومن تغربت ومن توظفت.. حتى استقر الحال ويمكن الآن
وصفهن بالأسرة مستورة الحال..

حين انتهى العروسان من لبس الخواتم، رفعت فكرية
وجهها لتزغرد عاليًا.. لكن صوت الزغاريد تتداخل مع صوت
موسيقى استعراضية بدأت في العزف خارج باب الشقة
المفتوح..

ضيق بسمه حاجبها وهي تميل برأسها يمينًا ويسارًا
لترى مصدر تلك الموسيقى.. حتى رأت ساقًا تمتد برشاقة
لتدخل من الباب المفتوح.. ساق في جورب طويل مخطط
باللونين الأبيض والأرجواني!!..

ثم دخلت الفتاة الشبيهة بالدمية الكبيرة والتي تعرف
شكلها، تحفظه عن ظهر قلب.. بالفستان المنفوش والشعر
الصوف ذي اللفائف!!

شعرت بسمه بقلبها يهوي بين أضلاعها وهي ترى تلك
الدمية تدخل متسللة بحركاتٍ استعراضية وكأنها تمشي على
أطراف أصابعها تغني بصوتٍ طفولي مع الألحان المنبعثة من
خلفها

- أهو هنا؟... هنا؟.. هنا؟.. حبيبي هنا؟؟.. هنا؟؟.. هنا؟؟؟

تبعها مهرج يرتدي حذائين كبيرين يعزف على الآلة المعلقة
على صدره متسللاً وهو يغني بصوته الأجش

- خلفك هنا.. هنا.. هنا...

تظاهرت مجفلة بالفرع وهي تضع يدها على صدرها هاتفة
- كشكول؟!..

صرخ الأطفال المتواجدون بمرح وهم يتجمعون حولهما..
ليبدأ كشكول وتكتكة في إداء فقرة راقصة مضحكة وإن
كانت شديدة اللياقة منهما سوياً..

امتقع وجه هدى والتي تشبث بذراع بثينة الفاعرة فمها..

أما الخالة فكرية فكانت تضرب على وجنتها بكفها لمسًا دون صوت..

نظر ياسر العريس لما يحدث مصدومًا، ثم قال ببطء متشنجًا مهددًا وقد بدا غارقًا في عرقه دون أن يلتفت لعروسه

- أرجوكِ اخبريني أن ما أفكر فيه ليس حقيقيًا!!.. هذه ليست.. أختك..

لم يحصل على رد فالتفت رأسه كالرصاصة ينظر إليها سائلًا بحدة - ليست كذلك.. بسمة!!

لم ترد بسمة عليه بل ولم تلتفت إليه.. فقد ظلت جالسة مكانها تراقب ما تفعله أختها بملامح ميتة تمامًا، وعينين شديدي العمق والجفاء.. لا تكاد تتنفس، بينما النار تندلع في صدرها..

اقتربت أم العريس من ابنها وخطيبته لتسأل ضاحكة بدهشة بالغة

- هل اتفقتما مع مهرجين يا بسمه؟!!.. أول مرة أرى
مهرجين في حفل خطبة!..

ازداد امتقاع وجهها وظلت صامته تمامًا، بينما مال إليها
ياسر هامسًا من بين أسنانه

- هل لديك علم بتلك الكارثة؟!...

نظرت إليه بسمه نظرة واهية ثم أعادت وجهها إلى
دنيا بنفس التعبير الخاوي لا تكاد تقدر على التنفس وهي
ترى أختها تتشقلب مرة بعد مرة بكل سهولة ويسر وكأنها
مصنوعة من مطاط.. وسط صرخات وتصفيق الأطفال..

بدا ذلك العرض وكأنه ممتد لنهاية العمر.. ثم انتهى فجأة
حين انحنت دنيا مغمضة عينيها وسط الملامح المزينة
بالأحمر والأبيض كالدمى.. ثم رفعت عينيها في انحناءتها
لتلتقي بعيني شقيقتها السوداوين الغائرتين فبدا وكأن جميع
الأصوات قد اختفت من حولهما.. وبقي صوت انفعالاتهما
المحتدمة فقط!..

تحرك حلق بسمه تبتلع الغصة بصعوبة بينما شحبت
ملامحها تماماً وهي ترى دنيا تستقيم واقفة تقترب من أم
ياسر برشاقة حتى وقفت أمامها بابتسامة عريضة تألقت
أسنانها فيها كحبات اللؤلؤ ثم مدت كفها قائلة بلطف

- مبارك.. كنت أتمنى لو استطعت الحضور قبل فترة
والتعرف إليك.. لكنني كنت مرتبطة برحلاتٍ استمرت لشهور

نظرت الأم لابنها وعروسه بحيرة مرتبكة لكنها صافحت
كف دنيا الممتد والمغطى بقفازٍ من الدانتيل والشرائط
الحريرية ثم قالت بحرج

- عذراً يا حبيبتي لا أفهم.. من أنتِ؟!...

تعمقت ابتسامة دنيا بكل لطف وهي تقول - أنا دنيا..
شقيقة بسمه الكبرى، لاعبة بهلوانية في سيرك سلطان..

وكأن صاعقة قد وقعت على رأس الأم والتي غطت وجنتها
بكفها غير مصدقة.. لكن دنيا لم تنتظر لتتلقى رد فعلها بل
اتجهت للعريس وانحنى إليه قائلة ببرود

- مبارك يا عريس.. لكنني عاتبة عليك، أما كان من الواجب أن تنتظر عودة شقيقة العروس الكبرى عوضاً عن إخفاءها عن والدتك!!..

رمقها بنظرة قاتلة وقد انتفخ عنقه وبدا غير قادر على التنفس من فوق ربطة عنقه..

أما بالنسبة لبسمة، فقد رمت لها ابتسامة واهية فاترة.. لم تعاتبها ولم تهنئها.. لم تقل شيئاً فقد تكفلت عيناها بقول كل شيء

تماماً بنفس النظرة التي ألقت بها لشقيقتها هدى وبثينة دون ابتسام ثم استدارت وابتعدت بخطوات واسعة وتنورة فستانها ترتفع وتنخفض كدمية لا ألطف أو ألد منها!..

كانت في منتصف الدرج، حين اندفعت بسمة من خلفها متشبثة بالحاجز أعلى السلم تميل منه هاتفة بقهر

- هل أنت راضية الآن يا دنيا؟.. كسرت فرحتي ودمرت خطبتي، أرجو أن يكون العرض قد أبهجك..

توقفت دنيا مكانها للحظاتٍ بعينين قاتمتين قبل أن
تستدير لترفع وجهها تقابل نظرات أختها الباكية ثم قالت
بجفاء

- فرحتك.. خطبتك.. إنه يومك بلا شك، لكنه عمري كاملاً
متمثلاً في كل واحدة منكن تقف عروسًا بجوار عريسها..

لا يحق لك محوي من حياتك، لا يحق لك.. إن كان هذا
هو قرارك فكان ينبغي أن يأتي قبل وقت طويل جدًا يقدر
بالسنوات..

لكن حين تنفيذ خطة شخص لم يدخل حياتك سوى من
بضعة شهورٍ أو عامٍ على الأكثر أمرًا بمحوي أمام أهله لمجرد
أنك غير راضية عن خياراتي في الحياة، عندئذ لا يحق لك
الاعتراض حين أمارس أنا حقي في الظهور للحياة معلنة
هويتي بكل بساطة..

صمتت غير قادرة على تحمل وجع الغصة في حلقها.. لكنها
همست أخيرًا بصوتٍ لا يكاد يسمع

- إن بقي معك بعد فضيحة تعرف أهله على أختك الكبرى المشبوهة.. فمبارك لكما وعسى أن يكون بديلاً أفضل منها في حياتك بما أنك قمت باستبدالها لحظة دخوله..

جالسة في بهو فندقٍ متواضع ريثما ينهي كشكول حجز غرفتين لليلة قبل أن يلحقا بعائلة السيرك في اليوم التالي..

تحقق في البعيد، ممسكة تحت ذراعها الحقيبة الضخمة التي تدس فيها زي تكتكة.. ورغم أنها غسلت وجهها مراراً لكن ظلت آثار الأصباغ على بشرتها وتحت عينيها وكأنها انتهت لتوها من بكاءٍ مرير..

لكنها لم تبك حقيقة.. لم تذرف دمعة واحدة..

لقد ظلت صامتة تماماً جامدة الملامح، بعيدة النظرات.. تجلس بتخاذل رأسها مائل قليلاً كرأس دمية مكسورة..

اقترب منها كشكول وجلس بجوارها قائلاً بخفوت

- سنصعد إلى غرفتين خلال دقائق...

أومأت برأسها دون كلام فرمقها بنظرة أسي ثم قال ببطء

- لم يكن علي أن أطاوعك كالأحمق.. كان علي حمايتك من نفسك..

تبسمت شفتاها ابتسامة فاترة، ثم التفتت إليه هامسة

- لم تكن لتقدر يا كشكول.. كنت محملة بالكثير من الانكسار وخيبة الأمل.. لم أتخيل أنني كنت مثار عارٍ لهن طوال تلك السنوات.. ربما لست مدعاة للفخر، لكن بكل تأكيد لم أتخيل أن يخجلن مني ويحاولن إخفاء وجودي أمام الناس..

مالت عيناه بحزنٍ كمهرجٍ مؤثر الملامح ثم سألها

- وهل ارتحت؟..

ضحكت ضحكة قصيرة لا تحمل أي مرح وكأنها طرقة على
قارورة زجاجية فارغة ثم قالت رافعة حاجبيها

- ذات السؤال الذي سألته بسمه.. لست مرتاحة فالأذى قد
حصل لنا جميعًا وانتهى الأمر..

صمت للحظة ثم نظرت إليه وتابعت بجمود- لكنني لست
نادمة.. لأنني لست فضيحة..

ابتسم متعاطفًا ورد- أنتِ لستِ فضيحة بكل تأكيد.. ربما
كانت تكتكة فضيحة متنقلة، لكنك دنيا.. أنا فخور بكل
السنوات التي عملنا فيها جنبًا إلى جنب..

ابتسمت ابتسامة جميلة هي الأولى من نوعها في هذه
الليلة القاسية، ثم ردت بصوت عميق

- كان مشوارًا طويلًا.. أليس كذلك؟.. أغلبه كان مرحًا وفرح
يا كشكول..

عقد حاجبيه قائلاً باستنكار- تتكلمين وكأننا هرمناء!!..

غابت الابتسامة عن شفتيها ببطء ثم همست تكتف
ذراعيها شاردة

- هذا هو ما أشعر به منذ فترة.. كنت أشعر بنفسي منذ شهر
واحد شابة والمستقبل بأكمله أمامي ولا حدود لما أستطيع
تقديمه.. حدث الكثير خلال هذا الشهر جعلني أشعر بنفسي
وقد هرمت فجأة!.. جسدي مرفوض في الحياة التي لم أعش
غيرها لسنوات, تماماً كما هو وجودي في حياة شقيقتي.. ثم
اكتشفت فجأة أنني لا أملك أي حياة مطلقاً!..

قاطعها رنين هاتفها ربما للمرة العاشرة الليلة فتنهدت تزم
شفتيها بينما قال كشكول معقبا

- وجودك ليس مرفوضاً في حياة شقيقتك كما ترين..
يحاولن الاتصال بك منذ ساعتين وأنت من ترفض الرد..

ابتسمت ساخرة تقول بمرارة

- ما عدت أترقب اتصال من أي واحدة منهن بعد الليلة.. أي
اعتذارٍ منهن ما هو إلا مجرد كلمات فارغة لا قيمة لها..

تنهد قائلاً - على الأقل انظري من منهن تتصل بك هذه المرة..

نظرت دنيا لهاتفها ثم عقدت حاجبيها فهذه المرة اتصالاً من رقم غريب فعلاً.. وضعت الهاتف على أذنها مجيبة فوصلها صوت رجولي حازم يقول

- آنسة دنيا؟.. اللعبة بسيرك سلطان؟..

ردت بحذر- نعم أنا هي.. ومن تكون أنت؟..

أجابها المتصل قائلاً - أنا كريم لطفي.. هل سمعت عني الأيام السابقة؟..

ردت بحذرٍ كبير، لا تجد أي صدى لاسمه في ذاكرتها- لا...
أسفة!..

أجابها قاطعاً- هذا أفضل.. أنا مدرب ومخرج عروض باليه..

مالت حدقتها جانبا ثم قالت ببطء أكبر- ما شاء الله،
جيد.. خير؟..

سألها متردداً وكأنه لا يعرف كيف يبدأ

- لقد حضرت العرض الأخير لك...و حصلت على رقم
هاتفك بعدها من أحد العاملين في السيرك

مطت شفيتها متسائلة عن ذلك العامل الذي قد يعطي
لمطلق غريب رقمها وكأنه رقم السيدة والدته!.. لكنها كتمت
الجواب الوقح وسألت بمللٍ بدأ يتسرب إليها

- تهنئة أم ملاحظات؟..

أجابها بغباء- عفوا.. ماذا تقصدين؟..

سألته بنفاذ صبر- هل حصلت على رقمي خصيصاً لتهنئتي
أم لتعطيني ملاحظاتٍ على العرض؟..

أجابها بسرعة- لأهنئك بالطبع.. صمت للحظة ثم هز رأسه

قائلا باقتضاب

- حسنًا ربما كان لدي ملاحظة أو اثنتين.. لكن يرجع هذا لطبيعة الاختلاف بين عملي وعملك..

نظرت دنيا إلى ساعة الحائط المعلقة على جدار بهو الفندق، ثم تشاءبت قائلة

- بارك الله لك يا سيدي.. هل تريد شيئًا آخر؟.. لأنني مضطرة للصعود لغرفتي

أجابها بسرعة - لحظة من فضلك.. أردت سؤالك إن كان لديك رغبة في أن نتعاون سويًا..

ضاقت عينها وهي تقول بعدم فهم - ظننتك قلت أنك مخرج عروض باليه!...

أجابها مرتبًا بعض الشيء- نعم.. لكن ما أتكلم عنه هو استعراض بعينه قد يضم مهاراتك..

سألته رافعة حاجبيها مرددة- قدا!!.. ألسـت واثقًا من
استعراضك وما يحتاجه؟!..

تنهد تنهيدة كبيرة وصلتها حتى أنها أبعدت الهاتف عن
أذنها تنظر إليه بشك، ثم عادت وقالت ملوحة بكفها
- هل انتهى الكلام؟..

أجابها بصوتٍ عصبى - اسمعي الأمر معقد.. لن ينجح في
الهاتف..

ارتفع حاجباها أكثر وهي تفكر

“ الأمر معقد!!!.. هل يتصل بخصوص عملٍ أم يتصل لقراءة
الفاتحة وتلبس خواتم خطبة!! ”

قاطع أفكارها قائلاً بجدية- سأرسل لك رقمي.. إن كنت
مهمة فلتتصلي بي لتحديد موعد غداً..

رفعت رأسها قائلة- غدا أنا مسافرة للـ.. مرحبًا؟.. أنت يا

أستاذ الباليه؟!..

كان قد أغلق الهاتف فنظرت إليه بدهشة بالغة، ثم أخفضته
في حجرها محدقة أمامها بعدم فهم.. لكن مع فضولٍ عجيب
ورغبة في الفهم.. وسماع ما يريد!!..

الفصل الرابع

تاريخ اليوم / التاسع والعشرون من شهر مايو

الاسم / ريم

سألها بصوتٍ هادئٍ مدققًا النظر لعينيها

- هل تشعرين عادة أنك أفضل ممن تتعاملين معه يا ريم؟..

بادلته النظر محدقة بعينه ثم أجابت مبتسمة

- أنا أعلم.. أنني أفضل ممن أتعامل معه..

ترك القلم فوق الدفتر للحظات، ثم سألها ببطء مشبكًا
أصابعه

- هل تشعرين أنك أفضل مني مثلاً؟..

ضحكت ضحكة ناعمة ثم سألته بنبرة متلعبة- ما الداعي لهذا الإحراج الآن؟!..

ابتسم متجاوبًا مع ضحكتها بدافع الذوق ومنح الثقة ثم أجابها فاتحًا كفيه قائلاً ببساطة مطمئنة

- يمكنك البوح لي بكل ما قد تخرجين من البوح به أمام الآخرين.. أراهن أنك تتوقين لإخبار كل من تتعاملين معهم بأنك أفضل منهم..

هزت كتفها تقول بتعالٍ- لست في حاجة للقول.. يكفي أنهم يشعرون بذلك، يكرهون أنني متميزة عنهم.. ولهذا تفشل كافة علاقاتي في الحياة..

تأملها طويلاً ممسكاً بالقلم بين يديه أمام وجهه ثم قال بهدوءٍ شديد مركّزاً على عينيها

- لم تجيبي سؤالي.. هل تعوزك الصراحة أمامي؟..

ارتفع حاجباها للحظة ثم قالت مبتسمة وهي تضع ساقاً

فوق الأخرى

- ما دمت تريد ذلك، فلا بأس.. أشعر أنك أقل مني في أشياء لا أستطيع تحديدها.. ربما الثقة بالنفس أو.. قوة الشخصية.. الذكاء..

ضحك وهو يعاود وضع القلم على الدفتر أمامه دون رد
فقالت بخبت تهز ساقتها

- أنت طلبت.. فلا تغضب..

رفع حاجبيه وعينيه ناظرًا إليها لحظات، ثم ابتسم ابتسامة
جذابة وهو يقول متنازلاً

- معك حق.. أنا طلبت..

- لا أستطيع أن أخطئ

الأول من شهر أكتوبر.. مر شهر كامل على وصولها لهذا البيت

نظرت إلى وجهها في المرآة تتلمسه بأصابعها.. تتحرك فوق تلك الملامح وكأنها فنان نحت يتحقق من مدى تشوه قطعة كانت مثالية في يومٍ من الأيام..

انحنى حاجباها ألماً كما ارتعشت شفتاها فأغمضت عينيها عن رؤية هذا الوجه.. وهمست لنفسها

أنا أستحق هذا.. أنا أستحق هذا.. لم يكن ينبغي أن أخطئ.. طالما أخطأت فأنا أستحق العقاب..

العقاب هو رأب التشوه الذي أحدثه الخطأ في قطعة جميلة مثالية.. كي تعود للكمال.. والكمال هو الامتناع عن الخطأ

كان صوتها شديد الخفوت وهي تهمس لنفسها مكررة مرة بعد مرة، ثم شهقت فجأة بصوت عالٍ حين سمعت صوت الطرقات على باب غرفتها..

ضيقت عينيها تنظر لمقبض الباب.. ترى هل عادت أمها من الخارج؟!.. إن تحرك المقبض فقد عادت..

انتظرت وانتظرت ثم وقع قلبها أرضاً.. لم تكن أمها ولم تكن فتية، فهي لم تأت اليوم!..

أهي نوران؟!..

أجفلت مجدداً على صوت الطرقات على الباب.. فانحنت لتمسك بقناعها بأصابع مرتجفة قبل أن تثبته جيداً ثم اقتربت من الباب ونادت بتردد

- من؟..

لم يصلها أي جواب بل طرّق الباب من جديد.. شعرت وكأنها تنتفض خوفاً دون سببٍ محدد..

من يكون ذاك الذي يرفض الرد؟!.. ستتصل بأمها..

تراجعت للخلف تنوي الإمساك بهاتفها.. لكن الطرق من

جديد جعلها تنظر للباب بتوتر فوقفت ثابتة كالتمثال..

الباب بلا مفتاح.. ماذا لو حاول الطارق فتحه والتهجم عليها!

اهدئي يا زاد.. ما هذا إلا بيت عادي.. افتحي الباب..

عادت تقترب من الباب ببطء شديد مرهفة السمع، أتراه مل الوقوف وانصرف أي من يكون؟!..

دعت ربها مخلصاً أن يكون قد مل الانتظار وانصرف.. لكن صوت الطرقات من جديد جعلها تغمض عينيها كاتمة أنفاسها..

تحركت مجدداً ببطء أكبر.. ثم بحركة واحدة فتحتته بقوة قبل أن تتوقف عن الحركة تماماً

اتسعت عيناها تحت القناع وهي تحدد هوية الطارق على الفور.. لقد كان المدعو سائد، ابن صاحب البيت

كان يستند بكتفه إلى إطار باب غرفتها مكتفًا ذراعيه وعلى وجهه علامات الملل الشديد يبادلها النظر ببلادة ثم قال ناظرًا إلى ساعة معصمه

- استغرقتِ ما يقرب من الدقيقة لفتح الباب!.. هذه السرعة خطيرة عليكِ..

انعقد حاجباها بشدة وهي تتشبث بحافة الباب بأظافرها ثم سألت بفضاظة

- ماذا تريد؟!..

ظهرت دهشة حقيقية على وجهه من طريققتها الفظة في الرد فسألها مبتسمًا بتهكم

- هل تتذكرين من أكون؟..

ما الذي يحدث بالضبط؟!.. ماذا يفعل هنا؟!..

ردت عليه بصوتٍ خفيضٍ متوتر مختلسة النظر له

- أنت ابن صاحب البيت..

ارتفع حاجباه وهو يستقيم في وقفته يسألها بدهشة - أنا
ماذا؟!..

توردت وجنتاها تحت القناع وهي تتراجع خطوة قائلة
بخفوت شديد التوتر

- أنت ابن.. ابن..

كلما نطقت يرتفع حاجباه أكثر مما يشعرها أن الجواب
خاطئ رغم أنها لم تنطق بعد.. فتتلعثم أكثر.. فسألها بصرامة
أشد يغلظ صوته والدهشة تزداد على وجهه

- ابن ماذا؟!!!....

هتفت بارتباك قبل أن تفوت الفرصة - ابن خطاب.. زوج
أمي..

أوماً برأسه ببطء شديد دون أن يحيد بعينه عن عينيها ثم

قال بجفاء

- هذا أفضل على الأقل.. فللحظات انتابني الشك في أن يطول لسانك..

حفرت أظافرها في خشب الباب ممتعة الوجه.. يطول لسانها؟!.. لسانها لا يطول مطلقًا..

أخذ نفسًا نافذ الصبر ثم قال بلطفٍ وتهذيب

- لقد طرقت بابك كي أطلب منك طلبًا.. لقد عدت من العمل لتوي، وفتحية ليست موجودة وكذلك نوران.. وأنا أكاد أموت من الجوع..

صمت للحظة ثم تابع بثقة غريبة، مبتسمة تلك الابتسامة السمجة- هلا حضرت لي شيئًا آكله.. من فضلك..

مالت للأمام مصدومة، وكأنما استطاع أن يرى القناع الأبيض يتحول للذهول في ملامحه فاقدة الحياة.. فكنتم ابتسامة بصعوبة بينما رددت بصوتٍ خفيض مضطرب

- ألا.. ألا تستطيع.. تحضير شيء لنفسك؟!...

هز رأسه ببطء شديد وعلى شفثيه لمحة ابتسامة تسلية،
ثم قال ببساطة ودون خجل

- لا أستطيع تحضير كوب شاي لنفسي حتى...أنا مدلل منذ
الصغر..

إنها تستغرق الكثير في كل شيء.. تستغرق الكثير كي تفتح
الباب.. تستغرق الكثير كي ترد.. وتستغرق الأكثر كي تتخذ
قرارها!!..

انتظر بصبرٍ متنهّدًا.. فهمست أخيرًا بصوت متقطع

- حسنًا..

كتم صيحة انتصارٍ أشعرته بتفاهته.. لكنه بالفعل شعر بأنه
ربح جولة غاية في الأهمية فانتظر واقفًا مترقبًا مانعًا نفسه
من الرقص كالهنود الحمر احتفالًا.. لكن حين رآها لا تزال
واقفة مكانها ممسكةً بالباب هتف عابسًا بنفاذ صبرٍ أمرًا

- هيا..

انتفضت مجفلة قبل أن تخرج من باب الغرفة ثم نظرت إليه مفكرة فقال ممتعضًا

- لا تخافي.. لن تتعرض غرفتك للسرقة في غيابك.. البيت هنا آمن إلى حدٍ ما..

احتقن وجهها بشدة تحت القناع وكاد أن يرى لونه الأبيض قد تورد.. فابتسم وهو يسير خلفها في الرواق..

هز رأسه رافعًا حاجبه وهو يلاحظ كيف تسير كالفراشة في نعومتها.. لقد ولت أيام المراهقة منذ دهر فما الذي أصابه!..

حين وصلا إلى السلم تعمد أن يسرع الخطى كي ينزل بجوارها لا خلفها مما جعلها تجفل مجددًا وتتعثر إلا أنه أمسك بمرفقها كي لا تقع..

كم هي هشة!!.. لا يظن مطلقًا أنه أحس بفتاة في مثل تلك

الهشاشة والرقّة من قبل!..

تقلص كل جزء فيها وهي تسحب مرفقها من يده تميل على
حاجز السلم كي تبتعد عنه فسألها يمد كفه داعيًا بتهذيب

- هل أنت في حاجة للقفز من فوق حاجز السلم؟.. تفضلي
افعلي..

مالت بوجهها وهي تتأفف!!.. لقد سمعها، ظنت أنه لن يعرف
لأنها تضع قناعًا إلا أنه سمعها مما جعله يرفع حاجبيه بدهشة

تتأففين!!.. لا بأس ستتأففين كثيرًا في المستقبل..

سارعت تجري على السلم كي تفر منه فابتسم رغماً عنه
لكنه تبعها بكل هدوء حتى وصلا للمطبخ..

كانت على وشك أن تفتح الثلاجة بأصابع مترددة لكنها
تسمرت حين رآته يسحب كرسيًا ليجلس عليه بالمقلوب
مسندًا مرفقيه إلى ظهره وكأنه يجلس ليشاهد عرضًا!!..

فقلت بسرعة متلعثمة قبل أن تستطيع منع نفسها

- ماذا.. ماذا تفعل؟!.. أقصد تفضل أنت في أي مكان وأنا..
سأحضر لك الطعام حين أنتهي..

مال بوجهه وهو يقول بهدوء مبتسمًا

- لقد تفضلت في مكانٍ بالفعل.. كما أنني لست قليل
التهذيب كي أسمح لك بتحضير طعامي بينما أرتاح أنا على
الأريكة وكأنك تعملين عندي!..

ردت بخفوتٍ وارتباك مشيرة لباب المطبخ- لا بل تفضل..

ابتسم وعيناه تتألقان تسلية بينما مد ناحية الثلاجة وقال
ببساطة- لا بل تفضلي أنت.. أكاد أموت من الجوع يا زاد
وأنتِ فعلا بطيئة كسلحفاة.. دون إهانة.

ارتبكت قليلاً لسماعها اسمها بصوته وهذا بالتحديد ما كان
يهدف إليه فابتسم..

ثم بدأت بإعداد بعض الشطائر.. وقد كانت كارثة بكل معنى الكلمة، لقد وقع منها الخبز والجبن كما تحركت كفها بعصبية فأطاحت بكوب زجاجي كاد أن يقع أرضًا..

كان سائد يتأملها وقد غابت عنه الابتسامة، يشهد ارتباكًا وكأنها لم تختلط بأحدٍ من قبل!..

نهض من مكانه ببطء ليدور حول الطاولة حتى وقف بجوارها ثم مد يده قابضًا على كيس الخبز الذي كانت تصارع كي تمزقه بعصبية لاهثة.. والعجيب أنه شعر بملامح القناع تتصارع بتعقيدٍ غريب!.. رغم أنه نفس القناع الأبيض الساكن بلا تعبير!

حين قبض على الكيس يمنعها من تمزيقه رفعت وجهها إليه بقلق فقال لها بعد لحظةٍ بهدوء تام وبنبرة غريبة شعرت وكأنها الأمان بعينه

- لا بأس يا زاد.. اهدئي، أنتِ بأمان..

استطاع أن يلمح اتساع عينيها المصدومتين من ثقب

القناع فابتسم لهما متابعًا

- أنا ابن صاحب البيت، هل نسيتِ!.. إن تجرأت على مسك
بسوء فسوف يقوم خطاب بدفن جثتي في حديقة البيت
الخلفية

الآن فقدت هاتان العينان اتساعهما المصدوم ولاح بهما
تعبير غريب وكأنه حيرة أو ضياع

سحب لها كرسيًا وقال بهدوء

- اجلسي... لنر إن كانت فتحة قد تركت شيئًا جاهزًا في
الثلاجة..

استدارت حول نفسها وهي تراه يفتح الثلاجة فقالت
بصوتٍ خفيض مرتبك

- يجدر بي العودة إلى غرفتي.. وأعتذر لأنني لم أكن ذات
فائدة تذكر..

سألها بصوتٍ هادئٍ متأملًا علبة كبيرة كانت في الثلاجة

- لماذا يجدر بكِ؟..

كانت شاردة الذهن تشعر بالتيه، فلم تفهم سؤاله وهمست
باضطراب

- ماذا؟..

استدار إليها واضعًا العلبة على سطح الطاولة يبدو عليه
الاسترخاء ثم رفع وجهه ينظر إلى عينيها مباشرة وسألها
مجددًا بجدية

- لماذا يجدر بكِ العودة إلى غرفتك والتي لا تخرجين منها
مطلقًا؟!..

أربكها سؤاله الجاد الهادئ أكثر من تعمدته التسلية
بأعصابها..

رأى حلقها يتحرك وهي تزدرد لعبها ثم أشاحت بوجهها

واستدارت تنوي الخروج من المطبخ، إلا أنه هتف فجأة
بصوتٍ مهلل

- إنه يوم سعدنا!!!...

التفتت تنظر إليه بدهشة ثم رأتَه وقد فتح العلبة الكبيرة
ناظرًا إليها بسرورٍ بالغ ثم رفع عينيه إلى عينيها وقال بمرحٍ
وكأنه لا يحمل للدنيا أي هم

- قوالب كعك أعدتها فتحية وتركتها للمساكين أمثالنا..

أومأت برأسها ببطء ثم همست - جيد.. سأنصرف أنا..

نادى بصوت صارم أمر مفاجئ - ابقِ حيث أنتِ..

تسمرت مكانها ثم استدارت إليه يظهر على لغة جسدها
الخوف الواضح.. فسألها بدهشة وبراءة

- ألن تتذوقي شيئًا منها؟!..

نظرت إلى قوالب الكعك بهلع ثم سرعان ما هزت رأسها بقوة قائلة بصوتٍ أجش وكأنه دعاها إلى وجبة من الحشرات

- أنا لا آكل مثل هذه الأطعمة مطلقًا.. غير مسموح لي بزيادة الوزن..

أمسك بقالب منها ثم التهم نصفه دفعة واحدة قبل أن يسألها بنبرة ذات مغزى

- هل يمنعك مدربك؟..

ضاقت عيناها وهي تسأله بتردد وعدم فهم من؟!...

أجابها ببساطة مشيرًا إلى جسدها

- قلت أنه غير مسموح لك بزيادة الوزن.. كما يبدو عليك أنك تمارسين نوعًا من الرياضة، فمن المؤكد أن مدربًا هو من يمنعك..

ساد الصمت للحظات وبدأت أكثر ارتباكًا تلف أصابعها تكاد

أن تخلعها لكنها ردت بصوتٍ فظ

- أنا أريد العودة لغرفتي..

ودون انتظارٍ الإذن منه اندفعت تجري خارجة من المطبخ
بينما هو يراقب اختفاءها ملتهمًا المزيد من الكعك دون أن
يمنعها هذه المرة..

قبل حلول الظلام وبينما هو جالس على الأريكة في البهو
باسترخاء تام..

عاد خطاب وجيهان من نزهتهما والتي تكررت مؤخرًا وبات
ينتظر موعدها بفارغ الصبر وكأنها نزهته الخاصة..

ألقي خطاب تحية مقتضبة على ابنه حين رآه، بينما تمتمت
جيهان بتحية لا تحمل أي ود.. وفي صعودهما سمعها تقول
بتنهد حزين

- سأذهب لأتفقد زاد.. عدم خروجها من غرفتها بهذا الشكل
يقتلني.. سأحاول إقناعها من جديد..

ابتسم سائد دون أن يرفع وجهه عن شاشة هاتفه شاعرًا
بطاقة ظفرٍ غريبة تملأ أوردته بشكلٍ مخيف

تلك الليلة سمعت طرقًا جديدًا على الباب، وهذه المرة
استغرقها فتحه نصف دقيقة فقط من القلق والتردد.. لكنها
حين فتحته لم تجد أحدًا!!!..

أخرجت رأسها للرواق الخالي تنظر فيه يمينًا ويسارًا
بحيرة.. لكن وقبل أن تعود لتغلق زنزانتها الاختيارية لمحت
شيئًا موضوعًا أرضًا أمام باب غرفتها.. فانحنت لتجثو على
عقبها ناظرة بحدقتين واسعتين لقالب كعك صغير موضوع
في طبق وبجواره رسالة على ورقة بيضاء!..

نظرت حولها مجددًا وأنفاسها تتسارع باضطراب و.. بقبسٍ
من حياة!..

ثم أمسكت بالورقة تقرأ ما خط عليها

“ الحياة لن تنتهي إن أسعدت نفسك بشيء يسير منها..
لكنها قد تنتهي قبل أن تفعلي فلا تسمحى بحدوث هذا

ابن صاحب البيت “

على الرغم من أن رواقًا طويلًا يفصل بينهما، إلا أنه كاد أن يقسم على رؤيته لملامح القناع الأبيض الجامد تتبسم وهو يراقبها من بعيد.. قبل أن تمسك بقالب الكعك ثم تستقيم واقفة لتدخل غرفتها مغلقة الباب خلفها بهدوء..

- احملي نفسك واستقلي أول قطارٍ وتعالِي إلى هنا فورًا..
هل تسمعين؟!..

اضطرت لإبعاد الهاتف عن أذنها كي لا يثقب صوته الجمهوري الصارخ طبلتها المسكينة.. كان عليها أن تتوقع ثورته

رمشت دنيا بعينيها وهي تنظر حولها للمقهى المفتوح الذي تجلس فيه وفقًا للموعد الذي تم تحديده بينهما ثم قالت بخفوت

- سأفعل يا جلجل.. سأفعل.. بعد أن أسمع ما لديه..

هدر مجددًا بجنون- تسمعين ما لديه؟!.. وهل أنتِ ساذجة للدرجة التي تجعلك تطيعين مطلق غريب اتصل بك يطلب لقائك لتسمعين ما لديه!!..

نظرت حولها مجددًا تتساءل أين هو، لقد أخبرها أنه يعرف شكلها بينما هي لا تعرفه.. حتى دخل المكان رجل رياضي الجسد بدا وكأنه يبحث عن شخص ما حتى استقرت عيناه عليها ثم بدأ في الاقتراب منها..

انتظرت دنيا حتى وقف أمامها مباشرة ثم قال بنبرة عملية وكأنها قد بدأت في العمل لديه بالفعل

- أعتذر إن كنت قد تأخرت عليك..

وقفت دنيا تنظر إليه مبتسمة بحذر والهاتف لا يزال على أذنها فأشارت إليه لينتظر لحظة وأعدت انتباهها لجلال على الجانب الآخر من الاتصال والذي هدر بصوت غاضب

- كريم لطفي.. ها هو يا آنسة بحثت عنه، لقد أثار مشكلة كبيرة منذ فترة مدعيًا أن شركاؤه قد سرقوا فكرته ومشروعه ثم طردوه منه!!!.. إن كان غير قادر على الحفاظ على مشروعه فهل سيقدر على الحفاظ على العاملين معه؟!.. استقلي أول قطار وأريد أن أراك أمامي خلال ساعات..

تأكدت بأن كريم سمع صوت جلال العالي عبر الهاتف حيث جلس أمامها ومرفقه على الطاولة ليغطي فمه بكفه ناظرًا إليها رافعا حاجبيه، فأبعدت الهاتف عن أذنها قليلاً هامسة باعتذار تجعد أنفها وفمها في ابتسامة حرج متملقة

- كان هذا... مدير أعماله..

أوماً كريم مسبلاً جفنيه برزانة متفهماً، لكن صوت جلال انفجر مجدداً بغضب

- وحسابي مع كشكول المسطول الذي تركك وعاد وحده..

عضت على شفتها فكان دورها لتغطي فمها بكفها، ثم قالت بصوتٍ خفيض من بين أسنانها

- إنه هنا أمامي.. هلا أغلقت الآن..

سمعت سيلا من الشتائم بتذمر وغضب حتى قال أخيرًا
بصرامة

- انتبهي لنفسك ولا تثقي به.. اسمعي جيدًا ولا تعطي قرارًا
أو جواب.. إياك وأن يعرض عليك الذهاب معه لأي مكان..
هل كلامي مفهوم أم تراني مضطر لاستقلال أول قطار كي
آتي وأقحم الكلمات في رأسك؟..

سعلت دنيا بحرج محاولة أن تجلي حلقها ثم قالت بصوتٍ
عملي زائف

- حاضر يا جلال.. مفهوم طبعًا.. أنا مضطرة لإنهاء الاتصال
الآن.. سلام

وضعت الهاتف جانبًا شاعرة بوجهها يغلي من شدة الحرج
إلا أنها قالت مبتسمة بتوتر تكرر

- مدير أعماله..

أوماً كريم بحذر، ثم قال ببطء- سمعت..

التفتت تنظر جانبًا متسائلة عن سبب وجودها هنا بالفعل..
هل يمكن أن تتخلى عن سيرك سلطان مثلاً؟!..

لتبدأ في دنيا جديدة لم تعمل فيها بمفردها مطلقًا!!

أطرق كريم برأسه مشبكًا أصابعه فوق سطح الطاولة
الفاصلة بينهما ثم قال بنبرة مقتضبة

- كلام مدير أعمالك صحيح.. إن كنت لم أستطع الدفاع عن
حلمي، فهل أقدر على رعاية حلم جديد!!..

لا تعلم أي شيء عما يتكلم عنه، أو ما عثر عليه جلال
من معلومات.. إلا أنها قالت متشدقة بتشجيع من باب جبر
الخواطر

- بالطبع تستطيع.. الحياة لن تقف عند عثرة واحدة..

رفع وجهه ناظرًا إليها بجدية عاقدًا حاجبيه مما جعلها تتوجس منه إلا أنه قال بنبرة حارة قوية

- دنيا.. أنا يائس.. خاسر لكل شيء.. خسرت الفكرة والقصة وفريقي ورفضت أن أتقاضى ثمنًا لما خسرتَه مرغماً بالغدر والخيانة..

رفعت حاجبها ببطء وهي تتشبث بحقيبتها بين أحضانها لا تعرف بما تجيب أو لماذا أراد مقابلتها لو أن الصورة بمثل تلك القتامة فعلا.. فسألته ببطء بعد فترة

- معك نقود كي تعود لبيتكم أم أقرضك؟!...

تراجع في كرسيه مبتسمًا للمرة الأولى منذ وصوله.. وربما منذ وقت طويل، ثم أجاب بهدوء

- ليس إلى هذه الدرجة.. لكن قد أحتاج لأن تقرضيني فعلاً بعد أن أنفق آخر خمس جنيهاً في جيبي..

مطت دنيا شفيتها تومئ برأسها مفكرة ثم قالت ببلادة

- بداية مشرقة بالتفاؤل...

أحبك، لكنك لست جيدة بما يكفي!

إعطاء الحب كمكافأة، ثم اتباعه بخطوات التغيير الشامل ليكون هذا الذي تلقى مكافأة الحب جيدًا بما يكفي ليستحق تلك الهدية العظيمة.. لكن حينها لن تكون هدية، بل تنازلًا..

.. لقد تنازلت بالفعل يوم أحبتك، لذا عليك التغيير من نفسك كي تليق بحبي..

.. قد يصل التغيير حد الاقتلاع من الجذور والخروج من الجسد وتقمص روحًا مختلفة.. والتخلي.. الكثير من التخلي..

.. ومن هنا تبدأ السيطرة الحقيقية على عقل إنسان..

- أخبرتك ألف مرة أنه لم يكن لدي علم بما كانت تنويه..
حتى أنني أقسمت لك!.. تكذيبك لي إهانة يا ياسر!..

هتفت باكية بكلماتها المختنقة تخاطبه بأسى بينما يوليها
ظهره واضعاً يديه في خصره محدقاً من نافذة بيته حيث
ذهبت لزيارته بعد أن رفض الرد على اتصالاتها المتكررة
اليائسة..

تكلم من بين أسنانه باصقاً الكلمات - لقد كانت فضيحة بكل
المقاييس.. كارثة لن يتوقف أهلي عن الكلام عنها لسنين..

ازدردت لعابها وهي تقول بصوتٍ خفيض - ليس إلى هذه
الدرجة يا ياسر.. الناس ينسون أسرع مما تتخيل، كما أنه
مجرد موقف تافه اقتضت فيه دنيا لكرامتها لا أكثر..

التفت إليها بسرعة مندفعًا، ملامح وجهه عنيفة وعيناه لم
ترها مخيفة كما تراها الآن، بينما هتف بجنون

- موقف تافه!!.. أتسمين الفضيحة التي حدثت موقف
تافه!.. هل لديك أدنى تقدير لموقفي أمام أهلي وأمام زملائي

في العمل!..

مسحت وجهها بكفيها وأخذت نفسًا عميقًا لتهدئ نفسها،
وبالفعل قالت بصوتٍ أكثر هدوءًا

- كنت صريحة معك منذ البداية يا ياسر.. وأخبرت كل
شيء عن حياتنا وعن دنيا..

هتف ساخرًا بنبرةٍ أجفلتها فامتقع لها وجهها وكأنها تلقت
صفعة للتو

- وهل هذا هو جزائي لأنني قبلت بكل تلك النواقص!..

انعقد حاجباها بشدة وهي تهمس بصوتٍ مصدوم - نواقص
يا ياسر!..

هز رأسه يسألها ببساطة وكأنه يتعجب من صدمتها

- ألا تعتبرين أختك دنيا واحدة من أكبر النواقص في
حياتك!..

شحب وجهها فأشاحت عنه تضغط قبضتيها ثم قالت
بصوت باهت

- لا أنكر أنني رافضة لعملها في السيرك، وأنها أخرجتني
كثيرًا في حياتي.. أحيانًا بتعمد وأحيانًا أخرى بعدم تحليها
بحس تقدير ما يناسب شقيقاتها وما قد لا يناسبهن.. أمقت لا
مبالاتها بما يضايقني وكأنها لا تهتم إلا بما يسعدها فقط!..

صمت قليلًا شاردة العينين وعلى وجهها علامات صراع
قديم، ثم تابعت بصوت خشن وهي تنظر إليه

- لكن أيضًا لا أنكر أن طبيعة عملها التي أرفضها هي ذاتها
التي أمنت نفقاتنا بعد وفاة أبي لسنوات طويلة.. ولولا هذا
العمل ربما لما كنت قد أكملت وتخرجت فتوظفت بل وربما
ما كنت تعرفت عليك أيضًا..

كان ينظر إليها ذاهلاً وكأنما يستمع إلى مجنونة فاقدة
العقل والإدراك.. ثم لم يلبث أن هتف محتدًا

- معقول أنتِ بسمة الإنسانية المتفوقة المثقفة تتكلمين بهذا

المنطق!!.. أنتِ وصلتِ إلى ما وصلتِ إليه بفضل مجهودك
بعد فضل الله يا بسمه وليس بفضل القروش القليلة والتي
كانت تتقاضاها أختك ممن يرمون بها في طاقية تمر بها
عليهم كالمتسولين!!..

هزت رأسها نفيًا وهي تهمس شاعرة بقبضة حول قلبها -
دنيا لم تكن متسولة أبدًا لقد كانت..

إلا أن ياسر لم يعطها الفرصة لتتابع بل هتف ساخرًا بعنف

- لو كان ضيق الحال هو المبرر لعملت أُمي راقصة كي
تحسن من أوضاعنا!!..

هتفت بسمه بألم وشعور بالتجريح- ظروفكم مختلفة عن
بداية حياتنا، سبق وأخبرتكم.. لا تقارن خمس بنات يتيماتٍ
وأم أرملة بلا دخل أو مورد رزق.. بموظف حكومي مستور
الحال كوالدك.. ربما لو كنت عشت نفس ظروفنا لكنت الآن..

قاطعها هازئًا بنبرةٍ شرسة- طَبَال!!..

زمت شفتيها مبعدة وجهها والدموع تلذع عينيها من جديد
وساد صمت ثقيل حولهما حتى تمكنت من النطق بصوتٍ
خفيض متزن

- ما هي طلباتك الآن يا ياسر؟.. إن كنت تريد فسخ الخطبة
فأنا متفهمة لموقفك..

استدار إليها قائلاً بصوتٍ مبهم

- أهذا هو ظنك بي يا بسمّة؟!.. أهذا هو مقدار ثقتك بحبي
لك؟..

استدارت إليه تدقق النظر في عينيه بعينين فيهما الشك
ممتزج بلهفة لا تستطيع إخفائها

- أحقًا يا ياسر؟!...

تنهد يهز رأسه وكأنه يتعجب بلاهتها بنظرة حانية ثم قال
بهدوء

- أنا أحبك يا بسمه وعليك أن تكوني واثقة في هذا تماماً..
كثقتك في أنني لا أطلب منك شيئاً إلا لنجاح حياتنا سوياً
مستقبلاً..

هتفت بلوعة تضع يدها على صدرها

- وأنا والله يا ياسر أحبك أكثر من نفسي.. وأثق بك
وأحاول جاهدة إرضائك بشتى الطرق.. حتى أنني أقنعت
شقيقتي ببيع البيت القديم لأنه بات غير لائق وفي نفس
الوقت ليساعد نصيبي في تجهيز أفضل لزواجي.. كما أنني
تكلمت مع دنيا مراراً بخصوص عملها في السيرك وفي
النهاية نفذت ما طلبت بإخفائها عن أهلك وإخفاء الخطبة
عنها.. ألا يخبرك كل هذا أنني أثق بك ثقة عمياء!.. لكنك

صمتت قليلاً تهز رأسها من جديد هامسة بألم

- لكنك دائماً تنتقد كل شيء بي.. أهلي، بيتي، ملابسني..
تشعرنني وكأنني لست جيدة بما يكفي، حتى أنني أحياناً
كثيرة أتساءل عما أحبته في!!!..

اقترب منها ياسر ليمسك بكفها يضغطها بين أصابعه بقوة
ثم نظر في عينيها قائلاً بثقة

- أحببت فيك أنك تفوقت على كل هذا.. وما أريد تغييره، لا
أغيره إلا لتكوني أفضل وأفضل..

أخفضت وجهها تحقق في أصابعه الممسكة بيدها دون أن
ترد.. شاعرة بالألم على الرغم من موافقتها التامة، بينما تابع
قائلاً بجفاء

- ربما كان ما حدث ليس سيئاً إلى هذا الحد، فنحن ما كنا
بقادرين على إخفائها للنهاية.. لكن ما فعلته فرصة لتقطعي
كل صلة لك بها..

رفعت وجهها إليه مصدومة وهي تردد بغباء

- أقطع صلتني بأختي!!!.. كيف لك أن تقول هذا يا ياسر؟!..

سألها بقسوة متعجباً - ألا زلت تدافعين عنها بعد ما رأيته
من حقد منها وهي تحاول إفساد خطبتنا!!!.. أختك يا بسمه

محملة بالمرارة والحقْد لأنها لم تحقق أي نجاح يذكر في حياتها.. وإن عادت العلاقة بينكما فلن تكتفي بل ستعيد الكرة حتى تتمكن من إفساد أي نجاح لك.. أنا سأحاول من جانبي جاهداً إقناع أمي بأنني لن أقبل بزوجة سواك حتى بعد ما حدث.. أنتِ أيضاً عليكِ التضحية لأجل هذه العلاقة..

شردت عيناها وغامت النظرة فيهما، فما يقوله صحيحاً..

التي اقترحت حفل خطبتها بتلك الطريقة متعمدة.. ما كانت تسعى إلا لإفساد الزيجة بأكملها..

دنيا محملة بمرارة عدم تحقيقها لأي نجاح يذكر كما يقول ياسر.. وكما قالت هي بنفسها حين طلبت منها ترك العمل في السيرك.. ياسر محق.. لكن الألم بقلبها ينبض على نحو غريب..

لقد شردت عن العد اليوم.. فالأصوات في الحديقة تجعلها تخطئ فتعيد من جديد.. نهضت من مكانها وأزاحت الستار

قليلا فرأته واقفًا هناك.. ممسكًا بخرطومٍ يسقي به نباتات وأشجار الحديقة..

التفتت تنظر إلى ساعة الحائط في غرفتها فوجدت أن الوقت لا يزال مبكرًا جدًا.. إنها تعرف الساعة التي يتجه فيها لعمله وهي لم تأت بعد.. لكنها المرة الأولى التي تراه يقوم بأي نشاط.. كري الحديقة مثلاً!..

لم يبد لها كشخصية تهتم بري النباتات!

أعادت وجهها إلى النافذة لتراقبه من جديد، إلا أنها تسمرت مكانها وهي تراه رافعًا وجهه ينظر إليها مباشرة..

قبل أن يرفع يده ملوحًا لها بابتسامة عريضة على شفثيه!..

شهقت زاد وهي تتراجع للخلف بسرعة تاركة الستار ليخفيها عنه وظلت تتراجع حتى ارتطمت بحافة السرير من خلفها فسقطت جالسة عليه وقلبها يخفق بشدة..

شعرت بنفسها غير قادرة على تحمل القناع الآن أكثر من

هذا وكأنه يطبق على أنفاسها فانتزعته ببطء وانحنت لتضعه
بجوار قدميها.. ثم ابتسمت لذكرى مذاق قالب الكعك الصغير
والذي لم تذق مثله منذ أكثر من..

غابت البسمة عن ثغرها وهي تهمس بصوت أجوف

- ثمان سنوات كاملة!!.. لم أذق قالب كعك لثماني سنوات
كاملة!!..

تحرك لسانها على شفتها ببطء وكأنها لا تزال تحمل طعم
الشوكولاتة!!.. لقد كان أروع شيء تذوقته منذ زمن بعيد!!..

تنهدت تنهيدة طويلة مسقطة كتفيها وكأنهما يرزحان تحت
ثقل كالجبال قبل أن تزحف تجر ساقبيها على السرير حتى
وصلت للوسادة فأخرجت هاتفها من تحتها.. وبالتحديد كانت
تريد الوصول لمنشور معين قرأته عشرات المرات منذ ليلة
أمس..

انخفضت أكثر لتستند بمفرقها على الوسادة وحدقتها
تتحركان على أسطر المنشور وتتسعان وكأنهما فجوتين

- أنا يائس.. كانت تلك بداية المنشور!..

أنا يائس، أقف في أكثر محطات حياتي ازدحامًا لكنني على الهامش.. أنظر للزحام من خلف حاجز زجاجي ولا أرى سوى السباق العنيف للحاق بالقطارات واحدًا تلو الآخر، أما أنا فقد أُخرجت من زحام التدافع بالقوة.. وبالغدر..

أوشكت على الاستسلام في لحظة يأس لكن في لحظة أخرى قررت ألا يكون هذا العرض الأخير بالنسبة لي..

لذا قررت النهوض والتحضير لعرض جديد..

جميع من يتابعني على علمٍ بالسرقة التي تعرضت لها، وأنني بدأت في ملاحقتهم قانونيًا.. لكنني اكتشفت كذلك أنني غير قادر على انتظار رجوع الحق بين أروقة المحاكم شهورًا طويلة بينما هم يحتفلون خارجها بانتهاء عرضي بنجاحٍ باهر!..

لقد قررت البدء بتكوين فريق جديد.. لكنني لا أملك شيئاً،
لا أملك إلا وجودي على الهامش حالياً..

لذا لو كنت تملك مهارة رقص الباليه ووجوداً على الهامش
فانضم لنا..

كنت أتفنن في رفض المتقدمين لفريقي فيما مضى،
معتمداً مستوى عالٍ فوق حدود المنافسة.. أما الآن فأنا أقف
وحدّي تحت الحد الأدنى لأي منافسة.. على استعداد للقبول
والتدريب الشاق..

مكاننا المسرح الجامعي..

العمر المطلوب في حدود المعقول بما يقتضيه الضمير..

أما الوزن فأنت وذوقك، تذكر أننا سنقدم عرض باليه لا
رياضة السومو.. في انتظار متطوعين غير مهتمين بالربح
المادي.. لأننا مفلسون وشكراً

المنشور كتبه شخص يدعى كريم لطفي.. في البداية ظننته

مزاحًا، لكن بتتبعها الأخبار المقترنة باسمه، عرفت القصة كاملة..

إنه يضع مستقبله كاملاً على حافة جبلٍ شديد الانحدار، أي جنونٍ هذا!!!..

لكنه تصرف منطقي من شخصٍ يأس وعلى الهامش..

كانت شاردة الذهن تماماً فلم تسمع الباب حين فتح دون طرقاتٍ عليه، ودخلت جيهان إلى الغرفة..

أجفلت زاد للحظة ثم استقامت جالسة تتطلع لأُمها بترقب.. فقد وقفت جيهان صامتة لفترة طويلة تحاول التنفس ببطء، الابتسامة تتكسر كموجةٍ حزينة على شفتيها الجافتين..

ضاقت عينا زاد لحظة أخرى غير مستوعبة للتعبير على وجه أُمها، ثم لم تلبث أن رفعت كفيها مصدومة حين أدركت بأنها نسيت وضع القناع!!.. ولم تجد سوى أن ترتمي لتدفن وجهها في الوسادة..

حينها اقتربت منها جيهان بخطواتٍ ناعمةٍ تجر قدميها
وتجبر كل مفصل في جسدها الهش على التحرك رغم
صعوبة الثقل..

جلست على حافة السرير بجوار ابنتها، ودون كلام انحنت
لتريح وجنتها فوق كتف زاد الملقاة على السرير مختبئة بين
وسائده..

تشنجت زاد في البداية لكنها لم تلبث أن سكنت
واستسلمت فأخذت جيهان تمشط خصلات شعرها الطويل
بأصابعها ثم تربت على ظهرها بحنان هامسة في أذنها
بصوتها الأبح الحاني

- ليست المرة الأولى التي أرى فيها وجهك يا حبيبتي..
رأيتك مرات كثيرة بعد عودتك ومن يومها وأنا أحاول
إقناعك أنك

لا زلت جميلة.. ويمكنك أن تكوني أجمل إن أردت إجراء
جراحة تجميلية.. لقد جمعت عددًا من الحالات الناجحة
المصورة وأتوق لأن أريك إياها.. وكأن لا خدش قد أصاب

وجوهم من قبل!.. لكنني لن أضغط عليك..

لم يبد على زاد أي استجابة ولو بالحركة حتى.. وطال الصمت حتى تنهدت جيهان تغص بحلقها ثم استقامت لتجلس محدقة بفراغ الغرفة قبل أن تقول بخفوت

- زاد لقد أتيت كي أسألك إن كنتِ تمانعين إن ذهبت للمساعدة في المصنع مع خطاب ساعتين أو ثلاث يوميًا..

إن كانت تظن أنها ستري من ابنتها الوحيدة رد فعلٍ أو رفض أو حتى أي بادرة اهتمام، فقد خاب ظنها..

تأملتها جيهان في استلقائها الساكن تماماً وكأنها جثة مرمية ثم أدارت وجهها تغالب الدموع تتابع بصوتٍ رزين

- أنا أمضي الكثير والكثير من الساعات انتظر منك كلمة.. أمر أمام غرفتك عشرات المرات في اليوم عليكِ تفتحين الباب وتنادين أمك شاعرة بالحاجة للإفضاء لها بكل ما حدث خلال غيابك عنها.. حتى بدأت أعصابي تنهار ببطء، أنا أحتاج لفعل أي شيء يشغلني عن الضغط عليكِ أكثر.. لكن

إن رفضتِ وهذا هو ما أتمناه من كل قلبي لحاجتك لوجودي
بجوارك فأنا مستعدة تماماً لمحو الفكرة.. بل..

هذا شيء قاسٍ جدًا في حق خطاب لكنها ستقوله في
كل حال.. حيث مدت يدها تتلمس كتف زاد بحنان وتابعت
بصوتٍ أكثر خفوتًا

- بل لو أخبرتيني بأنك ستكونين أفضل في حال حصولي
على الطلاق من خطاب كي نغادر هذا البيت ونبقى وحدنا
كما كنا قديمًا لما ترددت للحظة.. مصلحتك عندي أهم من أي
شيء آخر، ما عليكِ فقط سوى النطق..

ساد الصمت للحظات فتنهدت جيهان بيأس فاقدة الأمل..
إلا أن زاد قالت أخيرًا بنبرتها الفاترة المتباعدة مع أمها

- لا مانع لدي في ذهابك المصنع.. وأنا لا أريد لكِ الطلاق
أبدًا.. يكفي ما كبدتك إياه من عذاب..

ارتجفت شفتا جيهان تأثرًا ما بين سعادة بتجاوب ابنتها
في الكلام ولو بعبارات بسيطة وبين رغبة دفيئة محبطة

بداخلها..

فقد كانت تتمنى لو رأت من ابنتها احتياجًا حقيقيا لها..

أحنت جيهان رأسها بعض الوقت وهي تدلك كتف زاد
بنعومة.. ثم نظرت إليها وهمست بضعف

- هل تحمليني ذنب ما تعرضتِ له يا زاد؟..

تصلب جسد ابنتها تحت أصابعها على الفور، إلا أنها ردت
بصوتٍ خافتٍ يرتعش خزيًا

- كيف أحملك ذنب جرمٍ اقترفته بنفسي في حقلك؟!.. أنتِ
كريمة النفس جدًا..

ردت جيهان على الفور بحرارة وغضب وهي تقبض على
كتفها قائلة

- أنتِ ما اقترفتِ جرمًا مطلقًا.. لكنني لن أجادلِكَ في هذا
الآن، أنا فقط أريد أن أفهم سر تباعدك عني طالما أنك لا

تحميلني الذنب؟.. ماذا فعلت لأستحق أن أصبح غريبتين بهذا الشكل؟!..

لم تحصل على رد من ابنتها فصرخت فجأة بلوعة

- لن أترك هذه المرة قبل أن أحصل على جواب يا زاد..

كان ظهر ابنتها يرتفع وينخفض ببطء وكأنما تعاني صعوبة في التنفس، حتى استقامت أخيراً لتجلس على حافة السرير، تولي ظهرها لأمها.. ثم قالت بصوتٍ مختنقٍ بالعار

- لا أملك الجرأة على التعامل معك كما كنا، بعدما كان مني في حقك.. كرمك معي يجعلني أمقت نفسي أكثر..

اتسعت عينا جيهان وهتفت تقبض على كتفي ابنتها تهزها قليلاً محاولة إقحام الكلمات بعقلها لتستوعب

- ما قلته هو أغبى شيء سمعته في حياتي.. لقد كانت أقصى أمنية لي على مدار ثماني سنواتٍ كاملة أن ألمحك فقط ولو من بعيد .. مجرد لمحة.. ترضي قلبي كقطرة ماء

على أرض جافة متشققة.. أهذا شعور أم تدين ابنتها!!.. لا
تمقتي نفسك يا زاد، بل سامحيها وتقبلي البداية التي منحتها
لك الحياة فاتحة ذراعيها.. حاولي نسيان من أخطأ ومن
أجرم ولنفتح سوياً صفحة جديدة

لم تفعل زاد سوى أن أخفضت رأسها ببطء، ثم همست
بصوتٍ متقطع من شيء تنفر منه بشدة

- لا أظن هذا ممكناً أبداً.. فلا أقدر مما اقترفته بحقك!!...

تحرك حلق جيهان بصعوبة، لكنها ابتلعت الغصة لتتمكن من
القول بصوتٍ حاولت أقصى جهدها ليبدو مقنعاً

- ليس بحقي يا حبيبتي.. بل بحق نفسك، وحتى هذا عليك
أن تغفريه لنفسك، كي تتمكني من متابعة حياتك بشكلٍ سوي

أغمضت زاد عينيها تهمس بنبرة مشتدة من بين أسنانها
وشفتيها المطبقتين

- يجب أن أكون راغبة في هذا.. حاولي أن تفهميني، أنا لا

أرغب في التجاوز والغفران لنفسي.. أنا أريد العقاب

وضعت جيهاً يدها على عنقها غير قادرة على التحمل
أكثر.. الضرر أفضع مما تخيلت..

الشراسة لم تترك جروحاً على وجهها فحسب، فقد كانت
تلك أهون أنواع التشوه والجروح.. أما الأفضع هو ما أصاب
ابنتها الوحيدة.. لا جراحة في الكون ستكون قادرة على إزالة
التشوه إلا أن قررت هي..

هي جراح نفسها الوحيد .

- ماذا تقولين يا دنيا؟!.. ألن تعودني؟!..

أسبلت جفنيها مطرقة بوجهها أصابعها تشتد على الهاتف
حين التقطت أذناها نبرة الخوف في صوته.. نبرة الصدمة
والإدراك..

إدراك أن العرض الذي رفض حضوره لم يكن هو العرض
الوحيد الأخير.. بل باقي العروض.. بل ربما وجودها بينهم
من الأساس..

فتحت فمها وهمست بلطفٍ محاولة إضفاء رنين المزاح
لصوتها الخفيض

- أعود لأين يا جلجل؟.. وكأن لنا عنوان!.. أنا من ستنظركم
هنا..

تكلم جلال قائلاً بصوتٍ أجش باهت

- العنوان هو عنوان الأهل يا دنيا.. وأنا كنت أظننا أهلك!..

نهضت من مكانها تقول بصوتٍ متحشرج يائس

- وهل هذا يحتاج لسؤالٍ يا جلجل؟!.. بالطبع أنتم أهلي،
وعلى الأخص أنت.. أنت كل أهلي..

أجابها بنبرة عتابٍ أوجعت قلبها، بل ضربته في مقتل

- ولهذا تريدان التخلي عني يا دنيا؟!..

كتمت تأوهاً وهي تدور في الغرفة الضيقة ضاغطة جبهتها شاعرة بالتخاذل أمام العتاب الموجه في صوته.. لقد كان محققاً في شعوره.. إنه يشعر أنها قد خذلت.. تماماً كما شعرت خلال الأسابيع الماضية..

لكن الخذلان الذي يشعر به ربما أكبر من خذلانها.. فبالنسبة لشقيقاتها كان الأمر متوقعاً منهن بعد أن فرقت بينهن وبينها طرق الحياة

أما الرباط الذي يربطها بجلال فقد كان أكبر ولم ينفصم أبداً.. جلال كان الأهل والمعلم والوالد.. وكانت بالنسبة له الابنة التي لم ينجبها.. لذا حين تقرر فجأة بعد كل تلك السنوات الابتعاد عنه، فلا بد وأنه يشعر الآن وكأنها طعنته بخنجرٍ بارد!..

همست دنيا بصوتٍ أجوف

- ما كنت أتخيل أن يأتي يوم أقرر فيه بكامل إرادتي

الابتعاد عنك!!.. ربما الضربات التي توالى عليّ مؤخرًا جعلتني أترنح ولا أكاد أعرف هويتي.. كل ما أحججه هو العثور على شيء ما، ربما نفسي يا جلال.. هل عرفت مثل هذا الشعور يومًا؟!..

ساد الصمت للحظات، ثم قال أخيرًا بنبرة خفيفة

- عرفت هذا الشعور يا دنيا، ثم عثرت عليك..

أغمضت عينيها طويلا، فقد كانت تخشى هذا الاتصال.. لم يكن اتصالا، بل اقتلاعا لجذورها ويديها.. وكم هو مؤلم!..

و مع ذلك ردت بصوتٍ ضعيف لم يقنعها نفسها

- أنا لن أترككم يا جلال، أنا.. أنا سأتجاوز رحلة هذا العام فحسب ثم أرجع إليكم بمجرد عودتكم إلى هنا بعد شهر..

أجابها بصوتٍ هادئٍ مرير

- كاذبة يا دنيا، وهي المرة الأولى التي تكذبين فيها

أمامي.. في طفولتك أخذت عليك عهدًا ذات يومٍ بألا تكذبي علي مطلقًا مهما كان ما ستبلغيني به صادمًا.. ومهما كان سيضايقني..

تحركت الغصّة في حلقها وهي تزدرد لعابها ثم همست بعد فترة طويلة من الصمت أمامه وأمام نفسها

- أريد هذا يا جلال.. أنا مدينة لنفسي بعرضٍ أخير يليق بي.. سيكون هذا العرض لدنيا وحدها وليس لأحدٍ غيرها..

لا أريد أن تكون نهايتي مع تكتكة.. كذبت على نفسي حين ظننت أنني سأقدر، لكنني لن أستطيع أن أتقبلها نهاية لرحلتي على الرغم من حبي لها

سألها جلال بوجوم وكأنه ينتزع الكلمات انتزاعًا

- ألن تكون هناك تكتكة أيضًا؟!.. فجأة سلّبتني كل شيء يا فتاة!..

ارتعشت شفتاها وهي ترمش بعينيها كي لا تبكي واضحة

أصابعها فوق فمها، ثم لم تلبث أن همست بضعف

- لأنني أشعر وكأنني سُلِبت كل شيء بين ليلة وضحاها..
دون حتى أن أجد الوقت لألتقط أنفاسي.. أدين بهذا لنفسي
يا جلجل، لكن إن رفضت فسأمتثل لأمرك...

ساد الصمت مجددًا وهي تعض على جانب شفتها بترقب
حتى تكلم قائلاً بهدوء

- وأنا لن أمنعك عن الإيفاء بدينك لنفسك.. لكن إن فشل
الأمر فتأكدي أنه لم يكن فشلك..

سألته ببطء وخفوت تبتسم من بين الدموع المعلقة على
أطراف رموشها

- وإن نجح؟!....

انتظرت جوابه كمن ينتظر نتائج اختبارهِ الأخير، فقال
جلال بثقة وفخر

- ستكونين أنتِ من أنجحه..

تنهدت تنهيدة راحة طويلة مغمضة عينيها، ترجع رأسها للخلف بينما تابع جلال قائلاً

- انتبهي لنفسك يا دنيا... فالدنيا التي توشكين على دخولها ليست كدنياك التي عشتها طوال سنوات عمرك.. في الدنيا التي تعرفينها لا ترين من الناس سوى ضحكاتهم وتصفيقهم، لكن ما أن تنزلي عن منصة العرض ملقية بنفسك بين الجمهور، قد تسحقك الأقدام إن لم تنتبهي لنفسك..

على الرغم من ثققتها بأن جلال يخشى عليها أكثر من نفسه ومن أي أحدٍ آخر.. إلا أن خوفًا مفاجئًا داخلها وكأنها تترك بيت والدها للمرة الأولى.. على الرغم من أنها تركت بيت والدها فعليًا منذ عشرين سنة ويزيد!..

حركت عينيها تجيل النظر في غرفة الفندق المتواضع التي سبق وحجزها كشكول قبل مغادرته.. واكتشفت أنها ستبيت ليلتها هنا وحيدة ربما للمرة الأولى في حياتها.. وحيدة بمعنى وحيدة حرفيًا.. عائلة السيرك على بعد مئات الأميال

منها!..

و كأن جلال قد سمع مخاوفها التي لم تنطق بها على الجانب الآخر من الهاتف فأضاف فجأة بصوتٍ حازم

- أنتِ لن تبقي في غرفة فندقٍ لحين عودتنا بكل تأكيد.. سأرسل إليك بمفتاح شقتي القديمة المغلقة، حسناً ربما ستصدمين من منظرها وحجمها الضيق وما آل إليه حالها فهي ممتلئة بكركة تكاد أن تصل لسقفها.. كل شيء بها مخرب، لكنك ستتمكنين من تولي أمرك بمهارة كعادتك.. المهم ألا تنفقي نصيبك من بيع بيت والدك على إيجاراتٍ شقي أخرى، احتفظي بشيء لنفسك للمستقبل..

لمعت عيناها بالدموع شاعرة بقلبها يتضخم من شدة الانفعالات التي جاشت به فعجزت عن النطق ولم يكن منتظراً منها ردّاً بل قال مكرراً بصعوبة وبصوتٍ خفيض أجش قبل أن ينهي الاتصال راغباً في العزلة

- انتبهي لنفسك يا دنيا...

وضعت كفيها على سطح باب غرفتها ترهف السمع مترقبة
خطواته فقد رآته من نافذة غرفتها يصل البيت عائداً من
عمله..

لم تحاول تفسير ترقبها لصوت خطواته، لأنها ربما لا تملك
سوى تفسير واحد فقط.. خطوات غريبة وأبواب تطرق
وبعض الإثارة.. كلها أشياء نست الشعور بها لمدة ثماني
سنوات..

توقفت أفكارها ما أن سمعت صوت الخطوات الواثقة
الرجولية فوق الأرض المصقولة تتوقف على بعد..

انتظرت أن تسمع صوت فتح ثم إغلاق باب غرفته.. لكنها
لم تسمع شيئاً بعد توقف صوت الخطوات!!..

وكأنه اختفى في الرواق!!

وجدت يديها تتحركان لتمسكا بالمقبض ثم تفتحانه بكل

حذر متعمدة ألا تصدر صوتًا.. ونظرت من شق الباب فلم يبد لها أي شيء مختلفًا.. مما شجعها على إخراج رأسها بعض الشيء، لكن ما أن فعلت حتى كتمت أنفاسها فقد كادت أن تشهق حين رآته واقفًا عند غرفة محددة في بداية الرواق!..

أوشكت على الدخول وإغلاق بابها خلفها بسرعة، لكن عدم شعوره بها جعلها تتردد وتظل واقفة تراقبه ممسكة بالجدار الملاصق لباب غرفتها..

كان واقفًا أمام باب تلك الغرفة التي لم ترها إلا مغلقة منذ وصولها لهذا البيت.. فاردًا كفيه على بابها يستند إليه، مخفضًا رأسه وكأن الثقل على كتفيه يثبته أرضًا ويميل بعنقه!..

اتسعت حدقتها وهي تتأمل جانب وجهه للحظات، لم يبد لها هو ذات الشخص الساخر أو المتسلط أو الغاضب الذي عرفته بشخصيات مختلفة منذ وصولها إلى هنا.. فقد كان الواقف أمامها على بعد شخصية جديدة، يحفر الحزن الدفين انحناءات وزوايا ملامحه.. كان بعيدًا وكأنه واقف بجسده بينما كيانه في مكان آخر..

و كأنه نائم يرى الأحلام المؤلمة في ذكراها، حتى أن شفتاه
تحركتا يهمس بشيء ما.. وكأنه يخاطب أحدهم!..

مشدوهة تتأمله باهتمام وكأنه قصة أو رواية تقرأها..
حتى انتبهت لانخفاض كفيه عن سطح باب الغرفة المغلقة
ناوياً التحرك فأسرعت منتفضة تتراجع حتى أدخلت وجهها
لغرفتها قبل أن تغلق الباب بكل حذر، حريصةً ألا تصدر أي
صوت..

في اليوم التالي وبعد خروجه أمضت الساعات في غرفتها
تتذكر ملامحه ووقوفه أمام باب الغرفة المجهولة.. متسائلة
عمن يكون صاحبها، حتى سمعت صوت طرقاتٍ على باب
غرفتها وصوت فتحية ينادي بمودة

- حضرت لك طعام الغداء يا سيدة زاد...

اقتربت زاد من الباب تفتحه بعد أن تأكدت هذه المرة من
تثبيت القناع فوق وجهها..

ابتسمت لها فتحية وهي تقول بمودة - حضرت لك الحساء

كما طلبتِ..

وقفت زاد صامته تمامًا تراقبها وهي تضع الطبق بالصينية الأنيقة تحته، فوق سطح الطاولة الموجودة في الغرفة وما أن انتهت حتى استقامت واقفة وبابتسامة كبيرة قالت

- وددت لو طلبتِ مني ذات يوم التوقف عن إحضار الطعام إلى غرفتك والنزول للأكل مع والدتك والسيد خطاب..

لم تتغير ملامح القناع الجامد بلا شعور، إلا أن صوتها الناعم تكلم

- أعتذر لأثني.. أسبب الحرج..

ارتفع حاجبا فتحية وهي تهتف بدهشة وحرارة

- حرج!!.. أي حرج يا حبيبتي، أنتِ تبدين كنسمة لا صوت لها منذ قدومك إلى هذا البيت.. لقد أحبتك رغم الكلمات القليلة التي نتبادلها كل يوم يا زاد، وتمنيت لو خرجتِ من هذه الغرفة واختلطتِ بالناس..

تنهدت واضعة كفاً على كف متابعة بعطف

- كما أتمنى للسيد وائل تمامًا..

حين ظلت زاد على صمتها، أشارت فتحية لباب الغرفة
بإبهامها قائلة

- السيد وائل ابن السيد خطاب من السيدة حنان.. إنه
يشغل الغرفة الأخيرة، وهو مثلك تمامًا لا يحب الخروج..

هزت رأسها بحسرة تقول وكأنها تكلم نفسها

- إنه مختلف بعض الشيء.. يرفض الكلام إلا نادرًا.. يعجز
عن التواصل مع الناس، يحدق في الجدران طويلاً وكأنه
يرى أشخاصًا لا نراهم.. لكنه فتى طيب للغاية، إلا حين تتتابه
العصبية الشديدة في مراتٍ نادرة..

جلست زاد على حافة السرير تستمع دون أن تقاطعها
فنظرت إليها فتحية قائلة وكأنها اعتبرت جلوسها إشارة
للرغبة في تبادل الكلام

- إنه شقيق الأنسة نوران.. وهما ابنا السيدة حنان، لم تقابليها لكنني أستطيع إخبارك عنها.. السيدة حنان، وما أطيب من قلب السيدة حنان.. هي من ربت الأولاد جميعًا حتى كبروا.. لم تفرق بينهم إطلاقًا وكأن لها قدر من الحب يكفي العالم.. لكن حظها في الدنيا قليل كحال الطيبين دائمًا..

صمتت للحظات ثم تنهدت قائلة

- إن أردتِ الحق.. الحظ لم يكن حليفًا قويًا لكلٍ من سكن بين جدران هذا البيت.. لقد عرفت جدرانها حزنًا طويلًا وكأن أحدهم قد صب عليه تعويذة ما..

تنهدت قائلة بأسى تضع كفًا فوق الآخر - استغفر الله العظيم.. إنما هي ابتلاءات..

نظرت إلى زاد مستدركة بحذر - لكن مع زواج السيد خطاب لثالث مرة، تمنيت لو آن للفرح أن يزور هذا البيت أخيرًا.. والشهادة لله، السيدة جيهان لا تقل عن السيدة حنان في الطيبة والرقى..

هزت فتحية كفها قائلة وهي تضحك بحرج

- مؤكد أنني أزعجتك بما يكفي.. سأتركك الآن لتتناولي الحساء قبل أن يبرد..

لكن وقبل أن تتحرك من مكانها، نطقت زاد.. تكلمت أخيرًا سائلة بتردد.. وبسرعة .

- الغرفة.. الغرفة.. المغلقة في نهاية الرواق، تلك التي لا تفتح أبدًا.. غرفة من تكون؟!..

نظرت إليها فتحية بدهشة متفاجئة من رغبة زاد في الكلام أخيرًا، لكنها استبشرت بزوال صمتها فسألتها باهتمام

- هل تقصدين غرفة السيدة أسمهان أم..

سكتت وقد تغيرت ملامحها بعض الشيء، فأجابتها زاد بخفوت

- غرفة لا تفتح مطلقًا..

الآن بدا الحزن والأسى على ملامح فتحية واضحًا وكأن
سحابة من الغم خيمت فوق رأسها لكنها أجابت تهز رأسها
بإدراك

- تقصدين غرفة الآتسة سلسبيل رحمها الله..

تنهدت تنهيدة مثقلة ثم همست

- الآتسة سلسبيل، شقيقة السيد سائد وهما ابنا السيدة
أسمهان رحمها الله..

حركت عينيها مفكرة وزاد تتابعها باهتمام

- أنا لم أر السيدة أسمهان فقد دخلت هذا البيت بعد وفاتها
وبعد زواج السيد خطاب من السيدة حنان.. لكنني أسمع
أنها كانت محبوبة من الجميع ومن السيد خطاب على
وجه الخصوص.. لذلك هو مهتم بإبقاء غرفتها كما هي بكل
أغراضها وحتى صورها ظلت معلقة على جدران البيت بعد
زواجه من السيدة حنان.. وحتى يومنا هذا...

بدت محرجة من قول هذا بسبب زواج خطاب من والدة
زاد.. لكن زاد لم تنتبه، بل كان كل انتباهها منصب على
أسمهان وسلسبيل فسألت بخفوتٍ شديد

- وماذا عن.. عن سلسبيل..

عاد الحزن يلون محياها فعقدت حاجبيها وهي تقول
بصوتٍ كئيب

- آه نعم.. كنتِ تسألين عن غرفة الآتسة سلسبيل..

غصت فتحية فانخفض صوتها للحظة ثم تابعت تقول

- ربما كان موت السيدة أسمهان صدمة كما سمعت، لكنها
كانت مريضة.. فربما هياً ذلك زوجها بعض الشيء لاستيعاب
الخبر.. أما مع ابنتها فقد كانت الصدمة فوق احتمال الجميع..
صدمة أعجزتنا حتى عن مجرد ذكر اسمها بعد وفاتها..

صمتت وكأنها غير قادرة على الكلام أكثر فسألتها زاد دون
أن تستطيع منع نفسها

- كيف.. كيف..

لم تستطع أن تتم السؤال لكن فتحية فهمت مقصدها
فنظرت إليها للحظة بعينين غائمتين ثم أومأت تجيب
بخفوتٍ

- في سريرها.. نامت ذات ليلة ولم تصح بعدها.. هكذا بكل
بساطة..

كانت العبارة البسيطة والميتة الهادئة أكثر صدمة على
نفس زاد من السماع عن حادث مروع مثلاً.. حتى أن جسدها
ارتعد فاضطرت إلى تكتيف ذراعيها حول نفسها شاعرة
بالبرد، بينما تابعت فتحية تقول بصوتٍ حزين يتجرع
الحسرة كؤوسًا

- كان السيد سائد هو أول من عرف ب.. دخل ليوقظها فلم..

انتفضت زاد في مكانها بحركة غير ملحوظة وشعرت
بأطرافها تبرد كقطعٍ من جليد.. أما فتحية فرفعت كفها

لتغطي به فمها تهز رأسها وكأن الذكرى أفضع من الكلمات، إلا
أنها همست

- لقد تغير بعدها تمامًا ولم يعد كما كان أبدًا فقد كانا
مقربين من بعضهما وكأنها طفلة المدللة رغم أن الفارق
بينهما عام واحد فقط.. حتى أنه حمل السيد خطاب ذنب
وفاتها.. لدرجة أنه بات يشعر بكره ابنه له

اتسعت عيننا زاد بشدة من تحت القناع بينما قالت فتحية
بصدق

- ربما لأن السيد خطاب والآتسة سلسبيل لم يكونا على
وفاق معظم الوقت.. لكن الشهادة لله أن السيد خطاب تأثر
لموتها وكأنها ضربة في مقتل.. لقد ظل صامتًا لشهور طويلة
وكان الخرّس قد أصابه، متقبلًا لكافة اتهامات ابنه العنيفة
المؤلمة وإن كانت في غير محلها، لكن على ما يبدو أنه
أعطاه العذر مقدّرًا الصدمة التي أصابت عقل ابنه من حزنه
على شقيقته..

حين طال الصمت في الغرفة لا يقطعه سوى صوت ريح

من رياح الخريف بدأت تصفر على إطار النافذة، نظرت
فتحية إلى زاد الجالسة على حافة السرير مكتفة ذراعيها
مخفضة رأسها.. لكنها لم تر الدموع التي انسابت على وجهها
تحت القناع

فاقتربت منها وربتت على صدرها قائلة بصوتٍ حزين
حنون

- هل أخفتك يا زاد وأثرت حزنك؟.. ما كان عليكِ السؤال
عنه يا حبيبتي..

رفعت زاد عينيها مجفلة تنظر إلى فتحية من بين دموعها
فتابت مضيضة بابتسامة متفهمة

- عن الحزن أقصد....

عادت لتربت على صدرها بحنان ثم تركتها واتجهت للباب
لكن وقبل أن تخرج، استدارت وقالت بصوتٍ خفيض

- ربما نبهك كلامي لمدى قصر تلك الحياة يا زاد.. الحياة

أقصر من أن يعيشها الإنسان من خلف قناع..

عجزت عن فتح الباب القديم المتهاك عدة مرات وكأن خلفه ما يعوق فتحه بخلاف القفل الصدي أصلاً.. ممسكة تحت ذراعها الحقيبة المنتفخة التي تضم زي تكتكة وفي كفها حقيبة ملابسها المحدودة.. وبالذراع الآخر تحاول جاهدة دفع الباب حتى تمكنت أخيراً من ركله بكل قوتها فانفتح مسقطاً عشرات الجرائد وبعض الكتب..

أول ما واجهها هو الكثير من الغبار الذي كاد أن يكتم أنفاسها ثم رائحة العطن المنتشرة بفعل الرطوبة..

لكن لحسن الحظ الكهرباء متوفرة فأشعلت الضوء الشاحب لتصدم برؤية المكان!..

توقفت دنيا مكانها فاغرة الفم مصدومة حتى أن الحقيبة التي تحمل زي تكتكة وقعت منها أرضاً مثيراً عاصفة من التراب جعلتها تسعل ثم تعطس قبل أن تحك أنفها بظهر

كفها..

بيت صغير مهجور.. لم يسكنه صاحبه أكثر من ليلة أو
ليلتين كل عام.. حتى توقف عن زيارته تمامًا..

فمن هو مثلهم السيرك هو بيته، أينما يكون يحط رحاله
وينام..

الجدران كانت متشققة، واقع دهانها.. يعلوها بعض البقع
الخضراء.. الظاهر من الأثاث تحت أنقاض الأغراض القديمة
المغطاة بأطنان الأتربة، ممزق النسيج والحشو خارج منه
بفضاعة!..

همست أخيرًا بوجوم

- يا إلهي!.. ما هذا يا جلجل!..

تحركت خطوة فالتصقت بوجهها وشعرها شباك عنكبوت
متدلية من كل مكان في السقف فأخذت تلوح بكفيها وهي
تهتف بحنق

- ما هذا؟!...

وبينما هي تصارع العنكبوت، داست قدمها على لوح زجاج مكسر فأصدر صوتًا جعلها تقفز خشية أن تجرح أو تصاب فتفشل في مسعاها قبل حتى أن تبدأ أول تجربة إداء..

تراجعت قافزة على قدم حتى ارتطمت بخزنة أطباق عريضة لها مرآة تعلوها بقع الصدأ.. والخزنة فوقها لوح زجاجي مغطى بالكامل بالتراب.. كادت دنیا أن تبتعد لولا أن لمحت عدة صور موضوعة تحت اللوح الزجاجي، فمسحت سطحه بكفها تزيح التراب ثم تسمرت تمامًا بقلب خافق..

كانت صورًا قديمة لها في مختلف الأعمار من الطفولة وحتى المراهقة ثم بداية الشباب!!.. جميعها في السيرك وهي تقدم واحدًا من عروضها!!.. رافعة ذراعيها لأعلى تحيي الجمهور بابتسامتها الكبيرة!!..

تراجعت دنیا للخلف بخطوات بطيئة فاتضح لها المزيد من الصور مثبتة على إطار المرآة كذلك.. في مختلف المحافظات بل وفي البلدان أيضًا!!..

تتألق كنجمة في كل عرض قدمته طفلة أو مراهقة أو حتى
شابة..

رفعت كفها النظيف تغطي به فمها بينما حدقتهاها تهتزان ما
بين ابتسامة ودموع.. تلك الشقة القديمة المهجورة ما كانت
إلا تسجيلا مصورًا لمشوارها الصغير معه.. كانت دنياها.. كما
كانت هي دنياه .

- ليس كل تشبثٍ وفاء.. بعض التشبث مرض

اللحظة التي دخل فيها من باب البيت ومشى عدة خطوات
أدرك طيف عينيه أن هناك خللًا ما في الصورة..

هناك شيء مختلف لم يألّفه منذ سنواتٍ طويلة!!..

انعقد حاجباه للحظةٍ قبل أن يستدير محدقًا بمكانٍ محدد
فوق الجدار.. مكان حمل صورة ضخمة لأمه استقرت عليه

لسنوات طويلة حتى باتت جزءًا من أنظارهم في الخروج والدخول..

أما الآن فقد بدا الخل واضحًا بشكلٍ مروع.. لقد كان مكانها خالٍ والصورة مفقودة!!..

ضاقت عينا سائد وهو يخفضهما بحثًا عن المزيد من الصور التي ضمته وأخته سلسبيل مع أمهما فلم يجد أي منها كذلك!!..

كل صورة كانت أسمهان فيها، لم تعد موجودة!!.. لقد تم انتزاع أسمهان بعد كل تلك السنوات!!..

تحرك سائد يصعد درجات السلم ببطء، يعلو ملامحه تعبير مفقود كالصور التي انتزعت.. يشعر في أعماق قلبه أنه يدرك جيدًا ما سيراه تاليًا..

وقد كان قلبه محققًا.. فما أن صعد السلم وبدأ المشي في الرواق حتى تباطأت خطواته شيئًا فشيئًا وهو يبصر غرفة والدته مفتوحة.. يتم إخراج أغراضها الخاصة والصور!!..

غامت عيناه وبدأت ملامحه رمادية وهو يجر قدميه حتى
توقف أمام الباب المفتوح فأمسك إطاره بين كفيه مبصرًا
فتحية وهي تقوم بالمهمة الصعبة من نبش ونقل أغراض
أسمهان..

تكلم سائد فجأة بصوتٍ قاتم مخيف

- ماذا تفعلين؟..

انتفضت فتحية واضعة يدها على صدرها وهي تشهق
بخوفٍ لظهوره المفاجئ وبدأ الرعب على ملامحها والتعثّر
في لسانها غير قادرة على النطق للحظات وهي ترى الحال
الذي بدا به سائد.. رغم هدوءه التام، إلا أن النظرة الجادة في
عينيه كانت إرهابية..

مع صمتها وامتقاع وجهها هدر فجأة بصوتٍ جهوري
غاضب بصرخةٍ زلزلت المكان

- قلت ماذا تفعلين؟..

تلعثمت هاتفة بصوتٍ متعثر

- إنها أوامر السيد خطاب والله.. حتى أنه كلف نوران بالأمر لكنها رفضت وفضلت أن تبقى خارج ما يحدث فأمرني أنا..

مع صيحته الفائتة والتي تردد صداها بين جدران الرواق، بدا وكأن أهل البيت جميعًا قد سمعوه فخرج خطاب من غرفته تتبعه جيهان..

كما صعدت نوران السلم جريًا متمسكة بالحاجز بتعثر.. ثم وقفت بعينين واسعتين ترقب ما يحدث، فتكلم خطاب قائلاً بصرامة

- لماذا تصرخ يا سائد؟.. فتحية لا ذنب لها، أنا من أمرتها..

استدار سائد إليه ببطء يحدق بعيني والده الغاضبتين، ثم قال بصوت محتدم مكتوم وشفته تلتويان غير قادرًا على التبسم بسخرية

- بماذا أمرتها؟...

بدت ملامح خطاب مضطربة رغم تجهم وجهه إلا أنه رد
بجفاء

- ما تراه بالضبط يا سائد.. سننقل أغراض والدتك رحمها
الله لمكان آخر، ستظل محفوظة ومصانة.. لكننا سننقلها
خارج البيت..

اقترب منه سائد خطوتين متمهلتين وعلى وجهه مرارة
وتبسم ثم وقف سائلاً مدعيًا الدهشة والعجب

- بهذه البساطة!!..

ازداد التجهم على ملامح خطاب للحظة فأخفض عينيه إلا
أنه أجاب بصوتٍ أجش

- مردهر على وفاة والدتك يا سائد.. وأنت أكثر من يعلم
كم حزنت عليها وبقيت على حبها سنوات طويلة، لكن آن
الأوان كي نرفع الذكريات عن الجدران.. فمكانها في القلب..

صدرت عن ابنه ضحكة ساخرة مريرة ثم سأل وعيناه

تطولان خلف كتفيه لينظر إلى جيهان التي اضطربت وتلونت
بارتباك

- لماذا الآن بالذات؟!.. لقد مر دهرٌ على وفاتها كما قلت!..

ارتفع صوت خطاب بصرامة وهو يقول غاضبًا ما أن لمح
نظرة ابنه إلى جيهان

- لا داعي لمثل هذه التلميحات وتأدب.. فجيهان لا دخل لها
بما يحدث، أنا من قررت أنه آن الأوان لنبعد شبح الحزن عن
جدران هذا البيت..

ارتفع حاجبا سائد مسمرًا مكانه وقد لمعت عيناه كبرقٍ في
سماءٍ حالكة ثم ردد ببطء

- الآن فقط قررت أن تبعد شبح الحزن عن البيت؟!.. لقد
عشت وعيشتنا فيه طوال سنوات عمرنا جميعًا.. أفسدت
حياة الجميع بلا استثناء والآن فقط حين وجدت سعادتك
قررت إبعاد شبح الحزن!..

ضحك ضحكة قاسية وقد تحولت عيناه للوحشية ثم هز
رأسه نفيًا أمام عيني والده المصدومتين وتابع بصوتٍ ناقم

- أي أنانية تلك!!...

هدر والده غاضبًا مما جعل جيهان تمسك ذراعه لتمنعه من
التهور

- لن أسمح لك بتجاوز حدودك معي مجددًا يا سائد..

إلا أن سائد صرخ فجأةً بجنون أذهل الجميع وأثار الرجفة
بين أوصالهم

- الحدود كنت أنت من تجاوزها منذ كنا صغارًا.. الآن؟!..
الآن فقط تقرر محو ذكرى أسمهان مراعاة لمشاعر زوجتك
الجديدة؟!.. وماذا عن حنان؟!.. تلك التي أفسدت حياتها بكل
يومٍ من أيام زواجها منك.. ليتك أبعدت أشباح الحزن عنا منذ
زمن طويل.. ليتك

تراجع رأس خطاب للخلف ذاهلاً كما تراجع سائد للخلف

مشيرًا إليه بتهديد قائلاً بصوتٍ خفيض وإنما وحشي النبرة
كنظرة عينيه

- غرفة سلسبيل لا تمس.. لا يحاول أحدكم الاقتراب منها،
أو حتى فتحها، أم أنك تنوي إزاحة ذكراها أيضًا..

رماه بنظرة ناقمة قبل أن يستدير ليغادر، لكن مع استدارته
التقت عيناه بعينين تنظران إليه باتساعٍ من خلف قناع!..

صاحبه كانت قد خرجت من غرفتها، ووقفت مستندة
بظهرها إلى جدار الرواق لا تحيد بعينيهما عنه..

لكنها لم تكن سوى لحظة واحدة فقط حتى انتزع عينيه
وابتعد مندفعًا..

وفي ابتعاده تساءل، كيف رأى القناع بملامح حزينة؟!..
كيف خيل له انخفاض زاويتي شفتيه في انحناءة المهرج
الحزين تعاطفًا!!.. كيف تفعل هذا؟!..

أتراها أوهامًا!!..

حنان

فتحت الباب وهي تقول بلطف بصوتها الحنون- حاضرة،
حاضرة يا من تطرق الباب.. وما أن فتحته حتى ارتفع
حاجباها ولمعت عيناها بلون الحب وهي تهتف بسعادة
فاتحة ذراعيها مدلة

- أهلا بحبيبي أهلا.. والله شعرت بأن شيئًا جميلًا سيحدث
اليوم..

تبسمت شفتاه قليلا رغم جفاء ملامحه وقتامة عينيه قبل
أن ينحني إليها لتتلقاه بين ذراعيه تضمه إلى صدرها بقوة
فرد قائلا بصوتٍ خشن

- جيد أن هناك مخلوًا واحدًا في هذه الدنيا لا يزال يراني..
كشيء جميل!..

لم تحرره من بين ذراعيها للحظات ثم أبعدته قليلا تنظر

إلى وجهه المنحني إلى مستوى وجهها وقالت عابسة معاتبة

- لو كنت في حاجة لهذا الشعور فعلا لما غبت عني كل هذه
الفترة!!.. قلبي غضبان عليك يا ولد..

وكي تؤكد خصامها دفعته عنها توليه ظهرها داخلة لشقتها
فتبعها رافعًا حاجبيه مبتسمًا وهو يغلق الباب ثم قال
متشدقًا بغرور

- لا أصدقك يا حنان...

أجابته بخشونة دون أن تستدير إليه- صدق إذن وهيا
غادر.. لا وقت لدي لك..

توقف مكانه للحظة ثم قال بهدوء- لا بأس إذن.. أراك
لاحقًا..

استدار مبتعدًا تجاه الباب، خطوة.. خطوتين ثم ابتسم
وهو يسمعها تقول بصرامة من خلفه

- والله لو تحركت حركة إضافية تجاه هذا الباب لضربتك
بالعصا التي أحتفظ بها فوق الدولاب..

أخفض رأسه ضاحكًا بلا صوت.. متذكرًا ذلك التهديد الذي
كانت تهددهم به أربعتهم.. لكن لم يأت يومٌ وتظهر فيه تلك
العصا المرعبة المجهولة..

راقبته مليًا في جلوسه مستندًا بمرفقيه إلى ركبتيه محدقًا
في الأرض صامتًا منذ وقت طويل فسأله بهدوء وهي
تحضر له القهوة فوق شعلة صغيرة على الطاولة أمامها..
تمامًا كما يحبها

- هل أتيت بعد كل هذا الغياب، لتجلس صامتًا بهذا
الشكل؟!...

رفع وجهه إليها مبتسمًا بلا مرح ثم قال- ربما ما كان في
حياتي شيء جديد لأحكيه!..

تمهلت في الرد تصب القهوة في القدر ثم قدمتها له قبل
أن تقول رافعة حاجبها بمكر:

- حقًا!!.. ألا شيء لديك لتحكيه لي يا سائد؟!..

ضيق عينيه مدققًا النظر إليها في صبحها المتبقي من القهوة
في القدح الخاص بها ثم نظرت إلى عينيه سائلة بجدية

- أتعني أنك لم تفتعل المشاكل في بيت والدك قبل مجيئك
إلى هنا مثلاً!!..

أجفلت ملامحه وهو يهتف- كيف..؟!...

ثم لم يلبث أن أطبق شفتيه وهو يهمس من بين أسنانه
بغیظ مكلماً نفسه

- نوران.. لن تتغير أبدًا مهما كبرت.. ستظل تلك العادة
الغبية فيها لن تبارحها

ضحكت حنان قائلة بمرح

- ألا زلت تذكر حين كانت تشي لي بكل مغامراتك حتى سن
الثامنة عشر!.. كل أخبارك كانت عندي بسبب الرقيب الذي

عينته عليك في العاشرة من عمره..

مط شفتيه متذمرًا وهو يرمقها بطرفٍ عينيه قائلاً

- لم أهنأ بعلاقة واحدة بسببكما.. وأنتِ يا حنان كنتِ شديدة الصرامة ترفضين الحال المائل..

ازداد ضحكها بينما تابع قائلاً بصوتٍ واهٍ

- كنتِ دائماً تقولين.. تذكر أن لك أختين، لا تريد أن تُعاقب في واحدة منهما..

غابت الضحكة عن ملامح حنان على الفور وتاهت عيناها.. فلم تفتحه مسحة الحزن التي رسمت محياها، لكنها لم تلبث أن نظرت إليه مغيرة الموضوع بسرعة قائلة بحنان وعلى ثغرها طيف ابتسامة

- لكن لم يكن هذا ذنب نوران وحدها يا سائد.. لطالما اعتدت أن ترتكب مصيبة ثم تأتي لتجلس أمامي وأنت تفرك أصابعك كما تفعل الآن تحديداً..

نظر سائد إلى أصابعه تلقائيًا لكنه أعاد عينيه إلى عينيها
وقال بثبات

- لكنني لم أرتكب مصيبة هذه المرة...

رافعة قبضتها تضم أصابعها وهي تقول بحزم

- أيعقل أن تتجراً على والدك بالقول وتتهمه وتتجاوز حدك
معه فتهينه أمام عروسه؟!.. أهذه هي التربية التي ربيتك
بها؟!

مال برأسه مبتسمًا وهو يتظاهر بعدم الاقتناع ثم قال
ممازحًا

- لا أظنك نجحت تمامًا فيما يخص تربيته يا حنان..

لم تتجاوب مع ابتسامته بل ردت بجفاء وحزم

- أنا لا أمزح يا ولد.. كيف تجرأت على الوقوف في وجهه
والتهجم عليه أمام زوجته كما فعلت!..

زال العبث عن ملامحه وأدار وجهه قائلاً بصوتٍ بارد جاف
محمل بالمقت

- الآن يزيح ذكريات أمي!.. الآن وبعد كل هذا العمر!..

لم تتردد حنان وهي تقول بصرامة

- حقه.. البيت بيته وهي كانت زوجته، إن أراد أن يحتفظ
بما يخصها فليفعل وإن أراد تغيير ذلك فلا يحق لك
مراجعته..

نظر إليها بعنف وهتف بصوتٍ مكتوم

- كيف لك أنتِ بالذات قول هذا؟!... لماذا لم يفعل ما فعل
خلال زواجه منك قبل سنواتٍ طويلة!..

ساد الصمت للحظات ثم وضعت كفًا على كف وهي تسأله
بغلظة

- تريد القول أنك كنت منفعلاً لأجلي مثلاً؟..

مط شفتيه امتعاضاً وهو يرد بقساوة

- لمن سأفعل مثلاً!!....

سكت قليلاً وقد توترت أنفاسه ثم قال بخشونة متمماً

- عرفت أُمي سبع سنوات.. وعرفتكَ المتبقي من عمري، ما يقرب من الثلاثين عامًا..

ظلت تتأمله والملامح الحنونة تهفو لمحو العنف المستتر
خلف هاتين العينين الغاضبتين بكل روحها لكنها قالت
مبتسمة بهدوء تومئ بجفניה

- أعرف.. كل ما بداخلك أعرفه أكثر منك أنت شخصياً..
حتى وإن أنكرت وادعيت الغموض..

هز رأسه محدقاً في الأرض وهو يردد من بين شفتين شبه
مطبقتين

- حين توفيت أمي بدا وكأنه احتكر الحزن كله لنفسه..
كنت أصغر من استيعاب كل هذا القدر من الحزن، فلم أفهم
سر ابتعاده عنا أنا وسلسبيل وكأنه لفظنا من حياته فجأة..
وكان كل ما كان يربطنا به هو أمي فقط، وبرحيلها انتفت
بينه وبيننا أي صلة أخرى.. ورغم كل هذا الحب العنيف
والحزن الأسود المخيف كهوة تبتلعه تزوج مرة ثانية بأسرع
مما تخيل الجميع!!..

أحنت حنان رأسها صامتة بينما نظر إليها متهكمًا متابعًا
بنفور

- أكاد أتخيل تعجب الناس وقتها من خبر زواجه السريع
جدًا بعد كل هذا القدر من الحب والحزن عليها.. لكنني
أدركت قبل وقت طويل أنه كان التصرف المنطقي جدًا
وفقًا لشخصية خطاب علواني.. خطاب لم يتزوج بمثل هذه
السرعة لأن الإخلاص والوفاء ينقصانه.. بل تزوج من يلقي
إليها بحمل طفلين باتا غير مرغوب فيهما، غير مقدورٍ على
الشعور بهما..

أراد التفرغ لحزنه وعمله وعجز عن احتواء خوفهما من

فقد الأم في مثل هذا السن.. لذا اختار من يلقي عليها
بمسئوليته الخاصة.. اختارك أنت يا حنان وقد أحسن اختيار
من تقوم بالمهمة على أكمل وجه..

صمت للحظات يتنفس بغضب ثم نظر إليها يتأملها..
تختلف كليًا عن أسمهان.. وعن جيهان..

كانت أمًا بالشكل كما هي بالروح والفطرة.. سهلة المعشر..
لينة الطباع ولديها كافة الحلول لكل شيء.. لها القدرة على
احتواء الجميع ونسيان نفسها خلال إداء مهمتها بتفاني..

ثم تابع بنقمة قائلا

- لم يراعي مشاعرك أبدًا ولم يحاول إخفاء أسمهان داخل
قلبه بعيدًا عنك.. بل أبقاها في كل مكان من حولك..

ترينها أكثر من رؤيتك له هو شخصيًا.. لقد وضع النقط على
الحروف منذ البداية وأشعرك أن أسمهان حية معنا ولم ترحل
بل ولن ترحل أبدًا.. لقد حملك كل شيء.. حزنه ويثمنًا وجفاء
مشاعره.. والآن.. الآن فقط يقرر إبعاد شبح الحزن جدران

البيت!!.. يا له من عمر ضائع!..

استمعت له بكل انتباه حتى آخر كلمة نطق بها بعنف
مكبوت ثم انتظرت للحظات بلامح هادئة تمامًا وعينين
حنونتين ثم سأله بخفوت وحزم

- عمر من الضائع؟!.. عمري أنا؟!.. أهذا ما تظنه يا سائد؟!..
أنت لا تعرفني حق المعرفة إذن.. أنت تعلم أنني أنا من طلبت
الطلاق من والدك بعد أن كبرتم جميعًا دون رجعة فما الذي
منعني من طلبه سابقًا كي لا يضيع عمري كما تقول؟!..

أنا من اخترت البقاء يا سائد بكامل إرادتي.. لأنني اخترت
وجودي معكم أنتم الأربعة.. كنتم لدي الاهتمام الأكبر
في حياتي والرغبة الحقيقية ولم يكن تصرفي تفضلاً أو
تضحية.. بل كان اختياري فما كنت أقدر على الابتعاد عنك
وعن أختك كما لا أقدر على الابتعاد عن نوران ووائل..

أخفضت وجهها كما انخفض صوتها بينما هو يتأملها بعينين
غاضبتين محبتين فتابعته بخفوت

- أنا لم أكن عاجزة أو فاقدة المأوى كي أستسلم رغماً عني..
لقد اخترتكم أنتم الأربعة كصفقة واحدة.. حتى أن الأوان
فطلبت الانفصال.. والآن أنا راضية عن حياتي تمام الرضا..

ظل صامتًا بملامح متباعدة فراقبته مليًا ثم هزت رأسها
قائلة بصوتٍ خافت متقطع

- لكن أتعلم.. لا أظنك تقصد عمري أنا بالضائع، بل.. تقصد
عمر سلسبيل..

لم يكن خطاب وحده من تشبث بالذكرى حد المرض.. فقد
أخذت الراية من بعده.. لا زلت تلومه على رحيلها، لماذا يا
حبيبي؟

غامت عيناه وانقبضت أصابعه بشدة، فشعرت بكل خلية
من خلايا جسده تنتفض ألماً.. وقد لاقى صدى لنفس الألم
بداخلها إنه العذاب بعينه والذي يحاول الجميع التعامل معه..

أغمضت عينيها تحاول التغلب على نفس حرقه القلب ما
أن تنطق باسمها.. الجميلة الحبيبة..

تكلم قائلاً بصوتٍ بدا كالفحيح وهو يحدق في الأرض

- كان يعتمد دائماً كسر إرادتها بالقوة والضغط عليها بكل طريقة.. حتى استسلمت..

مالت حنان للأمام حتى مدت بكفها تمسك أصابعه المنقبضة عليها تسحب الألم منه وهمست بصوتٍ مبحوح ألماً

- هل أنت صغير العمر كي أقنعك بأنه كان مواعدها.. وكان أجلها محتوماً حتى وإن لم يشب علاقتها بوالدها شائبة!..

تحرك حلقه بصعوبة فربت على كفيه بدفء مما جعله يتمسك بكفها بقوة ثم قال

- لن أنسى انهيارك بعد علمك برحيلها..

مالت إليه أكثر وهمست بحرارة معذبة تضغط أصابعه -
أتظن أن والدك لم ينهر أضعافاً!..

حين لم تجد منه ردّاً تابعت قائلة بتأكيد - خطاب يحبكم

جميعًا يا سائد..

رفع وجهه ينظر إليها بعينين شرستين ثم هتف - لكنه والد
فاشل..

انعقد حاجباها بشدة وهي تقول محذرة بصرامة - سائد!!..

لكنه تابع مؤكدًا بحدة وعنف وكأنما فقد المتبقي على
سيطرته

- يلقي بمسئولية أولاده على غيره دائما..و هذا ما ينوي
فعله مع وائل أيضًا.. التخلص منه بإلقاء مسئوليته على من
يتسلم الحمل

بهتت ملامح حنان وهي تسحب يدها لتسأل بصوت قلق

- ماذا تقصد بخصوص وائل؟!..

شعر بأنه زاد من الكلام أكثر مما أراد في الحقيقة، لكن
أنقذه صوت باب الشقة وهو يفتح.. وسرعان ما سمع صوت

نوران تهتف

- أُمِّي.. لقد أتيت.. أُمِّي...

نهضت حنان من مكانها تربت على وجنة سائد برقة.. ثم خرجت لتقابل نوران التي ما أن رأتها حتى هتفت قائلة برهبة

- تعالي لأكمل لك ما فعله سائد، فالاتصال لم يكن كافيًا.. لو ترين ملامح أبي وقتها لكنت..

قطع كلامها فجأة ظهور سائد من خلف حنان.. خارجًا من غرفة الجلوس يرمقها بنظرة ساخرة باردة فامتقع وجهها بشدة وهتفت بغضب

- ماذا تفعل هنا؟!..

ردت حنان بالنيابة عنه هادرة بصرامة محذرة

- نوران!.. احترمي أخاك الأكبر..

نظرت إليها نوران غير قادرة على تصديق الدرجة التي
وصلت إليها أمها فردت مصرة

- احترامي له لا يمنعني من السؤال عما يفعله هنا.. هذا
ليس بيته بل بيتي وبيت أمي ولست مجبرة على تقبل
وجوده هنا أيضًا.. كما لم يتقبل وجودي أبدًا

هتفت أمها ذاهلة بصدمة وغضب

- اسكتي يا نوران.. كفاكِ قلة أدب..

لمعت عينا نوران بشعورٍ بالرفض والخذلان من أمها التي
كان ينبغي أن تكون في صفها لكنها كتفت ذراعيها مجبرة
نفسها على الصمت.. أما سائد فقد ربت على ذراع حنان قائلاً
بهدوء

- لا بأس يا حنان.. لقد كنت مغادرًا على كل حال..

هتفت حنان بصرامة

- لن تغادر.. إن كان على أحد أن يغادر فلتغادر هي..

صرخت نوران بذهول وشعور بالجرح - أمي!!..

لكن سائد كان بالفعل قد تحرك ليتجاوزها يرميها بنظرة باردة كواحدة من نظراته القديمة في تجاهله لها ثم اتجه للباب وقبل أن يخرج استدار ليقول مكلماً حنان قائلاً بهدوء

- شكرًا يا حنان.. أعدك ألا أطيل غيابي مجددًا..

وما أن أغلق الباب خلفه حتى اندفعت حنان لتقبض على ذراع ابنتها هاتفة بغضب

- أهذا هو الأدب الذي علمتك!!.. على الأقل راعي جرحه بعد ما فعله والدك اليوم..

تحشرجت الأنفاس في حلق نوران ألماً ما بين الشعور بعدم إنصاف أمها لها.. والشعور المقيت بتأنيب الضمير!!..

وحين لم تستطع الرد شدت ذراعها من أصابع حنان لتندفع

راكضة تختبئ في سريرها تحت الغطاء كما كانت تفعل في طفولتها ما أن تجرح أحدًا ثم يعذبها الضمير..

ما الذي أرجعه لهذا البيت؟!.. سؤال ظل يطوف في ذهنه طوال الطريق وحتى وصل إلى غرفته بعد ساعات طويلة من قيادة السيارة عليه يصل بعد نوم الجميع وبالفعل كان الظلام يسود البيت.. لا يبدده سوى بعض الأنوار الشاحبة الجانبية..

و الصمت يلفه لا يقطعه سوى دقائق الساعة الكبيرة..

أوشك على دخول الغرفة بإهمالٍ لولا أن لفت نظره شيء على الأرض أمام باب غرفته مباشرة..

ضاقت عيناه سائد مدققًا النظر قبل أن ينحني ليمسك بقلب كعك صغير مثبت فيه ورقة بيضاء!!..

ما سر تلك الاختلاجة الحمقاء التي اندلعت بداخله فجأة ما أن رأى قلب الكعك قبل حتى أن يقرأ الرسالة!!..

أمسك بالورقة ينتزعها عن القلب وقرأ الرسالة المكتوبة
عليها بخط لم ير أجمل منه وكأنه موجات فستانٍ من الحرير
يطيرها الهواء!

“ آسفة لما شعرت به اليوم.. فلا أفضع من أن يحل غريب
محل أقرب الناس إليك، ماحيًا حتى حقك في الاحتفاظ
بذكرياته

تقبل شيء يسير من سعادة الحياة عليها تخفف بعض من
حزنك “

لمعت عينا سائد والتوت شفتاه في ابتسامة متهورة
تتراقص على دقات الاختلاجة المخادعة..

لقد تعمدت ألا توقع الرسالة باسمها

بحيث إن وقعت بين يدي أحد غيره قبل وصوله، فلا يكون
القلب دليل إدانة ضدها!..

ابتسم وهو يلتهم قالب الكعك بنهم.. أتراه ألد قالب حلوى

تذوقه يومًا بالفعل أم تتلاعب به أهواؤه!!..

اليوم تحديدًا وشعرت كأنها طائر فتح له باب القفص قليلاً.. قليلاً فحسب.. ليحلق في السماء منتهزًا الوقت المختلس..

لا تكاد تمس الأرض بأصابعها وهي تدور وتدور وتدور قبل أن تقفز وكأنها تحلق فاتحة ذراعيها للسماء المنتظرة..

عينها تتسعان تكاد أن تلامس زرققتها الشاحبة.. أوشكت على أن تلامسها، لكن في اللحظة الأخيرة حطت على أطراف أصابعها لتهبط ببطء محنية الرأس، جاثية على ركبة واحدة وذراعاها تحاوطان جسدها برقعة..

لقد ظنت نفسها كرهت الباليه.. ظنت أنها لن تمارس تلك الرياضة المتوحشة مجددًا.. لكنها كانت مخطئة..

فبمجرد استقرارها وجدت جسدها يصرخ منادياً طقوسه

ينشد التحليق.. وكأن الرقص بات يجري في العروق مجرى
الدم بحكم التعود.. وليس بحكم من الروح، فالروح عيلة، لم
تجد الترياق بعد..

لكن لا تنفك كلمات المنشور تراودها كل حين كلحنٍ رتيب
يأبى أن يغادر أذنيها.. وكأن كلمات المنشور تعويذة تناديها

إن كنت على الهامش.. إن كنت على الهامش..

أنا يائس.. أنا يائس..

إن كنت على الهامش فانضم لنا..

لقد ظلت على هامش الحياة سنوات طويلة.. لقد كانت
مسلوبة الإرادة والعقل والروح..

كانت كالمغيبة وبدأت تفيق.. وبداية إفاقتها مقترنة
بالعقاب الذي تستحقه..

لكن كلمات المنشور تستدعي شيئاً بداخلها، حاولت

مقاومتها مقنعة نفسها أنها لا تبغي سوى العقاب..

لكن تظل الترنيمة تناديها..

أتراه عقابًا تبتغيه لنفسها؟!.. لو كان كذلك فستقبل به راضية

أم أمل يعلن شروقه؟!.. إن كان أملًا فلا مصير له عندها سوى البتر

ربما كان عقابًا، فهل تحاول؟!..

لا تزال الأفكار تلاحقها وهي تفتح باب السطح لتدخل منه إلى الدرج الضيق الموصل للطابق العلوي من البيت لكن وقبل أن تمس قدمها أول درجة تسمرت مكانها تمامًا متسعة العينين كاتمة أنفاسها..

ففي منتصف ذلك الدرج كان سائد واقفًا يوليها ظهره، منحنيًا فوق الحاجز يحركه ببطء محاولًا اختبار شيء ما بذلك الحاجز.. ربما قدرته على التحمل مثلًا!!.. وقد بدا غير

منتبهًا لوجودها خلفه مطلقًا!!..

متى جاء؟!.. متى عاد؟؟.. وهل يعرف بوجودها!.. على ما يبدو أنه لا يعرف..

ماذا تفعل الآن؟!.. هل تستدير محاولة ألا تصدر صوتًا لتدخل السطح مجددًا تنتظر ابتعاده عنه يفعل قبل أن يحس بوجودها؟!..

وماذا إن طال به الوقوف مستغرقًا فيما يفعل؟!..

ماذا يفعل أصلاً؟!..

عقدت حاجبها وهي تراه يطرق على حاجز السلم بقبضته مرهفًا السمع!!..

نظرت حولها عليها تعثر على المفر لكن ابن صاحب البيت أمامها والسطح خلفها فماذا تفعل!!..

و بينما هي تقف عاجزة عن إيجاد الحل استدار إليها فجأة

ثم أجفلت ملامحه حد الصدمة رافعًا حاجبيه مما أكد لها أنه
هنا بالصدفة البحتة..

ساد الصمت بينهما للحظات ينظران لبعضهما بحذرٍ وترقب
وكأن كلاً منهما قد رأى صرصورًا كبيرًا على الجدار ويفكر في
محاولة المرور بجواره دون أذية..

حين طال الصمت وجدت أنه لا مفر من محاولة المرور
والفرار لذا تحركت خطوة وهي تهبط الدرجة الأولى هامسة
بصوتٍ مضطرب مخفضة رأسها

- مساء الخير..

تمنت من كل قلبها أن تنجح عملية الفرار وتمر بسلام..
لكن ما أن وصلت إليه حتى استدار حول نفسه مائدًا ذراعه
ليغلق بها طريق المرور واضعًا كفه على الجدار المقابل
فاحتجزها تمامًا..

شهقت زاد بصوتٍ مختنق وهي تتراجع خطوة حتى
التصق ظهرها بالجدار فاقترب منها خطوة أخرى وسألها

مغمغمًا بجدية وإن كانت تحمل لوئًا خفيًا من العبث وعيناه
تأسران عينيها المتسعيتين في وجه مرتفع إليه

- ما الحكاية بالضبط؟!...

ازداد اتساع عينيها وهي تهمس متلعثمة بتوتر - أي
حكاية؟!..

تحركت عيناه تجولان ببطء على ملامح القناع الأبيض
الصلب وكأنما يرى ملامحها من خلف القناع فارتبكت ورفعت
أصابعها تلمسه متأكدة من ثباته في مكانه..

تحركت عيناه مجددًا تلاحق الأصابع المذعورة ثم العنق
الذي تشنجت عضلاته وهي تزدرد لعابها.. قبل أن يعاود تأمل
ملامح القناع.. ويا للعجب!! وكأن القناع قد اتخذ ملامح
الخوف والحذر كملامح ظبي يريد الفرار!

و كأن ثقبى العينين اتسعا أكثر من المعتاد.. وكأن الفم
المغلق قد شق فاعرًا!..

مجددًا.. كيف تفعل ذلك؟!.. كيف تتحرك ملامح القناع
مُحاكِية لمشاعرها!!

لكنه لم يبح بالأفكار التي طافت بعقله بل رفع حاجبه
وتبسمت شفتاه ابتسامة عابثة ثم أجاب سؤالها ببطء وبنبرة
مطاطة

- هل تتبعيني أم ماذا؟!...

استطاع أن يلمح اتساع حدقتيها يزداد لدرجة جعلته
يشفق عليها فعلاً لكن دون أن يفقد ابتسامته!.. بينما هتفت
بجزع

- ماذا؟!.. لا.. بالطبع لا..

رفع حاجبيه معًا يسألها بعدم اقتناع - لا؟!.. هل أنتِ
أكيدة؟!..

أومأت برأسها بقوة ثم هتفت بنبرة أكثر تعثرًا

- طبعًا.. طبعًا.. ما الذي.. جعلك تفكر في شيء مربع كهذا!!..

أسيكون مربعًا حقًا؟!.. ترى لماذا لا يُوافقها الرأي!!

مجددًا أخفى تفكيره وقال مدعيًا التفكير

- أراكِ تنظرين إليّ من نافذة غرفتك.. تتركين لي قالب حلوى على باب غرفتي مع رسالة لطيفة!..

هتفت زاد تقاطعه دون تفكيرٍ وقد جعلها الارتباك تتصرف على نحو أهوج

- لم أفعل شيئًا كهذا...

ارتفع حاجباه وهو يهز رأسه يسألها مصدومًا - ألم يكن قالب الحلوى منك؟!.. عجبًا!!..

أدركت كم بدت غبية حين اتبعت الكذب دون تفكير ودون داعٍ!!.. من سيكون غيرها إن لم تكن هي!!..

أخفّضت وجهها غير قادرة على الرد ولحسن الحظ أنه
لم يصر على موضوع قالب الحلوى والذي كان أكثر تصرفاً
متهوراً قامت به بدافع من قلبها المتعاطف!..

تابع سائد وكأنها لم تقاطعه محدّقاً بعينيها - والآن تتبعيني
إلى السطح!..

هتفت مُتأوّهة وكأنها على وشك البكاء مما لمس شيئاً
بداخله

- لم أفعل.. كنت هنا قبلك، فكيف لي أن أعرف بقدومك!..

امتك الجرأة على التظاهر بالتفكير في دليل براءتها الذي
تقدمه.. بينما سألته بتردد

- ماذا.. تفعل أنت هنا؟...

أدرك أنها ما سألته فضولاً، بل شكّاً في أن يكون قد راقبها
في رقصها..

تلاعبت على شفتيه ابتسامة مكرٍ متعمدًا التلاعب بأعصابها
لكنه أجاب بنبرة عملية تمامًا

- أتيت أتفقد حاجز السلم الخشبي، فقد انتابني الشك منذ
فترة حول إصابته بسوس الخشب..

ساد الصمت للحظة ثم حركت وجهها تنظر للحاجز الخشبي
واجمة وهي تردد بعجزٍ شاعرة بنفسها بطلّة لموقفٍ هزلي

- سوس ماذا!!!..

أجابها قائلاً بجدية بالغة - سوس الخشب.. يجب معالجته
إن وجد، فهو داء خطير..

تحرك حلقها مجددًا بصعوبة مما اجتذب عينيه فقالت
بصوتٍ مختنق

- حسناً.. سأتركك مع.. سوس الخشب، حظًا موفقًا و..
سلام..

ابتعدت عن الجدار لتحاول تجاوزه لكنه تحرك في نفس اللحظة مقررًا أن يحررها فقد اكتفى لليوم وأشفق عليها فعلاً..

لكن في لحظة خاطفة تعثرت قدمها بساقه، مما تسبب في انزلاقهما معًا فوق الدرج الضيق!!..

كان رد فعله سريعًا فأمسك بها كي لا تقع لكنه لم يفلح سوى في الوقع بطول الدرج وهي معه صارخة.. حتى انتهى بهما الحال.. هو جالس أرضًا وهي فوق ركبتيه!!..

وجهها قريب من وجهه وهي تنظر إليه بذهول كما يبادلها النظر بصدمة.. وساد صمت غريب بينهما..

تكلم سائد قائلاً بخفوت - زاد.. أنا آسف، لم...

لم تنتظره كي يتابع ما يود قوله بل هتفت بجزع قافزة على قدميها.. ثم اندفعت تجري نزولًا للطابق العلوي بينما هو لا يزال جالسًا على الدرج يرجع رأسه للخلف محاولًا التعامل مع المزيد من المشاعر الغير مرغوب فيها من جاذبية لا مكان

لها على الإطلاق!!.. لا يجب أن يكون لها مكان..

كادت زاد أن تصطدم بنوران ما أن وصلت للطابق العلوي..
والتي هتفت بمودة ولياقة ما أن رأتها

- زاد!!.. لقد خرجت من غرفتك أخيرًا!!.. يا لها من مفاجأة!!..

لكنها صمتت تمامًا وهي ترى سائد مجددًا يظهر من خلف
زاد!!..

اتسعت عيناها وفغرت فمها.. ما الذي يحدث بالضبط!!

توقف سائد صامتًا مجفلاً ما أن أبصر أخته، بينما نقلت
نوران عينيها بينهما ثم أشارت سائلة بحذر

- هل كنتما على السطح سوياً؟!.. ماذا كنتما تفعلان؟!..

لم ترد زاد بل اندفعت تجري حتى وصلت لغرفتها فدخلت
وأغلقت الباب خلفها بقوة..

لها على الإطلاق!!.. لا يجب أن يكون لها مكان..

كادت زاد أن تصطدم بنوران ما أن وصلت للطابق العلوي..
والتي هتفت بمودة ولياقة ما أن رأتها

- زاد!!.. لقد خرجت من غرفتك أخيرًا!!.. يا لها من مفاجأة!!..

لكنها صمتت تمامًا وهي ترى سائد مجددًا يظهر من خلف
زاد!!..

اتسعت عيناها وفغرت فمها.. ما الذي يحدث بالضبط!!

توقف سائد صامتًا مجفلاً ما أن أبصر أخته، بينما نقلت
نوران عينيها بينهما ثم أشارت سائلة بحذر

- هل كنتما على السطح سوياً؟!.. ماذا كنتما تفعلان؟!..

لم ترد زاد بل اندفعت تجري حتى وصلت لغرفتها فدخلت
وأغلقت الباب خلفها بقوة..

ظلت نوران واقفة مكانها تراقب فرار زاد بذهول وحين
شعرت بسائد ينوي التحرك أمسكت بمعصمه بقوة وهي
تهتف من بين أسنانها بحنق

- انتظر هنا.. ما الذي تفعله بالضبط؟!.. ما الذي تنوي
عليه؟!..

نظر إليها سائد بمللٍ من علوٍ بسبب فارق الطول بينهما ثم
هز رأسه يسألها ممتعضًا

- لما أنت متواجدة في كل مكان؟!... أخشى أن أدخل
غرفتي فأجدك تحت السرير!..

ثم أبعد أصابعها عن معصمه لينصرف متمهلاً وكأنه لم
يفعل شيئاً بينما ظلت نوران واقفة مكانها محدقة في الرواق
الخالى ذاهلة الملامح.. ثم سألت ببطء وشك مريب

- ما الذي يجري؟!..

تعالَت الهمهمات ممتزجة بالضحكات والهمسات.. بينما
الأعين الواسعة الضاحكة تتابع الخطوات الرشيقة لزوج من
الأحذية الحمراء اللامعة، ترتديه قدما نِلساقيين طويلتين،
رشيقتين..

لهما من العضلات ما يتنافى مع الجوارب المخططة باللون
الأبيض والأرجواني الطويلة والتي تعلوها تنورة فستان
منفوش مزين بطبقات من الشرائط الحريرية والدانتيل مما
يجعلها أشبه بمظلة أنثوية جميلة تنتهي بخصر ضيقٍ لشابة
تبدو وكأنها دمية..

وجهها مرسوم بالأصباغ ومغطى بالكامل بحيث لا يمكن
تبين ملامحه الحقيقية.. أما شعرها فكان لفائف من الصوف
الأرجواني كشعر الدمى القماشية!..

خطواتها الواثقة بين راقصي الباليه المتقدمين لتجربة
الأداء جعلت ذهولهم يتحول ضحكاً..

فقد كانت كبقرة لونية صاخبة بين مجموعة من السحب
الوردية والسماوية..

يمكن لمن يراها أن يعتبرها نشازًا في اللحن الكلاسيكي
الراقي كما يمكن أيضًا لعين معاصرة أن تراها لوثًا جريئًا من
الفن كضربة فرشاة فاقعة على قماش لوحة هادئة.. فتضفي
له معنًى مختلفًا .

يمكن لكل من يراها أن يراها كما يريد أن يراها.. لا تأبه
مطلقًا، لكن بشرط أن يراها.. أما التجاهل فترفضه..

حين اتخذت قرارًا بالألا تكون على الهامش.. لم يكن قرارًا
بلا ثمن.. بل دفعت فيه مجازفة من عمرها مع أهلها لمدة عام
كامل.. وعلى من يتعامل معها أن يحترم الثمن الذي قامت
بدفعه كي لا تظل على الهامش..

كان يوليها ظهره واقفًا مع اثنين من أعضاء اللجنة
المقيمة للعروض المقدمة يتكلم بجدية شديدة حتى بدأ
صوت الضحكات والهمهمات في التزايد والارتفاع مما جعله
يتجهم غاضبًا متوترًا.. ثم لم يلبث أن اعتذر ممن يشاركهم
الكلام للحظة قبل أن يستدير ليهدر بصرامة وحزم مخرج
استعراض لا يقبل بالهرج في الأوقات الحاسمة..

لكن وقبل أن ينطق بكلمة واحدة رآها!!

اعترض الكلام حلقه فبدا عاجزًا عن النطق وعيناه تزدادان اتساعًا مع اقترابها منهم بكل ثقة وعلى وجهها ابتسامة كبيرة حتى وقفت معهم بأريحية ثم قالت بنبرة بشوشة

- مرحبًا.. أنا دنيا.. أنا التي تعرفتم إليها منذ دقائق، بطلة الحركات البهلوانية والمشاركة في العرض.. لكني كنت بشكلٍ مختلف فأحببت أن أريكم المزيد من مهاراتي المتعددة..

تبادل أعضاء اللجنة النظر بينهم مبتسمين بينما كان كريم يحاول السيطرة على غضبه والذي بدا جليًا في عينيه وكأنه قادر على إحراقها حية..

بدأ الحوار الخفيض المتبادل بينها وبينهما ثم قالت بحماسٍ تهز تنورة فستانها المنفوش كدمية جميلة

- يمكنني تقديم جزء من فقرة تكتكة..

لا هذا يكفي..

تمتم كريم معتذرًا من أعضاء اللجنة قبل أن يطبق بأصابعه على ذراع دنيا ليجرها معه مبتعدًا عن المكان المزدهم..

يسرع في خطواته مما أجبرها على أن تسرع معه وتنورتها المنفوشة تقفز مع خطواتها لأعلى وأسفل فتسبب ارتفاع أصوات الضحكات التي لاحقتهما..

خرج كريم من الباب الخلفي للمسرح القديم ثم دفعها أمامه لتواجهه قبل أن يترك ذراعها وهو يقول من بين أسنانه هاتقًا بصوتٍ حرص على أن يكون خفيًا كي لا يسمعه أحد

- أي تصرفٍ أحرق هذا الذي قمت به لتوك!!!!!!..

وضعت كفيها على خصرها وقد غاب الضحك والهزل عن ملامحها وظهرت الجدية والتعالي الغاضب في تعبيرٍ متناقض مع الأصباغ الملونة على وجهها وكأنها انقلبت فجأة من دمية ضاحكة جميلة إلى امرأة قوية الشكيمة.. غاضبة وبشدة كغضب المخرج الواقف أمامها والذي لا يجرؤ أي من

فريقه على إثارة غضبه كما فعلت هي للتو!!

و مع ذلك لم يرف لها جفن ولم تجفل لغضبه.. بل قالت
بصلابة وجدية

- هذا هو ردي الذي لن تحصل على غيره كلما حاولت إخفاء
جزء مني، خجلاً وكأنني لا أليق بكم..

فتح فمه ينوي الصراخ بها غضبًا، إلا أنه تراجع في اللحظة
الأخيرة ليقف صامئًا تمامًا محددًا بعينيها الصلبتين..

فخلف قناع الصلابة استطاع أن يلمح جرحًا مختبئًا..
ربما لم يكن هو المتسبب الرئيسي في هذا الجرح، لكنها بكل
تأكيد وجدت له صدى في تصرفه..

حين تكلم كريم أخيرًا، كان صوته هادئًا وهو يسألها ببطء

- كل هذا لمجرد أنني قاطعت كلامك حين أوشكت على
ذكر فقرة تكتكة أمام أعضاء اللجنة المقيمة!!!..

برقت عيناها غيظًا ومهانة وهي تقول بنبرة مشتدة

- لقد قاطعته عمدًا كي لا يعرف أحد بوجود مهرجة في فريقك.. لاعبة حركات بهلوانية ربما، لكن مهرجة لا.. رغم أن فقرة تكتكة هي جزء من مهاراتي وطبيعة عملي، أي أنها نقطة كنت لأضعها في سيرتي الذاتية إن قررت يومًا ما تحضير واحدة لتقديمها أينما بحثت عن عمل..

إن كنت تخجل بطبيعة عملي في السيرك كاملة فلماذا طلبت مني الانضمام إلى فريقك!!..

ساد الصمت بينهما للحظات، يحدق بها بإدراكٍ جديد بينما تبادلته النظر بتحدٍ وحدة.. ثم تكلم أخيرًا قائلاً بهدوء

- يبدو أنني تسببت في جرحك يا دنيا...

هزت كتفها بلا مبالاة تدعي المهنية لا غيرها.. لكن ملامحها الصادقة ظهر عليها الموافقة فمال بوجهه قائلاً بلطف

- أنا أعتذر يا تكتكة.. لم أقصد مطلقًا أن أخفيك عن الأنظار

حرجًا منك.. فضلت فقط عدم استغلالك من البعض لإفساد العرض..

رفعت ذقنها وردت بجفاء - إذن فقد كنت مهتمًا بمصلحة العرض..

أوماً برأسه قائلاً بصوتٍ فاطر

- نعم يا دنيا، كل اهتمامي منصب على نجاح هذا العرض، لن أنكر هذا.. وقد كنت صريحًا منذ البداية.. هذا العرض هو تذكرة انتقالنا من على الهامش إلى مسرح الحياة من جديد..

رمقته بنظرة خاطفة ثم كتفت ذراعيها لا مزيد من الكلام لديها، فقد فعلت ما برأسها وشعرت بأنها أنقذت شيئًا من كرامتها وطببت الجرح قليلًا.. بينما انعقد حاجباه وهو يمرر عينيه على زيتها ثم سأل بدهشة واستياء

- كيف حصلت على هذا الذي يمثل تلك السرعة!!.. ألم ترحل عائلة سلطان في رحلة طويلة وأظنها تملك زي تكتكة!

مطت شفتيها في ابتسامة متحدية وهي ترد بخشونة

- أولا أنا أقطن بالجوار من المسرح، ذهبت بسرعة لأجلب
الذي وعدت.. ثانيًا لقد احتفظت بالذي لنفسي.. فهي جزء
مني أرفض أن يبقى للسيرك في غيابي، وخلال المرة الأولى
التي قررت فيها إيجاد هوية مستقلة لي.. إن رحلتُ رَحَلَتْ
وإن عدت عادت..

تنهد كريم وهو يشير بإصبعه إلى الأصباغ التي تلون
وجهها حد إخفاء ملامحه الحقيقية ثم سأل بجفاء

- وهل أنت من لون هذا الوجه أيضًا وبمثل تلك السرعة؟!

لم تملك منع الابتسامة من الظهور على شفتيها وهي تقول
رافعة حاجبها

- أستطيع رسم هذا الوجه خلال خمس دقائق، مهارة
جديدة من مهارتي، أنت خاسرها..

أخذ كريم نفسًا غاضبًا وهو يشير بإصبعه تجاه غرف تبديل

الملابس قائلاً بنبرة آمرة

- اذهبي لتزيلي كل هذا الهراء حالاً.. أريد أن أرى مهارة جديدة وهي رجوعك نظيفة الوجه ترتدين ملابس التمرين المناسبة خلال دقيقتين فحسب..

مطت شفتيها بامتعاض كما هزت كتفها تستفزه لكنها ابتعدت عنه تتجاوزه كي تلتزم بما قال فقد نالت ما تريد وانتهى الأمر.. إلا أنه تكلم من خلفها بصرامة مهنية جادة

- دنيا.. إياك وأن تقللي من احترامي أمام المتقدمين مجدداً.. لن أكون هادئ الرد المرة المقبلة..

هزت كتفها مجدداً مبتسمة ابتسامة عريضة دون أن تلتفت إليه، بل تابعت طريقها خارجة عبر ممر ضيق ينتهي لدى غرفة كبيرة تم تجهيزها لتبديل الملابس..

لكن في خروجها مر بها شابٌ رث الملابس لكن على الرغم من ذلك لم تر في مثل وسامته من قبل!.. تجاوزها ملقياً عليها نظرة مبهمة ثم تابع طريقه دون أن يعيرها اهتماماً

وكانها شابة عادية.. لا مهرجة ترتدي زي دمية بوجه ملون
وشعر من الصوف!!..

تباطأت خطوات دنيا بعد تلك النظرة الخاطفة حتى
توقفت مكانها شاردة العينين للحظة.. ثم لاحت ابتسامة
صغيرة هائلة على شفتيها الحمراءوين..

استدارت خلفها بتردد علها تراه مرة أخرى وأخيرة.. لكنه
كان قد اختفى في لمح البصر!..

تنهدت تنهيدة مضطربة والابتسامة لا تزال الزينة الحقيقية
لثغرها..

- ما هذه المفاجأة!!... هل يعقل أن تكون آتياً لتمنح شقيقك
الدعم!..

مط هشام شفتيه في ابتسامة ساخرة متلقياً التقريع
الخفي بين الأسطر في كلام شقيقه كريم والذي وقف

بجواره واضعًا كفيه في خصره.. فأجابه هشام مجيلًا عينيه
في المكان بعدم رضا

- الدعم الأمثل الذي تحتاج إليه هو أن يثنيك من يهتمون
لأمرك عن هذا الجنون الذي تسير فيه معمي العينين
والإدراك!..

تنهد كريم بصوتٍ عالٍ وهو يدير رأسه قائلاً باقتضاب

- هلا أخفضت صوتك قليلا وأنت تبث تلك الجرعة اليائسة
المتشائمة حيث يمكن لأي من المتقدمين أن يسمعك وأكثر
ما نحن بحاجة إليه حاليًا هو انعاش روح الحماس في صدور
الجميع هنا..

ارتفع حاجبا هشام وهو يقول مؤكدًا على كلام أخيه

- اعذرني.. قطعًا الحماس يعد عاملاً أساسيًا لمخرجٍ بدأ
إعلانًا يطلب فيه متطوعين لإقامة عرضٍ مسرحي راقص،
بعبارة

“ أنا يائس “!!..

جال بعينه مجدداً بين الوجوه المتقدمة المترقبة ثم قال
بصوتٍ خفيض هذه المرة لكنه مستاء بتعجب

- والنتيجة ما أراه!!.. ما تلك الأشكال التي تنوي منافسة
عرضك القديم بها!!.. ما تلك الأوزان والأجسام والتي لا
تحتاج إلى خبير مثلك.. بل يستطيع أي رجل جاهل بمجالك
مثلي أن يخبرك مقدماً دون الحاجة لأي تجارب إداء أن
المستوى سيكون في الحضيض.. وأنت لن تجني سوى
إحراج نفسك!!..

التفت إليه كريم قائلاً بصوتٍ أجوف يحمل الغضب بين
طياته

- إن كان هذا هو كل ما أتيت لقوله، فاطمئن.. لقد وصلت
الرسالة بوضوح تام.. ويمكنك الانصراف

اقترب منه هشام ممسكاً بذراعه ليقول

- يا كريم نحن لا نريد لك المزيد من الصدمات وهذه المرة الصدمة ستكون من فعل يديك.. فما الذي تفعله؟!..

تريد تقديم عرض من الهواء.. بداية من الصفرة، دون رعاة أو ممولين.. لا تملك سوى مجموعة من المهرجين محدودي الموهبة والمهارة!!.. والأسوأ من كل هذا أنه عرض سيتم تقديمه في حفل دولي يضم ذات العرض المدعم من قبل أكبر رجال الأعمال والذي يضم فريقًا تشهد بمهارته!! اسمح لي بأن أقول لك.. أنت.. تنتحر..

ساد الصمت بينهما طويلا وكلا منهما ينظر للآخر حتى قال كريم أخيرًا بصوت هادئ

- لا ينتحر من سبق اغتياله يا هشام.. الجميل في المغامرة أنني لن أجد قاعًا أدنى مما أنا فيه كي أسقط إليه.. ربما من الأفضل أن تغادر الآن قبل أن تدنس طاقة المكان..

إنه يقدر عمله حق تقدير.. لأنه لا يعتبر نفسه حرفيًا، بل

فنائًا..

سنوات طويلة في هذا المجال والذي ورثه أبًا عن جد حتى بات اسم عائلته معروفًا لكل من أراد فنًا لا خشبًا أصمًا لا يحكي قصة..

نظر حوله مقيمًا المكان بنظرة شاملة فلم يجد سوى مسرح قديم متهالك يتناسب مع المنشور الذي قرأه بعد أن اتفق على العمل بالفعل وانتهى الأمر..

حين جاءه من يتفق على ديكورات خاصة مستخدمة لمسرحٍ للتدريب استعدادًا لتنفيذ أخرى شبيهة في عرض دولي ضخم شعر بروح الحماس تملأه فهذا تحديدًا هو التتويج الذي أراده لعمله.. مستوى جديدًا يليق بما تقدمه ورشته من فنون..

لكن المنشور الذي قرأه بعدها ممن يفترض به أن يكون مخرج هذا العرض أطفأ بداخله كل حماس وأشعره بمدى اليأس المحيط بهذا العمل..

لقد أوشك على الاعتذار متفرغًا للعمل المتكدر في ورشته يحتاج شهوًا طويلة لإنجازه، لكن الفضول بداخله أجبره على المجيء عله يعثر على قبس من الحماس الذي كان..

أي مخرج بائس هذا الذي يكتب منشورًا أكثر بؤسًا ليطفئ أي وهج بداخل كل من تسول له نفسه مجرد التفكير في الانضمام لهذا العمل!!..

تنهد تنهيدة لا تحمل أي تفاؤل ناظرًا حوله عله يعثر على من يدلّه.. حتى توقفت عيناه على.. ما هذا!!..

ضيق عينيه قليلًا مدققًا النظر بشابة أو مراهقة تقف من بعيد تبدو وكأنها.. دمية؟!.. يصعب تحديد عمرها فهي لا تزيد عن كونها دمية لطيفة كتلك التي تلعب بها الفتيات الصغيرات!..

واضح أنها واحدة من الممثلين في هذا المسرح أو شيء من هذا القبيل.. كانت تقف شاردة وعلى شفيتها طيف ابتسامة..

عاد لينظر حوله باحثًا قبل أن يعود بعينه لِتَسْتَقِرَّانِ عليها
من جديد ثم نادى بصوت أجش يحمل هدوءًا ورزانة

- يا عروسة..

أجفلت تلك الدمية من شرودها لتلتفت محدقة فيه عن بعد
متسائلة.. فكرر بهدوء يشير لها بكفه أن تأتيه وكأنه معتاد أن
تمثل الفتيات الصغيرات لأوامره!

- أنتِ يا عروسة.. تعالي...

ارتفع حاجباها بعض الشيء قبل أن تشير إلى صدرها
تحاكي فيلمًا قديمًا وهي تقول بصوتٍ تمثيلي يليق بدمية أو
طفلة

- أنا عروسة؟!..

أشار إليها مجددًا كي تأتيه فارتفع حاجباها أكثر ثم رفعت
كفها في إشارة مماثلة وهي تقول بنفس الصوت وإنما بنبرة
استهجان

- تعال أنت!!...

انعقد حاجباه مرجعًا رأسه بعض الشيء إلا أنه زفر ببطء
ثم اقترب منها حتى وقف أمامها يرمقها بنظرة عابسة
متعجبًا من نفسه وهو يقف أمام فتاة دمية يكلمها ببساطة
وكأنه مشهد عادي يتكرر كل يوم!..

أخذ نفسًا عميقًا ثم سألها بصوتٍ رجولي يناسب الشيب
الذي بدأ في الظهور على جانبي شعره.. وفي لحيته الخفيفة

- هل تعرفين مكان شخص يدعى كريم لطفي؟...

كانت ممسكة بخصرها، نصفها السفلي يدور يمينًا ويسارًا
بطريقة طبيعية تمامًا.. كما لو كانت دمية بالفعل!!

مما جعله يعقد حاجبيه أكثر يود لو يأمرها بأن تتوقف عن
ذلك التشتيت المتسبب في زوغان البصر!..

أومأت برأسها ثم مالت للأمام بحركة دمية لها مفاصل

شبيهة بتلك التي يقوم بتثبيتها على الأبواب والنوافذ..
وأشارت بيدها لممر بعيد ثم قالت بصوت العرائس

- من هناك يمينًا ثم يسارًا ثم يمينًا ثم اسأل أول من تقابله..

أخذ نفسًا عميقًا آخرًا نافذ الصبر إلا أنه رفع كفه إلى جبهته
يحييها قائلاً باقتضاب

- شكرًا يا عروسة..

استدار لينصرف إلا أنها ردت بصوت الدمى - العفو يا
عريس...

توقف للحظة رافعًا حاجبيه ثم استدار إليها مقطبًا، بينما
وقفت تبادله النظر بابتسامة كبيرة ويداها في خصرها لا
تزال تدور نصف دورانٍ مشئت.. فهز رأسه قبل أن ينصرف
متذمرًا بخطواتٍ واسعة..

وقفت دنيا تتأمل انصرافه ثم كلمت نفسها بابتسامة أكثر
اتساعًا

- أنا عروسة!.. يا فرج الله، بشرة خيرا!..

استدارت بعدها تحت الخطى جريًا، متحمسة وفستانها
يقفز لأعلى وأسفل وكأنه يشاركها البهجة والحماس..

كل يوم في نفس الموعد وبالتحديد بعد خروج أمها مع
خطاب، يراها تظهر فجأة لتقف في الحديقة محدقة في
بوابة البيت!..

حين لمحها من نافذة غرفته أول مرة وقف يراقبها وكبت
بداخله هاجسًا عنيقًا يحثه على النزول لاعتراض طريقها
وكان كيانه يصرخ طلبًا لتلك التسلية الأقرب لرغبة غير
مفسرة بالنسبة له..

لكن بعد المرة الأخيرة وبعد تسببه في سقوطها على
درجات السلم وجد في نفسه بعضًا من خجلٍ كان يظن أنه
نفذ منذ سنين.. لقد خجل مما تسببه به.. لكنه لم يكن نادمًا
أبدًا لسقوطها على ركبتيه!..

حتى هذه اللحظة لا تزال الذكرى تجلب لشفتيه ابتسامة
وفي عينيه شروودًا.. وفيه نفسه اضطرابًا!..

ذلك التكوين الأنثوي البديع جالس على ركبتيه برقة لا
يطلب سوى أن يلفها بذراعيه.. يريحها على صدره!

أغمض عينيه يضغط أسنانه حتى بات صريرها مسموعًا..

لقد اضطرب لاقترابها منه على هذا النحو.. اضطرب للحد
الذي منعه من مشاكستها الأيام الماضية ما أن أحس بناقوس
الخطر يقرع بداخله..

حتى أنه بات يتجهم كلما نظر في مرآة وكأنه يلمح في
انعكاس عينيه ذاك الشيء الخطير..

وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في امتناعه عن
مشاكستها واعتراض طريقها لأيام.. وليس الخجل مما فعل!..

لكنها تأبى إلا أن تظهر له دائمًا كحورية من حوريات

القصص.. فحين قرر التزام جانبًا بعيدًا، بدأت في الظهور له في الحديقة..

واقفة على هذا النحو الغريب أمام البوابة!..

أول مرة ظنها ملت احتجاز نفسها في الغرفة وقررت التحرر من جدرانها أخيرًا والنزول للحديقة.. حيث ظلت واقفة لما يقرب من العشرين دقيقة ثم استدارت عائدة للبيت ولغرفتها بكل هدوء!

في اليوم التالي ظهرت له مجددًا بنفس الوقفة، والصراخ في نفسه يزداد دويًا لينزل إليها لكنه قاوم ووقف في النافذة يراقبها حتى رأى فتحية تقترب منها لتقف بجوارها تربت على كتفها تكلمها برفق دون أن يسمع الحوار الدائر بينهما حتى أبصرها تمسك بذراع زاد وتسحبها للداخل بتريث دون مشاكل..

ذلك اليوم لم يستطع منع نفسه من سؤال فتحية عن سبب وقوف زاد بذلك الشكل مدعيًا أنه رآها بالصدفة وانتابه الفضول..

ورغم أن نظرات فتحية له لم ترقه وكأنها تكشف بحدسها
ذاك الاضطراب الحديث الذي يداخله ويخص الشابة
الجديدة الوافدة على هذا البيت.. غريبة الأطوار على نحو
خاص..

إلا أن فتحية جاوبت فضوله بأنها تقف لتستنشق بعض
الهواء كل يوم.. مرة على السطح ومرة في الحديقة!..

الجواب لم يقنعه مطلقًا.. إنها تخادع عقل فتحية البسيط
وقلبها الطيب فحسب!..

وها هو يوم جديد تظهر له الحورية واقفة تحديق في
البوابة، تتقدم منها خطوة ثم تتراجع خطوتين وكفيها في
جيبى سترتها الرياضية ذات القلنسوة التي تغطي رأسها..

ضاقت عيناه حين بدأت في التقدم هذه المرة دون توقف
أو تراجع.. صحيح أنها تتحرك ببطء شديد إلا أنها على الأقل
لا تتراجع ولا تدير رأسها.. فأمامها هدف واحد تريد أن تصل
إليه وتجتازه.. البوابة!

تحركت شفتاه ليهمس بشبه ابتسامة متلاعبة تملأها
الصدمة

- إنها تحاول التسلل خارجة دون علم أمها!!...

صمت للحظة والابتسامة تزداد خبثًا والبريق في عينيه
يضوي ثم تابع هامسًا ببطء

- يا للمشغبة الصغيرة!!..

لماذا ترفض الاقتناع بأنها عاجزة عن القيام بهذا؟!..
الخروج من البوابة أمر مستحيل بالنسبة لها بعد كل هذه
السنوات!..

كيف إذن والاختلاط بالناس وعلى وجهها هذا القناع؟!..

أطرقت بوجهها تحقق أرضًا بيأس.. لقد كادت أن تنجح
وتخطاها.. لقد كادت أن تنجح اليوم.. كادت..

ثم توقف.. وها هي ستعود أدراجها..

استدارت لتعود إلى ملجأها لكنها اصطدمت بالكائن المائل
خلفها مبتسمًا بعينين تلمعان شرًا خبيثًا

انتفضت زاد شاعرة بأن قلبها توقف للحظات حتى بدأ
عقلها في الاستيعاب وإعطاء الإشارة بهوية مقتحم خلوتها..

إنه ابن صاحب البيت.. مجددًا

هتفت زاد فجأة بغضب قبل أن تستطيع منع نفسها - هلا
توقفت عن الظهور لي فجأة كالوطواط!..

اتسعت عيناه فأدركت على الفور أنها صرخت في وجهه
مما جعلها تتراجع للخلف مصدومة من نفسها، أما هو فبعد
الصدمة الأولى بدأ في التبسم بنفس الطريقة المتلاعبة
وكأنه يتسلى باكتشاف كل يومٍ شيء جديد فيها!..

تكلم سائد قائلاً بهدوء لكن السخرية وصلت أذنيها واضحة

- يا لك من فتاة غير مهذبة!..

اضطربت ملامح القناع على الفور، أو هكذا رآه.. خاصة حين أخفضت وجهها تتمتم بصوتٍ

- آسفة.. لم أقصد.. لقد كنت..

قاطعها سائد قائلاً بنبرة غليظة

- يخرج المرء في أمان الله، قاصداً عمله.. وحين يفكر في إلقاء التحية بكل تهذيب واحترام وبما تقتضيه الأصول، يكن جزاءه الإهانة!!..

ازداد ارتباكها وكأن القناع شفافاً، يمكنه من رؤية اختلاج التعابير فوق ملامحها..

لم يسبق له أن رأى شابة مهتزة الأعصاب، متناقضة المشاعر إلى هذا الحد.. ومع ذلك لم يرها فعلياً بعد!..

تمتت زاد بصوت أكثر ارتباكاً

- أنا... آسفة.. أرجوك تفضل، لا أريد أن أعطلك عن عملك أكثر..

دس كفيه في جيبى بنطاله ثم رفع رأسه يسألها بنبرة آمرة
متسلطة وكأنها لم تقل شيئاً

- لماذا تقفين بهذا الشكل؟...

بدا وكأنها اضطربت فتراجعت خطوة أمام لهجته المباشرة
ثم تكلمت بصوت متعثر وكأنها تحاول التبرير

- كنت.. كنت أستمتع ببعض الهواء فحسب..

رفع حاجبًا واحدًا وقد علت وجهه ملامح الجدية بعد أن
اختفت ابتسامته وكل أثرٍ للتسلية فقال بنبرة جافة

- تلك التبريرات الواهية يمكنك أن تخدعي بها عقل
فتحية.. إنما ليس عقلي، إلى أين كنتِ تنوين التسلل هاربة يا
زاد؟..

اتسعت عيناها من خلف القناع بتوتر، إلا أنها هتفت
متلثمة مدعية الغضب ولم تنجح فيه

- أنا لا أخدع أحدا.. كما.. كما أنني لست مطالبة بتقديم أي
تفسير لك..

أوماً بوجهه قائلاً بكل بساطة وإن كان قد غلب التسلط
على نبرة صوته وهو يقول بجفاء

- حسناً لا بأس.. سأترك الأمر لأمك عليها تستجوبك بنفسها
حين تعلم بتسلك كل صباح بعد خروجها..

كما صدق ظنه فإن تهديداً تافهاً كهذا بالنسبة لشابة
تجاوزت الثامنة والعشرين من عمرها.. إلا أنه زاد من خوفها
وتوترها مما أكد له أن العلاقة بين زاد وجيهان تعاني خلا
يصعب إصلاحه..

تكلمت زاد باختناق تزدرد لعابها

- لا تفعل.. أرجوك..

أراد أن يسألها- لماذا؟ مباشرة ودون لف أو دوران، لكنه عرف أنها ستكذب بطريقة أو بأخرى..

لذا اتبع وسيلة أخرى أكثر صبرًا وتمهلًا فقال بهدوء بعد فترة صمت محذراً

- قد لا أفعل.. في حال إن كنت صريحة معي وأخبرتني عما تودين فعله.. أو المكان الذي تنوين التسلل إليه..

ازداد انخفاض وجهها حتى بات لا يرى منها سوى قمة رأسها الناعم، وظن أنها ستطيل الصمت أكثر.. إلا أنها ردت بخفوتٍ شديد

- لا داعي للقلق.. في الواقع كنت أريد سؤالك عن.. حين أتيت إلى هذا البيت أول مرة، وصلت بسيارة خصصها والدك لإيصالي.. بالسائق.. كنت أريد.. كنت أحتاج السيارة.. بالسائق..

ضاقت عيناه وهو يحاول فك الشفرة من كلماتها المتقطعة وحين صمتت تمامًا سألها ببطء

- لما لا تطلبين من خطاب نفسه؟..

لم ترد على الفور، بل همست بعد فترة بصوت ضعيف

- لا أريد استجوابًا منه.. سيعقبه حتمًا رعبًا وصدمة من أمي.. لا قبل لي على الضغوط التي ستحيط بي بلا شك.. على الأقل خلال المرة الأولى لخروجي وحيدة..

المرة الأولى لخروجها وحيدة!!!!..

هذا يعني أن احتجازها القسري لنفسها في غرفتها لم يكن حديث العهد!..

النهم بداخله لمعرفة كافة تفاصيلها الغامضة يكاد أن يصبح جوعًا شرسًا.. وعلى الرغم من ذلك بدا هادئ الملامح تمامًا وهو يدقق النظر بها متأملًا مفكرًا ثم سألها باهتمام

- ألا تستطيعين استقلال سيارة أجرة؟..

ظلت صامتة وهي تفرك أصابعها لفترة ثم قالت ببطء

- أريد.. السائق.. أريده أن يكون معي

تثق في السائق ولا تثق في أحد!!!.. ربما كانت الثقة في مطلق غريب في الوقت الحالي أهون بالنسبة لها من استجواب القريب!!.. تحتاج لوجود السائق إنسانًا معها، لا مجرد سائق!..

ساد الصمت بينهما طويلاً حتى رفع ذقنه قائلاً بحزم وكأنه اتخذ القرار دون حتى التحلي باللياقة لاستشارتها

- حسناً إذن.. يبدو أنه يوم حظك أيتها الشابة، تعالي سائقك بنفسه في طريقي للعمل..

رفعت وجهها إليه مصدومة بعينين واسعتين ثم لم تلبث أن رفعت كفيها علامة التراجع هاتفة بتوتر

- لا لا أشكرك.. لقد غيرت رأيي.. أنا قررت ألا أذهب لأي مكان..

كانت قد بدأت في الهرب فعلا متراجعة للخلف، لذا لم يفكر طويلا قبل أن يمد يده ليقبض بها على كفها يمسكها ويقربها خطوة.. ثم قال بهدوء أمام عينيها الواسعتين

- ستخرجين يا زاد..

لم ير فمها الفاجر بنفس متقطع تحت القناع، لكنه أحس باختلال النبض تحت أصابعه وهو يسحبها بالقوة خلفه متجهاً بها إلى سيارته..

وفي اللحظة التي تجاوزت فيها السيارة البوابة المفتوحة، التفت إليها وهي تجلس قربه متشنجة متسارعة الأنفاس وكأنها لا تصدق التهور الذي قامت به.. فابتسم قائلاً بصوت هادئ خفيض

- ابتسمي يا زاد.. فقد تجاوزت البوابة للتو.. وفي وضح النهار..

- وكأنها لم ترى الدنيا من قبل!..

وكانها لم تر الطريق أبدًا.. وكأنها لم تر الدنيا من قبل..
وكانها لم تعيش حياة مطلقًا..

كانت تتصرف بغرابة، مُلْتَفِتَةً بكليتها للنافذة المجاورة لها،
تراقب الطرقات في ضوء النهار برهبة..

أرادها أن تتكلم لكنها كانت كمن يعيش دنيا غير تلك الدنيا
التي عرفها سابقًا.. فاكتفى لفترة بأن يحل فيض المشاعر
المتناقضة بداخله في تلك اللحظة

كره الاعتراف لنفسه أن غضب مستتر قد انتابه ما أن تفاجأ
بها تحاول التسلل للخروج دون معرفة أمها.. وهذا لم يلق
بالنسبة له سوى تفسير واحد.. أنها على وشك مقابلة أحدهم
والذي لن يكون سوى رجل ما!.. طالما أن الأمر يحتاج لكل
هذا القدر من التستر والخروج خلسة!.. كره ذلك الغضب
الذي اجتاحه!.. وكره التوتر الذي لف مشاعره وقتها!

ثم بدأ الارتياح ينتشر بداخله بفرحة غامرة ما أن ثبت له

خطأ ظنه.. وأيضًا توتر لتلك الفرحة الغير مفسرة!

الآن وهي تنظر للطريق من النافذة بكل تلك اللهفة شعر
وكان.. وكان قبضة تضغط صدره.. موضع القلب مباشرة!

التفت إليها مرة أخرى بنظرة خاطفة ثم سألها بنبرة هادئة
كي لا تجفل كغزال بري مستعد للفرار في أي لحظة

- هل تلاحظين تغييرًا كبيرًا في الطرقات؟..

لم تفتن إلى الفخ الذي قادها إليه بسؤاله العفوي فالتفتت
إليه وهتفت برهبة

- بل تغييراتٍ ضخمة!.. لا أكاد أتعرف على شيء واحد!..

أعاد عينيه للطريق بتعبيرٍ هادئ ثم سألها ببساطة

- وكأنك كنت في الخارج لوقت طويل إذن..

التفت إليها حين ظلت صامتة لا تنظر إليه، بل تنظر أمامها

دون حركة.. إلا حلقها الذي تحرك بضعفٍ قبل أن تهمس ببطء

- ثماني سنوات..

ثماني سنوات.. أهو عمر زواجها؟!.. ترى من يكون زوجها السابق وكيف كان زواجها.. ولما لم يكتب له النجاح؟

أسئلة كثيرة يعرف جيدًا أنه لن يحصل على أجوبة لها من زاد.. أو أجوبة صادقة على الأقل.. لذا عاد ليلزم الصمت مجددًا وشعر براحتها الجمّة لذلك..

مع سيرهما بالسيارة في الطرق كان يلاحظ النظرات الفضولية من ركاب السيارات المارة بهما ما أن يلحظوا أن الشابة بجواره تضع قناعًا تنكريًا يخفي وجهها!..

لكنه لم يهتم.. شعر أن الإنجاز الذي حققه في تلك اللحظة يفوق أي شيء آخر، فالفتاة غريبة الأطوار الساكنة بيتهم، تجلس بجواره في سيارته بعد أن نجح في شدها لخارج البوابة التي تمثل لها حاجزًا مجهولاً..

ربما لا يعرف عنها تفاصيل كثيرة.. بل لا يعرف عنها أي شيء على الإطلاق إلا ما يراه منها فقط.. القناع

و مع ذلك يجزم أنه حقق إنجازًا ليس بالهين ..

أوقفتها بعد فترة لجنة مرورية مما جعل سائد يبطل سرعة السيارة فهتفت زاد بجزع

- ماذا.. ماذا حدث؟!..

رمقها بدهشة ثم أجابها بصوتٍ لطيف يهدئها - اهدئي.. مجرد لجنة مرور.. لن يمسك سوء

اقترب ضابط منهما منحنياً للنافذة المجاورة له وعلى الفور وكما توقع سائد كان أول ما لفت نظره هو مظهر زاد الغريب فسأل على الفور بنبرة مشككة

- لماذا ترتدي الأستاذة قناعًا بهذا الشكل؟!..

أجابه سائد وهو يخرج رخصة القيادة وبطاقة هويته عله

يصرف انتباهه عنها

- لا تفضل التعرض للشمس.. تفضل..

نظر الضابط للرخصة وبطاقة الهوية بتدقيق، لكنه عاد ورفع عينيه إلى زاد قبل أن يقول

- ارفعي القناع رجاءً..

شعر بها سائد تتراجع للخلف حتى التصق ظهرها بالباب خلفها، فقال بنبرة فظة

- لا أظن أن هناك قانونًا يمنع أحدًا من وضع قناع!..

أجابه الضابط قائلاً ببساطة

- بالطبع لا.. لكن نظرًا لغرابة المظهر تستطيع النزول لتتفقد هويتها الخاصة ثم يمكنكما الانصراف على الفور..

أغمض سائد عينيه ضاغطًا على أسنانه للحظات ثم استدار

ليواجه زاد قائلاً يخاطبها بخفوت

- طالما خرجت للطريق ستضطرين لرفع القناع كثيرًا لتفقد هويتك.. هل يمكنك فعل هذا؟..

استطاع أن يلمح العينين الواسعتين تمتلآن ألمًا وهما تتحركان من عينيه إلى الضابط المنتظر خلفه ثم أطرقت بوجهها صمًا

فرمقها سائد مفكرًا قبل أن يلتفت للضابط قائلاً بثبات

- هلا توجهت للنافذة المجاورة لها من فضلك...

نظر إليه الضابط بتشكيك، فتابع سائد قائلاً بنبرة ساخرة - لن أقوم بحركة مراوغة لأفربها..

دار الضابط حول مقدمة السيارة فنظر سائد إلى زاد وقال باقتضاب

- يمكنك الاستدارة إليه ورفع القناع عن وجهك.. لن أرى

شيئاً أما بالنسبة له فلن تربيه مجدداً..

تطلعت إليه العينان النَجْلَاوَتان بغرابة حتى أن موقفه بدد القليل من الألم لتحل معه الدهشة.. لكن قبل أن تنطق بأي رد كان الضابط قد وصل إليها فاستدارت تعطي ظهرها لسائد..

إن كان قد احترم جرحها وعدم رغبتها في ألا يطلع عليه أحدٌ يعرفها.. لكنه ركز عينيه على الضابط الذي ما أن رفعت له القناع بحرص كي لا تتفكك أربطته، حتى بهتت ملامحه بما لا يدع الشك فيما رآه ثم استقام ببطء قائلاً بصوتٍ خافت

- تفضلاً....

أعادت زاد القناع إلى وجهها ثم تراجعت في مقعدها مكتفة ذراعيها دون أن تنطق بكلمة...

نظر إليها سائد لفترة بلامح جامدة وعينين قاتمتين ثم حرك السيارة مبتعداً بها مدرّجاً أنها فقدت روح الحماس والترقب التي خرجت بهما من بوابة البيت..

ربما يومًا ما سيعرف ما أصاب وجهها.. ربما يومًا ما سيرى
وجهها .

حين أوقف سيارته أمام العنوان المطلوب ثم نظر إليها
قائلًا بجفاء

- ها قد تجولت بالسيارة لبعض الوقت ورفهت عن نفسك..
والآن لأعيدك للبيت وكفى جنونًا..

هتفت بسرعة مجفلة - لا، لقد خرجت كي آتي إلى هنا.. وها
نحن قد وصلنا..

أجابها متجهماً وبنبرة فظة غير راضية

- إلى أين وصلنا تحديدًا يا زاد؟!.. صحيح أنك كنت في
جرة ثم خرجت منها!.. إما أن تحتجزين نفسك في غرفتك
بالأسابيع ترفضين أن يراك أحدًا وإما أن تتبعي إعلانًا
مجهولًا مشبوهًا لا يخاطب إلا العاطلين فاقدى الأمل؟!..

أنا أكره التطرف في التصرفات وأنتِ سيدة التطرف كما
تبين لي حتى الآن..

تحركت عضلات عنقها بتشنج منتظرة أن ينتهي من
تقريبه والذي بدا منطقيًا جدًا.. لكنها همست ببطء وتردد
محدقة بعينه

- ما.. ما كنت لأخرج من البيت لو لم أر هذا الإعلان.. أتراهم
سيسخرون من شكلي؟..

تأملها والتجهم لا يزال السمة المميزة لملامحه، لكن بدا في
عينيه تعبيرًا أقل حدة.. أقرب للهدنة.. ثم سألها بصوتٍ أجش
هادئ

- وإن فعلوا!... هل أنتِ على استعداد لتحمل شيء كهذا؟!..
بإمكان الآخرين أن يكونوا شديدي القسوة

ساد الصمت للحظات وهي تحقق فيه ثم همست بخفوت

- ربما أنا الوحيدة التي سيكون من العدل معاملتها بالقسوة.. أنا أستحق هذا..

انعقد حاجباه بشدة وهو يهمس مستنكراً

- أي غبي أقنعك بهذا!!!...

كان باستطاعته رؤية العينين الواسعتين من خلف القناع وهو على هذا القرب منها، كانتا قناعاً خلف القناع..

تخفيان الكثير لكن ليس بالمهارة المطلوبة، فمن ينظر إليهما يدرك ألماً.. خوفاً.. عجزاً..

همست زاد ببطء وفتور

- أنا غبية.. هذه حقيقة..

طرف بعينه وهو يهز رأسه يأساً منها ثم رفع كفه قائلاً
بعنف

- أنا لن أجادلك الآن.. فهذا ليس الوقت أو المكان المناسب لذلك.. إن أردت التجربة وتعريض نفسك لشيء قاسٍ عن اقتناع فافعلي.. الباب مفتوح يمكنك الخروج

لكنها لم تتحرك، بل ظلت جامدة في مكانها محدقة فيه وأصابعها تتشابك في حجرها.. ثم سألت بضعف وتردد

- هل تأخرت كثيرًا عن عملك؟..

لم تلن ملامحه وهو يجاوبها بجفاء - لماذا تسألين؟!..

بدت أكثر ارتباكًا وهي تضغط أصابعها ثم طلبت.. لا تكاد أن تصدق نفسها وصوتها

- هلا.. أتيت معي؟...

للحظات ظل وجهه مكفهرًا متجهماً.. لكن فجأة بددت ابتسامة ممازحة بدأت في الظهور على فمه الكثير من العنف المترسب فوق زوايا ذلك الوجه القاسي ليقول بتشدق وغرور

- ظننتكِ لن تسألي أبدًا!!!.. ما كنت لأتركك للمجهول، ففي
النهاية أنتِ ابنة زوجة صاحب البيت.. أمانة مضطرين
لإعادتها سالمة كما استعَرناها

انخفض وجهها قليلًا.. لكن ما أذهله، أنه تخيل ابتسامة
ترتسم على ذلك الثغر القاسي المنحوت في قطعة جماد
صلبة!!

وكان التخيل أقرب ما يكون للحقيقة!!

يبدو أنه لم يكن يائسًا تمام اليأس.. لأنه الآن يائسٌ بشكلٍ
قاطع، لقد كان لديه القليل من الأمل المتبقي وها هو قد
تبدد..

الوقت يمر وما ينقصه لم يكتمل بعد.. لقد تقدم الكثير، أكثر
مما تخيل بعد إعلانه اليأس..

يبدو أن هناك خارج هذا المسرح ملايين اليائسين فاقد

الأمل ممن هم على هامش الحياة وقد لاقى إعلانه استجابة
لديهم

فجاؤوا وفودًا.. وبعد سلسلة طويلة من تجارب الأداء
استقر على من وجد فيهم بذرة للنجاح الذي يطمح له..

لكن هناك شيء ناقص.. شخص ناقص.. أو نصف بالكمال
ينقص..

ليس كل ما يبحث عنه المهارة أو الموهبة.. فالصفتين
اختار على أساسيهما معظم الفريق حتى الآن..

لكن هناك بطلتان لعرضه لا يكفيهما أن تتحليا بالمهارة أو
الموهبة فقط.. يحتاج شيء لا يستطيع وصفه لكنه يدركه
بإحساس خبير.. ربما كانت روح معينة قادرة على جذب
الأنظار وإثارة انتباه العقل والمشاعر سويًا..

إحدهما كانت دنيا.. وكم كان محظوظًا حين عثر عليها
فلمع بداخله شيء أجبره على وضع الإعلان والنهوض على
قدميه من جديد..

هذا هو ما كان يقصده.. ذاك التأثير الذي يبعث في النفس
أثرًا.. بعيدًا عن الجمال التقليدي ورشاقة الحركات المحفوظة
الرتيبة..

هناك نصف ناقص ليكمل دنيا.. فيصبح لديه الشيء الكامل
الذي يبحث عنه

زفر شاعرًا بالاختناق وهو يستند بمرفقه إلى ظهر كرسي
خشبي فوق خشبة المسرح متجهم الملامح شارد الذهن..

وقع خطوات بطيئة مترددة من خلفه تقترب منه أثارت
انتباهه وغضبه سويًا.. يعرف تلك الخطوات المترددة..

متقدمة جديدة لتجارب الإداء تفتقر للثقة، تود لو هربت
قبل أن يلتفت إليها.. كتم زفرة أخرى بأعجوبة، فهو الذي
أعلن عن حاجته لليائسين البائسين منذ البداية فلا يلومن إلا
نفسه..

وقفت صاحبة الخطوات خلفه تمامًا ثم.. لا شيء..

لم تتكلم.. لم تنطق.. ولم تستدر حتى لتهرب!.. على الأرجح أنها تقف خلفه باكية تود العودة إلى أمها هربًا من المخرج الشرير!..

تنهد تنهيدة طويلة ثم تكلم قائلاً بصوتٍ حازم جاف

- هل ستقفين صامتة طويلاً؟!..

يبدو أنها أجفلت وتوترت.. لكن حين ردت، خرج صوتها على عكس ما تخيل، فقد كان صوتها فاتراً.. مبحوخاً وله صدي أجوف.. وكأنها لا تبالي بالعالم ومع ذلك بدا وكأنها لا تجد مفراً من القدوم!!

- أتيت لتجربة الأداء.. بحسب الإعلان الذي نشرته..

ضاقت عينا كريم للحظة، ثم استدار في كرسيه ليواجهها ثم تسمر رافعاً حاجبيه ببطء..

ساد الصمت لفترة طويلة ثم لم يلبث أن قال بصوتٍ بارد قاسٍ وكأن فيها ما أشعره بالاستفزاز

- تلك الحركات لا تلفت نظري.. اخلعي القناع رجاءً..

لم يبدر منها ما يدل على أنها قد سمعت ما نطق به أو ربما سمعت ولم تعره أي اهتمام!!..

ظلت تلك الشابة الممشوقة واقفة أمامه بثباتٍ مشبكة أصابعها، تغطي وجهها بقناعٍ أبيض ورأسها بقلنسوة السترة الرياضية السوداء التي ترتديها!!..

نهض كريم من مكانه ببطء وعيناه عليها عابس الوجه ثم سألها بصوتٍ جاد صارم

- أهذا تحدٍ أم استفزاز لي كمخرج كي أقبل بك في النهاية!!..

تحرك حلقها رغم أنها بقت واقفة على ثباتها ثم ردت بنفس الصوت الفاتر المبحوح بلا تعبير محدد

- لا هذا ولا ذاك.. أنا لا أخلع القناع مطلقًا.. حتى لو تم قبولي فلن أخلعه خلال تدريباتٍ أو عرض..

ساد الصمت التام بين المتواجدين من الفريق والمساعدين
وكأنها أثارت اهتمام الجميع كما أرادت بقدومها بهذا القناع
السخيف!.. لا لن يمكنها من هذا..

نظر للمتواجدين مبتسمًا، ثم ضحك بخفة مما تسبب في
أن يتجاوب معه البعض ضاحكين وكأنهم قرأوا الفكاهة في
الموقف

ثم أعاد عينيه إليها ولوح بكفه قائلاً بتهذيب دون أن يفقد
ابتسامته

- أنا آسف.. أنتِ غير مقبولة، حظًا سعيدًا في مكانٍ أفضل..

ثم استدار مبتعدًا عنها وكأنه اكتفى..

حركت زاد وجهها بضعة درجاتٍ حتى نظرت إلى سائد
والذي كان واقفًا من بعيد، كفيه في جيبه يراقب ما يحدث
بملامح قاتمة..

فلم يساعد ولم يتحرك.. وكأنه يخبرها بعينيه إن لم تدافع
عن نفسها فلن يتكلف عناء الوقوف والتصدي لأجلها..

أعادت وجهها تنظر لظهر كريم وهو يبتعد ثم قالت بصوتها
الأجوف دون أن يرتفع أو ينخفض

- لم يكن ينبغي أن تنشر إعلانًا لا تقصد كلماته حقيقة..

توقف كريم في منتصف المسرح للحظة وقد تضاعف
الاهتمام من حولهما حتى تحول الجو إلى سحابة مشحونة
بالتوتر..

ثم استدار إليها ببطء دون أن يتكلم وكأنه كان منتظرًا منها
أن تتابع.. فنظرت إلى سائد مجددًا.. وكل ما فعله هو أنه رفع
إبهامه لها من بعيد بملامح ثابتة قوية..

فأدارت عينيهما لكريم وتابعت تقول بفتور

- لقد طلبت اليائسين ومن هم على هامش الحياة.. حتى
أنك قللت من أهمية الأوزان والأعمار رغم أنها الأساس..

لقد شجعتنا كلماتك على الحضور كي يتغلب كل منا على
النقص بداخله.. لكن اتضح لي أن كلماتك لم تكن تشجيعًا بل
سخرية..

أنا أمتلك وجهًا بشعًا.. ما كان علي تصديق إمكانية تحقيق
شيء مع وجه كهذا، ما كان علي تصديق كلمات الإعلان..

تسارعت نبضات قلبها بشدة مؤلمة للدرجة التي جعلتها
تصمت عاجزة عن المتابعة، لكن عامة لقد قالت كل ما لديها..

استدارت تنظر لسائد.. لا يزال متجهما وبشدة، إلا أنه رفع
كفه لها وكأنه يدعوها أن تأتيه..

وكادت أن تفعل لولا أن قال كريم باقتضاب

- اسمعي يا.. ما اسمك؟..

أجابته بصوتٍ خفيض - زاد....

كرر يومئ برأسه - زاد.. اسم جميل.. اسمعي يا زاد، أنا آسف

إن كان كلامي قد جرحك.. لكن مهما بلغت بنا درجات اليأس
إلا أننا مضطرين في النهاية على تقديم عرض على مسرح..
لا نقدر على التخلي عن وجوهنا خلاله..

انخفض وجهها أمامه ثم أومأت واستدارت لتغادر.. إلا أن
صوتًا نسائيًا قويًا ارتفع ليقول بصرامة

- ستخوض تجربة الإداء على الأقل!!... ربما جاءت من
مكان بعيد، لا يحق لك إرسالها بهذا الشكل المهين!!..

ضغط كريم أسنانه من الغيظ والغضب قبل أن يقول
بصوت عالٍ صارم

- لا تتدخل في هذا يا دنيا...

نهضت صاحبة الصوت من على الأرض حيث كانت جالسة
واقتربت منهما بملامح صلبة وقالت بتحدٍ

- يجب أن تنال الفرصة كما نالها الجميع.. لقد سمحت
لبعض المتقدمين بخوض تجربة الإداء رغم أن مستواهم

كان عارًا على خشبة هذا المسرح.. إذن فستنال هي الفرصة
مثلهم حتى وإن اختارت القناع..

برقت عينا كريم بوحشية مستعدًا لأن يقتلها على تجرأها
عليه أمام الجميع ثم همس من بين شفتيه بفحيحٍ غاضب

- إن كنت عاجزة عن احترام المكان الذي تقفين فيه
فلتنصرفي الآن يا دنيا..

لم يحتج أن يكرر تهديده فقد لوحت بكفها قبل أن يتم
كلماته حتى وهي تقول بصلاية ولا مبالاة

- سلام عليكم إذن..

نظر إليها في ابتعادها بخطواتٍ قوية دون تردد فصرخ
بغضب

- توقفي مكانك يا دنيا..

وقفت بالفعل ثم استدارت إليه آمرة بجدية- إن لم تخض

تجربة الأداء كأي واحد منا فسأغادر معها..

أطبق كريم عينية بشدة وهو يضغط أسنانه حتى بات صريرها مسموعًا في سكون الصمت المتوتر ولكي يخفي الشعور بالإهانة الذي طاله استدار إلى زاد وسألها بجفاء وصرامة

- متى كانت آخر مرة وقفت فيها على مسرح؟..

توتر جسدها إلا أنها ردت بخفوت وانقباض- منذ أكثر من ثماني سنوات..

تأوه كريم تأوّهًا مكتومًا فتابعت تقول بسرعة- لكنني لم أتوقف عن رقص الباليه مطلقًا...

نظر إليها كريم يائسًا متبلد الملامح إلا أنه سألها بجدية- من كان مدربك خلال تلك الفترة إذن؟..

بدا وكأنها أجفلت للحظة، ثم قالت بصوتٍ مضطرب- لم يكن لي مدرب...

لم تر وجه سائد الذي تقلص مضيقًا عينيه متذكرًا حديثهما
العفوي عن المدرب.. لقد لاحظ توترها حينئذ كما لاحظته
الآن..

ليست المرة الأولى التي تقفين فيها على خشبة مسرح..
لكنها آخر مرة كانت منذ زمن بعيد.. بعيد جدًا

ارتفع صوت موسيقى ناعمة فأخذت نفسًا عميقًا قبل أن
تبدأ.. لكن ما أن رفعت إحدى ساقيها حتى ارتبكت وتعثرت
فحطتها أرضًا..

أغمض كريم عينيه بينما عادت زاد لموقعها كي تبدأ من
جديد.. هذه المرة نجحت في بضعة حركات بسيطة إلا أنها
كانت بطيئة غير مؤثرة وقبيل نهايتها تعثرت مجددًا وهي
تشعر بالجميع يحدقون بها وبالقناع!..

هذه المرة كان سائد هو من أغمض عينيه، يزم شفتيه
مشفقًا عليها من ذلك الضغط النفسي الذي تُعرض نفسها له

دون جدوى

بدأت المحاولة الثالثة لكن كريم قام من مكانه مشيرًا لإيقاف الموسيقى ثم وقف أمامها مخفضًا رأسه ليقول بهدوء

- اسمعيني.. حين ذكرت في الإعلان أنني مستعد للقبول، لم يكن معنى هذا أن الوضع سيستمر.. بل كان المعنى الحرفي هو التسليم لعذاب جسدي شاق من خلال تدريباتٍ عنيفة خلال الأشهر المقبلة.. نحن في حاجة لمن يتحمل الضغط يا زاد، بكافة أنواعه

استدار ليغادر وكأن الحوار قد انتهى لكن زاد صرخت من خلفه فجأة

- أنا أكثر من يمكنها تحمل كافة الضغوط..

تنهد كريم تنهيدة فاقدة الصبر بينما نهض سائد من مكانه ينوي سحبها للخارج بالقوة إن اقتضى الأمر ولو اضطر لحملها على كتفه..

لكن زاد تابعت بصوتٍ متعثر صارخ

- أريد موسيقى ذات إيقاع سريع قوي.. أرجوك..

بدا رجاؤها الأخير مثيرًا للشفقة إلى حدٍ كبير، مما جعل الجميع يشفقون على حالها بأسى.. فما كان من دنيا إلا أن نهضت من مكانها متذمرة بملامح حانقة.. فتوجهت لمشغل الموسيقى وظلت واقفة بجواره حتى تم اختيار موسيقى ذات إيقاع عنيف..

ثم استدارت إلى كريم هاتفة بغضب

- اجلس بالله عليك.. أنت توترها.. كلما تعاونت، كلما ساعد هذا في إبعادها من هنا، فكر بتلك النظرية ليرتاح عقلك المتحفز

رمقها كريم ببلادة شاعرًا بفقدان الأمل من تنبيهها للمرة الألف لضرورة احترامه أمام الجميع..

بدأت الموسيقى العالية تصدح بين جنبات المسرح

وكانت زاد قد وصلت إلى قمة انهيارها النفسي وعضًا عن الاستسلام بدأت الرقص متتبعة الخطوات السريعة فأخذت تدور تدور تدور بكل قوتها وسرعتها وكأن طاقة جبارة قد تملكها فجأة حتى أنها كانت تصرخ مع كل قفزة بجنون.. وجاءت صرخة قوية منها وكأنها تعاني بشدة

- أستطيع التحمل أكثر..

حتى انتهى كل شيء كما بدأ وسكتت الموسيقى فحطت على الأرض أخيرًا لاهثة..

لم تدرك أن القلنسوة كانت قد وقعت عن شعرها الجميل الطويل.. لكن ما لفت النظر لها لم يكن شعرها..

بل تعمدها ربط القناع بعدة أربطة حول رأسها تحسبًا لوقوعه خلال خوضها لتجربة الإداء..

مثبت بأربع أربطة طولية وأفقية خلف رأسها!!..

وكأنه لجأًا يلف وجهها!.. أتراه تشوهًا يستحق كل ذلك

العناء والمهانة لإخفائه.. أم أنها تخفي عذابًا أفظع ولومٍ أبشع!

أظلمت عيناه وصدره يضيق أكثر.. أظلمت عيننا سائد وهو يراقبها من بعيد قبل أن يغمضهما .

- سأخرج للبحث عنها في الطرقات إن اقتضى الأمر..

لم يرها يومًا بهذا الشكل من الانهيار وفقدان السيطرة التامة على أعصابها!!..

حتى يوم عادت زاد فجأة ودون توقع، أقصى انهيار لها كان فقدانها الوعي وسقوطها مغشيًا عليها..

لكنها الآن ترتعش وتنتفض كمن أصابته الحمى.. تبكي بشهقاتٍ متتالية، تغص وتختنق مما أثار فزعه فاقترب منها محاولاً ضمها إلى صدره وهو يقول مهدئًا

- اهدئي يا حبيبتي.. الأمر لا يستحق كل هذا الفزع!.. ما

الذي أصابك؟!..

نظرت إليه بعينين واسعتين حمراوتين ومخيفتين وكأنها
تنظر إلى مجنون لا يفهم ما يقوله ثم صرخت

- أمر لا يستحق الفرع!!.. ابنتي الوحيدة ضاعت.. ضاعت
مجددًا..

نظر إليها غير مستوعبًا ورد بخفوتٍ يضغط على كتفها
برفق

- قد تكون خرجت لترفه عن نفسها قليلا بعد طول بقائها
في غرفتها يا جيهان.. وهذا مؤشر جيد..

صرخت بصوتٍ متقطع منتحب

- خرجت لترفه عن نفسها تاركة هاتفها!!.. كما أنها لا تخرج
وحدها أبدًا.. زاد ليست قادرة على الخروج وحدها بعد..

ابنتي ضاعت كما ضاعت أول مرة

ربت على ظهرها بحنانٍ قائلاً

- سأخرج لأبحث عنها بنفسي ولن أعود إلا بها.. اطمئني..

لم يكد يتم كلماته حتى فتح الباب ودخلت منه زاد يتبعها
سائد وسط الجو المضطرب المجنون قلقاً عليها!...

نظرت إليهما جيهان بذهول قبل أن تندفع إلى زاد تضمها
بين ذراعيها بشدة تكاد أن تخنقها.. تقبل وجنتيها، وتستنشق
عطرها ورائحة شعرها بجنون باكية بينما ظلت زاد مستسلمة
تماماً لمشاعر أمها العنيفة..

لكنها ما كانت سوى لحظاتٍ قليلة جدًا قبل أن تبعد زاد
عنها لتلتفت لسائد بعينين شرستين ثم صرخت في وجهه
بوحشية

- ماذا فعلت بها؟!.. إلى أين أخذتها؟!.. لقد حذرتك من
الاقتراب من ابنتي.. سأقتلك إن كنت..

لم تتغير ملامح سائد والتي بدت جامدة تمامًا، يرمق

جيهان بلا تعبير دون حتى أن يتنازل محاولاً الرد أو الدفاع
عن نفسه..

لكن زاد كانت هي من تدخلت فهتفت كي توقف أمها

- لم يفعل شيئاً يا أمي.. أنا من ذهبت لتجربة أداء فرفض
أن يتركني أذهب بمفردي..

نقلت جيهان عينيها الذاهلتين الباكيتين بينهما ثم استقرت
بهما على وجه زاد ذي القناع ورددت بتعثر

- أي تجربة أداء؟!.. ماذا تقصدين؟!.. انطقي يا زاد..

صرخت بالأمر الأخير مما جعل زاد تنتفض وتراجع
للخلف بسرعة مبتعدة عنها لكن جيهان لم تتأثر لابتعادها بل
صرخت بصرامة

- أي تجربة أداء يا زاد؟!.. أي جهة تتبع؟!.. و كيف عرفتِ
عنها وممن؟!..

ازدردت زاد لعابها ثم همست بصوتٍ خفيضٍ متوتر

- افتحي صفحة كريم لطفي الشخصية....

رمقتها جيهان بنظرة صدمة وهي لا تزال تبكي، لكنها
أمسكت بهاتفها تحاول فتح الصفحة المعنية بينما قال
خطاب من خلفها بلطف

- أظنني سمعت عنه منذ فترة يا جيهان، إنه مدرب أو
مخرج عروض وكان لديه مشكلة ما..

ارتفع حاجبا جيهان ما أن عثرت على الصفحة المطلوبة..
ثم قرأت المنشور الأخير بعينين واسعتين وما أن انتهت
حتى رفعت وجهها إلى زاد تدير الهاتف إليها صارخة بغضب

- ما هذا؟! أهو نوعٌ من المزاح؟! أي هراء هذا؟!.. هل
جننتِ كي تتبعين منشورًا مشبوهاً كهذا؟!..

اندفعت تجاهها صارخة تكرر وكان منظرها مخيف في
غضبها وخوفها لأول مرة - هل جننتِ يا زاد؟!..

لكن وقبل أن تصل لابنتها كان سائد قد اعترض طريقها
يمد ذراعه كحاجز كي لا تتمكن من الوصول إليها!..

توقفت جيهان على الفور وهي ترفع وجهها إليه بذهول ثم
هتفت

- هل تمنعني من الوصول لابنتي؟!.. هل تظني سأضربها؟!..
أنا لم أمس ابنتي بسوء في حياتها كلها!..

كانت ملامحه صلبة وعيناه قاتمتان ثم قال بخشونة

- عندما تهدئين، يمكنك الوصول إليها.. لقد مرت بما يفوق
تحملها اليوم دون الحاجة لتحمل انهيارك..

كانت تلهث غير مصدقة حتى أنها وضعت يدها على
صدرها وهي تقول

- هل تخبرني عن ابنتي!!!.. من تظن نفسك؟!.. وما الذي
تريد الوصول إليه بالضبط؟!.. أي خطة شريرة تنتهجها يا
سائد؟!..

صمت قليلاً وهي تكاد أن تختنق عاجزة عن التنفس لشدة
انهيارها ثم تابعت بصوتٍ أظع

- ما أدراك أنت عما تقدر عليه وما لا تستطيعه!!.. بأي
حقٍ تساعدنا على الخروج لتلقي بها في عالمٍ مجهولٍ قد
يفترسها في اللحظة الأولى!.. ما أدراك أنت عما أصابها من
قبل!..

صرخت زاد بهلع متوسلة- أرجوك لا تفعلني هذا بي.. أرجوك
لا تتابعني الكلام، أتوسل إليك..

نظرت إليها جيهان بعينين غائرتين شديديتي الاحمرار..
معذبتين وهي تبكي بصمتٍ الآن فتدخل خطاب متوترًا
ليمسك بكتفها النحيلين المهترئين وهو يقول بصوتٍ خفيض

- يا حبيبتني كان تصرفًا سليمًا منه أن رافق زاد كي لا
يتركها وحدها، طالما أن الإعلان مقلق بالنسبة لك.. ثم أننا
سنتأكد من كل تفاصيله كي تطمئني أكثر..

أملت جيهان وجهها تنظر للخلف مرتجفة ويدها تعتصر حلقها، بينما اندفعت زاد لتصعد السلم جريًا حتى وصلت غرفتها فدخلت وشفقت الباب خلفها ثم استندت بظهرها إليه قبل أن تنحني ببطء لتجلس أرضًا شاعرة بالدوار..

لكن طريقة هادئة على الباب جعلتها ترتعش دون أن تتحرك، وصوت هادئ تكلم من خلفه أوهن أعصابها أكثر

- أي كان سبب استخدامك لهذا القناع.. وأي كان ما تخفيه خلفه.. لا أظنك بحاجة إليه يا زاد، واليوم كان خير دليل

أطبقت زاد عينيها بشدة وهي تسمع صوت خطواته الهادئة تبتعد عن باب غرفتها حتى اختفت.. فانحنت ببطء حتى ارتاحت وجنتها على الأرض تضم ركبتيها إلى صدرها عليها تشعر بالاطمئنان.. بالأمان.. وكأنها عادت جنين في رحم أمها..

- إنه يجعل من نفسه أضحوكة.. إنه يتبع أسلوب الرثاء

على النفس ويا له من أسلوب مثير للشفقة لن يجني منه إلا
المهانة!

حملت الكلمات سخرية واستهانة صاحبها.. وحين لم يلق
ردًا التفت ينظر إلى نسرين الواقفة أمام النافذة تتأمل المنظر
الممتد أمامها ثم تابع قائلاً

- نسرين.. أين راح ذهرك؟!.. أكلتك ولا تسمعين!..

ردت بصوتها الهادئ شديد النعومة دون أن تستدير إليه

- بل سمعتك جيدًا يا حسام.. ولا أوافقك الرأي حيال ما
سيجنيه كريم بأسلوبه..

استدارت الآن متمهلة واقتربت لتجلس أمامه واضعة ساقًا
فوق الأخرى وقد بدت شاردة الذهن تحرك إصبعها المصبوغ
فوق فكها مفكرة ثم همست وكأنها تكلم نفسها

- هذا الأسلوب دعاية لا بأس بها في حد ذاتها.. بدايةً
بالمشكلة التي افتعلها وقام بتصعيدها على مواقع التواصل

ليحشد الدعم.. ثم اتخذ منعطفًا مفاجئًا بعد فترة عن كونه يائسًا محطًا على الهامش وعلى الرغم من ذلك سينهض من جديد.. بل ولديه استعداد لدعم عددًا ممن فقدوا الأمل!.. التفاعل على منشوره يتزايد أكثر من العادي، كما أنه بدأ بالفعل في تجميع فريق جديد بهذه السرعة، مما يعني أن الإقبال على أسلوب الرثاء في إعلانه كان مؤثرًا..

حركت عينيها إلى عيني حسام الناظر إليها وقد بدا عابسًا الآن.. ثم سألته بنبرة مفكرة

- ترى هل اختار البطلة؟.. لا يمكن أن تكون راقصة باليه معروفة..

هز حسام رأسه متابعًا أفكارها بينما رفعت كفيها لتشبهكما خلف رأسها وهي تمدد جسدها المتصلب ثم همست مجددًا

- ترى كيف استطاع الحصول على فكرة جديدة بمثل هذه السرعة!..

تكلم حسام سائلًا

- ماذا لو نفذ نفس الفكرة؟.. بما أنها فكرته من الأساس!..

تحركت حدقتا نسرين ببطء شديد حتى التقتا بحدقتي
حسام.. ثم ساد الصمت المطبق!..

- حنان!.. يا لها من مفاجأة!!.. لقد أنار البيت بوجودك..

ابتسمت حنان ابتسامة لطيفة بينما القلب لا يزال يحمل
أثر الجرح في علامة مكتوب لها أن تبقى كذكرى طويلة
الأمد..

لقد أنار البيت بوجودك!..

بعض المجاملات قد تكون محزنة حقًا.. فهذا البيت لم يُنر
بوجودها مطلقًا، على الأقل بالنسبة له..

و إن كان صادقًا في مجاملته بأنه الآن فقط أنار بوجودها،
فستكون أكثر إيلا مًا..

لم يظهر شيئاً من أفكارها الحزينة على محياها المبتسم
الهادئ، ولم تكن يوماً بارعة في التمثيل..

بل هي صدقاً راضية تمام الرضا..

حتى مع بعض الذكريات المحزنة، وحتى مع بعض الحاضر
المؤلم..

إلا أنها راضية مسلمة أمورها لله متقبلة كل ما تحمله لها
الأيام بخلوها ومُرّها..

تكلمت حنان قائلة بصوتها الدافئ

- أعتذر إن كنت قد تأخرت في التهنئة يا خطاب.. مبارك لك
وللعروس..

أجابها خطاب بمودة- لا يفتك الواجب أبداً يا حنان.. أنا
شاكر لقدمك جداً، لحظة كي أنادي جيهان ل..

قاطعته حنان قائلة بحزم رغم اللطف في صوتها

- انتظر لحظة يا خطاب.. أريد الكلام معك قبلًا..

توقف ونظر إليها متسائلًا فتابعت بحرج

- لقد أتيت للتهنئة فعلاً، لكنني انتهزت الفرصة كي آتي وأرى وائل.. فأنا لم أراه منذ أكثر من شهرٍ كامل وهذا لم يكن اتفاقنا يا خطاب..

بدا مرتبًا بعض الشيء ثم قال مبررًا يبتسم بحرج وعصبية

- يا حنان ابنك لم يعد طفلًا أو مراهقًا لتتفق على فترات حضائته!.. إنه رجل في السابعة والعشرين!..

غابت الابتسامة عن شفتي حنان وهي تقول بجدية

- هذا إن كان قادرًا على اتخاذ قرار الخروج.. تعرف أن ابنك يعاني من اضطراب يُعجزه عن ذلك..

ازداد ارتباك خطاب وهو يشيح بوجهه قليلاً فتابعت حنان
بنبرة لوم

- أكان ينبغي أن آتي بنفسي كي أتمكن من رؤية ابني يا
خطاب؟!.. وبالطبع لم يكن من الذوق أن آتي في وقت أبكر
فكان أن غاب ابني عني شهر ويزيد..

تكلم خطاب قائلاً باعتراض

- أي ذوق تتكلمين عنه ويمنعك من القدوم إلى هذا البيت
ساعة تشائين يا حنان؟!.. هذا البيت بيتك والأولاد جميعهم
أولادك

لم يكن البيت يوماً بيتي.. لكن الأولاد جميعهم أولادي..
انفطر قلبي على سلسبيل، والآن الدور على وائل..

رفعت حنان ذقنها وقالت بهدوء وتهذيب

- بعد إذنك يا خطاب لقد أتيت لآخذه معي..

بدا التردد والرفض على ملامح خطاب ثم اقترب منها قائلاً
بصوتٍ خفيضٍ خوفاً من أن يسمعهم أحد

- لا يمكنني منعك يا حنان، لكن تمنيت إن بقي وقتاً إضافياً
عندي لسبب هام.. لدي ترتيب له، أمر ربما قد يساعده..

أغمضت حنان عينيها رغم ثبات ملامحها، إلا أن يأساً جمد
تلك الملامح للحظات قبل أن تفتحهما مجدداً لتنظر إليه ثم
قالت تهز رأسها بعتاب

- لن تتغير مطلقاً يا خطاب.. شككت في الأمر لكن كذبت
ظنوني..

انعقد حاجبا خطاب وهو يسألها متوتراً

- أي أمر.. وأي ظنون؟.. هل تكلم أحدهم معك بخصوص
وائل؟!..

دققت النظر في عينيهِ بثباتٍ ثم قالت بغضب بارد

- لست في حاجة لمن يخبرني بأي شيء بينما لدي رادار
يرصد الخطر من بعيد..

نظر خطاب حوله ثم أعاد عينيه إليها هامسًا بحدة

- خطر!!.. هل يعقل أن أعرض ابني لأي خطر يا حنان!!.. أنا
أريد مصلحة ابني..

كتفت ذراعيها وهمست تسأله باقتضاب

- هلا أخبرتني عن السبيل الذي تراه مناسبًا لمصلحة ابنك..

بدا وكأنه غير راغب في الكلام، لكنه اضطر للاعتراف
بضيق

- لدي عروس مناسبة لظروف وائل يا حنان.. ستكون هي
الحل المناسب لمشكلته ومع كل يوم يمر يتأكد ظني

تصلبت ملامحها على الفور بينما لمعت عيناها بلون الغضب
والألم ثم قالت بغلظة

- كان علي أن أعرف.. والله لم تتغير... أهذا هو الحل من وجهة نظرك!..

حاول خطاب إقناعها قائلاً بعصبية

- يا حنان لن يفهم مشكلة وائل سوى رجل.. والده.. الولد يحتاج للزواج..

ردت بقساوة من بين شفتيها تقاطعه

- ابنك يحتاج لعلاج..

زفر بضيق وهو يهز رأسه يأساً ليقول بغضب

- أنا أدري بمصلحة أولادي..

قاطعته مجدداً بنبرة أكثر حدة وهي تشير إليه بإصبعها

- لم تكن أبداً على دراية بمصلحة أولادك.. أهملتهم صغاراً وحين كبروا أردت أن تشعر بمكانتك كأب بدأت في السيطرة

على كل واحد منهم بعد أن كانت كل صلة بينكم انقطعت..

لم يكن لديك الرصيد الكافي عندهم كي يتقبلوا السيطرة
الغاشمة التي تفرضها دون وجه حق..

من يريد شيئًا تمنعه ومن يرفض شيئًا آخر تجبره ..ألم
تتعلم شيئًا بعد رحيل سلسبيل رحمها الله!!..

شحب وجه خطاب متراجعًا للخلف وقد زاغت عيناه
محدثًا فيها بوجعٍ وصدمة..

لم تكن حنان يومًا بمثل هذه القسوة!!..

هز رأسه بإشارة واهية، ثم همس بترنح

- أتلوميني على موت سلسبيل كما فعل سائد ولا يزال!!..

تنهدت تنهيدة محرقة للقلب تغمض عينيها للحظة ثم ردت
بجفاء

- ما لُمتك يومًا على موتها.. لكن لمتك مرارًا على معاملتك القاسية لها دون حاجة حقيقية لتلك القسوة..

كنت تريدُها أن تحيا بشخصك، تفكر بعقلك.. بينما هي على النقيض منك في كل شيء.. كنت تتفنن في كسر كل ما هو جميل فيها لتحولها لنسخة باهتة منك..

أطبق خطاب عينيه بشدة وهو يقول بصوتٍ مختنق

- كفى.. كفى يا حنان.. أرجوك..

اضطر للاستناد بكفيه على ظهر أقرب مقعد يحني رأسه فاقتربت منه لتمسك بساعده قائلة بصوتٍ خفيض تتغلب على الغصة في حلقها

- أعرف أنني آلمتك يا خطاب، وقد تكون المرة الأولى التي ألجأ فيها لهذا.. لكن ربما أيضًا كنت في حاجة للشعور بهذا الألم الآن تحديدًا كي لا تظلم الباقي من أولادك..

لم يكن قادرًا على الرد، ومن حسن حظه أن نزلت جيهان

لتقول بصوتٍ مرحبٍ أنيق

- أهلاً أهلاً سيّدة حنان.. كنت أتمنى التعرف إليك منذ فترة..

استدارت حنان بابتسامة مهذبة، مجاهدة لتسيطر على ذكريات الحزن وقلق الحاضر، تقترب منها لتصافحها قائلة بلباقة

- ذات الأمنية لدي.. مبارك لكما واعدريني على الزيارة المفاجئة..

ردت جيهان بصوتٍ مرتبك وقد توردت وجنتاها حرجاً

- إنه بيتك.. أرجوكِ تصرفي على هذا الأساس..

ابتسمت حنان مُرَبِّتَةً على كفها الرقيق الذي لا يزال بين يديها ثم قالت بلطف

- أشكرك والآن إذا سمحت لي برؤية ابني وائل..

قالت جيهان على الفور- بالطبع تفضلي.. ليت زاد كانت هنا
لتتعرفي إليها

توقفت حنان للحظات وهي تبادل جيهان النظر ثم قالت
بنبرة حنونة ذات مغزى

- أتوق للتعرف إليها.. صدقًا..

ضمت رأسه إلى صدرها في جلوسه فأغمض عينيه
وأراحت وجهها على قمة شعره الغزير المموج ثم همست
باختناق

- خاطري مكسور بسببك يا وائل.. ألم تشتق إلى أمك
فتحت نفسك على الخروج بالقوة لرؤيتها!.. أكان عليّ أن آتي
بنفسي رغم حرج موقفي!

بدت شفتاه مضطربتان وأصابعه متشنجة فوق ساعدها
المحيط بعنقه وكتفيه ثم قال بصوتٍ خشن

- ما كان عليك الخروج من هنا.. كان عليك البقاء..

أغمضت عيناها فوق دموع حبيسة ثم همست بنعومة

- أتعاقبنِي إذن؟!.. أتلومني لأنني لم أختَر البقاء حتى النهاية؟!..

فتح شفّتيه المتعثرتين لا في النطق بل في إيجاد الكلمات المناسبة والتي يبدو أنها تعوزه دائماً.. شيء يمنعه.. شيء يرهبه من الكلام والاستفاضة.. يرهبه من الخروج ومقابلة المزيد من البشر.. شيء يشعره بالاختناق ما أن يتجاوز جدران العالم الآمن والذي أقامه لنفسه ليحميه من المجهول المتربص به..

الذنب ليس ذنبها.. وليس ذنب أحد.. لقد اختارت الرحيل كما اختار هو العزلة والبيئة الآمنة، لذا نطق بصوتٍ خفيض أجش يشدد قبضته فوق ساعدها يكاد أن يحطمه بسبب الانفعالات المسيطرة عليه

- لا ألومك.. فلا تلومني على شيء أعجز عن تبريره يا أمي..

الفصل الخامس

تاريخ اليوم / الخامس من شهر يونيو

الاسم / ريم

- هل أنتِ شخصية دائمة الانتقاد لغيرك يا ريم؟..

تطلعت لعينييه للحظاتٍ ثم مالت للأمام تستند بمرفقيها إلى ركبتيها مفكرة قبل أن تقول رافعة حاجبيها ببرود

- أعترف أن مشكلتي الأساسية هي الرغبة في أن يتم كل شيء على الوجه الأمثل.. وأن يكون كل من أتعامل معه مثاليًا أو على الأقل أقرب للمثالية.. وهذا عادل تمامًا، لأنني دائمًا أتمسك بالمثالية في كافة تصرفاتي..

سألها بصوتٍ هادئ وعلى وجهه ابتسامة جذابة

- لم تجيبي سؤالي.. لا تبرري، فقط أجِبي..

بدا وكأن البرود قد زار عينيها وهي ترمقه بترفع، ثم
تراجعت في مقعدها الوثير لتضع ساقًا فوق أخرى وقالت
بوقاحة

- أظنني أدفع لك ثمن الجلسة الباهظ كي أتكلم كما يحلو
لي!.. أنا هنا لأتكلم بمقدار ما أدفع..

لم يتمالك نفسه فضحك ضحكة قصيرة وإن كانت الإهانة
قد حققت الهدف تمامًا، إلا أنه تكلم بتهذيب مهني

- ومع ذلك لم تجيبي سؤالي بعد يا ريم..

رمقته طويلاً عابسة الملامح وهي تؤرجح ساقها بعصبية،
إلا أنها لم تلبث أن ابتسمت ضاحكة بتنازل ثم قالت تهز كتفها

- يمكنك اعتباري شخصية دائمة الانتقاد..

مال برأسه يسألها باتزان

- هل يصل انتقادك حد التجريح في العادة؟...

فكرت للحظات في الجواب، ثم أعادت عينيها إليه وهي تتلاعب بأصابعها أمام وجهها

- كل من يتعرض للانتقاد يشعر بالتجريح..

عقب محرّكاً يده - يمكن للنقد أن يكون بناءً.. بين النقد والانتقاد خيط رفيع..

أصدرت صوت تأتأة رافضة ثم قالت مؤكدة

- لا وجود لما يسمى بنقد بناء.. النقد هو الانتقاد.. الجهر بما لا يعجبك.. وإن كان ما لا يعجبك موجود في شخص فأنت تنتقده وجهًا لوجه.. من منا لن يشعر بالتجريح جراء هذا!..

سألها مباشرة بنبرة جادة

- هل تنتقدين جسدًا، وجهًا، ملبسًا، الشكل الظاهري بشكلٍ عام.. مستوى اجتماعيًا أو ماديًا.. أم تنتقدين التصرفات

المرفوضة من وجهة نظرك فقط؟..

تنهدت قائلة بملل وهي تهز رأسها

- كلها طرق فرعية لنفس الشيء.. مثلاً إن انتقدت في شخص زيادة وزنه، فأنا أنتقد سوء تصرفه وعاداته الخاطئة في الأكل وإهمال جسده وصحته..

ضاقت عيناه وهو يسألها باهتمام

- ماذا بشأن ما لا نختاره.. مثل الوجه أو المستوى الاجتماعي أو المادي؟..

هزت كتفها وكأنها غير مسئولة عن إصلاح الكون ثم ردت ببطء

- أغلب الظن أن التعليق على أشياء كهذه يعد رسالة.. رسالة تحت على مراعاة التكافؤ..

ابتسم متأملًا لفترة أطول من اللازم ثم سألها بتفكير

- ريم، تملكين جسّدًا ممتازًا..

قاطعته رافعة حاجبيها سائلة بخبث

- هذا تصريح غير مهني منك على الإطلاق!!..

بدا وكأنه توتر للحظة حتى أنه سعل ليجلي حنجرتة قبل
أن يتابع قائلاً

- عذرًا.. كنت سأتابع كي أصل لنقطة محددة.. لنفترض أن
الحياة لم تهبك جسّدًا مثاليًا، أتظنين أنك ستكونين بنفس
الشخصية الانتقادية؟ تنتقدين في الناس أجسامهم.. إن
لم تهبك الحياة وجهًا جميلًا أكنت لتنتقدي في الآخرين
ملامحهم؟!.. هدفي أن الشخصية الانتقادية، هي انتقادية
بطبعها بغض النظر عن كونها مثالية أم لا.. فربما كنت أبعد
مما تتصورين عن المثالية التي تُظنّينها في نفسك!

شبكت أصابعها وهي تقول بثقة

- الحياة لم تهبني جسّدًا مثاليًا.. هذا الجسد نتيجة الكثير

من التدريبات الشاقة والحرمان مما تشتت به نفسي.. و هذا
مثال واحد فقط.. المثالية مرهقة وأحياناً تكون مؤلمة.. لهذا
يحق لي انتقاد من أراه عاجزاً عن القيام بالصواب..

ساد الصمت بينهما وكلا منهما ينظر للآخر، حتى تكلم قائلاً
بثبات

- لنتكلم عن نوع آخر من الانتقاد.. انتقاد الإنسان كونه
لم يبذل الحد الأقصى في العلاقة.. هل تكثرين من انتقاد
شريكك على تقصيره الدائم حيال كل ما يقدمه لك؟..

نظرت إليه طويلاً تفكر في الجواب.. ثم ردت ببساطة

- نعم أفعل...

شهر نوفمبر

“ يُقال إن نوفمبر هو شهر الحب.. فيه تبدأ القصص

ما بين حنين الخريف ولهفة العاشقين في الشتاء

يظل نوفمبر شهر همس القلوب ومناجاة الأعين“

أوقفت السيارة أمام المسرح ثم التفتت تنظر لابنتها تحاول
التبسم، لكنها لم تلق من زاد سوى جمود القناع الأبيض
فتمالكت نفسها وقالت برفق

- سأتي في نفس الموعد بعد انتهائك لأُقلِّك..

أومأت زاد برأسها دون كلام، ثم تحركت يدها لتمسك
بمقبض الباب استعدادًا للخروج إلا أن جيهان سارعت تمسك
بمعصمها تمنعها وهي تقول بלהفة

- انتظري لحظة يا زاد.. ابقِ معي دقيقة فحسب..

التفتت إليها زاد منتظرة، فبدت جيهاً مضطربة والحزن
مرتسم على محياها إلا أنها قالت بخفوت

- مرت أسابيع لا نكاد نرى فيها بعضنا إلا وأنا أقلك للمسرح
فقط.. ترجعين متعبة فتنامين للفجر

همست زاد بتردد

- أنا آسفة.. التدريبات شاقة للغاية، لا أقوى على القيام بأي
شيء آخر..

أومأت جيهاً برأسها متفهمة ثم أطرقت برأسها للحظات
وبعد تردد قالت ببطء

- أنا.. أردت الاعتذار لك منذ أسابيع على ما فعلته يوم
خرجت أول مرة.. لم يكن ينبغي أن أقل من شأنك وقدرتك
وأن أصرخ في وجهك خاصة أمام خطاب وابنه..

اتسعت عينا زاد إلا أنها ردت بلا تعبير

- لا داعي للاعتذار.. لم تَقترفي خطأ..

هزت جيهان رأسها نفياً ثم قالت بأسى

- بلى أخفقت وبشدة.. كان ينبغي أن أثني على محاولتك الأولى في محاربة مخاوفك.. لكن عوضاً عن ذلك أفزعتك وأهنتك

ظلت زاد صامته فلم تحصل منها جيهان على رفض أو تأكيد.. مما جعلها تتنهد فاقدة الأمل وبعد لحظة التفتت إليها تسألها متظاهرة بالابتسام

- ما أخبار التدريبات؟.. هل هناك أمل في نجاح مسعاكم؟..

هزت زاد كتفها ثم أجابت بخفوت

- نحن نحاول.. جميعنا نحاول..

تعمقت ابتسامة جيهان، ثم مدت يدها تلامس شعر زاد بحنان قبل أن تقول بزهو

- من كان ليصدق أن يتم اختيارك كبطلة العرض!.. بعد كل تلك السنوات من الابتعاد!..

ودت لو قطعت لسانها قبل أن تذكر السنوات الماضية مجددًا، فقد انخفض وجهه زاد ببطء وقبضت أصابعها في حجرها..

التقطت جيهان أنفاسها ثم سألتها برقة محاولة تغيير الموضوع

- ما هو المتوقع بالنسبة للقناع في القادم من تدريباتٍ وعرض؟..

تصلب جسد زاد تلقائيًا لكنها أجابت بتوتر

- لم يذكر كريم شيئًا بخصوصه.. أتابع تدريباتي به دون التفكير في القادم

زمت جيهان شفيتها للحظة، ثم قالت بثباتٍ

- أظن أنه آن الأوان كي تتخلصي منه يا زاد.. أم تريدين أن يبعدك كريم فجأة ودون مقدمات!..

نظرت إليها زاد وسألت بصوتٍ مضطرب خائف

- ولمَ قد يفعل شيئًا كهذا؟!.. لقد تم قبولي ثم جعلني بطلّة العرض وأنا بالقناع.. ماذا عن التدريبات الشاقة التي قمت بها؟!.. أهو مجهود ضائع؟!..

ردت جيهان بحزمٍ أقرب للصلابة

- إن كانت قد سكت عن القناع حتى الآن فربما لا يريد إحراجك أو جرحك.. وينتظر منك أن تأتي ذات يومٍ متحررة منه.. وأخشى إن يئس فسيستبدلك بأخرى.. هل تريدين أن يحدث هذا؟!..

انعقد حاجبا زاد بشدة لكن لم يظهر شيئًا من ملامحها.. مجرد قناع شاحب أصم ينظر لمن أمامه بلا تعبير ثم قالت بصوتٍ متعثر

- لقد تأخرت.. هل أستطيع الخروج الآن؟..

زفرت جيهان بقوة وهي تنظر أمامها ممسكة مقود السيارة
بكفيها ثم قالت بصوت أجوف

- أشعر أنك تخجلين من توصيلي لك يوميًا يا زاد..

ساد الصمت فلم تحاول جيهان قطعه أو حتى التنازل
بالالتفات لزاد.. هل يحتاج الجواب لكل هذا القدر من
التفكير؟!..

وحين ردت، بدا وكأنها بذلت مجهودًا عنيقًا كي تنطق به

- أنا فقط.. أتمنى ألا تبذلي الكثير من الجهد..

صمتت مجددًا وهي تدير رأسها لتنظر من النافذة المجاورة
لها ثم تابعت بصوت أكثر خفوتًا

- ينبغي أن أبذل أنا هذا الجهد لا أنت.. لكنني لست مستعدة
بعد.. أما ما تفعلينه، يقرفني من نفسي أكثر..

أطبقت جيهان عينيها بشدة فوق ملامح فاقدة الأمل..
غاضبة وبشدة.. ثم قالت من بين أسنانها بقسوة ممسكة
بالمقود ناظرة أمامها

- اخرجي يا زاد.. لا داعي لأن تتأخري أكثر بسببي..

تتابعها الأعين في حركاتها وكأنها ألقت تعويذة السحر فوق
رؤوس الجميع.. لا ترى منهم أحداً بل كانت تحلق في عالمها
الخاص ترفع ذراعيها وتدور حول نفسها وكأنها منحوتة
فنية تحركها الألحان.. كطائر فلامنجو وردي حزين يدور في
مجرة من ألف لونٍ ولون..

مال ليهمس في أذنه أثناء انشغاله بمتابعة تمرينها

- أنت تغامر يا كريم!.. الفتاة لا بأس بها، لكن موضوع القناع
زاد عن حده!..

لم يرد كريم على مساعده واكتفى بالصمت متزن الملامح

صلب العينين بعزيمة وإصرار.. بينما تابع المساعد بنبرة أكثر خفوتًا

- من الواضح أن الفتاة ليست مستقرة نفسيًا.. باقي أعضاء الفريق يشكون من عدم تواصلها معهم على الإطلاق وكأنها تتمرن وحيدة!!.. وأنت أدري الناس بأنه العيب الأسوأ في مجالنا..

تحرك كريم من مكانه مبتعدًا ليتابع حركات زاد من زاوية أوضح، فتبعه مساعده يقول مصرًا

- حتى وإن كانت سليمة نفسيًا تمامًا.. يظل وجهها المشوه عقبة في العرض، مهما كان يا كريم نحن لا نريد أن ننفر الجمهور أو أن نثير أحزانهم على بطولة العرض!.. كريم هل تسمعني؟!..

رفع كريم وجهه ما أن توقفت الموسيقى ثم نادى عاليًا بصرامة

- سثعيدين يا زاد.. أريد إحساسًا أعلى.. ولو بقينا هنا

للفجر..

التقطت أذناها أصوات مجموعة من راقصات الفريق وهن
يتهاMSN عن واحدة محددة.. تلك التي تقف على الجانب
الآخر بعيدة عنهن جسداً وروحاً..

في غرفة تبديل الملابس تتبادل الأحاديث الهامسة.. بعضها
مرحٌ وبعضها شكوى.. شكوى من التعب والمجهود والإرهاق..
وقطعاً من تسلط المخرج واستبداده..

لكن هذه الأيام يبدو أن هناك بطلة جديدة تسرق أضواء
أحاديثهن كمادة دسمة.. صاحبة القناع!..

غريبة الأطوار.. مغرورة.. تتعالى عليهن.. ترفض الكلام
معهن.. لا تتعاون في التمرين.. وحين يحين موعد تبديل
الملابس، تصر على التخفي عن أعينهن..

تكلمت إحداهن هامسة

- من تظن نفسها!!..

ردت عليها الأخرى متنهدة

- تظن نفسها بطلة العرض يا أستاذة.. لقد جعلها هذا تتخيل
نفسها أفضل منا

قالت الثالثة

- اخفضن أصواتكن، لا نريد أن نسمعنا وتشكونا لكريم.. بما
أنها البطلة!..

ردت الأولى

- هل نسيت يومها الأول!.. يوم كادت أن تتوسله صارخة
كي يمنحها الفرصة!!..

تكلمت أخرى تشهد

- الحق يقال أن لديها طاقة تزد عنا جميعًا.. يمكنها المتابعة

والتكرار دون كلمة اعتراض واحدة، تحملها للضغط يضرب
به المثل!!

كل كلماتهن وصلت أذني دنيا الواقفة في المنتصف بينها
وبينهن.. فحركت رأسها تنظر إلى زاد الواقفة عن بعد تخرج
شعرها الطويل بحرص من عنق سترتها ذات القلنسوة
حريصة ألا توقع القناع عن وجهها وما أن انتهت حتى
أمسكت بحقيبتها تشدها إلى كتفها ثم تحركت بخطوات
رشيقة سريعة تتجاوزهن دون حتى أن تلقي التحية!!..

تبع خروجها بعض همهمات الاستنكار منهن بسبب تجاهلها
المتعمد لهن، بينما حانت الالتفاتة من إحداهن فلاحظت
اهتمام دنيا مما جعلها تخاطبها قائلة

- ألم تكوني أنتِ من دافع عنها بضراوة يا دنيا يوم تقدمت
لتجربة الإداء!!..الآن تتعالى وترفض مجرد إلقاء التحية
عليكِ!!

تجرات واحدة وقالت وهي تميل للأمام

- مؤكد بعد معرفتها أن دنيا لاعبة سيرك تغيرت نظرتها
وتعالت عليها..

أحكمت دنيا رباط حقيبتها حول صدرها وخصرها ثم قالت
ببساطة

- لم أَدافع عنها انتظارًا لتحية أو كلامٍ منها.. فعلت لأن كل
منا بحاجة لفرصة، مهما كان نوع القناع الذي يضعه..

تحركت تنوي المغادرة لكن قبل أن تفعل تابعت بصوتٍ
أجوف

- جميعنا أسرى لأقنعة على اختلافها..

في الصباح الباكر رفعت قدح الشاي لترتشف منه ببطء
شاردة العينين، مشغولة الذهن عن خطاب الذي كان يتكلم
في مواضيع شتى لم تسمع منها الكثير..

ارتفع رنين هاتفها الموضوع على الطاولة يقاطعه، إلا أنها انحنت بسرعة وأغلقت الاتصال مما أثار انتباهه لكنه لم يعلق، بل اكتفى بازتشاف الشاي صامتًا.. وحين أبصر ابنه ينزل السلم مقتربًا من باب البيت ليخرج ناداه أمرًا

- تعال يا سائد..

اقترب منهما سائد على مضض وقد بدا نفاذ الصبر على ملامحه، فلم يلقي التحية على جيهان ولم تفعل هي كذلك..

كان الود مفقودًا بينهما منذ اليوم الأول لدخولها هذا البيت.. في البداية كان السبب معلومًا أما الآن فيخشى الاعتراف!!..

تكلم خطاب قائلاً بنبرة أمرة

- تعال اجلس يا سائد.. أريد الكلام معك..

ظل واقفًا مكانه وكأنه ينوي الرفض إلا أنه امتثل في النهاية واقترب ليجلس على الكرسي المجاور لوالده..

لم يحاول سائد تقديم أي بادرة لتلطيف الأجواء بينه وبين خطاب، بل بقي جالسًا محددًا في الأرض وكأنه يتوق لإنهاء المهمة الغير مرغوب فيها..

تنهد خطاب بتنهيذة مثقلة ثم وجه إليه الكلام قائلاً محددًا فيه

- كنت أريد الكلام من فترة يا سائد.. لقد عدت للسكن معنا في البيت، أما آن الأوان إذن كي تعود للعمل مع والدك في المصنع وترك مصانع الأغراب!..

نقل سائد عينيه الباردتين إلى عيني جيهان الأكثر برودًا وكأنها نبذت اللياقة التي عاشت عليه، في حضرته هو شخصيًا

فأعاد انتباهه إلى والده قائلاً بنبرة لا تخلو من التهكم

- البركة في جيهان.. وجودها معك في البيت والمصنع أكثر من كافٍ..

كتمت جيهان نفسها غيظ ونفاذ صبر.. إلا أنها رفضت
التنازل بالرد على استفزازه الفج خاصة أنها انتبهت لرنين
هاتفها فأغلقت الاتصال مجددًا عن عمد، بينما تطوع خطاب
متكفلاً بالرد قائلاً بحدة

- ألن تتوقف عن أسلوبك السخيف هذا في التعامل مع
زوجة أبيك!.. كنت قد تفاءلت بمساعدتك لزيد وفكرت أنك
عدت لصوابك وقررت أخيراً التعامل مع الجميع هنا بشيء
من المراعاة والاحترام، لكن على ما يبدو أنك لن تتغير أبداً..

التوت شفتا سائد بسخرية قائلاً وهو ينظر لساعة معصمه

- جيد أنك تيقنت أخيراً.. والآن هل تريد شيئاً آخر؟..

تكلم خطاب بعنف

- أنا أحتاجك بجواري في المصنع.. لم يتبق لي سواك الآن..

ضحك سائد وهو يهز رأسه، في حين كانت عيناه سودائين
بشدة غارقتين في القسوة.. لكنه لم يرد بل قاطع الكلمة

الساخرة على طرف لسانه صوت رنين هاتف جيهان مجددًا..

هذه المرة لمح خطاب اسم زاد على شاشة الهاتف، وفوجئ بجيهان تغلق الاتصال!!.. فرفع عينيه إليها قائلاً باستغراب

- إنها زاد.. ألن تجيبي اتصالها؟!..

توترت ملامح جيهان وبدا وكأنها تكابد شيئاً ما بداخلها لكنها حافظت على رسمية وتحفظ ملامحها قائلة بهدوء

- إن أرادت شيئاً فلتنزل بنفسها..

ضاقت عيناً سائداً ناظرًا للهاتف الذي ارتفع رنينه مجددًا واسم المتصل.. زاد!..

هذه المرة قامت جيهان بإغلاق الهاتف نفسه!!.. فسألها خطاب عاقدًا حاجبيه

- ألن تذهب زاد للمسرح اليوم؟!.. لقد تأخرت في النزول..

هزت جيهان كتفها وهي تقول مدعية اللامبالاة

- ها أنا جاهزة أنتظرها منذ فترة..

أشار خطاب للهاتف قائلاً بخفوت

- أجيبني اتصالها إذن، فربما كانت تحتاجك لشيء هام..

ردت جيهان بصلافة وإصرار يكاد أن يكون توترًا بدأ في
الظهور على حركات جسدها وأصابعها المتشنجة

- لا يا خطاب.. قلت إن أرادت شيئًا فلتنزل بنفسها

لم ينتظر سائد أكثر من هذا بل نهض من مكانه مبتعدًا، لكن
حين توجه للسلم لا إلى الباب ناداه خطاب سائلًا

- هل نسيت شيئًا يا سائد؟!...

لكنه لم يلق ردًا.. بل صعد سائد السلم كل درجتين معًا
وسار في الرواق حتى وصل إلى غرفتها فطرق الباب مرتين

قبل أن ينادي بصوتٍ هادئٍ

- إنه أنا يا زاد... افتحي..

التقطت أذناه أصوات متداخلة وخطوات تقترب حتى
شعر بها واقفة خلف الباب مباشرة بصمت، فزم شفتيه طارقًا
الباب من جديد قائلاً بنبرة أكثر صرامة

- افتحي يا زاد..

استطاع رؤية المقبض يتحرك بتردد.. حتى فتحت الباب
أخيرًا بشقٍ ضيقٍ وقد ظهرت منه مطرقة الوجه لكنها كانت
ملثمة!!

تلف ذلك الوجه المنخفض ورأسها بوشاح بينما ينسدل
شعرها على جانب كتفها..

مال بوجهه كي يراها بوضوح ثم سألها بصوت خشن

- هل أنت بخير؟...

حفرت أظافرها في حافة الباب مما بين مدى توترها
وارتباكها إلا أنها ردت بصوتٍ متعثر خفيض

- لقد تأخرت عن موعد التدريب.. لكنني استيقظت اليوم
فلم أعر على أي واحد من أقنعتي.. لقد اختفت جميعها
وكأن هناك من تعمد أخذها من غرفتي أثناء نومي.. أحاول
الاتصال بأمي منذ فترة لكنها لا ترد..

تراجع وجه سائد المتصلب للخلف محدقًا فيها متجهماً ثم
قال خلال لحظة ببطء

- ربما عليك النزول لسؤالها بنفسك..

رفعت هاتين العينين إليه.. واسعتين.. جميلتين، فقد ظهر
منهما أكثر مما رآه سابقًا من ثقبى القناع..

جميلتان فعلاً.. لكن وكأنهما ليستا متشابهتان في حدودهما
الخارجية!!.. وكأن أحدهما مشدودة ينتهي طرفها بتجاعيد
جعله يضيق النظر أكثر.. يتجهم أكثر.. يود لو لامسها
بأصابعه.. لو اقترب وقبل بشفتيه ذلك الطرف المجعد

المشدود وكأنه شعر به يؤلمها!!..

تحرك حلقه ذاهلا من الانفعالات الغريبة المسيطرة عليه
بينما بدت زاد غافلة عن كل ما أصابه فهمست بيأس

- لا يمكنني النزول بهذا الشكل!.. شكلي سيء جدًا..

تنهد سائد قائلا بهدوء - ليس أسوأ من القناع..

لاحظ أن عينيها قد غامت بفعل كلماته الفظة، لكنه تابع - لا
يوجد بالأسفل إلا أمك وخطاب.. انزلي واسألها ببساطة

ازداد انخفاض وجهها للحظات، إلا أنها تقدمت للأمام مما
أجبره على الابتعاد كي تمر لكن ليس قبل أن يمس عطر
شعرها الناعم كيانه كموجات رقصها على أطراف أصابعها..

راقبها تمشي في الرواق مترددة وكأنها تمشي فوق
السحاب تخشى الوقوع حتى اختفت.. حينها فقط تراجع
حتى استند بظهره للجدار مرجعًا رأسه للخلف ثم همس
بصوتٍ خفيض

- ماذا تفعل يا سائد؟.. إلى أين تأخذك امرأة لم تر من ملامحها إلا ما رسمه خيالك!..

أتراه أطال الوقوف شاردًا؟!.. فقد انتبه على أصواتٍ بدت وكأنها شجارًا غلب عليه صوت زاد!..

- كيف تفعلين شيئًا كهذا؟!..

حين نزل درجات السلم ببطء استطاع رؤيتها تقف في منتصف البهو باكية بصوتٍ عالٍ وهي تمسك بالوشاح حول وجهها، تقف أمامها جيهان التي وقفت تواجهها بصلافة فبدت وكأنها لا تبالي بذلك الانهيار لكن ملامحها كانت كجولة حربٍ هي الخاسرة فيها..

تكلم خطاب متنهّدًا- يا زاد أمك تحاول مساعدتك، لم تقصد إيلاملك أبدًا..

صرخت زاد بعذاب وكأنها تحتضر واقفة

- لا أحتاج مساعدة.. لا أستحق مساعدة.. لا أريد إلا أن أكون كما أنا..

وصل إليها سائد فسألها بصوتٍ باهت وهو ينقل عينيه بينهم- ما الذي حدث؟!..

استدارت زاد على عقبيها لتواجهه وصرخت باكية تستغيث به في انهيارٍ لم يرها به من قبل!! حتى أنه أجفل شاعرًا بقبضة محكمة حول قلبه

- لقد أحرقت أقنعتي كلها...

رفع عينيه إلى جيهان متفاجئًا قبل أن يعلو وجهه تعبير غريب جعلها ترتعش رغم صلابتها فاستدارت تحجب نظراته المتهمة عن عينيه..

شهقت زاد باكية وهي تشدد قبضتها على الوشاح لا تكلم سواه.. لا تستغيث إلا به!

- لا يمكنني أداء التمرين بالوشاح.. كما لا يمكنني إيجاد
أقنعة في مثل هذه الساعة المبكرة..

حاول خطاب تهدئة الموقف قائلاً بخشونة

- لا بأس يا زاد.. لا بأس.. تغيبني عن التمرين اليوم، وفي
الغد سيكون لديك أقنعة جديدة..

صرخت جيهان بغضب رغم انتفاض جسدها الهزيل

- سأحرقها.. سأحرق كل قناع يدخل هذا البيت..

انهارت زاد باكية بقوة تطبق قبضتيها فوق وجهها الملثم..
وكان صوت بكائها هو الألم بعينه فما كان منه إلا أن مد يده
ليمسك بكفها قائلاً بصرامة

- تعالي...

ثم شدها خلفه بينما هتفت جيهان ذاهلة مستعدة لارتكاب
جريمة

- إلى أين تأخذها؟!!.. أنا أكلمك.. توقف مكانك..

لكنه لم يتوقف بل شد زاد معه تتبعه فوق درجات السلم محاولة اللحاق بخطواته الواسعة تتعثر من خلفه لا تعلم وجهته حتى توقف وأوقفها معه..

لقد وقف أمام باب غرفة سلسبيل المغلقة!!..

خفت صوت شهقاتها وهي تنظر إليه واقف بثبات دون حركة، رأسه منخفض يتنفس ببطء لا تصدر عنه حركة..

ودون وعي منها تحركت أصابعها برفق حول كفه الممسكة بها!!.. وكأن تلك الحركة كانت المفتاح الأخير ليرفع وجهه ناظرًا إليها طويلا بلا تعبير ثم ترك يدها وكأنه لا يريد أن يفعل، لكنه تركها في النهاية ليخرج مفاتيحه من جيبه، قلب فيها حتى أمسك بواحد محدد نظر إليه لحظة ثم دسه في الباب ليفتحه ببطء

تبعته بخطوات مترددة كخطواته.. لكنه لم يتوقف بل تابع طريقه في الغرفة المظلمة حتى وصل للنافذة فشد الستائر يفتحها بقوة لتتسلل الشمس بأشعتها مبددة الظلام الخانق.. رائحة الغرفة كانت مكتومة ومقبضة كالقبر.. الغرفة ظلت مغلقة بالفعل ولم يدخلها أحد حتى هذه اللحظة!!.. لكن ما أن أنارتها الشمس حتى طرفت زاد بعينيها عدة مرات قبل أن تفتحهما لتتأمل الغرفة الكبيرة الجميلة

كانت غرفة أنثوية تحوي كل ما هو جميل براق!.. تغمرها الألوان المتداخلة دون أن تعباً صاحبته بمسألة تجانسها

فقد كانت الغرفة تحوي الأغذية الأرجوانية.. والوسائد الوردية.. أما الستائر فلها لون سماوي

طاولة الزينة مزدحمة وكأن صاحبة الغرفة لا تزال على قيد الحياة تستخدم أغراضها من عطورٍ ومستحضرات تجميلٍ وخلي

الكثير من الأوشحة بألوانها المتداخلة معلقة على عمودٍ يحمل الحقائق الجميلة كما يحمل بعض السترات البراقة..

حتى ورق الحائط يصعب تحديد مناسبته لطفلة تلعب دور
أميرة في الأفلام الكارتونية أم يناسب شابة جميلة تعشق
الحياة

شعرت زاد بغصة في حلقها وهي تنزع عينيها عن أركان
الغرفة لتستقر بهما على سائد الذي تحرك ببطء بعد وقوف
طويل يتأمل الغرفة مثلها.. ثم وقف أمام طاولة الزينة يوليها
ظهره.. لكنها كانت ترى وجهه في المرآة المقابلة له..

رفع سائد يده لينزع قناعًا ورديًا لامعًا كان معلقًا على
زاويتها قائلاً بصوتٍ هادئٍ والابتسامة على شفثيه

- هذا القناع معلق هنا منذ سنوات.. أخذته من إحدى
حفلات صديقاتها.. يمكنك ارتدائه اليوم

صمت للحظة وهو يتأمل القناع بين يديه ثم تابع ممازحًا
بصوتٍ أجش

- هذا إن كنت لا تمانعين ارتداء قناع فتاة ميتة..

صوته يحمل مزاحًا خشناً لكنها رأت وجهه في المرآة
ينقبض وقد انعقد حاجباه مغمضًا عينيه.. وكأنه شعر بالـ
مفاجئ..

لم تنطق بكلمة للحظات طويلة حتى استدار إليها بملامح
عادية جدًا والابتسامة على فمه ثم ناولها القناع..

ترددت زاد قبل أن تجبر نفسها على التحرك حتى أمسكت
بالقناع بأصابع مرتعشة تتأمله فقال بصوتٍ هاديء يحمل
مزاحًا حقيقيًا هذه المرة

- يجدر بك البدء بغلق باب غرفتك بالمفتاح!..

هزت رأسها تهمس بضعف

- أكره المفاتيح..

مالت ابتسامته قليلاً، ثم قال بصوتٍ أجش - ربما يومًا ما
تتمكنين من إخباري..

تاht عيناها في نظراتٍ عينية حتى أمسك بمرفقها
يجذبها خارج الغرفة وما أن خرجا سوياً حتى تسمرت مكانها
وهي ترى جيهان وخطاب واقفين في الرواق غير قادرين
على اجتياز حدود باب الغرفة والصدمة بادية على وجهيهما
إلا أنه قال ببساطة مخاطباً جيهان بصوتٍ يحمل نبرة تحذير
مخيفة رغم هدوء ذلك الصوت الرجولي

- هذا القناع كان ملكاً لسلسبيل.. لذا لن أكون ممتناً إن قمت
بحرقه أو مسه بأي سوء..

اتسعت حدقتا جيهان بينما التفت إلى زاد قائلاً

- أنا من سيُقلك اليوم.. سأنتظرك في السيارة..

ثم ابتعد عنهم دون أن يضيف كلمة أخرى.. أما زاد
فأخفضت وجهها تشدد من إمساكها بالوشاح من حوله ثم
تجاوزت أمها لتجري مبتعدة متجهة لغرفتها تفر من عينيها
المعاتبتين المتألمتين..

حين التفتت جيهان لخطاب، شعرت بقلبها يهوى بين

أضلاعها وهي تراه ممسكًا بإطار باب غرفة سلسبيل المفتوح
محني الرأس وجسده يرتجف بكاءٍ صامت!!..

اندفعت جيهان لتمسك بذراعه هاتفة بتوسل وجسدها
ينتفض ألماً

- أنا آسفة.. آسفة يا خطاب لتسببي بهذا الألم.. أرجوك
سامحني

لكنه لم يقدر على الرد.. كان قلبه معلقًا بالغرفة، يتخيل
صاحبته تخرج منها.. يتخيل سماع صوتها تناديه..

صوت سلسبيل ابنته الجميلة..

حسنًا لو علم كريم أنها تتسلل متوجهة لعربة الشطائر
الواقفة خلف المسرح باستمرار، مرة أو مرتين في الأسبوع
لقتلها دون أن يرف له جفن..

لن يكون أدرى بها أكثر من نفسها.. تعلم أنها تستطيع أن تمتع شهيتها قليلا كما تدرك أنها قادرة على حرق ما اقترفته بكامل نشاطها..

أغمضت عينيها متلذذة وهي تلتهم شطيرة الكبد أمام العربية مع بعض الواقفين.. إنها لذيذة جدًا..

سمعت صوتا ذكوريًا يأتي من خلفها ليقول بنبرة فاترة

- شطيرتان..

ثم اقترب صاحب الطلب ليقف بجوارها مباشرة فالتفت إليه بنظرة عابرة ثم توقفت والطعام يملأ وجنتها..

لقد كان نفس الشاب الذي سبق ورأته في المسرح منذ فترة.. ذلك الوسيم الذي يندر وجود نماذج مماثلة منه في المجتمع!

كان واقفًا بكل ترفع وكأنه لا ينتمي لمن حوله.. جميل الطلة يحيط به شيء جاذب لم يسبق أن شعرت بمثله حول أي

شاب رآته من قبل!!..

تحرك فمها تعاود مضغ الطعام ببطء معيدة عينيها إلى الشطيرة بين يديها.. بدا وكأنه لا يشعر بوجودها منتظرًا طلبه على ملامحه اللامبالاة من كل شيء تقريبًا.. ربما من الدنيا نفسها..

تختلس له النظر بطرف عينيها ثم تعاود التركيز على شطيرتها شاعرة وكأنها فقدت شهيتها ففي هذه الدنيا أشياء أكثر أهمية من الطعام على ما يبدو!..

كانت لا تزال شاردة تحقق في شطيرتها حتى سمعت تذمره فاختلست النظر إليه بطرف عينيها مجددًا لتراه ينظر غاضبًا إلى محفظة خاوية تمامًا.. ثم لم يلبث أن رفع أصابعه يحك بها جبهته مكفهر الملامح قبل أن ينظر لصاحب عربة الشطائر ليقول بجفاء

- الغِ هذا الطلب من فضلك.. آسف..

شعرت ببعض العطف بداخلها فسمعت صوتها يقول بلا

تفكير مخاطبة صاحب العربة

- لا تلغه.. الطلب عندي..

التفت ناظرًا إليها بدهشة وكأنه يشعر بوجودها للمرة الأولى، ثم لم يلبث أن قال بترفع

- لا شكرًا..

ابتسمت شبه ابتسامة وهي تقول

- لا عليك.. تمر أيام صعبة بنا جميعًا..

ثم أدارت وجهها عنه متابعة أكل شطيرتها وكأنها اعتبرت المناقشة منتهية، أما هو فأخفض عينيه ناظرًا للجينز المتهترئ الذي يرتديه والقميص القطني الباهت القديم الأقرب للخرق البالية.. حتى ذقنه غير حلقة لا يكاد يتذكر آخر مرة قام بحلاقتها!..

ثم أعاد انتباهه إليها وهي واقفة بين الرجال أمام عربة

شطائر تأكل بصمت وقد بدا عليها وكأنها تفكر في ألف
مشكلة من مشاكل الحياة!...

كانت ملفتة للنظر على نحوٍ غريب.. ربما ليست الأجمل بين
النساء، لكنها جذابة تنضح بالقوة وجو الثقة يحيط بها..

ربما كانت جميلة فعلاً.. ذلك الجمال الذي يجعل الإنسان
ينظر إليه طويلاً محاولاً استنتاج سره!..

أمسك بواحدة من الشطيرتين ليبدأ في التهامها يختلس
النظر لتلك الشابة الواقفة بالقرب منه، مشغولة ذهن..

لقد كان جائعاً فعلاً.. لا يتذكر آخر مرة أكل فيها ربما من
يوم ونصف أو يومين!..

تكلم أخيراً قائلاً بصوتٍ هادئ

- شكرًا.. لم يكن عليك فعل هذا.. كيف يمكنني رد المال
لك؟..

بدا وكأنها غصت فسعلت مرة قبل أن تلقي إليه نظرة
بطرف عينيها قائلة باختصار وبابتسامة لطيفة

- ادفعه لشخص لا يملك حق شطيرة في المستقبل..

ابتسم ابتسامة صغيرة فارتبكت للحظة ثم أعادت اهتمامها
للشطيرة وكأنها الشيء الأهم في الحياة.. تردد قليلاً ثم سألتها
بعد فترة

- هل أنتِ معتادة على الأكل هنا؟!..

وكانها وجدت فكاهة في سؤاله فضحكت تمسح زاوية
فمها بطرف إصبعها ثم قالت رافعة حاجبيها بتشدد

- أنا أعمل في الجوار.. لكن لا يمكنني الأكل هنا أكثر من
مرة في الأسبوع وإلا قتلني رئيسي في العمل..

ظهرت الدهشة على عينيها وهو يسألها

- وما دخله بأكلك؟!.. أم أنك تتسولين خلال ساعات

العمل؟!..

ضحكت مجددًا تومئ برأسها ثم نظرت إليه قائلة بهدوء

- هذا صحيح.. أنا أتسلل خلال ساعات العمل وإن ضبطني أحد العاملين معي فستكون كارثة على الجميع..

ضاقت عيناه وهو يقول ببطء

- يبدو أن عملكم شاق جدًا..

أومأت برأسها من جديد ضاحكة ثم التفتت تسأله دون أن تملك القدرة على كتمان فضولها أكثر

- ماذا عن عملك؟..

انطفأ فجأة شيء في ملامح وعم وجهه وعينييه السكون الباهت إلا أنه أجاب متشدقًا مثلها

- أنا عاطل ولا فخر..

اتسعت عيناها سائلة بخفوت - حقًا؟!..

أجابها مبتسمًا بسخرية - حقًا....

كانت قد أنهت شطيرتها ثم مسحت فمها تقول بتردد -
ظننتك تعمل في المسرح!!..

انعقد حاجبيه بعدم فهم فارتبكت ملامحها ثم تابعت
مشيرة بإصبعها خلف كتفها وكأنها تشير للمسرح

- رأيتك مرة في المسرح منذ فترة..

بسيطة.. عفوية.. صريحة.. رغم أن شاب مثله قرأ الإعجاب
والخجل في عيني شابة مثلها، ومع ذلك لم تتعمد اللف أو
الدوران..

ابتسم ابتسامة متمهلة وهو يستند بمرفقه إلى جانب عربة
الشاطئ ثم قال ببطء

- هكذا إذن!..

أومأت برأسها ببساطة ثم تابعت بتلقائية - ظننتك واحد من العمال!..

انعقد حاجباه وهو يرد مجفلاً - حقًا!..

أومأت برأسها من جديد ثم تابعت بنبرة آسفة - لم أعلم وقتها أنك خالي عمل!..

ازداد انعقاد حاجبيه بينما سألته مضيضة وهي تشير للمسرح خلف كتفها من جديد

- هل تحب أن أبحث لك عن عمل في المسرح؟...

ضاقت عيناه وهو يسألها ببطء - هذا يتوقف على نوع الوظائف المتاحة لديكم..

هزت كتفها تقول- المسرح عالم ضخم، يمكن أن نجد لك أي عملٍ بسهولة.. ولا أظن أن أجرك سيعجزهم..

ارتفع حاجباه وهو يتأملها طويلا بتدقيق ثم تكلم أخيرًا
وعلى فمه طيف ابتسامة

- يبدو أن لك مركز هام في المسرح..

ابتسمت بحرج وهي تسبل جفنيها، تدس شعرها خلف أذنها
ثم هزت كتفها مضطرة للإجابة بتواضع

- أنا بطلة العرض الذي يقوم كريم لطفي بالتحضير له...

مال برأسه يمس شفتيه بتقدير واضح معقبًا- هكذا إذن!!...

ابتسمت مجددًا تومئ برأسها ثم قالت متنهدة - جعل الله
كلامنا خفيف عليه.. فلو علم أنني واقفة هنا آكل من عربة
شطائر كبد فسيدفنني حية.. إنه يقوم بتسجيل أوزاننا كل
يومين!

ضحك من قلبه للمرة الأولى منذ فترة طويلة ثم وافقها
قائلًا

- بإمكانه أن يكون متسلطاً فعلاً...

شاركته الضحك غير منتبهة لمغزى كلامه فقد كانت كبلها
في عالمٍ أخرج شديد الوردية والجمال..

لكنها اضطرت مجبرة للنزول على أرض الواقع فقالت على
مضض

- أنا مضطرة للذهاب قبل أن يقتلني كريم..

ضحك مجددًا خاصة وهو يراها تخرج علكة من جيبها
لإزالة رائحة الشطائر من فمها كي لا يتم ضبطها.. ثم نقدت
مالك العربية ثمن الشطائر قبل أن تنظر إليه قائلة بعفوية

- إن أردت عملاً في المسرح فلتسأل عن دنيا..و أنا سأتكفل
بالباقى..

لم يرد وإنما تعمقت نظرتة كتلك الابتسامة التي زينت
وجهه..

تحركت دنيا خطوة ثم سألته آملّة أن يبدو سؤالها عفويًا
قدر الإمكان

- أديك أطفال؟.. أقصد هل أنت في حاجة للعمل بأسرع
وقت ممكن؟..

ازدادت ابتسامته مرحًا وهو يجيبها بخفوت- لست
متزوجًا..

ارتبكت وتلون وجهها لكنها أومأت برأسها.. رافعة يدها له
في تحية مبتسمة تتراجع ثم حتى تعثرت في حجرٍ ناتئ
خلف قدمها جعلها تلتوي أمامه كالغبية.. إلا أنها استقامت
بسرعة تزدرد لعبها ثم انصرفت بخطواتٍ متسارعة أمام
عينيه المبتسمتين..

أخرج هاتفه أخيرًا من جيبه ليقربه من فمه مسجلًا رسالة
صوتية بنبرة تتألق مرحًا

- لن أمر عليك اليوم كما اتفقنا يا كريم.. يمكنك أنت التوجه
لشقيقتك وتناول طعام الغداء معها، فقد سبق وشعرت

بالجوع فأكلت من عربة شطائر كبد

دخلت دنيا المسرح جريًا وهي تضم قبضتيها ما أن رأت
ملامح كريم المكفهرة فبادرت تهتف بحرارة

- أعتذر.. أعتذر..

إلا أن كريم هدر غاضبًا حتى ارتج المكان بصوته

- ما يحدث هنا ما هو إلا عبث وهراء بمعنى الكلمة..
تتأخرين في فترة راحتك.. كما تأتي زاد اليوم صباحًا
متأخرة..

هذا الوضع غير مقبول على خشبة هذا المسرح مطلقًا

لم تتوقف للحظة بل تابعت طريقها جريًا هاتفة

- دقيقة واحدة لأبدل ملابسي.. آسفة.. آسفة.. آسفة..

وفي طريقها كادت أن ترتطم بزاد فتوقفت هاتفة في
وجهها بحماسٍ وكأن شعاغًا من ذهب قد مس روحها خلال
فترة الراحة

- بالمناسبة القناع الوردي البراق يليق بك جدًا..التغيير
رائع!..

ثم أسرع في جريها دون أن تنتظر منها ردًا بينما وقفت
زاد مكانها تتابع ابتعادها السريع بملامح القناع الجامدة
المعتادة دون أي تعبير..

إلا أنه كان قناعًا ورديًا اليوم!..

- هذا لن يفلح يا زاد..

صرخ كريم غاضبًا بينما وقفت كلاً من زاد ودنيا تنظران
لبعضهما بصمتٍ فوق خشبة المسرح، التفتت زاد إليه لا يظهر
على وجهها سوى تعبير القناع الجامد بينما تابع معنفًا

- أنتِ لا تتعاونين مع دنيا مطلقًا.. ولا مع أي من أعضاء فريقك.. وكأنكِ في دنيا مع نفسك فقط!..

لا رد.. لا تعبير منها وقد ساد الصمت المحجر حولهم لكنه لم يكتفِ بل هدر مجددًا

- دنيا هي البطلة المشاركة لك في هذا العرض.. تقدم كل ما لديها من طاقات بينما أنتِ تتعاملين معها كصنم!..

نظرت دنيا إلى زاد التي انخفض وجهها دون أن ترد بكلمة فشعرت بقلبها يتعاطف معها قليلًا، لكن اليوم تحديدًا لا تجرؤ على التدخل فقد يقتلها كريم فعليًا إن فعلت..

قفز كريم صاعدًا إلى خشبة المسرح ثم صرخ

- لقد اقتلعنا دنيا من عالم السيرك وغرسناها هنا بالقوة، وعلى الرغم من ذلك تقدم أقصى ما لديها محاولة التأقلم وبسرعة قياسية.. أما أنتِ فلا تفلحين سوى بصدها وإحباط كافة إمكانياتها..

مجددًا لا رد منها ولم يكن لديه أي أمل في الحصول على
رد بل تابع بنبرة أكثر تعنيفًا

- وحدك تبدين.. تحلقين بعالمك وكأنك لحن من الألحان
التي يعلو صداها من حولك، لكن ما أن تقفين أمام دنيا
حتى تبدوان كطفلتين متخاصمتين!!.. مهما بلغت موهبتك،
لكنك في حاجة لتدريب أكثر مشقة والأهم أنك في حاجة
للتدريب على تفهم أنك لن تكوني وحدك فوق خشبة هذا
المسرح.. أنت جزء من مجموعة كاملة تتناغم مع بعضها..

ظلت زاد مخفضة وجهها ودنيا تراقبها شاعرة بالشفقة
عليها بينما زفر كريم بصوت عالٍ ثم هتف بفضاظة وقسوة

- بالطبع لن أحصل منك على أي رد.. تتصرفين كصنم تمامًا
كالقناع الذي تضعين..

انقبض صدرها من الإهانة العنيفة فتحرك حلقها محاولة
التغلب على الغصة المؤلمة التي تعترضه.. ثم فجأة ودون
مقدمات سمع الجميع صوتًا غاضبًا يقول من آخر قاعة
المسرح

- من تظن نفسك لتعنفها بتلك الطريقة؟!...

التفت رأس كريم بذهولٍ متتبعًا مصدر الصوت فرأى رجلاً يقف من بعيد يراقب ما يحدث متجهماً والغضب الشديد يعلو وجهه، فصرخ بعنف

- من أنت؟!.. من هذا؟!.. ومن سمح له بالدخول؟!..

أما زاد والتي كانت تنظر إليهما مذعورة، هتفت فجأة

- إنه.. إنه معي...

نظر إليها كريم ذاهلاً مكرراً وكأنما نطقت بالتبرير الخاطيء تماماً

- إنه معك؟!!!!!...

ثم لم يلبث أن ضرب كفًا على كف وهو يهدر ساخرًا بغضب

- ممتاز والله!!....

استدار إلى مقتحم المسرح المجهول قائلاً وهو ينحني
بطريقة مسرحية ساخرة

- أهلاً وسهلاً أستاذ معك.. هلا أخبرتنا عما تفعله سيادتكم
باقتحامك المكان دون وجه حق بتلك الطريقة!!..

اقترب سائد منهم حتى وقف بجوار خشبة المسرح تمامًا
ونادى صارماً

- انزلي يا زاد.. يجب أن أرجعك للبيت الآن...

نقل كريم عينيه بينهما ذاهلاً ثم صرخ مردداً

- انزلي يا زاد!!!!.. من هذا؟!.. من أين أتى؟!..

التفت إلى زاد يسألها منفعلاً - أنتِ يا أستاذة زاد.. من هذا
الذي قرر من تلقاء نفسه للتو إنهاء التمرين!!..

تحرك حلقها بصعوبة ثم مدت يدها تجاه سائد هامسة
بتعثر متلعثمة

- إنه.. إنه ابن.. ابن..

أغمض سائد عينيه وهو يزفر بنفاذ صبر حتى تابعت تقول
بعجز وبصوتٍ خفيض وكأنها تهمس لكريم كي لا يسمعها
أحد

- إنه ابن زوج.. ابن زوج أمي..

ارتفع حاجبا كريم وهو ينظر إليها ثم إلى سائد وهتف
ساخراً محتدًا دون أن يبتسم

- أهلا وسهلا يا ابن زوج أمها.. خير إن شاء الله.. هل لديك
أي اعتراض على طريقة سير التمرين!!..

ارتفع صوت سائد ليقول بصرامة

- نحن لم نسمح لها باتباع إعلانك البائس.. كي تتعرض

للإهانة والتعنيف!!..

اتسعت عينا زاد.. وعينا كريم.. وعينا دنيا.. وأعين الجميع..

بينما تابع سائد بغضبٍ أكبر

- كل المتواجدين هنا جاءوا بحثًا عن أملٍ بين موجات
اليأس.. لا عن مزيد من التعنيف والتجريح!

رفعت زاد كفيها تغطي بهما وجنتي القناع وكأنهما توردًا
حرجًا، بينما مالت دنيا برأسها تمط شفتيها قائلة بخفوت

- ابن زوج أمها لديه وجهة نظر منطقية..

التفت كريم ناظرًا إليها شزرًا فهمست مبررة - أنا مع الحق..

هتفت زاد مخاطبة كريم بعذاب، متمنية أن تنشق الأرض
وتبتلعها

- أرجوك.. هلا سمحت لي بالمغادرة الآن، لم يتبق سوى

بضعة دقائق على موعد انتهاء التمرين على كل حال.. أرجوك

بقي كريم صامئًا فاعتبرت صمته موافقة مفروغ منها،
حينها تكلم سائد موجهًا كلامه لها أمرًا بقساوة

- سأنتظرك في السيارة..

ثم خرج أمام الجميع بعد أن رمى كريم بنظرة قاتلة!..
جعلت دنيا تضحك رغماً عنها لكنها كتمت الضحكة بقبضتها
ما أن التفت إليها كريم بنظرة لأردتها صريعة لو كانت
النظرات تقتل..

كطفلة نالت نجمة ذهبية في دفترها.. ابتسمت!

كانت زاد تصارع شعرها والسترة ثم القلنسوة، تحاول
تبديل ملابسها في وقتٍ قياسي.. وما أن انتهت وكادت
تخرج من غرفة التبديل حتى فوجئت بدنيا تدخل ثم وقفت
أمامها صامئة..

اضطربت زاد على الفور كحالتها كلما حاول أحدهم تخطي الحدود التي تضعها لنفسها كي تبقى بعيدة عن الجميع.. فبادرت دنيا تقول بهدوء

- لن آخذ من وقتك سوى دقيقة.. لقد انتهزت فرصة وجودك بمفردك لأتكلّم معك في موضوع هام، وهو ما قاله كريم منذ قليل، حول عدم تعاونك وخلافه..

تشبّثت زاد بحزام حقيبتها بقوة حتى ابيضت مفاصل أصابعها صامتة بترقب.. لا يظهر من ملامحها شيء بسبب القناع الصلب الجامد.. بينما تابعت دنيا تقول برزانة

- إن كان وجودي لا يريحك فأنا على استعدادٍ للانسحاب من الفريق..

لم يبدر من زاد ما يدل على أنها سمعت شيئاً مما قالت دنيا للتو وساد الصمت طويلاً حتى قالت أخيراً بنبرتها الفاترة الخفيفة ذات النغم الأجوف

- هل تتخلين عن حلمك لمجرد أن وجودك قد لا

يريحني؟!..

هذا تحسنٌ كبير، فلم تظن أن زاد قد تتنازل وترد عليها من الأساس.. فهزت كتفها وقالت ببساطة

- لما لا؟!.. ففي النهاية هذا عرض لرقص الباليه وأنا لست منكم.. إن كان على إحدانا الانسحاب فأنتِ الأولى بالبقاء..

صمتت للحظات بينما ظلت زاد بلا تعبير.. بلا رد.. فتابعت دنيا قائلة بإباء

- كما أنني لا أقبل تعاليًا من أحد..

فتحت زاد فمها بتردد ثم سألت ببطء وبنبرة خفيضة حائرة

- لماذا قد أتعالي عليك!...

عادت دنيا تهز كتفها بعدم معرفة لكنها ردت بجمود

- ربما لأنني من السيرك، فيضايقك مشاركة البطولة مع
مهرجة..

لم ترد زاد على الفور وهي تحقق في عيني دنيا بلا تعبير..
ثم قالت

- أنا هي من تضع القناع!!.. إن كان هناك مهرجًا يجيد
الكوميديا السوداء فهو أنا بكل تأكيد..

بدا وكأنها اكتفت بهذا القدر من الكلام فتجاوزت دنيا
لتغادر، لكن قبل أن تخرج من الغرفة قالت بصوتها الفاتر
المعتاد

- أراك غدًا يا دنيا..

لم تر الابتسامة الطفولية التي ارتسمت على وجه دنيا رغم
الحوار الحزين..

كطفلة نالت نجمة ذهبية في دفترها.. تلك الابتسامة كانت
ربحًا رائعًا في حد ذاته

ربما كنت في حاجة لمن لا يعرفك، ليشعر بألمك!

تدور من النافذة للباب وهي تفرك أصابعها بترقب منتظرة وصول ابنتها التي حرمت بالقوة من إيصالها اليوم كعقاب لها على ما فعلته!!..

سمعت جيهان صوت وصول سيارة سائد أخيرًا بعد أن كادت تنهار أعصابها فجرت للنافذة كي تطمئن على سلامة زاد..

لكن ما أثار حيرتها هو خروج زاد من السيارة بحركة منفعة ورغم جمود ملامح القناع الصامت.. إلا أنها بدت غاضبة وهي تصفق الباب خلفها!!.. تبعها سائد عابس الوجه يصفق الباب أيضًا مما جعل جيهان تنتفض مرتين!

وما هي إلا لحظات حتى فتح الباب وسمح لزاد بالدخول قبله.. فتحركت جيهان لتقترب منها إلا أن زاد تابعت طريقها تصعد درجات السلم جريًا وكأنها اكتفت اليوم..

فنظرت جيهان لسائد وسألته بصوتٍ متوتر غاضب لكن
القلق يشل نبرته

- هل تشاجرتما؟!...

أجابها سائد بفضاظة وقلة تهذيب دون أن يتوقف للحظة

- اسأليها!.. بعد إذنك سأصعد غرفتي لأرتاح، لقد اكتفيت
من كل ما يخصك ويخص ابنتك في يوم واحد..

ثم صعد درجات السلم تاركًا جيهان تحقق فيه ذاهلة
ولسانها يهمس بصدمة

- يا لك من عديم الذوق!!...

اتجهت إلى غرفتها لا ترى أمامها من شدة الغضب.. تسمع
صوت خطواته تلاحقها باندفاعٍ مجرم، فأقسمت إن اقترب

منها أو حاول اعتراض طريقها مجددًا فسوف..

قسمها لم يكتمل!!.. فقبل أن تدخل غرفتها وجدت شيئًا موضوعًا أرضًا أمام الباب في انتظارها!

انحنت زاد ببطء حتى أمسكت بها، ثم استقامت ببطء أكبر.. لقد كانت مجموعة من الأقنعة البيضاء الجديدة في انتظارها!!

انتبهت إلى أن صوت الخطوات الغاضبة قد توقفت منذ لحظات، فأدارت وجهها لتراه واقفًا أمام باب غرفته ممسكًا بالمقبض.. لكنه لم يفتح الباب ويدخل، بل وقف هناك مُلتفتًا إليها يراقبها!

مرت اللحظات بينهما وكل منهما واقفٌ أمام باب غرفته يراقب الآخر.. لانت ملامحه وأقسم أنه رأى ملامح القناع الوردي البراق تبتسم!!.. فابتسمت شفتاه ببطء تجاوبًا..

حينها أطرقت بوجهها فتساءل إن كان القناع يمثل هذه الوردية حقًا أم تراه تورد انفعالا!!..

تلك الليلة والبيت ساكن بعد أن توجه الجميع لغرفاتهم..
استلقى في فراشه وكفيه متشابكتين أسفل رأسه محدقًا في
السقف بملامح غامضة.. غريبة على نفسه، كما هي مشاعره
غريبة لا يكاد أن يتعرف..

لم يكن مراهقًا ولم تنقصه التجربة فما باله!!.. ماذا فعلت به
صاحبة قناع لم ير من ملامحها شيئًا!!..

حتى الحوار مفقود بينهما إلا من بعض العبارات المقتضبة
المتبادلة!!.. ما يعرفه أنها تثير بداخله إحساسًا بالحماية
وكأنه مسؤول عنها بطريقة ما!!..

غباء.. غباء.. غباء!!.. لقد عاد إلى هذا البيت خصيصًا ليفسد
مخططات والده ويمنع توغلها وتثبيت أقدامها بين جدرانها!!

فلم يجد إلا نفسه تتعمد استبقائها والدفاع عنها!!.. ما ذنبه
إن كانت تبدو كطير مكسور الجناح حُرِم من التحليق!

زفر بنفاذ صبر وهو ينقلب على جانبه محدقًا في الجدار..
لكنه مجددًا لم ير سوى صورتها منعكسة عليه من وحي
خياله!!

أي صورة إن كنت لم تر ملامحها حتى هذه اللحظة!!..

قاطع شروده صوت طرقات هادئة على باب غرفته مما
جعله يعقد حاجبيه ناظرًا للساعة.. من سيطرق باب غرفته!!

إلا إذا!!!!..

لمعت عيناه فجأة وهو ينهض قافزًا من سريره مندفعًا
تجاه الباب يفتحه بقوة.. لم يكن هناك أحد.. لكنه لمحها!!..

كانت تجري في الرواق على أطراف أصابعها وشعرها
الطويل يتطاير خلفها حتى اختفت في غرفتها مغلقة الباب
بحذر حريصة ألا تصدر صوتًا!!..

وقف مكانه مشدوهاً كالأحمق.. لقد زارته الحورية وطرقت
بابه!..

رمش بعينه وهو ينظر جانبًا مبتسمًا فخورًا بنفسه.. سعيدًا
لسبب غير معلوم!..

انخفضت عيناه فلمح قالب كعك على الأرض مثبت فيه
رسالة!.. انحنى ببطء ليمسك بالقالب ثم نزع عنه الرسالة
ليقرأها بنهم

ولذة!

“ أشكرك على الأقنعة.. كما لم أشكرك بعد على القناع
الوردي.. شكرًا

هل.. بإمكانني الاحتفاظ به؟ ”

دخل إلى غرفته ملتهمًا قالب الكعك وعلى شفتيه ابتسامة..
لقد اقتربت منه كما لم تقترب من غيره!..

مستلقية في فراشها على وسادة من شعرها الجميل،

ممسكة بالقناع الوردي البراق بين يديها تتأمله ببريق في
عينها يشبه بريقه..

لقد أشعرها هذا القناع اليوم وكأنها.. جميلة!..

صوت طرقة على الباب جعلتها تنتفض جالسة في سريرها
تنظر لمقبضه.. إن تحرك فستكون أمها..

واحد.. اثنان.. ثلاث..

لم يتحرك!.. تحركت شفتاها بشبه ابتسامة قبل أن تنهض
من مكانها.. تتحرك ببطء شديد وحذر حتى وقفت خلف
الباب ترهف السمع..

الخطوات تبتعد، ثم باب غرفة بعيدة يغلق، حينها فقط
فتحت باب غرفتها وعلى الفور لمحت قطعة من قالب الكعك
في الطبق ومعها رسالة صغيرة

انحنى لتمسك بالطبق، تنتزع الرسالة بحذر من القطعة
المتبقية من الكعك وقرأتها

“ لم يكن في نيتي استعادة القناع.. الوردي يليق بكِ

لقد تركت لكِ قطعة من السعادة في هذه الحياة، اغتنيها
ولا تفكري كثيرًا ”

دخلت زاد لغرفتها وعلى فمها ابتسامة تلحق الشوكولاتة
عن إصبعها بتلذذ.. لكن ما أن أغلقت الباب واستدارت حتى
واجهتها صورتها في المرآة.. لقد اكتشفت أنها نسيت وضع
القناع قبل أن تفتح الباب!!..

غامت عيناها وقد بهتت ملامحها على الفور وظلت واقفة
مكانها تتأمل صورتها الساكنة في المرآة.. لا يتحرك منها
سوى شعرها الذي يطيره نسيم نوفمبر بخفة..

تقدمت للأمام تاركة الطبق على الطاولة ثم جلست على
الكرسي المواجه للنافذة وبدأت بالهمس بصوتٍ فاتر وملامح
خالية من التعبير والحياة

- واحد.. اثنين.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة..

آخر ما توقعه هو سماعه صوت طرقات جديدة على باب غرفته!.. اختلاجة في صدره دفعتة للقفز واقفًا مندفعًا تجاه الباب بسرعة أكبر.. هذه المرة سيكون أسرع من أن يسمح للحرورية بالفرار، لا ير منها سوى شعرها المتطاير خلفها..

فتح الباب بقوة لاهثًا وعلى شفتيه ابتسامة عثرت على انعكاس لها في عينيهِ اللامعتين.. لكن وخلال لحظة واحدة انطفأت كل الأنوار وكأن هناك من ضربه بكرسي في منتصف وجهه.. لقد وجد نفسه يقف وجهًا لوجه أمام جيهان..

ارتفع حاجباه مجفلاً وكأنه ضُبط بالجرم المشهود..

أجفلت جيهان كأخفأته حين لاحظت الحماس الذي فتح به الباب.. فسأله بصوتها الخفيض المبحوح

- هل كنت تنتظر أحدًا؟!..

استغرقه الرد عدة لحظات، ثم أجاب بحذر

- إنها غرفة تطل على روق في بيتنا!.. فمن سأنتظرا!..

أومأت برأسها دون كلام وقد بدت شاردة الذهن، واقفة أمامه بصمت.. مما جعله يتنهد منتظراً بصبر، لكن خلال انتظاره استطاع أن يلمح في عينيها الإرهاق.. السهر الطويل والنظرة الغائرة وكأنها لم تعرف طعم الراحة منذ عودة ابنتها!

فتحت فمها تنوي الكلام.. لكنها عادت وأغلقتة صامتة تنظر حولها تسأل نفسها عما تفعله هنا!..

سألها أخيراً بجمود - هل أنت بخير؟!..

رفعت عينيها إليه وكأنها نسيت وجوده ووقوفها أمام باب غرفته ثم همست فجأة

- أنا لست أم سيئة....

ساد الصمت للحظات وهو يحدق بها مضيئاً عينيه، بينما بدت جيهان على حافة الانهيار، ليست تلك المرأة الحازمة التي واجهت ابنتها اليوم صباحاً بكل شراسة!..

تابعت تحاول مجددًا بصوتٍ أكثر تعبًا وألمًا

- أنا لست تلك الأم السيئة التي ظننت أنك تحمي ابنتها منها.. أنت لا تعرف شيئًا عما أصاب زاد.. أنت لا تعرف أي شيء..

استند سائد إلى حافة الباب يتأملها للحظات ثم أجاب أخيرًا بهدوء

- أنا لا أعرف ما أصاب زاد، بينما أنتِ تعرفين.. لكنك لا تفهمين! ربما زاد في حاجة لمن لا يعرف، كي يفهم ألمها..

نظرت إليه طويلاً بعينيها الضائعتين ثم أومأت بإشارة واهية قبل أن تنصرف ماشية في الرواق بخطواتٍ بطيئة دون حتى أن تلقي عليه التحية!..

راقبها سائد حتى دخلت غرفتها وقد غامت عيناه بظلال كئيبة..

مدرگا أنه يوم يعرف.. فلن يفهم!

نظر إلى ساعة معصمه عاقدًا حاجبيه، لم يكن مدرگا أن الوقت قد مر بتلك السرعة فتأخر على- أمل حتى هذه الساعة!..

تنهد شاعرًا بالضيق ثم رفع رأسه مناديًا آخر العمال بعصبية

- ألم ننته بعد يا حسن!!.. لقد تأخرنا اليوم جدًا..

أجابه حسن وهو يقترب مهرولاً- انتهيت يا أسطى حكيم..
كنت ألملم أدواتي..

أشار حكيم بكفه أمرًا بغلظة- كفى كلامًا.. هيا.. هيا.. عد
لبيتك وأولادك..

رفع حسن كفه إلى جبهته يحيه حاملاً الحقيبة على ظهره
ثم أسرع خارجًا.. بينما وقف حكيم واضعًا كفيه في خصره

متأملًا مرحلة وصول العمل لليوم كعادته..

لقد تم نصب العوارض الخشبية الضخمة والمقطعة بأشكال محددة وفقًا للدراسة التي قام بها المهندس المسئول عن تصميمها..

العمل أضخم مما تخيل.. أو ربما كما تخيل تحديدًا وهذا بالذات ما دفعه للقبول

إن انتهى التجهيز المبدئي لمسرح التدريب، ثم التجهيز النهائي للعرض الأخير فسيكون مجهودًا جبارًا ونقلة مختلفة..

لقد بدأ يعيش الصعوبة الفعلية، فعلى الرغم من ضخامة ورشته المجهزة بالماكينات المناسبة بخلاف الحرفيين بمهاراتهم العالية إلا أن الأمر لم يكن سهلًا على الإطلاق..

حك لحيته الخفيفة شارد الذهن مقيمًا تصميمات الخشب بعين ناقدة.. وكعادته استغرقه هذا بضعة دقائق إضافية قبل أن ينتبه لنفسه فشتم بصوتٍ خفيضٍ مدرّجًا زيادة تأخيرته..

اتجه للزاوية حيث حبل شد الستار القماشي الضخم فوق
العمل الذي تم إنجازه الآن ليغطيه.. لكن مع تحركه خطوة
انتبه لميل أحد الأعمدة الخشبية مما تسبب في ضربه لواحد
من كشافات الضوء فأخل بتوازنه وبدأ وكأنه على وشك
السقوط في منتصف خشبة المسرح في أي لحظة!!

انعقد حاجباه بشدة واقترب من المنتصف رافعاً رأسه
ليقيم حجم الضرر ثم قال بقلق

- هذه مشكلة!!..

سمع صوت خطواتٍ متباطئة تقترب منه ثم صوت أنثوي
يسأله بفضول

- مشاكل يا أسطى؟!...

التفت مجفلاً ليرى شابة تقف مبتسمة له ببشاشة تحمل
بكفٍ حقيبتها الملقاة على ظهرها ويدها الأخرى في خصرها..

تقف بعنفوانٍ وكأنها وقفة محارب!!..

تعرف عليها على الفور، فهي واحدة ممن يتمرنون على خشبة هذا المسرح يوميًا.. يراها كثيرًا وفي أوقات مختلفة من اليوم

ماذا تريد؟!.. أدار وجهه وهو يقول متجاهلاً

- لا مشاكل....

توقع أن تبتعد، إلا أنه فوجئ بها تقترب أكثر حتى وقفت بجواره ثم قالت ببساطة واهتمام

- لكنني سمعتك تقول إن هناك مشكلة!..

كتم نفسًا نافذ الصبر لكنه أجاب مضطربًا باقتضاب مشيرًا بإصبعه لأعلى

- هذا المصباح على وشك السقوط في أي لحظة..

تتبع بعينيها إشارة إصبعه فرفعت رأسها لترى المصباح

المقصود، ثم سألته تمط شفتيها مقيمة الوضع

- وهل تعد مشكلة ضخمة؟!...

التفت إليها متجهماً إلا أنه رد متنهداً - قد يقع على رأس أحدهم ليقتله على الفور.. لذا ربما كانت تلك مشكلة!!

استدارت إليه وعرضت بعفوية

- لو كان هناك سلماً أو واحدة من تلك السقالات التي تستخدمونها فربما تمكنت من المساعدة..

استدار إليها سائلاً ببلادة

- لو كان هناك سلماً أو واحدة من السقالات التي ستنبثق فجأة من تحت الأرض لترتفع في منتصف خشبة المسرح أما كنت قد تصرفت أنا دون الحاجة للمساعدة من فتاة!!..

عقدت حاجبيها ترمقه بدهشة ثم سألته مستاءة

- لماذا تتكلم بعدوانية؟!!.. كنت أعرض المساعدة فحسب!!..

تنهد مجددًا ثم رفع كفه يضغط بها جبهته للحظات قبل أن
يتنازل بالنظر إليها قائلاً

- أنا متعب وقد تأخرت كثيرًا، هذا هو كل شيء..

اعتبرت رده اعتذارًا من نوع ما.. فقالت بلطف- أعانك الله
يا أسطى..

تنهد بنفاذ صبرٍ إلا أنه رد باختصار عليها تنصرف - شكرًا...

لكنها ظلت واقفة بجواره ويدها في خصرها رافعةً رأسها
تأمل موضع الضرر مما جعله يختلس النظر إليها بطرفِ
عينيه متضايقًا.. لكنها لم تنتبه بل اقترحت فكرة

- يمكنك إعادة تثبيته غدًا ما أن تصل..

أغمض حكيم عينيه طالبًا الصبر، إلا أنه ضغط على نفسه
ورد بتهذيب

- لا يمكنني فعل هذا حتى وإن كان احتمال سقوطه لا يتعد الواحد بالمئة.. إنها مسئولية علي..

سألته باهتمامٍ واضح وكأنها أصبحت مشكلتها الخاصة

- لكن ماذا ستفعل؟!.. أليديك اقتراح؟!..

رفع كفه بأصابع متشنجة يجيها بغیظ من بین أسنانه مطبقًا جفنيه

- ربما لو حصلت على دقيقة واحدة من الصمت لأفكر بهدوء..

لم تعتبرها إهانة بل ابتسمت بمرح وهي تلقي بحقيبتها أرضًا بجواره قائلة

- ابق هنا وفكر ريثما أعود لك....

ارتفع حاجباه وهو يراها تتركه خارجة من باب المسرح الجانبي وكأنها لم تكن واقفة بجواره تثرثر للتو!!..

هز رأسه متعجبًا لكنه أعاد تفكيره للكشاف المُوشك على
السقوط..

مرت دقائق حتى سمع أصواتًا غريبة بالسقف مما جعله
يعقد حاجبيه مضيّقًا عينيه وهو يلاحظ حركة أعلى الفتحة
الموجودة به..

ثم لم يلبث أن فغر فمه ذاهلًا وهو يراها تنخفض عبر تلك
الفتحة بحرصٍ متمسكة أسفل ذراعيها بشريطٍ قماشي
عريض!!!..

اتسعت عينا حكيم وهو يصرخ فجأة بصوتٍ ارتج في فراغ
المسرح الضخم

- ماذا تفعلين؟!!!.. هل أنتِ مجنونة؟!!!.. انزلي حالا!!!..

هتفت بقوة كي يسمعها جيدًا وهي مستمرة في النزول على
القماش الناعم

- ابتعد عن المنتصف كي لا يسقط المصباح على رأسك..

صرخ فيها حكيم شاعرًا بقلبه ينتقض خوفًا

- قلت لك انزلي حالا...

هتفت به بثباتٍ تحسد عليه

- إن نزلت حالا فسأقع لينكسر عنقي.. توقف عن الصراخ
كي لا تشتت انتباهي.. والآن ابتعد قليلا..

سكت على الفور خوفًا من أن يشتت انتباهها كما قالت
وتراجع للخلف بضعة خطوات يراقب ما يحدث بجنون..

توقفت في مكانها متدلية ولا تزال أعلى من القائم المثبت
عليه المصباح.. فتحركت رافعة ساقيها وجسدها حتى باتت
معلقة بركبتيها والشريط ملتف حول هاتين الساقين.. فتدلت
لأسفل حرة الكفين والذراعين!!!..

أوشك حكيم على أن يصرخ فيها لتنتبه إلا أنه كتم صرخته

في اللحظة الأخيرة خوفًا من إفزاعها.. بينما انشغلت بتحريك المصباح وفكه بحرص إلى أن تمكنت من خلعه.. ثم بدأت في الدوران والانزلاق على الشريط مجددًا أمام عينيه الذاهلتين حتى قفزت في آخر خطوة ووقفت على الأرض بسلام ، ثم نظرت إليه مبتسمة ابتسامتها العريضة وكأنها تنتظر منه تصفيقًا مدويًا!!..

كان حكيم واقفًا مكانه، كفاه أعلى رأسه يلهث بنفس متسارع.. واستغرقه الرد بضعة لحظات كي يتمالك نفسه ثم لم يلبث أن صرخ فيها هائجًا بجنونٍ غاضب

- هل أنت مجنونة!!.. هل أنت مجنونة!!.. هل فقدت عقلك؟!..

انعقد حاجباها وهي تنحني لتضع المصباح جانبًا ثم استقامت لتقترب منه سائلة باستياء

- لماذا تصرخ بهذا الشكل؟!.. لقد حلت لك المشكلة!..

نظر حوله وكأنه يريد يستغيث بأحدهم قبل أن يفقد

أعصابه ويقتلها!!.. لكنه لم يجد الفرصة فقد دخل كريم المسرح بعد سماعه الصراخ العالي فيه..

هتف كريم بقلق - ماذا حدث؟!.. من يصرخ؟!..

ثم لمح دنيا فسألها عابثًا - ألم تغادري بعد يا دنيا؟!.. لقد انصرف الجميع!..

ردت دنيا ببساطة مبتسمة - كنت على وشك الانصراف..

كان حكيم ينقل عينيه بينهما ذاهلا قبل أن يصرخ بقوة أفزعتهما سوياً

- إنها تبتسم!!!.. إنها تبتسم وكأنها لم تفعل شيئاً!!..

نظر إليه كريم مصدوماً من غضب ذلك الرجل الذي ما عرفه إلا هادئاً مهذباً!!.. ثم سأله بقلق

- بهدوء يا أسطى حكيم.. بهدوء كي أفهم.. ماذا فعلت دنيا؟!..

ثم التفت إليها يسألها مستاءً وكأنه يكلم طفلة مشاغبة -
ماذا فعلتِ ثانية يا دنيا فأفقدتِ الرجل أعصابه!!!!..

أشارت لحكيم قائلة بحدة - حلت له مشكلة و عوضًا عن
شكري لا يتوقف عن الصراخ بي وإهانتني!..

هتف حكيم صارخًا يفزعها مرة أخرى

- لقد تدلت بساقيها من السقف متعلقة بقطعة قماش!!!!.. لقد
كانت على وشك أن تسقط ليدق عنقها!!!!..

ضحكت دنيا قائلة بعصبية

- يا رجل افهم.. هذه هي طبيعة عملي، أتقنه كما تتقن
التعامل مع ماكينات قص وحفر الخشب!!..أنا أتدرب على هذا
الشريط يوميًا ولهذا له قائم مثبت بسقف هذا المسرح

استدار إليها كريم هاتفًا بغضب محتدًا

- هل تدليت بالشريط دون وسائل سلامة!!!!.. هل جئتِ يا

دنيا؟!.. هل نسيت أن لدينا عرض أنتِ بطلته!!..

نظر إليه حكيم ذاهلاً وهمس عاقداً حاجبيه بجنون وكأنه
يخاطب زوجاً من المعاتيه

- هل تتكلم عن العرض؟!...

إلا أن كريم هتف في دنيا أمراً بصرامة وهو يشير بإصبعه
لباب المسرح

- اخرجي من هنا حالاً.. ارجعي لبيتك لتنالي قسطاً من
الراحة.. وتذكري أن أي تهور تقومين به لا تدفعين ثمنه
بمفردك، بل يدفع ثمنه الجميع..

زمت دنيا شفيتها متجهمة إلا أنها رفعت كفها لجانب رأسها
قائلة باقتضاب وخشونة

- سلام عليكم إذن..

انسحبت وهي تتوجه بخطواتٍ مندفعة ثم انحنت لتلتقط

حقيبتها قبل أن تستقيم ناوية الخروج لكن قبل أن تفعل
استدارت ونادت قائلة بصلاية

- ولا شكر على واجب يا أسطى..

رمقها بنظرة عنيفة لكنه لم يرد لعدم استقرار أنفاسه بعد..
وما أن خرجت حتى استدار كريم إليه وقال بحرج

- أنا أعتذر بالنيابة عن دنيا يا أسطى.. إنها متهورة، لكنها
لا تقصد سوءًا أبدًا.. لنغير الموضوع كنت أود الكلام معك
بخصوص الدفعة القادمة من التكلفة.. كنت.. إن أمكن أن
تؤجلها لشهرٍ واحد فقط.. سأكون ممتنًا وشاكرًا لك..

حاول حكيم استيعاب ما يقول وهو لا يزال يلهث فاتحًا
كفيه بغباء، ثم أوماً برأسه بعدم استقرار فما كان من كريم إلا
أن شد على ذراعه قائلاً بنبرة امتنان وابتسامة عريضة تزين
وجهه

- شكرًا يا أسطى.. شكرًا لك..

حـدق حـكـيـم بـعـنـيـن وـاسـعـتـيـن فـي الفـراغ المـحـيـط بـه قـبـل أن
يـضـرب كـفًا بـكـف مـحـاولـا السـيـطـرة عـلـى المـتـبـقـي مـن أـعـصـابـه .

هـنـا الحـيـاة.. لـن يـصـفـق لـك أـحـد....

كـان عـلـى وـشـك الخـروـج مـن المـسـرح بـعـد أن هـدأت أنـفـاسـه
وتمالك أعصابه.. وبقي فقط الاستياء والتجهم والندم على
التأخر على أمل.. على الأرجح أنها نامت الآن ولن يراها قبل
أربع وعشرين ساعة كاملة.. هذا إن لم يتأخر عليها ثانية،
حينها قد يراها بعد يومين كاملين!..

توقفت خطواته قبل الخروج وهو يلمح كريم واقفًا مع
الفتاة المجنونة والمسماة دنيا.. وكان التجهم والعبوس
باديان على وجهها وهي تقف أمامه مطرقة..

لم يرد الخروج وإلقاء التحية عليهما الآن فربما لو انتظر
دقيقة لانصرفا.. وبينما هو واقف التقطت أذناه ما يقوله
كريم

- يا دنيا نحن لسنا في السيرك.. هنا الحياة، لسنا عائلة واحدة يساعد أفرادها بعضهم دون طلب!.. لا يمكنك فرض نفسك على كل غريب يمر بأيامك!.. تلك العفوية لن تضر سواك، بدأت أفهم مشكلتك في وجودك وحيدة للمرة الأولى بعد استقلالك عن السيرك.. وهذا بكل تأكيد يسبب لك التشتت.. لكنك تتأقلمين بشكلٍ خاطئ، تجعلين من الجميع عائلتك.. وتفترضين أنهم سيصفقون ما أن تقومي بهوايتك المفضلة وهي حب الاستعراض..

على الرغم من الألم الذي نحر قلبها حتى غامت عيناها إلا أنها ردت بوجوم

- كل هذا لأنني ساعدت في ألا يسقط مصباح على رأس أحدهم!..

ابتسم كريم ابتسامة قصيرة ثم كرر بهدوء

- هنا الحياة يا دنيا.. لن يصفق لك أحد.. تذكرني كلامي

لم تحاول الرد عليه بأي ردود واهية بل اكتفت بالصمت

مطرقة بوجهها فتابع كريم أمرًا

- والآن اذهبي لترتاحي.. أريدك بكامل لياقتك قبل شروق الشمس..

استطاع حكيم أن يلمحها وهي واقفة مكانها للحظات بعد انصراف كريم، مطرقة الوجه مكتفة ذراعيها تحقق في الأرض وكأنها غير راغبة في المغادرة..

لكنها اضطرت في النهاية لجر نفسها بخطواتٍ ثقيلة، فتبعها كي لا يتأخر..

يتأملها وهي تبتعد مشيًا في الطريق المظلم المجاور للمسرح.. حقيبتها على ظهرها، تركل الحصى من طريقها وكأنها فقدت كل الطاقة الجبارة التي ظهرت بها أمامه منذ قليل!!

ظل حكيم واقفًا مقطب الجبين يراقبها حتى اختفت في الظلام..

فتحت باب شقة جلال الضيقة لتدخل دون حماسٍ ثم
أشعلت الضوء ووقفت تنظر حولها بعينين عميقتي النظرة،
يَفْلأهما الوحدة.. الوحشة..

إنها حتى لا تجد الوقت لتصلح ما يحتاج لإصلاح فباتت
تعيش بين الجدران المتقشرة برائحتها الرطبة.. وقطع الأثاث
المتهاكة ذات الحشو الخارج من أجزاء متفرقة..

جلست على الأريكة تنظر حولها بلا تعبير، عائدة للصمت
الموحش.. رفقاء لياليها الطويلة مجموعة من الصور القديمة
لها في السيرك رافعة ذراعيها والجمهور يصفق لها..

حكيم

شعر بالحرج وهو يقف أمام الباب منتظرًا بعد أن ضغط
الجرس.. يا له من موقف!!.. لقد تأخر جدًا الليلة ولا يصح

طرق بيوت الناس في ساعة متأخرة!.. يكفي المساعدة التي يتلقاها منهم، لم يكن ينبغي أن يثقل عليهم إلى هذا الحد..

فُتِح الباب وأُطِلت منه امرأة ممتلئة طيبة الملامح وهي تبادر بالقول بمودة

- أهلا أهلا يا حكيم.. تفضل بالدخول..

لكنه ظل واقفاً يقول بنبرة معتذرة

- أي دخول يا عمة حُسْنَى!.. يكفي المشقة التي ألقيتها عليكم اليوم أكثر من باقي الأيام، لقد أتيت لآخذ أمل إن لم تنم بعد..

ردت حُسْنَى مُؤَنِّبة

- ألن تتوقف عن ذات الأسطوانة المحفوظة يا حكيم؟!.. ليتك تُبقي أمل لدينا ليلاً ونهاراً، حفظك الله لها ومتعك بالصحة.. أمل كانت السعادة لحياتي أنا وعمك صديق.. لقد رفضت النوم حتى تأتي، سأناديها..

لم تكذ تتم كلماتها حتى اندفعت طفلة صغيرة خارجة من
إحدى الغرف وهي تنادي

- حكيم.. حكيم.. حكيم..

ارتسمت الابتسامة تلقائيًا على ملامحه وفتح ذراعه
يداعبها بمحبة

- أهلا.. أهلا..

وصلت إليه تضم خصره بذراعيها فانحنى ليقبل قمة رأسها
بحنان، ثم استقام مودعًا حسنى بابتسامة امتنان

- شكرًا لك يا عمة حُسنى، وبلغني سلامي للحاج صديق،
مؤكد أنه نائم الآن.. تصبحين على خير..

ردت حسنى خلفهما وهو يصعدان درجات السلم القديم

- تصبحان على الرضا والسرور..

انحنى حكيم ليحمل أمل بين ذراعيه رغم أنها أصبحت
الآن شابة كبيرة في السادسة من عمرها، لكن يظل حملها
متعة بالنسبة له

سألها صاعدًا للطابق الذي يعلو شقة حسنى وصديق

- ترى هل كنتِ شقية اليوم وأتعبتِ العمة حسنى يا حلوة
البنات؟..

ردت أمل بثقة - لقد قالت العمة حُسنى بإمكانى أن أكون
شقية كما أحب..

توقف حكيم أمام باب شقته الخشبي ذي الشراعتين
الزجاجيتين ونظر إليها متجههم الوجه قائلاً بصرامة

- لكنني قلت لا يمكنك أن تكوني شقية!!..

ردت وهي تضع إصبعها في فمها علامة شعورها بالنعاس
بعد يوم طويل

- لكنك قلت ينبغي أن أسمع كلام العمة حُسنَى.. وهي قالت
بإمكاني أن أكون شقية..

ارتفع حاجبا حكيم وهو ينظر إليها غير مصدقا، ثم قال
ضاحكا

- يوما ما ستكونين محامية بأربعين لسان!!..

فتح باب البيت وكم كان يتمنى لو وجد الوقت ليلعب معها
قليلا لكن بمجرد وصوله لغرفتها شعر برأسها يثقل على كتفه
وعينيها تنغلقان وإصبعها لا يزال في فمها فتنهد يضمها بقوة
مغمضا وهو يقول مبتسما بحنان

- يا الله.. ما أجمل البنات!..

لم ترد عليه فقد راحت في سبات عميق مما جعله يضعها
في سريرها مرغما، ثم استقام واقفا لينظر إليها طويلا يشبع
عينية من جمالها الشبيه بحلاوة السكر..

يحب البنات ويكره أذيتهن.. ورغم جفاف تعامله معهن

عادة إلا أنه يكره أذيتهن.. ولهذا يشعر الآن بالضييق للطريقة
التي صرخ بها في وجه تلك الشابة المجنونة التي تدلت من
سقف المسرح!

رغم كل شيء فما هي إلا.. مجرد بنت!!.. لا تستحق الصراخ
أبدًا..

تنهد حكيم وهو يخرج من غرفة أمل متجهًا لغرفته
متجاهلاً التوجه للمطبخ ليأكل شيئًا.. بإمكانه طلب أفخر
أنواع الطعام الجاهز.. لكنه بات يكره الأكل وحيدًا، فلا مذاق
له..

و بينما هو يبدل ملابسه استقرت عيناه على صورة معلقة
على الجدار لشابة رقيقة الملامح فتنهد مجددًا ثم همس
بصوتٍ خفيض

- رحمك الله يا رقية.. رحمك الله يا حبيبتي

أنا لا أغار.. أنا أشفق فقط على ارتباكٍ من يراكِ

فتحت الباب بحذر لترى من يطرق باب غرفتها.. فهذا البيت ما هو إلا أبواب على رواق طويل، خلف كل باب حكاية أغلبها حزين.. لم تر فرحًا يطرقها، وكم لائمها هذا!.. فلم تكن الكئيبة الوحيدة على ما يبدو!

توقعته من يطرق الباب، لكن لم يستطع عقلها تفسير سبب خيبة الأمل التي طافت بداخلها على استحياءٍ وهي ترى نفسها واقفة أمام خطاب!..

ارتبكت للحظة وارتفعت أصابعها تتأكد من تثبيت القناع ثم همست بفتور

- نعم؟...

ارتفع حاجباه للحظة باستغراب إلا أنه رد بصوتٍ رزين والابتسامة على وجهه

- ثقال.. أهلا يا عمي خطاب..

لم ير انطباعًا سوى قناعًا جامد المشاعر يطالعه بلا صوت
أو حركة.. لكنها ردت في النهاية ببطء

- أهلا.. عمي..

بدا وكأنه أكثر من راضيًا فقال يمد يده ليمسك بيدها
يشدها برفقٍ خارج غرفتها

- تعالي معي..

كان جسدها يقاومه تلقائيًا وأصابعها تحفر في حافة الباب
ليدعم مقاومتها.. لكنها لم تستطع بعد أن أصبحت خارج
الغرفة بالفعل واقفة في الرواق وكفها بين أصابع خطاب
الذي لم يحررها بل سار بجوارها يقول بلطف

- أنا سعيد جدًا لتأقلمك الذي أراه يتزايد بالتدريج يا زاد..
أنت الآن بحالٍ غير الذي أتيت به إلى هذا البيت، تتجاوزين
التجربة السيئة بنجاح..

تسمرت زاد مكانها للحظة حتى أنه حين حاول شدها لم

يستطع فتطلع إليها بحيرة..

كانت واقفة كتمثالٍ أصم ينظر إليه بملامح قناعٍ صلبٍ
لا حياة فيه.. وحين وجدت صوتها همست بصوتٍ أجوف
وكانها ترتعش

- هل.. هل أخبرتك أُمي عن زواجي السابق؟...

رفع خطاب كفه قائلاً بثقة تامة

- لم تخبرني أُمك بأي شيء، اطمئني يا زاد لن يتدخل أحد
بتفاصيل لا تودين البوح بها.. كل ما نحتاج لمعرفته هو أنكِ
خضتِ تجربة سيئة وأنتِ الآن تتجاوزين أضرارها بشجاعة
تامة..

بدا وكأنها ارتاحت قليلاً فشدها معه لتمشي بجواره من
جديد وهو يتابع

- أريدك أن تختلطي أكثر مع نوران ووائل.. حتى الآن أشعر
وأنكِ لستِ مقتنعة بعد بأنكِ في بيتكِ!.. اجعلي منهما

صديقك المقربين وانزلي لثمضي معنا وقتًا أكبر ، ستسعدين قلب والدتك كما سيساعدك هذا على التأقلم بسرعة أكبر..

لم ترد بل ظلت صامته تمشي بجواره ببطء وكأنها مسيرة رغماً عنها..

توقف خطاب أمام غرفة مغلقة فتوقفت معه تنظر إليه بصمت، فتابع بلطف

- لا أظنك تعرفتِ على وائل بعد رغم وجودك هنا لأكثر من شهرين!.. إنه من عمرك تقريبًا..

لا تزال واقفة وجهها ذو القناع مرتفع إليه وكفها في يده.. لا ترد ولا يصدر عنها أي انطباعٍ أو انفعال فعقد حاجبيه يقول بصوتٍ خفيض

- إنه انطوائي بعض الشيء.. يحتاج للصحبة، وأظنك قادرة على مساعدته..

هذه المرة ردت بصوتٍ باهت مصدوم - أنا؟!....

أوماً مجيباً بخفوت وهو يمسك بيدها بين كفيه

- أنتِ قوية يا زاد وذات شخصية مميزة وهذا هو ما تأكدت منه بتغلبك السريع على تجربتك السابقة.. لقد خرجتِ تواجهين الجميع لا تأبهين بنظراتهم.. تتبعين إعلاناً مجهولاً وعلى الرغم من ذلك وثقتِ به وصدق حدسك فواصلتِ واجتهدتِ وها أنتِ تستعدين كبطلةٍ عرضِ ضخم!.. لا تفعل هذا إلا من تتمتع بشخصية مميزة وقوة تستحق الإعجاب.. لذا لدي رجاء خاص.. إن تمكنتِ من إخراج وائل من عزلته قليلاً فسأكون شاكراً لك.. بينكما الكثير من الصفات المشتركة، فأنتِ تفضلين العزلة مثله، لكن الفرق أنكِ تواجهين هذا العالم.. أما هو ف..

صمت قليلاً عاجزاً عن وصف انطواء ابنه المرضي لأنه عاجز عن فهمه منذ البداية.. فhez رأسه قائلاً بهدوء وعلى شفتيه ابتسامة باهتة

- تعالي لأعرفك به..

و دون أن ينتظر منها ردّاً طرق الباب ثم فتحه دون انتظار

الإذن بالدخول..

دخلت خلفه متشنجة الخطوات فوجدت نفسها في غرفة شديدة الترتيب والنظام حد العجب وكأنها غرفة جديدة لم يمسها مخلوق، دون ذكر السكن فيها!..

على المكتب الموجود فيها يوجد حاسوب مفتوح يجلس أمامه شاب حلو الملامح بشعر مموج غزير..

لقد شكت مرتعبة لدى دخولها إلى غرفته مجبرة في ألا يكون مستعدًا أو مرتديًا ما يليق.. لكنها اكتشفت أن والده كان واثقًا من استعداده على ما يبدو، فهو شديد الترتيب في ملابسه البيتية وكأنها جديدة لم تلبس من قبل..

لا يشوب مظهره أو مظهر غرفته شائبة!..

تكلم خطاب قائلاً بابتسامة عريضة

- لديك ضيوف يودون إلقاء التحية عليك يا وائل..

لاحظت تشنج أصابعه على الفور وتصلب ظهره قبل أن يستدير بسرعة.. وما أن فعل حتى أجفل من منظرها متراجعا للخلف قائلا بصدمة

- ما هذا؟!...!!..

أطرقت زاد بوجهها بينما ارتبك خطاب وسارع بالقول

- هذه زاد ابنة جيهان يا وائل.. أرادت التعرف بك..

لم يتحرك وائل من مكانه وهو مائل للخلف ناظرًا إليها بذات الصدمة ثم سأل بصوت متوجس

- لماذا تضع قناعًا؟!..

ارتبك خطاب أكثر وهو يغمز ابنه كي يصمت ثم انحنى ليمسك بكرسي قربه من المكتب قائلاً لزاد

- تعالي اجلسي يا زاد لتتعارفا..

بدت مترددة لا تريد سوى الهرب، كما بدا وائل عابسًا
متراجعًا للخلف يرمقها بقلق وكأنها كائن غريب اقتحم خلوته
دون وجه حق!..

لكنها لم تجد مفر من الجلوس.. حينها وضع خطاب كفيه
على كتفي ابنه ليقول بسعادة

- وائل يقضي وقته كاملاً أمام الحاسوب.. إن أردت أن
يعلمك شيئاً أو يساعدك فلن يتأخر يا زاد..

ثم ربت على كتف ابنه وهو ينحني إليه متابعا

- أما زاد فهي راقصة باليه.. رقيقة وراقية، كالنسيم تمر بين
أروقة البيت..

لم يرد عليه أي منهما كان التحفز يرسم حدودهما لكنه
استقام ليقول معتذراً بجدية

- لدي اتصالاً هاماً لأجريه يا أولاد.. تكلمنا وتعارفنا ولن
أتأخر..

نظر كلّ منهما إليه وهو يخرج من الغرفة تاركًا بابها مفتوحًا وقد رماهما بابتسامة قبل خروجه!..

التفتا لبعضهما بتوجس يكاد التوتر أن يقضي على أعصابهما..

لم يبدر منه أي محاولة للترحيب بها بل كان يرمقها بنظرة أقرب للقلق فأخفضت وجهها ومالت تحقق في الباب تطلب الإنقاذ

إلى أن تكلم أخيرًا سائلًا بصوتٍ أجش شديد التوتر وهو يشير بإصبعه لوجهه

- هل.. هل تعانين من مرضٍ معدي؟!..

فاجأها سؤاله فانتفضت تقول بصوتٍ أجوف خفيض بعد لحظة استيعاب

- ماذا؟!.. لا.. لا.. كان مجرد حادثًا..

صمتت تخفض وجهها بعينين قاتمتين إلا أنه أوماً برأسه
ثم أعاد انتباهه لشاشة الحاسوب فظنته سيتابع ما يفعل
دون أن يعباً بوجودها لكن أصابعه كانت متشنجة غير قادرة
على تحريك أي شيء وقد بدا متحفزاً من قربها، يختلس
النظر إليها بطرف عينيه بقلق متخيلاً أنها لا تراه!!..

شعرت بالصمت ثقيلًا حد الاختناق فسألت بوجوم

- ماذا تفعل؟!.. أقصد فيما تقضي وقتك على الحاسوب؟..

توترت ملامحه وهو يختلس النظر إليها بطرف عينيه
مجددًا إلا أنه أجاب بصوت مضطرب

- منافسات بالشطرنج.. ألاعب مختلف الجنسيات..

أومات برأسها بشبه إيماءة ثم ردت بخفوت

- كنت ألعب الشطرنج مع أبي رحمه الله.. كنت أقضي
ساعات في اللعب معه ولا يتعب أي منا.. لكنه كان شطرنجًا
حقيقيًا.. كان جميل الشكل مصنوعًا من الخشب والعاج، له

قيمة فنية عالية.. أظن اللعب عبر شاشة الحاسوب يفقدك معظم المتعة، من التحديق بعيني منافسك، محاولا اختراق عقله لكشف خططه..

ساد الصمت مجددًا مما جعلها تشعر بالحرَج، تفكر في الخروج والعودة لغرفتها.. إلا أن وائل تكلم أخيرًا وهو يقول بصوتٍ مبهم دون أن ينظر إليها

- هل تخرجين بالقناع؟..

أجفت من سؤاله المباشر، غير المنمق.. لكنها ردت بفتور

- نعم....

مال برأسه يحدق في الشاشة دون أن يقوم بأي خطوة وقد بدا جليًا أنه فقد تركيزه ثم قال بجمود

- أتصور أن من يراكِ يصيبه الارتباك..

حدقت فيه طويلا بالقناع جامد الملامح وفي تلك اللحظة

كانت ملامحها الحقيقية شبيهة كل الشبه بملامح القناع

أتراه صريح صراحة زائدة.. أم هو مجرد وقح؟!..

ردت زاد ببطء - أتصور ذلك.. يقولون أنك لا تخرج من
غرفتك مطلقاً!..

تجهمت ملامحه فجأة لكنه استمر في تركيزه على شاشة
الحاسوب ثم قال بصوتٍ أبطأ نبرة من صوته

- لا أحب الاختلاط.. العالم في الخارج مقرف..

اتسعت عيناها وارتفع حاجباها تحت القناع ببطء.. إلا أنها
اضطرت للرد بخفوت وتردد

- ربما كان كذلك...

النار المندلعة في صدره كانت أقوى من أن يحاول إيجاد

تفسير لها في تلك اللحظة.. كل ما يستطيع أن يجزم به هو قدرته على ارتكاب جريمة!..

حين رأى باب غرفتها مفتوحًا أدرك أنها ليست بالداخل دون الحاجة لطرقه..

شيء ما كان خاطئًا حتى سمع صوتها من مكانٍ آخر ليس ببعيد!.. فلم يحتج للمشي طويلاً متتبعًا نبرتها الفاترة الرقيقة حتى وقف وأبصرها جالسة أمام حاسوب وائل!.. بجوار وائل!..

للحظات ظن أن التخيلات تتلاعب برأسه وهو ما بات ليس غريبًا عليه في الآونة الأخيرة.. لكن مع مرور اللحظات وعدم تبخر صورتها تأكد من أنها حقيقة.. حقيقة مروعة بالنسبة له..

بجوار بعضهما يبدوان كطفلين يهابان العالم!.. خاصة بشعره المموج المتناثر، وشعرها الذي رفعت بهيئة ذيل الحصان مما زادها نحافة ورقة..

الصورة أمامه تملأها الهشاشة والضعف وشيء يمس

القلب.. ومع ذلك لم يشعر في قلبه سوى بالنار السوداء
المحرقة!!..

دخل الغرفة بخطواتٍ ثابتة وملامحه تبدو شديدة البلادة
والجمود ثم سأل مباشرة ودون مقدمات

- ماذا تفعلين هنا يا زاد؟!..

أجفت مستديرة إليه، كما استدار وائل أيضًا.. للحظة
مجنونة أحس فعلا بالشبه بينهما، لكنه رفض هذا الإحساس
المقيت ودفنه بعيدًا وهو يراها تنهض من كرسيها بسرعة
وكانها رحبت بهذا التدخل..

لكنها حين تكلمت كان صوتها فاترًا كعادته لا يفصح عن
شيء من مشاعرها

- أراد والدك أن يعرفني بأخيك..

كلمات صلبة لا مودة فيها.. مجرد تقرير باهت لا يحمل أي
تفضيل.. وهذا في حد ذاته أشعره برضا شريد، لكن في نفس

الوقت زاده نعمة وحقداً على والده..

تحرك سائد يفتح الباب أكثر ثم قال آمراً بصوتٍ فظ وكأنه
تعمل تحت إمرته

- عودي لغرفتك...

لم تبدِ أي اعتراض أو تردد بل تحركت بخطواتها الثابتة
مرحبة بالفرار.. أما وائل فلم يتنازل بالرد أو حتى الاستدارة
لأخيه وكأن الأمر لا يعنيه!..

مرت زاد به لكن قبل أن تخرج وقفت أمامه مباشرة
والتفتت إلى وائل وقالت ببطء

- فرصة سعيدة يا وائل..

انتفخ صدره بلهيب النار التي زاد اندلاعها وهي تقف أمام
صدره مباشرة ملقية المجاملة في الهواء لوائل ببادرة لم
يعهد لها فيها من قبل!..

و الأسوأ أنه لمح كف وائل ترتفع في الهواء في تحية مختصرة.. دون أن ينطق أو يلتفت..

حين تبعها مغلقًا باب غرفة أخيه خلفه رآها تبتعد في الرواق برقة وكأنها تلقت الأمر وانصرفت دون الحاجة لتبرير أو شرح..

تتعامل بلامبالاة بينما الغضب يتلاعب بأعصابه، فنادها بصرامة - زاد...

توقفت تلتفت إليه بصمت، لا يستطيع قراءة شيئًا من ملامح قناعها هذه المرة.. قناع صامت جامد يبادل النظر بترقب!..

اقترب منها حتى وقف أمامها مباشرة ثم أصدر أمره التالي بفضافة

- لا أريدك أن تدخل غرفة وائل مجددًا..

وكأنه رأى ملامح القناع وقد ارتسم عليها الدهشة وبعض

الحيرة بتراجع رأسها للخلف قليلا.. لكنها حين تكلمت بدا صوتها خفيضا يحمل الرهبة وهي تسأله

- لماذا؟!.. أهو خطير؟!..

ربما لو أجاب بنعم لحصل على الكثير من الحلول السهلة لمعضلته.. لكن نظرة منه لباب غرفة وائل المغلق بسكون تام جعله يعقد حاجبيه ليعيد عينيه لعينيها قائلاً باقتضاب

- لم يكن وائل خطيراً أبداً...

مالت بوجهها المغطى بالقناع وكأنها تنتظر منه تفسيراً لأمره.. ولا تفسير حالي لديه!!.. لذا تكلم بخشونة أكبر مما أراد

- لا تفعلي دون جدال.. مفهوم؟

ظن أنه لمح القناع يتغير وكأن ملامحه ترسم الدهشة.. وحاجباه المحفوران يرتفعان!!..

فهي لم تجادل ولم تنطق.. هو من يسأل ويجيب ويأمر!..

انتظر سائد حتى رآها تدخل غرفتها وتغلق الباب خلفها
بينما هو واقف في الرواق عابس الوجه مكفهر الملامح..

أصابه تنقبض بغيظ طفلٍ يشعر بأن هناك من يود سرقة
لعبته المفضلة من بين يديه!..

تحرك ببطءٍ حتى وقف أمام غرفة وائل للحظة قبل أن
يطرق الباب ليدخل.. كان يعلم أن من يريد دخول غرفة وائل
عليه ألا ينتظر منه إذنًا للدخول.. فليدخل فحسب، لأن وائل
لا يرحب بالجميع على أي حال!..

لم تقربهما صلة أخوة أبدًا.. لقد كان بعيدًا عن الجميع،
يعترف بهذا..

لقد منحه خطاب أسرة جديدة ولسلسبيل أيضًا.. لم يتقبلا
منها سوى حنان، أما وائل ونوران فربما كان الظلم الذي

نالاهما أكبر..

اقترب سائد من أخيه الجالس أمام شاشة حاسوبه يفكر
بتركيز عميق في الحركة القادمة ولم يحاول حتى الترحيب
بدخوله مما حثه على الجلوس مستندًا لحافة السرير يراقب
وائل بصمت تام..

حلو الملامح كأخته نوران.. هادئ الطباع إلا في المرات
النادرة التي تسبب ضغط خطاب عليه في انفجاره بطريقة
شبه هستيرية.. لكنه لم يكن يومًا مؤذيًا..

تكلم سائد قائلاً بصوتٍ خفيض أقرب للبرود

- كيف حالك يا وائل؟..

لم يرد عليه وائل لفترة طويلة لكن أخاه لاحظ تغييرًا في
ملامحه.. ربما اضطرابًا أو قلقًا.. أو ربما اندهاشًا من اهتمام
أخيه المفاجئ به!..

ثم رد أخيرًا بخشونة عاقدًا حاجبيه - كما أنا!..

أسبل سائد جفنيه شاعرًا بالضييق من نفسه.. لكنه لم
يستطع أن يكبت سؤالاً دخل خصيلًا ليسأله فقال بتردد
مدققًا النظر في ملامح وائل

- إذن.. ما رأيك في.. زاد؟..

مجددًا لم يحصل على رد فوري مما زاد اضطرابه وارتباك
أعصابه حتى تنازل وائل بالرد أخيرًا بصوتٍ مبهم

- غريبة الأطوار..

لمعت عينا سائد شاعرًا بنزعة شريرة من السعادة بداخله..
إنه اليوم بكل تأكيد ليس في أنقى دواخله النفسية!!..

لكن السعادة لم تلبث أن تبددت في لحظة واحدة كبنية
ضخمة تهدمت على حين غفلة ما أن تابع وائل يقول عابسًا
يركز في الحركة التالية

- يعجبني غريبي الأطوار أكثر ممن يمتهنون تمثيل
الشخصية الطبيعية..

- لكن، ما الذي يغضبك إلى هذا الحد يا سائد؟!...

ربما لم يكن عليها أن تلقي بهذا السؤال البريء الهادئ في تلك اللحظة بالذات وهي تراه يدور أمامها منذ أتى لزيارتها فجأة والعصبية والتوتر على وشك أن يفتكا به!!..

لم يجلس ولو لدقيقة واحدة.. ظل يتكلم بعنف وهو يدور ويدور حتى أصابها بالدوار والصداع وزاغت عيناها!!..

فما كان منها إلا أن ألقت بالسؤال البسيط والمنطقي جدًا..

لكن ما أن فعلت وكأنها أصابته بصاعقٍ كهربائي!! فقد توقف فجأة.. ثم استدار إليها يرمقها بذهول وحدة شعرت معها أنه على وشك تجاوز الأصول والتعدي عليها بأقرب ما قد تطاله يداه!!..

ثم لم يلبث أن هتف عاقدًا حاجبيه بشدة

- ماذا تقولين يا حنان؟!.. هل اقتنعت بكلام أبي؟!.. هل
نجح في استغلال قلقك على وائل ورغبتك في إسعاده بأي
وسيلة مهما كان الثمن؟!..

تأملته واطعة يدها على وجهها وفي عينيها نظرة صافية
تكاد أن تكون شفافة وعلى فمها طيف ابتسامة حانية وما أن
انتهى من هتافه الحاد المزعج حتى ردت بهدوء

- يا حبيبي أنا لم أقتنع ولن ينجح أحد في استغلال قلقي
على وائل.. وقطعًا لن أحاول إسعاده بأي وسيلة مهما كان
الثمن..

كره سائد نفسه في تلك اللحظة أضعافًا حين انتبه إلى
تجاوزه الحد معها، بل والضغط على ألمها دون ضمير أو
إدراك فأوشك على أن يعتذر.. إلا أنها تابعت تقول مبتسمة
ابتسامتها الجميلة

- أنا فقط أشعر بالفضول لمعرفة سبب غضبك العنيف!..

ارتبك وقد زادت ملامحه تجهّمًا، ومشاعره فوضوية

واضطرابًا فتلعثم يلوح بكفيه قائلاً بعصبية

- سبب غضبي!!.. أليس واضحًا؟!.. أنا أرفض أن يمارس خطاب سيطرته المقيمة على واحد منا مجددًا، كما أرفض استغلال ظروف وائل..

لم تتغير ابتسامتها وهي تتأمله بحاجبين مرتفعين ثم ردت بحيرة فاتحة كفيها

- نعم أفهمك، لكن هناك ما يحيرني.. في البداية كنت قلقًا من أن تكون خطة من جيهان وابنتها لاستغلال ظروف وائل كما تقول.. لكنني فهمت من كلامك خلال الأسابيع الماضية أن هذا الاحتمال لم يعد مطروحًا.. وأن زاد وأمها ليستا بمثل هذا السوء!!.. فأني استغلال يقلقك؟!..

زاد ارتبأكه وعبوس ملامحه حتى أشفقت عليه فتعمقت ابتسامتها حنًا، لكنه أجاب بصوتٍ أجش متجنبًا النظر لعينيها

- أرفض استغلال الاثنين يا حنان.. وائل و.. زاد..

بدت ابتسامتها كأجمل ما يكون وهي تقول بنبرة ثقة

- أظنك تغار يا سائد!...

نظر إليها مصدومًا وكأنه قد وجد نفسه فجأة واقفًا بلا
ملابس في طريق عام مزدحم!!..

إلا أنه تمكن من النفي نفياً قاطعًا حادًا وهو يهتف بعصبية

- أغار!!.. أنا لا أغار.. أنا فقط أشفق على ارتباك وائل جراء
ما يتعرض له نفسيًا على يدي خطاب!!..

آخر من تخيل رؤيته هي نسرين.. وربما كان يتوقع
مبادرتها في وقت أبكر من هذا..

أبصرها من آخر المسرح وهي تتحرك تجاهه، ملامحها
باردة وعيناها تنضحان قسوة، لكن ما أن اقتربت منه حتى
تكلفت ابتسامة جميلة ناعمة وقالت بهدوء

- كيف حالك يا كريم؟....

لم يرد، بل رمقها بنظرة مُتَبَلِّدة ثم استدار مناديًا في
الجميع بنبرة آمرة صارمة

- عشر دقائق استراحة...

التفت محدقًا بعيني نسرين ثم كرر بصوتٍ أعلى وأكثر
قسوة

- عشر دقائق فقط..

تلاعبت ابتسامة على شفتي نسرين وتمايلت وهي تراقب
انصراف الراقصين واحدًا تلو الآخر حتى خلت خشبة
المسرح إلا منهما فقط، فوقفا متواجهان يحدق كل منهما في
الآخر ثم قالت بهدوء

- لم ترد التحية يا كريم...

التوت شفتاه بسخرية ثم مال برأسه قائلاً

- قريبًا.. لا تتعجلي يا نسرين، قريبًا جدًا سأرد التحية..

اختفت ابتسامتها المرسومة على الفور وهي تبادلته النظر
بقسوة، ثم لم تلبث أن قالت متنهدة

- صدقني يا كريم، ما كنت أتمنى أن يحدث ما حدث..

أجابها بنبرة أكثر سخرية واستهزاء

- رقة مشاعرك تأسرني بحق..

لم يرف لها جفن وهي تتلق منه استهزاءً تلو آخر ثم ردت
بجمود

- اسخر كما تشاء.. لكن ما أقوله هو الصدق.. لقد كرهت ما
حدث لكن القرار كان أكبر مني..

صدرت عنه ضحكة واهية خالية من المرح وهو يهز رأسه

لكنها لم تأبه بل تابعت بنبرة ربما حملت بعض الصدق

- كما أن المشاعر الجميلة التي جمعت بيننا لفترة قصيرة لم تكن كذبة.. بل كانت حقيقة، لقد اجتمع الحماس والفرح بداخلنا بعد كل تلك السنوات لتتحول الصداقة حبًا فظننا أنفسنا قد عدنا إلى مقاعد الدراسة والحياة بأكملها أمامنا..

التفت إليها بعينين سوداوتين، الجرح فيهما مؤلمًا له.. مهينًا لها ثم رد بجفاء

- لكنك اكتشفت في النهاية أن تلك المشاعر لم تكن أكثر من مجرد حالة كنا في حاجة لها.. هنيئًا لك أن أفقت أسرع مني..

صمت للحظة ثم ألقى نظرة مهمة على الخاتم في إصبعها وتابع بنبرة مريرة ساخرة

- بالمناسبة، لم أتل الفرصة لأهنتك على الخطبة.. تستحقين هذا النجاح العظيم يا نسرين..

أمسكت بكفها تتأمل الخاتم البراق الضخم بعينين غائمتين

فرمشت مرة وهي تهز رأسها ثم قالت بنبرة عملية

- شكرًا يا كريم.. أتمنى أن تبقى بيننا الصداقة..

التفت إليها صارخًا بسخرية وقسوة ذاهلا

- صداقة!!!.. هل أنتِ مغيبة يا نسرين؟!.. العداوة بيننا باتت
مسجلة قانونيًا في المحاكم!!!..

ردت بعنف

- أنت من أصر على فعل هذا يا كريم، وقد كان التصرف
الأكثر حماقة.. لن تربح منه أي شيء!..

مط شفتيه باستهزاء كريبه دون أن يصل المرح عينيه
السوداوين

- اتركي الأمر للقضاء إذن..

أغمضت عينيهما للحظات تحاول تهدئة نفسها ثم لم تلبث أن

قالت بهدوء وعملية

- لا بأس يا كريم، فلنترك الأمر للقضاء.. لم آتِ إلى هنا
لأقنعك بسحب قضيتك..

كتف ذراعيه ناظرًا إليها ثم سألها ببرود

- أي سببٍ إذن أدين له بشرف زيارتك؟!..

أجابته غير آبهة بسخريته مجددًا

- أتيت لأنني أهتم بأمرك صدقت أم لم تصدق..

ضحك مجددًا وهو يوليها ظهره لكنها تابعت بقساوة

- نعم يا كريم أهتم لأمرك للحد الذي جعلني أتنازل عن
كرامتي وآتي إلى هنا متقبلة كافة إهاناتك كي أسألك ما الذي
تفعله بنفسك؟!..

لم يرد عليها لكنها تابعت بنبرة أكثر صلابة

- إلى أي حد تنوي إحراج نفسك والتقليل من شأنك لمجرد أن تثبت لنا أنك على حق؟!.. ما تفعله لهو ضرب من الجنون والغباء معًا..

ابتعد عنها عدة خطوات لكنها تبعته تضيف بحنق

- هل تظنني لا أعلم أنك تنفق على التجهيز للعرض من مالك الخاص حتى قارب على النفاذ وقاربت على الإفلاس!! وتتوقع النجاح؟!!!..

زفر بقوةٍ إلا أنها تابعت بحدة ترفع صوتها وهي تقول

- لا رعاة أو ممولين للعرض الذي تجهز له معناه خراب ديار لك.. أو سيكون شيئًا متدنيًا للحد الذي يجعل من اسمك أضحوكة لسنواتٍ مقبلة.. أم أنك تظن أنني لم ألمح الراقصين الذي خرجوا لتوهم!!.. والذين أتوا على إعلانك المضحك اليائس!!..

نظر إليها بحدة فأشارت إلى حيث خرج فريقه منذ قليل وهتفت

- أي مستوى هذا الذي تنوي أن تنافس به؟!!!.. الأخبار تنتشر
بسرعة البرق، لقد جعلت من فتاة مشوهة الوجه ومهرجة
في سيرك البطلتين الرئيسيتين لعرضك!!!..على الأقل احترم
اسم بلدك في حفلٍ ضخم كهذا!!!..

اتسعت عيناه بتعبيرٍ خطير وهو يقترب منها ببطء ثم سأل
بصوتٍ خفيض مهدد

- هل الأخبار تنتشر بسرعة البرق حقًا، أم أنكم بحثتم
وفتشتم خلفي!!!!..

برقت عينها وهي تزم شفتيها تتنفس بغضب بينما ضحك
عاليًا ثم واجهها قائلاً بسخرية

- ألهذه الدرجة يخيفكم فريقى المتواضع المسكين ذو
المستوى المتدني؟!..

لم تقدر على متابعة تلك المناورة أكثر من هذا فسألتها
بعنفٍ رافعة رأسها

- أي فكرة ستنفذها في العرض يا كريم؟..لم يكن لديك الوقت الكافي لتجهز فكرة جديدة..

ارتفعت زاوية فمه بالتدريج حتى بدت ابتسامته غريبة بشكلٍ مقلق ثم سأل ببساطة

- وما حاجتي لفكرة جديدة ولدي فكرتي التي تعبت عليها فترة ليست بالقصيرة!!..

صرخت بعنف

- لقد جننت فعليًا، لقد شككت في الأمر لكنني رفضت التصديق.. إن فعلتها فسوف نلاحقك قانونيًا يا كريم..

فتح كفيه قائلاً ببساطة

- الأمر معروض في ساحات المحاكم بالفعل يا نسرين.. اتركه للقضاء..

صرخت نسرين وقد تحولت ملامحها لوجهٍ شديد القبح

- أنت تحط من اسم بلدك باتخاذك انتقام كهذا!!!...

ابتسم كريم وهو يهز رأسه غير مصدقًا لأي مدى وصلت!!..
بينما حاولت تهدئة نفسها وأنفاسها ببطء ثم رفعت كفيها
تعرض بمهنية وعملية تجارية

- اسمع الآتي.. يمكنك القيام بعرض يليق باسمك، فلنتفق
ونتصالح وتقبل بتقاضي ثمن فكرتك القديمة.. حينها ستكون
قادرًا على تحمل تكاليف وتجهيز عرضك.. لكن بفكرة جديدة
بالطبع..

ساد الصمت بينهما طويلاً وكلا منهما يحدق في الآخر
حتى صرخ كريم فجأة بصوت جهوري صارم أفزعها

- انتهت العشر دقائق.. فليجتمع الكل على خشبة المسرح
حالا..و من اليوم ستغلق أبواب هذا المسرح وغير مسموح
بدخول أي غريب إلا بإذن مني أنا شخصيًا

- آنسة دنيا.. لديكِ زائر، يقول أنه من طرفك..

نظرت للأسفل وهي معلقة بالشرائط فعقدت حاجبيها تفكر
بدهشة واستغراب

“ من طرفي أنا؟!.. أأدي من هو من طرفي؟!.. ”

لكنها نادت بصوتٍ عالٍ مخاطبة فرد الأمن تقول

- سأنزل على الفور...

كان يوليها ظهره وكفيه في جيبي بنطاله لكنها تعرفت
عليه على الفور.. الخل اللذيذ في دقات قلبها جعلها تتعرف
عليه..

فقالت بعفوية

- إنه أنت!!!...

استدار إليها مبتسمًا تلك الابتسامة القادرة على إفقاد

الإنسان العاقل القدرة على النطق لثلاث ثوانٍ قبل أن
يستجمع نفسه وأعصابه..

تكلم أخيرًا يسألها بتلك الابتسامة الخلافة

- نعم إنه أنا.. هذا إن لم يكن علي الأخذ بعرضك على
محمل الجد!..

ابتسامة أخرى ففغرت فمها للحظة ببلاهة إلا أنها تماكنت
نفسها وسارعت بهز رأسها كي تجلي ذهنها ثم ابتسمت
ابتسامتها العريضة وهي تقول ببشاشة

- سأعذرك لأنك لا تعرف دنيا بعد...

حرق فيها بعينين متأملتين في زي التمرين وشعرها
المرفوع وفمها الأحمر المصبوغ بلونٍ قاني.. لا يعرف سر
استخدامه رغم أنها تتمرن فحسب لكنها بدت شديدة
الجاذبية وكأن لها نكهة مختلفة لا تتمتع بها شابة غيرها..

تكلم أخيرًا قائلاً ببطء يرد على عبارتها العفوية دون أن

يتخلى عن ابتسامته

- هذا ما أنوي تصحيحه..

رمشت بعينيها وقد اهتزت ابتسامتها من فرط اختلال ضربات قلبها لكنها أخذت نفسًا عميقًا ثم أمرته بنبرة مرحة

- تعال معي..

راقبها وهي تجري أمامه بخطواتٍ قوية مُتْقَاوِرة فتبعها على مهلٍ دون أن تختفِ الابتسامة عن وجهه..

وفي نفس اللحظة كان هناك من يريد الاقتراب منها ليطيب خاطرها بسبب صراخه فيها والذي قضى ليلة من تأنيب الضمير بسببها..

لكن ما أن رآها مشغولة مع ذاك الذي تضحك له حتى استدار قائلاً لنفسه بخشونة

- هذا أفضل...

كان كريم واقفًا مع مساعده منهمكين في حديثٍ طويل
فاقتربت منه بخفة حتى وقفت خلفه ثم طرقت على كتفه
بإصبعها مما جعله يلتفت متسائلًا..

لكن قبل أن يتكلم انعقد حاجباه بدهشة وهو يلمح الشاب
المبتسم ابتسامة مرحة خبيثة والواقف خلفها!!!..

سبقته دنيا في الكلام قائلة بنبرة استعطاف

- كريم، أريد منك خدمة.. واحد من أقاربي في حاجة لعمل
مؤقت على وجه السرعة، وبصفتك الرأس العليا هنا..

لن تخذلني، أليس كذلك؟..

ارتفع حاجبا كريم ببطء وهو يتأمل الشاب الضاحك بمرح،
فاعتذر لمساعدته والذي انصرف وعلى وجهه ملامح الحيرة..

ثم دس الأوراق التي يمسكها تحت ذراعه ليقول بنبرة

هادئة مشددًا على كل حرف بينما تنطق عيناه بنظرة مهددة

- نعم يا أستاذة دنيا.. تقولين واحد من أقاربك، أهلا به.. لما لا تعرفيني به؟..

مدت يدها خلفها مشيرة إليه وهي تقول بسعادة

- الأستاذ..

صمتت للحظة عاقدة حاجبيها، إلا أن الوسيم اقترب من خلفها ماذًا كفه وهو يقول بنبرة ترتج ضحكًا مكتومًا

- هشام..

نظر كريم إلى اليد الممتدة بحني وتجاهل مصافحتها ليقول بنبرة غضب وازدراء

- فقط هشام!!.. هشام ونقطة!!.. هشام ماذا؟!!..

انعقد حاجبا دنيا بشدة وهي تقول بحدة

- ما بالك تعامل الرجل بهذه الطريقة لمجرد أنه جاءك
متعشماً في الحصول على عملٍ مؤقت!!..

لم يستطع هشام تماالك نفسه فانفجر ضاحكاً بينما همس
كريم من بين أسنانه وهو يهز رأسه بنظرة حاقدة

- أيها الدنيء!!..

نقلت دنيا عينيها بينهما بحيرة لم تدم طويلاً فقد تابع كريم
يعرفها بنفاذ صبر مشيراً إلى هشام

- الأستاذ قريبك.. هشام لطفي.. شقيقي..

شعرت بأنها أكبر مغفلة في العالم وقد غاب اللون عن
وجهها وهي تنظر إليه يضحك من كل قلبه فلم تشاركه
الضحك، بل سأله بنبرة خفيضة متكسرة مثيرة للعطف

- هل كنت تسخر مني؟!..

خفت ضحكاته وهو ينظر إليها مدققاً ثم قال بهدوء

- أقسم أنني عاطل يائس فاقد الأمل مثلكم تمامًا..

لم ترد ولم تسامح خِداعه بعد، بينما أمرها كريم بصرامة

- اذهبي لتمرينك يا دنيا حالاً.. وإياك وترك التمرين مرة أخرى ولو جاء أقاربك جميعاً.. مفهوم؟..

ابتعدت عنهما مطرقة الرأس تسير على مهل شاعرة بالخرج راغبة في البكاء رغم تفاهة الموقف فهي لم تجد فيه أي دعاية..

لكن قبل أن تبتعد تماماً استدارت مكسورة الخاطر، ففوجئت به ينظر إليها مبتسماً بعينين فيهما نظرة أخلت بضربات قلبها.. مجددًا!!

الفصل السادس

التاريخ / الثاني عشر من شهر يونيو

الاسم / ريم

- إلى أي حد قد يصل حبك في السيطرة والتحكم بشريكك
يا ريم؟..

لم تبتسم ولم تظهر عليها عقدة التفوق أو الشعور بالأهمية
المبالغ فيها بنفسها.. بل نظرت إليه لفترة بملامح جادة
وعينين واضحتين ثم سألته

- ماذا تقصد؟..

أراد أن يصيغ السؤال بطريقة أخرى فسألها مباشرة

- هل سبق ووصلت لحد إيذاء شريكك إن رفض الامتثال
لرغباتك؟..

لم تحد بعينيها عن عينيهِ ثم سألته ببطء دون أن تبتسم

- هل تقصد إيذاء جسديًا؟!.. يصعب هذا بالنسبة لكوني امرأة..

أوماً برأسه موافقًا

- نسبة الإيذاء الجسدي تجاه النساء أعلى منها تجاه الرجال هذا مفهوم.. لكن أحيانًا يصل الاضطراب بداخلك حد ارتكاب أذى جسدي مقصود..

أسبلت جفنيها قليلا وسألته ببطء

- هل تسألني إن كنت قد ارتكبت جريمة من قبل؟!..

ابتسم ابتسامة هادئة وهو يهز رأسه مجيبًا

- ليس بالضرورة أن تكون جريمة..

سألته بجمود دون محذقة بعينيه - ماذا تسميه إذن؟..
الإيذاء الجسدي الأخير..

ضاقت عيناه وهو يقطب جبينه مكرراً بتساؤل

- الإيذاء الجسدي الأخير؟!.. لما استخدمتِ هذا المصطلح،
هلا فسرتِه لي؟..

ردت ببطء وهي تحرك ظهر كفها على فكها بحركة ناعمة

- إن لم تكن لي، فلن تكون لغيري..

تراجع رأسه للخلف مدرّكاً وهو ينظر إليها بتدقيقٍ عنيف ثم
سألها بحذر وبنبرة هادئة

- وهل فعلتِ يا ريم؟!!..

ابتسامة باهتة ارتسمت على فمها مما جعله يرفع وجهه
واضحاً إصبعه على وجنته صلب الملامح حاد النظرات ولم
يحصل على جواب صريح بعدها..

يناير

“ الشتاء ”

“ هذا الشتاء سأكتب اسمك على ورقة في دفترى مع
مواعيد المطر وبخار الأكواب الساخنة وغناء فيروز ”

“ فربما جمعنا الشتاء المقبل ”

- لماذا تقفين هكذا؟.. الجو شديدة البرودة وقد تمرضين..

لو كان الأمر وفقًا لاختياره وهوى قلبه لتركها واقفة حتى
الشتاء المقبل دون اعتراض وما فعل سوى الوقوف خلفها
ليراقبها بصمتٍ كما فعل الدقائق السابقة..

كثيرًا ما يصعد ليتفقدّها ما أن تطول عزلتها على السطح..

فيجدها واقفة أمام السور تتأمل السماء الممتدة أمامها..

تشرد عيناه طويلاً في ذاك الحلم الحي المرتسم أمامه..
لفتاة هيفاء بشعر طويل، تقف مولية ظهرها له في تأملها
سماء تتغير لونها وحدة مزاجها مع مرور الأشهر..

رآها في الخريف وها هو يراها في الشتاء..

اللوحة تزداد فتنة ولو كان فناً لرسمها وأطلق على اللوحة
اسم.. - زاد

أما سماء الشتاء الرمادية شديدة القتامة اليوم فكانت
الخلفية الأجمل لها، وأرادت الريح الباردة أن تكمل فتنتها
فأخذت تطير شعرها وكأنه امتداد ليلي لها..

نعم بإمكانه الوقوف مكانه حتى الشتاء القادم..

ابتسم حالماً ثم تكلم مرغماً يطرح السؤال على مضمض
خوفاً من أن تُمرضها الريح الباردة فتخطفها منه وتخفيها
عنه لأيام..

- لماذا تقفين هكذا؟.. الجو شديدة البرودة وقد تمرضين..

و ككل مرة تنتهي بها تلك اللوحة الرائعة، تستدير إليه فلا يرى سوى قناعًا أبيضًا بلا تعبير..

و كأن الحلم ينقلب كابوسًا بشكلٍ مفاجئٍ وتتبدد الصورة التي رسمها لها في خياله..

لا يكره القناع فقد كان أول ما رآه منها

كما بات يستطيع قراءة تغير ملامح ذاك القناع بسهولة.. لكنه يتوق مرة لو التفتت فرأى وجهها أي كان شكله..

يكفي أنه وجهها..

ظلت واقفة مكانها في التفاتتها إليه وهي تحيط نفسها بوشاحٍ صوفيٍ ثقيلٍ يقيها من برد الشتاء والآن يجزم أن القناع ابتسم له

فبادله سائد الابتسام ثم اقترب منها حتى وقف أمامها لا

تمل عيناه من تأملها لكنها أجابت سؤاله بصوتها الخفيض

- يفترض أن يكون موعد نزول المطر اليوم..

رفع حاجبه وهو يسألها مبتسمًا

- أترقبين مواعيد المطر؟!..

مالت بوجهها تنظر للسماء الرمادية الداكنة ثم قالت ببطء

- لسنواتٍ طويلة كان المطر هو الوحيد الذي يأتيني في مواعيد ثابتة.. فكنت أترقب وصوله..

انحنت ابتسامته شاعرًا بذات القبضة حول قلبه تزداد ضغطًا عليه، لكنه حاول التغلب عليها فغير الموضوع مؤقتًا يسألها

- كيف حال جيهان اليوم؟...

على الفور لاحظ تغير لغة جسدها ككل مرة تسمع فيها اسم

أمها لكنها استدارت تتأمل السماء وهي تجيب بخفوت

- إنها اليوم أفضل...

معها يتحول لشخصٍ دنيءٍ في أبهى صورهِ، فقد كان
يتمنى أن تظل جيهان مصابة بالبرد أيامًا عديدة مقبلة..
وربما شهورًا

لن ينسى ذات صباحٍ حين استيقظ على طرقاتٍ لبابه
وحين فتحه وجدها واقفة أمامه!!..

لم تجرِ كعادتها في تسليمها رسائلها له على باب الغرفة!..

بل كانت واقفة ثابتة هذه المرة مشبكة أصابعها، حتى أنه
عجز عن النطق بتحيةٍ على الأقل.. لكنها لم تنتظر منه تحية
بل بادرتَه قائلة بصوتٍ تشعل جنونه بنغمه المبحوح

- هل يمكنك إيصالي للمسرح اليوم؟ فأمي مصابة بالبرد
ولن تتمكن من الخروج في هذا الجو..

هكذا دون مقدمات أو سلام!!.. تطلب بمنتهى البساطة
وكان الواحد منهما يعرف الآخر منذ أبصرت عيناه نور هذه
الحياة!

و كان هذا أسعد طلب طُلب منه.. فقد لاحظ أنها تخصه
بالثقة من بين سكان البيت جميعهم لسببٍ لا يعلمه حتى الآن

منذ فترة طويلة وهو يدرك بسرور متزايد أن مكانته لديها
مختلفة عن الجميع وحتى عن جيهان نفسها!!

أي لذة شيطانية تتملكه كلما استشعر منها اختلافاً له
وحده..

أيام عديدة وهو يوصلها في الصباح ويعود بها في المساء..
وكم تكلموا!!.. كان الوحيد الذي تتكلم معه..

تحكي عن العرض، عن التمرين.. عن المسرح..

لكنها لا تحكي عن ماضيها مطلقاً.. لقد حاول أكثر من مرة
أن يستدرجها في الكلام لكنها كانت توصل في وجهه الأبواب

والسلاسل بكل قوتها وتعود لتوقعها فيغير الموضوع كي لا
تتوقف عن الكلام..

يكفيه مؤقتًا أنها تخصه وحده بما لم تخص به حتى أمها!..

أمها.. ها قد أصبحت بخير حال وسرعان ما ستعاود
توصيل زاد للمسرح بعد أن اعتاد رفقتها وأصبحت الجزء
الأجمل في يومه..

اقترب منها حتى وقف بجوارها فاستند بكفه للسور
ليواجهها ثم سألها بنبرة ذات مغزى وابتسامته تغمزها

- ألن أوصلك إذن!...

أطرقت بوجهها ذي القناع وشعر وكأن القناع يبتسم
ابتسامة خجولة لكنها عادت ونظرت للسماء شاردة فتأملها
للحظات يود لو امتنع عن السؤال الواقف على طرف لسانه..
لكنه فشل وسألها بحذر

- لماذا تبدو لي العلاقة بينك وبين أمك متوترة؟!..

على الفور وكما توقع تصلب جسدها وتشنجت أطرافها،
فاستدارت عنه قليلاً إلا أنه سألها بإصرار

- يمكنك إخباري يا زاد...

ردت من بين شفتين شبه مطبقتين

- لا.. لا يمكنني إخبارك.. أرجوك كفى كلاماً

أرجع رأسه للخلف كاتمًا نفسًا غاضبًا محدقًا بظهرها لكنه
كان حذرًا كي لا تجفل عائدة لقوقعتها والتي حارب أسابيع
ليخرجها منها..

تكلم سائد بعد فترة صمت قائلاً ببطء

- هل تسببت أمك في أذيتك بطريقة أو بأخرى؟.. إن أردتِ
مني أن أحملك منها فما عليك إلا أن تقولي.. أن تحكي لأفهم
وحينها..

قاطعته صارخة بقوة وبنبرة أجفلته

- أنا من آذاها.. لقد اقترفت شيئاً مريئاً..

انعقد حاجباه بشدة وهو يحدق في ثورة انفعالها الغريبة
ثم قال بصوتٍ أجش

- لا يمكن أن تكوني قد اقترفت ما هو بمثل السوء الذي
تتكلمين عنه..

صرخت رافعة يديها إلي رأسها وقد ظهر عليها الأسى
والعذاب

- بلى فعلت.. فعلت شيئاً سيئاً جداً..

كانت تنتفض أمامه وكأنها ترتج مصابة بالحمى فاقترب
منها محاولاً الإمساك بكتفيها وهو يقول بهدوء

- لا بأس اهدئي يا زاد...

لكنها ابتعدت عنه بسرعة واندفعت تنوي الخروج من باب

السطح لكنه لحق بها ليمسك بذراعها يشدها فدارت حول نفسها وكادت أن ترتمي على صدره لكنها تماسكت بصعوبة فأطبق على ذراعها الآخر حتى باتت أسيرته رافعة عينيها بعجز إلى عينية..

بدا وكأنه متردد في الاعتراف.. لقد سبق واتخذ قراره بالتمهل القدر الذي تحتاجه حتى تشفى من محنة لا يعرف عنها شيئاً

لكنه الآن عاجز عن التماسك، ي صارع!.. فقال بصوتٍ أجش محققاً في عينيها التائهتين

- زاد.. دعيني أقرب منك أكثر

اهتزت حدقتها وهي تحقق في عينية، تخشى تفسير المعاني التي تلوح على صفحاتهما..

هاتان العينان تحركتا على عنقها وحلقها الذي يتحرك برعب وصعوبة فتهد قائلاً بهدوء يكاد أن يبتسم بشفتين تتوقان للكثير

- نعم يا زاد.. أريد أن أعرف عنك أكثر مما أعرفه..أكثر
بكثير..

كانت تهز رأسها نفيًا ببطءٍ دون رد بعينين واسعتين فأوماً
قائلا بصلابة مشددًا أصابعه على ذراعيها

- بلى.. فقط إن سمحت لي بالاقتراب، اعطني الإشارة
فقط..

القناع الأبيض يحدق فيه بلا تعبير، بينما همست شفتاها
فجأة ببطء شديد

- لماذا تريد؟!....

تراجع رأسه قليلا ثم أجابها مبتسمًا بصوتٍ مهيب

- ألا تعرفين حقًا جواب سؤالك؟!..

طار شعرها على القناع الأبيض يغطيه، لكن عينيها بقيت
عاجزة عن الإشاحة عن عينيهِ.. وها هي تفعلها مجددًا

لقد تبسم القناع ابتسامة مترددة!!!..

ازدرد لعبه وهو يقول بخشونة - أريد أن أرى وجهك يا
زاد..

صرخت بقوة مفاجئة وهي تحاول التلوي من بين كفيه
رعبًا

- لا..

شدد عليها قائلاً بقوة وإصرار

- ألا تعلمين أنني تخطيت المرحلة التي قد تغير ملامحك
أي كانت، شيئاً بداخلي!!..إن لم يكن الرغبة في زيادة القرب
منك!

أغمضت عينيها فوق حاجزٍ من الدموع فسألها بصوتٍ
أجش

- أكان الحادث مؤلمًا جدًا؟..

تحرك حلقها مجددًا بصعوبةٍ وهي تهز رأسها دون أن تفتح
عينها هامسةً بعذاب

- جدًا.. جدًا.. صرخت كثيرًا ولم يسمعني أحد..

انعقد حاجباه بشده وهو يقربها منه فارتاحت كفها على
صدره ترتعش كعصفور مريض.. أراد لو ضمها أكثر وأكثر
حتى يسكنها صدره ولا يحررها أبدًا..

همست مجددًا وهي تنتحب بخفوت شديد

- كان وجهي مثاليًا.. كنت كتمثالٍ حُفر ببراعة..

أبعدها عنه فجأة وهو يدقق النظر بوجهها مقطبًا ثم قال
بغضب

- أنتِ تقللين من نفسك.. بالتأكيد أنتِ أكثر من مجرد وجه
جميل وجسد رشيق!...

رَقَبَ نَهْرًا بَطِيئًا يَنْسَابُ عَلَى طُولِ حَلْقِهَا.. مِنْبَعُهُ عَيْنِيهَا
الْمَغْمُضَتَيْنِ فَتْنَهُدُ بِصَوْتٍ ثَقِيلٍ مَسْمُوعٍ بَيْنَمَا هَمَسَتْ بِأَلَمٍ

- لَمْ أَكُنْ أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا.. كُنْتُ غَبِيَّةً تَافِهَةً، لَا أَصْلَحُ لَشَيْءٍ
فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ إِلَّا لِرَقْصِ الْبَالِيَةِ..

مَدَّ يَدَهُ لِيُطَبِّقَ عَلَى كَفِّهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرَهَا بِصِرَامَةٍ

- افْتَحِي عَيْنَيْكَ وَانْظُرِي لِي..

لَمْ تَتَجَاوَبْ مَعَ أَمْرِهِ لِلْحِظَاتِ طَوِيلَةٍ فَهَمَسَ بِشِدَّةٍ يَهْزَاهَا
قَلِيلًا - لَنْ أَتْرَكَكَ حَتَّى تَفْتَحِي هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ لِتَنْظُرِي إِلَيَّ يَا
زَاد..

ارْتَفَعَ جَفْنَاهَا بِيْطَاءٍ حَتَّى اتَّقَتِ عَيْنَاهَا الدَّامِعَتَانِ
السَّابِحَتَانِ فِي دُمُوعِهِمَا بِعَيْنِيهِ وَكَانَ وَجْهُهُ جَادًّا صَارِمًا
غَاضِبًا وَبَشِدَةً ثُمَّ قَالَ مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ

- أَيُّ حَيَاةٍ تِلْكَ الَّتِي عِشْتِهَا وَتَسَبَّبَتْ فِي غَرْسِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ
الْمَرِيضَةِ بِرَأْسِكَ!!..

هزت رأسها بألم وهي تهمس

- إنها الحقيقة...

زم شفتيه للحظة قبل أن يهزها مجددًا قائلاً بغضب

- أنت غبية فعلا لتصديقك العبث الذي نطقت به للتو..
من تلك التي اخترقت الحواجز لتتبع إعلانًا مجهولًا ملقية
بنفسها على خشبة مسرح ضخم على استعداد لمواجهة
الجميع بملامح متضررة وروح أكثر تضررًا!!..

نظرت إليه وهي تهمس بضعف تأبى التصديق

- لقد فعلت الشيء الوحيد الذي أجيده...

هز رأسه نفيًا والقسوة ترسم خطوط ملامحه ثم قال بعنف
مشيرًا للسطح من حولهما

- لو كان هذا صحيحًا لاكتفيت بالرقص على أرض هذا

السطح متمسكة بالقوقعة التي فرضتها على نفسك لدى عودتك وربما كان قبل هذا بكثير.. لكنك كسرت جزءًا من القوقعة وخرّجت منها جزءًا من نفسك.. لا تفعل هذا إلا من تملك الكثير والكثير مما تجهله عن نفسها

كانت عيناها تراقبانه وهو يتكلم عنها بطريقة لم تعهدها في نفسها منذ زمن بعيد.. تنظر إليه وكأنها مشدوهة..

يدها على حلقها لا تقدر على التصديق.. بينما تابع سائد بهدوء مشددًا على أصابعها

- اكسري القناع يا زاد..

غامت عيناها للحظة فحادت بهما عن عينيه لتهمس بصوت جامد ميت

- القناع!.. أنا أستحقه..

أوشك على ضربها ممتنًا لنفسه إن فعل.. لكن رذاذًا ناعمًا بدأ في التساقط ملامسًا وجهه.. ضاربًا سطح القناع الصلب

بصوتٍ غريب.. فرفع سائد وجهه متتبعًا بداية انهمار المطر
ليعود بعينه إلى عينيها قائلاً بصوتٍ عميق

- لقد حافظ المطر على مواعده معك.. إن أخبرني أحد أنه
سيأتي يوم أحسد فيه المطر لظننته مجنونًا!..

و كأن القناع ابتسم رغم الدموع في عينيها، ترافقها
قطرات المطر على سطحه تزيده تبسمًا حتى بدا كوجه
مهرج حزين يبتسم للجمهور!..

أراد أن يسألها كيف تفعلين هذا؟!..

لكنه لم يشأ الكلام، بل أمسك بخصرها يدور بها ببطء
وقد اتسعت عيناها لمباغتته وكلما زادت قوة انهمار المطر
التي بللتها حتى النخاع، زاد من دورانه الراقص معها وهو
يضحك ليصدم فجأة بسماع صوت ضحكاتهما العالية من
خلف القناع!..

إنها المرة الأولى التي يسمعها تضحك بصوتٍ عالي!.. إنه
واحد من أهم تلك الإنجازات الذي سيسجلها لنفسه، إن لم

يكن أجملها..

والغريب.. كانت ملامح القناع تضحك بجنون.. وقبس من
سعادة!

معكِ.. أشعر وكأنني طفل نال رحلته الأولى للسيرك
فغشيت عينيه ألوانه

دخلت المسرح جريًا وهي تنفض شعرها الذي بلله المطر
كحال ملابسها وحتى حذائها.. ربما قرب شقة جلال من
المسرح لم يكن من حسن حظها كما تخيلت، فلا مواصلات
توصلها هذا الشارع الضيق في الليالي المظلمة وخلال
الأمطار الغزيرة..

تابعت طريقها جريًا بنشاط على سلالم المسرح المنبسطة
العريضة.. لكن فجأة اعترض أحدهم طريقها فوقفت أمامه
تلهث بوجهٍ محمر من البرد.. وعينين تشعان بألوان الطيف
كلها..

شهران مرّا على معرفتها به، وحتى اليوم لا تزال تقف أمامه كمراهقة واقعة في حب معلمها للمرة الأولى!!..

ضاقت عيناه وهو يقول بصرامة رغم الخبت في هاتين العينين لكل مرة نظر فيها إليها

- تأخرتِ وستستحقين تأنيبًا من مخرج العرض.. حتى أخوتي له لن تنقذك هذه المرة!!

لم تتمالك نفسها من الضحك قائلة بمرح

- أخوة!!.. هل نسيت أنك من الممنوعين من دخول المسرح!!..

كتفت ذراعيها ثم سأله عاقدة حاجبها تسأله بصرامة شبيهة بصرامته.. تلك المشبعة بألف ضحكة وضحكة

- كيف دخلت المسرح يا هشام؟!..

استند لواحد من كراسي المسرح من خلفه وقال متشدقًا

- عليك البدء بمعرفة أن هشام لا يُغلق أمامه أي أبواب مطلقًا..

نفخت صدرها وزفرت مدعية نفاذ الصبر بينما كان قلبها يخفق بجنون أمام عينيه المتربصتين بعينيها دون رحمة.. ثم قالت بخشونة

- هشام!!.. يبدو وبما أنك عاطل لا عمل لديك تتخيل أننا جميعًا تحت رهن إشارتك لتسليتك.. اذهب وجد تسلية في مكان آخر، فأنا لست عاطلة مثلك..

أوشك على الرد بجوابٍ مُتحاذاق لكن صوت كريم ارتفع فجأة بغضب من فوق خشبة المسرح

- دنيا.. إلى غرفة تبديل الملابس حالًا..

انتفضت فجأة مرتبكة ولم تجد الفرصة حتى لتبادل كلمة إضافية مع هشام فاستدارت تنوي الجري لتنفيذ الأوامر إلا أنه اعترض طريقها هامسًا بسرعة

- اسمعي.. سأنتظرك أمام عربة الشطائر خلف المسرح في وقت راحتك..

همست بصوتٍ خفيض وعيناها على وجه كريم المكفهر
غضبًا والذي بدأ في التوجه نحوهما

- لا يمكنني فعل هذا..

حاولت تجاوزه إلا أنه اعترض طريقها مجددًا سائلًا بإصرار

- لماذا؟...

هزت رأسها بإشارة مبهمة وهي تراقب كريم الذي كان
يقترّب أكثر بخطوات مندفعة ثم نظرت إلى هشام وقالت
بصوتٍ خفيض

- لا أستطيع يا هشام.. هذا ليس تصرفًا لائقًا..

سألها همسًا عابس الملامح

- ولماذا لم يكن كذلك أول مرة؟!...

ارتفع حاجباها وهي ترد بغباء - أول مرة!!.. كانت مجرد صدفة ولم أكن أعرفك وقتها!!..

سألها مقطبًا - وهل تشكل هويتي مشكلة بالنسبة لك؟!..

ردت بجدية مشددة بينما أصبح كريم على بعد خطوات قليلة منهما - تشكل أكبر مشكلة..

لم يجد الفرصة للرد عليها فقد وصل كريم أخيرًا وعيناه تقدحان شرًا ليهمس من بين أسنانه بشراسة

- ألم أمرك بالذهاب لتبديل ملابسك!!.. دنيا إنه آخر تحذير لك، إياك وتخيل أنك قد تنالين أي معاملة خاصة..

اتسعت عيناه بصدمة وهي تضع يدها على صدرها هامسة

- معاملة خاصة!!.. أنا؟!..

لكن كريم لم يتهاون بل أصدر أمراً جديداً بصوتٍ غاضب -
اذهبي الآن.. حالا.. أريدك على المسرح خلال ثلاث دقائق

نقلت دنيا عينيها بينهما ثم أطبقت شفتيها قبل أن تغادر
مندفعة تتجاوزهما..

انتظر كريم حتى ابتعدت تماماً ثم استدار إلى هشام
ليطبق على ذراعه فجأة، يجذبه بقوة حتى خرجا من أقرب
بابٍ جانبي ثم دفعه ليقف مواجهًا له وهتف همساً بنبرة
جادة غاضبة

- ستوقف ما تفعله هذا يا هشام.. ويمكنك اعتباره تهديداً..

انعقد حاجبا هشام وهو يسأله بحيرة

- ما هذا الذي سأتوقف عن فعله!!.. ولماذا تبدو بمثل هذه
الشخصية المقيمة منذ أيام!!..

حدجه كريم بنظرة أجفلته ثم سأله مباشرة ودون مقدمات

- ماذا تريد من دنيا؟..

لم يرتبك ولو للحظة بل سأل شقيقه بخشونة - وما دخلك أنت؟!..

اتسعت عينا كريم للحظات ثم غمغم مصدومًا وبوادر
الخطر تظهر على عينيه

- إذن فالكلام الدائر بين الجميع هنا لا يخلو من الصحة!!..

دقق النظر به وهو يسأل بجفاء - أي كلام؟!..

رد عليه كريم بضراوة يكاد أن يضربه - أن هناك ارتباطًا
غير معلن بينك وبين دنيا!..

هتف هشام بغضبٍ حاد وحقيقي مواجهًا شقيقه

- من يتناقل مثل هذا الكلام ما هو إلا شخص قدر عليك
إيقافه وطرده على الفور..

لم يرد كريم بل نظر إلى أخيه بعينين غريبتين لفترة ثم قال ببطء

- أنت لم تنكري.. ولم تؤكدي.. ماذا ينبغي علي أن أفهم من موقفك هذا بالضبط؟!!..

نظر إليه هشام رافعًا حاجبيه بدهشةٍ بالغة ثم هتف بغضب

- لمن أنكري؟.. ولمن أؤكدي؟!!.. كيف تسمحون لأنفسكم بالتدخل في حياة الآخرين الأكثر خصوصية!!..

اقترب كريم منه واضعًا كفيه في خصره ثم قال بعد صمت طويل

- الأمر لم يعد بمثل هذه الخصوصية يا هشام!!.. أنت تنتظرها في حضورها وانصرافها وتتعمد البقاء معها في أوقات راحتها.. لا تتوقفان عن الكلام معظم أوقات اجتماعكما!!..

سأله هشام غاضبًا ملوحًا بكفه وهو يستدير عنه

- أهى جريمة أن تنشأ بيننا صداقة!!..

لم يتمالك كريم نفسه وهو يمسك بذراع هشام يديره حول نفسه بقوة ليواجهه مجدداً ثم هتف بصوتٍ خفيض كي لا يسمعهما أحد

- هل تتغابى أم تظننى أنا الغبي وتتعامل معي على هذا الأساس!!.. أي صداقة تلك التي قد تنشأ بينك وبين دنيا؟!.. أنت لم تكن يوماً من النوع المهتم بهذا النوع من الصداقات!!.. لم يشغلك سوى عملك والنجاح به فقط.. لم أر لك صديقة مثل دنيا من قبل!!..

ساد الصمت قليلا ثم تكلم هشام أخيراً سائلاً أخاه بنبرة غريبة

- ألا يخبرك هذا شيئاً!!..

ارتفع حاجبا أخيه بعض الشيء أمام نبرة هشام الغامضة لكنه انتظر حتى تابع ببطء

- أنا.. أنا أحب قريبها.. أحب التواجد حولها..أحب نفسي
بالقرب منها

اتسعت عينا كريم بصدمة، ففي أسوأ تخيلاته توقع أن
يكون هشام قد اتخذ منها تسلية مؤقتة.. لكن النبرة الغريبة
في صوته، والنظرة الأغرب في عينيه أسقطاه في الفراغ!!..

اقترب منه ليمسك بساعده يشدد عليه قبضة يده ثم سأله
بخفوت

- أتحبها يا هشام؟!!....

نظر إليه هشام بنظرة عجزٍ لم يعرفه بها من قبل!!.. حتى
في أشد أوقاته يأسًا وفشلًا!!.. لكنه قال أخيرًا فاتحًا كفيه

- الوقت مبكرًا جدًا كي أعترف لنفسي باعترافٍ كهذا يا
كريم.. لم نعرف بعضنا البعض إلا منذ شهرين فقط!.. لماذا
أطالب بتقديم اعترافٍ لك وللناس قبل حتى أن أقدمه
لنفسي!!..

كان كريم يستمع إليه ذاهلاً مكتفياً ذراعيه، لا يكاد يصدق أذنيه بينما تابع هشام قائلاً وعلى فمه شبح ابتسامة تبرق وكأنه يعيش حياة مختلفة

- كل ما أستطيع أن أخبرك به.. أنني معها أشعر وكأنني أحياء دنيا جديدة، لم أعرفها من قبل!!.. وكأنني.. كأنني طفل نال رحلته الأولى للسيرك.. إنها كتلة من الألوان المفرحة، بعد أن عشت سنواتٍ في الدرجات الرمادية.. لقد تذوقت معها ألواناً جديدة لم أبصرها قبل أن أعرفها

مع دخولها غرفة تبديل الملابس تحولت الهمهمات لضحكات مسموعة وغمزاتٍ لها وقد بدأت تعتاد مثل تلك الحركات منذ فترة!!..

حاولت التصرف بثباتٍ واتزانٍ قدر الإمكان لكن على ما يبدو أن هذا لم يعد مسموحاً لها بدءاً من اليوم، فقد اقتربت منها إحدى الفتيات لتمسك بذراعها قائلة بحماس

- التفاصيل... نريد التفاصيل كاملة يا دنيا ولن نقبل بصمتك أكثر من هذا..

استدارت دنيا لتنظر إليها بدهشة، ثم فوجئت بهن جميعًا واقفات وعلى وجوههن علامات الترقب والابتسامات الحالمة والنظرات اللامعة في انتظار قصة تدق لها قلوبهن بنغم صاخب..

ارتبكت وتلعثمت وهي تسأل محاولة الابتعاد والهرب

- أي تفاصيل؟!.. ماذا أصابكن اليوم؟!..

اقتربت منها فتاة أخرى لتسألها بلهفة

- متى ستعلنان الخبر السعيد؟..

رددت دنيا وقلبها يخفق بتسارع كأرنب مذعور - من سيعلن ماذا؟،....

هتفت الفتاة ترد عليها بطلب

- احكِ لنا القصة من البداية يا دنيا.. كيف تعارفتما أنتِ وشقيق كريم؟.. أين كان هذا ومتى؟.. ومتى ارتبطتما؟

اتسعت عينا دنيا بصدمة وهي تهتف

- ارتبطنا؟!!!.. لم يحدث شيء من هذا!!!..

انعقد حاجبا الفتاة وهي تلکها بقبضتها في ذراعها قائلة
بتذمر

- لا تكوني كتومة أكثر من هذا يا دنيا.. جميعنا نمتلك أعين
نرى بها اهتمامه بك..

بداخلها سعادة مجنونة جعلت وجنتيها تتوردان مما ثبت
التهمة عليها بالدليل القاطع.. ما تسمعه منهن هو الحلم الذي
تقضي لياليها تتمنى أن يكون حقيقة..

حتى الآن لم يبدر منه أي اعتراف صريح.. يلاحقها،
يحاصرها.. يشعرها أنها دنياه التي عثر عليها، لكنه كان من
النوع شديد العقلانية حتى في الاعتراف بال.. الحب؟!!!.. هل

يحبها هشام فعلا؟!..

أغمضت عينيها متنهدة وعلى فمها ابتسامة عريضة تشع بالفرح لكنها انتفضت على صوت ضحكاتهن القوية فارتبكت وتحول توردها إلى احتقان فاضح..

عقدت دنيا حاجبيها وقالت بصوتٍ أجش

- كفى.. كفى.. ليس هناك أي مما تنتظرين سماعه، والآن لننتهي من تبديل ملابسنا فلا تنقصنا المزيد من إهانة كريم

اتجهت للخزنة الخاصة بها وإحدى الفتيات تهتف من خلفها ضاحكة

- هل رأيتن كيف كان كريم غاضبًا لأن شقيقه يؤخر دنيا عن التدريب!!!.. لقد أوشك على ضربهما معًا!!!..

ابتسمت دنيا ودقات قلبها تعصف في أذنيها مطرقة برأسها وهي توليهم ظهرها لكن حين فتحت خزانة ملابسها وجدت شيئًا غريبًا فيها.. لعبة!!!..

لعبة على شكل لاعب حركاتٍ بهلوانية!!.. أمسكت باللعبة
بين أصابعها تحقق فيها بعينين واسعتين ثم ضغط الزر
الموجود لتفاجأ باللاعب يتشقلب أمامها!!..

انفجرت الفتيات في الضحك وهن يتجمعن حولها يراقبن
اللعبة فأدارت وجهها بينهن تسأل بحيرة

- من وضعها هنا؟!!...!

هتفت إحدى الفتيات ضاحكة

- قد تكون أي من العاملات وضعتها هنا، لكن السؤال المهم
هو.. من الذي حرضها على وضعها في خزنتك؟..

ازداد الضحك والتعليق على مدى ظرف اللعبة وجمالها
بينما تحولت النظرة في عينيها وهي تتأمل اللعبة بين
أصابعها لمشاعرٍ جعلتها تود البكاء والضحك في آن واحد..

وبالفعل ابتسمت والدموع في عينيها!

ألن تأتي؟!..

تأفف وهو يتمشى أمام عربة الشطائر وعيناه على أول الطريق الضيق بنفاذ صبر.. ألن تأتي؟!..

الدقائق تمر ووقت استراحتها قارب على الانتهاء، مما أشعره بضيق يكاد أن يصل لمرتبة الغضب.. لقد ظن أنها ستسبقه إلى هنا، فاللهفة في عينيها والقادرة على إشعال تلك الجذوة في صدره أنبأته بأنها تشعر بالمثل..

دنيا.. دنيا جديدة..

لم يسبق له أن أحب السيرك.. أو طلب الذهاب إليه في صغره

فبالنسبة إليه لم يستطع فهم المغزى من وظيفة بعض البشر لإضحاك البعض الآخر أو إبهارهم ببعض الحركات!..

بالنسبة له، يحبطه رؤية مضيعة لسنوات العمر بلا هدف حقيقي بهذا الشكل الحزين.. والعديد من الأشكال المشابهة التي لا قيمة حقيقية لها..

حتى دخلت دنيا حياته.. ليعرف معنى آخر لها، لم يكن على علم به قبلها..

دنيا جعلته يتذوق الضحك.. يتعرف على المرح.. يحب الألوان ويعشق الجنون.. فقد كانت مجنونة بجداره..

انتبه إدراكه فجأة لقدمها قبل حتى أن يراها، فرفع رأسه وبالفعل أبصرها أول الطريق الضيق تنهذى بخطواتٍ تختلف عن خطواتها السريعة عادة..

كانت مترددة، لكنها كانت مبتسمة مما جعله يبتسم ابتسامة عريضة رافعًا كفه ملوحًا

لم ترد عليه بتلويح مثله بل تابعت اقترابها حتى وصلت إليه ووقفت أمامه لترفع أمام وجهه شيئًا كانت ممسكة به ولم ينتبه له..

لعبة البهلوان!!..

بادرت دنيا متكلمة بخشونة مصطنعة دون أن تفقد
ابتسامتها

- وجدت هذه اللعبة في خزنتي بالمرشح!.. هل لديك فكرة
عمن قد يكون المتهم بتركها هناك؟!..

نظر هشام إلى اللعبة ببراءة ثم أعاد عينيه إلى عينيها وقال
مفكرًا بنبرة متلاعب

- يبدو أن لديك معجب مجهول..

اتسعت ابتسامتها حتى شملت وجهها كله، فبدا وكأنها
سحرته بتلك الابتسامة!!..

تجولت عيناه على شفتيها المصبوغتين باللون الأحمر
القاني البراق والأسنان البيضاء الكبيرة..

وكأنه لم يعرف ابتساماتٍ من قبل!!.. ربما عليها أن تبدأ في

إعطاء دروسٍ لتعلم الابتسام على النحو الذي يجعل القلب
يرقص كما تفعل ابتسامتها تمامًا!

بادلها الابتسام بابتسامة من مبتدئٍ مثله بالكاد بدأ أولى
دروس التبسم والبهجة على يديها، ثم سألها بصوتٍ خفيض
له نبرة أدفأت قلبها

- هل أعجبتكِ؟..

نظرت دنيا للعبة في يدها بعينين ساحرتين له
ومسحورتين بها ثم ضغطت الزر لتشاهد تشقلب اللاعب
البهلواني وشفتها تضحكان بلا صوت،.. إلا أنها حين نظرت
إليه همست بصوتٍ جاد عميق

- إنها الهدية الثانية التي تصلني في حياتي كلها.. ولا تقل
لطفًا وجمالًا عن الأولى..

سألها بشك - ألم تتلق في حياتك كلها سوى هديتين
فقط؟!!.. فعلاً؟!..

أومأت برأسها دون أن تفقد ابتسامتها لكن عينيها كانتا
تشعان بلونٍ آخر غير ألوان الطيف كلها.. لون خاص بها
وحدها..

سألها مبتسمًا وكأن الابتسامة عدوى

- ترى ماذا كانت هديتك الأولى؟...

لم تجبه بالكلمات، بل أخفضت وجهها وهي تخرج من ياقة
قميصها القطني فراشة معلقة حول عنقها، استقرت على
راحة يدها

تأمل الفراشة بإعجاب ثم سألها بفضول

- ترى من أهداك تلك الفراشة؟.. أتعشم ألا يكون رجلًا
معجبًا..

ضحكت بصوتٍ عالٍ وقد ازداد تورد وجنتيها لكنها أجابت
بصراحة

- إنها من رجلٍ بالفعل.. وهو بكل تأكيدٍ معجبٌ وبشدة..

انعقد حاجباه بشدة وقد تجهمت ملامحه بغتة مما أثار حيرتها وعدم تصديقها.. أتراه يغار؟!..

رفضت التصديق خوفًا من السرعة التي كان يرتفع بها سقف أحلامها، لكن في أعماق زوايا قلبها صدقت أنه يغار وكتمت ذاك التصديق سرًا عن العقل والمنطق خاصة حين سألتها بفضافة

- من يكون؟..

وضعت يدها على جانب عنقها عليها تهدئ من انتفاضة أعصابها ثم أجابت بنعومة

- جلال.. لاعب الحركات البهلوانية الهوائية في سيرك سلطان، كان معلمي ومدربي وأستاذي.. وهو أول من رأى موهبتي، إنه أقرب الناس لقلبي كما أكون أنا له..

ارتاحت ملامحه بعض الشيء، إلا أنه سألتها بخشونة

- هل علي أن أغار منه أم ماذا؟!..

اتسعت عيناها وهي تسمع منه أولى تصريحاته والتي
رفضت تصديقها منذ لحظة واحدة!!.. حتى وإن كان يمازحها

كم من اعترافٍ أُلقي في بحر المزاح حين تتخاذل
الشجاعة!..

لم ترد على مزاحه بمزاح.. بل هزت رأسها ببطء شديد
محدقة بعينه ثم همست

- لا.. ليس عليك أن تغار..

تحرك حلقه وهو يبتسم ابتسامة لعينيهما تختلف عن جميع
ابتساماته المرححة كلها..

تمامًا كما اختلفت ابتسامتها وبقيتا صامتين حتى ضحك
ضحكة خشنة يجلي بها حلقه، كما تجاوبت معه وهي
تضحك ضحكة متوترة لتشيح بوجهها المتورد عن عينيه
وكما بدا كلا منهما كمراهق حديث العهد بالمشاعرا!..

تكلم عارضًا بذوقٍ مشيرًا بكفه للعربة من خلفه

- هل تأكلين شيئًا؟..

هزت رأسها نفيًا وهي تحتضن اللعبة بين ذراعيها وردت
معتذرة برقة

- لا يمكنني، لقد زاد وزني الأسبوع الماضي مثني جرمًا
وقد جعل كريم مني عبرة أمام الجميع..

زفر بحنقٍ قائلاً - بإمكانه أحيانًا أن يكون قليل الذوق..

ارتفع حاجباها وهي تسأله بصدق وبلادة - أحيانًا؟!!!..

ضحك بقوة مما تسبب في التفات رؤوس الواقفين حول
العربة إليهما مما جعله يكتم الباقي من ضحكته ثم سألها
بصوتٍ هادئٍ مرح

- لما لا نتمشى قليلا إذن..

تنهدت بحسرة قائلة رغم الإيقاع الراقص لقلبها

- لقد انتهى وقت استراحتي بالفعل ويجب علي العودة..
لقد جئت فقط لأشكرك على الهدية..

رفعت لعبة البهلوان مبتسمة، مما جعله يتأمل اللعبة
للحظات ثم أعاد عينيه لصاحبته وسألها ببطء

- جئتُ تشكريني فقط؟!..

تعمق تورد وجنتيها وهي تخفض وجهها وكأنها لم تتجاوز
الخامسة عشر من عمرها.. فاتسعت ابتسامته وساد الصمت
بينهما لحظات غالية إضافية ثم قالت أخيرًا هامسة بصوتٍ
جميل وابتسامة براقّة

- سلام يا هشام...

راقبها بعينين مشعتين تبتعد في الطريق الضيق من حيث
أتت قبل أن يرفع كفيه لرأسه متنهّدًا بصوتٍ عالٍ ثم اقترب
من العربة ونادى بشهية لم يعهدها في نفسه سابقًا

- أربع شطائر.. ولا تنس المخللات..

أي خطايا أتت بكم!!

أمسك بدفتره ليرميه أرضًا على خشبة المسرح بكل قوته
محدثًا دويًا عاليًا أوقف الجميع عن الحركة ناظرين إليه
بدهشة فصرخ بغضبٍ يائس وكأن اليأس نازًا تحرق كيانه
حتى تذوي ويذوي معها وصولًا لنقطة الصفر لا يجد بين
يديه سوى بقايا الرماد

التفت ليواجههم صارخًا بانفعال

- لماذا جئتم؟!.. ما الذي دفعكم لتتبع منشور يائس من
بضعة أسطر لا تحمل إلا فقدان الأمل المرير!!.. ما الذي
أجبركم على النهوض واللحاق بالنداء اليائس إلا لأنه وجد
صدى بداخل كل واحد منكم!!..

ساد الصمت التام يحدقون به والأعين تتسع كبحيرات
جف ماؤها.. بينما كان يدور ببطء يبادلهم التحديق بآخر
غاضب وكأنه يود لو اخترق قلب كل منهم عله يفهم..

عله يستوعب القيود التي تكبله وتجعله جسداً جماداً
كدمية لا تحركها إلا الخيوط.. عيناها ميتينتان حزينتان
وعنقها مكسور بأسى، لا يرقص منها سوى أطراف من
قماش!..

صمت تام يجيبه والوجوه تنخفض فصرخ فيهم بغضب

- لماذا جئتم إن لم يكن لديكم الرغبة في تقديم أقصى
ما تملكون.. وصولاً إلى ما ظننتم أنكم لا تملكونه.. لماذا
جئتم؟!..

مجدداً لا رد.. وجوه واجمة وأعين خاوية..

فصرخ لترتج جدران المسرح بصوته

- حين كتبت الإعلان لم أذكر فيه أنني أنوي فتح ملجأ

لاحتواء ضحايا اليأس والأرواح الضائعة!!.. لقد كان نداءً
للبحث عمن يريد كسر السلاسل القوية التي تقيد روحه
ومواهبه..

صمت قليلًا لاهثًا ناظرًا في الوجوه المطرقة.. ثم قال
متابعًا بصوتٍ هادئٍ إلا أن نبرة الاتهام فيه كانت مؤلمة
حارقة

- لقد راهنت على يأس كل واحد منكم.. لقد راهنت على
يأسكم بالمتبقي لدي من الأمل والإيمان بما أستطيع تقديمه..
لكنني خاسر حتى الآن.. أما أنتم فقد أتيتم تراهنون على
الخسارة على ما يبدو.. ورهانكم رابح..

تنهد تنهيدة مثقلة واضعًا كفيه في خصره محدقًا في
الأرض ثم لم يلبث أن لوح بيده قائلاً بصوتٍ قاتم

- التدريب مُلغى للمتبقي من اليوم..

بدأوا في الحركة ينون الخروج والعودة لمنازلهم، إلا أنه
صرخ بصوتٍ اهتزت له أعصابهم

- لن تخرجوا.. ستجلسون معًا..و ستبحثون عن جوابٍ
للسؤال.. لماذا جئتم؟.. واعتبروه فرضًا مسرحيًا عليكم
وليس اختياريًا..

ابتعد عنهم بخطوات مندفة بينما وقف الجميع ينظرون
لبعضهم البعض بحيرة.. حتى فتحت واحدة منهم كفيها
وهي تسأل بتردد

- ماذا سيحدث الآن؟!..

ضحكوا دون سببٍ محدد وكأن سؤالها البسيط بدد الكثير
من الصدمة والرغبة اللتين تسبب فيهما صراخ كريم وكلماته
القاسية منذ لحظات..

قالت دنيا مبتسمة ابتسامتها العريضة

- بصراحة لم أفهم المطلوب!!.. راعوا أن مستوى تعليمي لا
يرقى لمثل تلك الفروض العميقة!!..

ضحكوا مجددًا يتبادلون النظرات فيما بينهم.. ومن بينهم

زاد التي ابتسمت خلف القناع لكن لم يلحظ أحد ابتسامتها..

تكلمت فتاة أخرى تقول بنبرة مرحة

- حسناً لنحاول تنفيذ الفرض حرفياً لعلنا نفهم المطلوب بعدها.. ما رأيكم أن نُكوّن ما يشبه بجلسات العلاج الجماعي

تعالّت الضحكات فضحكت قائلة وهي تشير إليهم بالجلوس أرضاً على خشبة المسرح

- اجلسوا على الأرض في دائرة كبيرة.. وليبدأ كلّاً منكم بذكر اسمه ثم الكلام كما نرى في الأفلام..

ضحك بعضهم مجدداً لكنهم امتثلوا لأمرها وجلسوا متربعين في دائرة وكان من زاد أن جلست بجوار دنيا بتردد وحذر..

سألت واحدة من الفتيات ممازحة

- لكن تلك الجلسة الجماعية ستكون لعلاج أي شيء

تحديدًا؟!..

أجابتها أخرى قائلة بعدم فهم

- كما قال كريم.. البحث لجوابٍ عن سؤاله.. لماذا جئتم؟..

تكلم واحد من الشباب يقول

- ليس العرض هو المقصود بالتحديد.. بل لماذا تتبعنا
إعلانه الغامض اليأس؟.. لماذا لم نتجاهله؟..

أدارت فتاة وجهها بينهم قائلة ببديهية

- الإعلان كان بلا شروطٍ تعجيزية.. مجرد إجابة شبه عادية
لرقص الباليه ولهذا جئنا جميعًا..

أطرق شاب آخر بوجهه قائلًا بخفوت

- عن نفسي شعرت بالكلمات وكأنها تناديني على وجه
التحديد.. لم أكن مهتمًا بالعرض قدر اهتمامي بالكلمات التي

تصفني

ردت فتاة على الجانب الآخر من الدائرة بخفوت - وأنا
أتيت لنفس السبب...

قالت الفتاة التي بدأت الجلسة

- إذن لنبدأ من هنا.. لماذا شعر كلا منا أن كلمات الإعلان
تصفه؟... حينها سنعرف لماذا جاء!.. ابدأ أنت يا مازن بما أنك
من بادرت بالكلام

نظر إليهم مازن مبتسمًا ابتسامة باهتة، ثم أطرق برأسه
متلاعبًا بأصابعه وهو يحدق فيها قائلاً بخفوت

- أنا أعتبر خيبة أمل والدي.. أن يصبح ابنه راقص باليه لهو
أمر كارثي بالنسبة له، فضيحة.. لقد تعلمت رقص الباليه على
يدي خالتي.. حيث كانت تملك مدرسة تعليم افتتحتها في
شقة خاصة، وكنت أتدرب معها في الخفاء.. وبالطبع حين
علم والدي بالأمر كانت الطامة الكبرى.. لكن لم تكن تلك هي
المشكلة الأساسية، فحتى الباليه لم أجده تمامًا كما تخيلت

عن نفسي في عمرٍ أصغر..

صمت للحظات وقد أظلمت ملامحه وعيناه ثم تابع بجفاء
دون أي مشاعر

- إنه لا يراني سوى فاشل منذ أن وعيت لهذه الدنيا.. فاشل
في الأكل، فاشل في اللبس.. فاشل في الدراسة.. فاشل في
النطق والكلام.. فاشل في التواصل مع الناس.. ثم بدأت
كلمة فاشل تتحول لغبي.. غبي في التصرف.. غبي في طرح
الحلول.. غبي حتى في القدرة على الكذب.. كان يراه غباء
شديد مني ألا أنجح حتى في الكذب!!..

وصل الأمر أنه لو رأي أمر في البيت فقط لناداني بالفاشل
الغبي.. وحين علم بالتحاقي بمعهد الباليه طردني ونفض
كفيه مني.. لكن أتدرون.. إنه محق نوعًا ما.. فها أنا وصلت
لمثل هذا العمر وماذا حققت؟!.. لا شيء.. حتى في رقص
الباليه!!.. لم أحقق سوى توقعاته تمامًا.. الفشل

ساد صمت حزين بينهم وقالت فتاة بخفوت

- الانتقاد الدائم.. سلاح أسود

رفعت شابة وجهها وقالت متنهدة

- أنا التالية.. أنا رانيا.. تعرضت للاستغلال يوميًا لسنواتٍ طويلة.. تزوجت من شاب بدا لي قمر السماء ونجومها.. لكن منذ اليوم الأول اكتشفت أنني لم أكن له سوى الدجاجة التي تبيض ذهبًا كما يقولون.. لم يتزوجني إلا ليصل لمصالحه وأهدافه من خلال والدي ومن خلالي.. كان يذيقني أيامًا مرة كالعلقم حتى أصرخ طالبة الحرية وما تبقى لي من نفسي.. حينها يتغير ويذيقني يومًا واحدًا من السعادة فأتحول لظمآنٍ كان يتوق لقطرة ماء حتى ولو على حساب كرامته.. وكان هو من طلقني في النهاية.. المهم ألا أكون أنا صاحبة القرار!!

بعد أن حصلت على الطلاق ونظرت إلى نفسي وجدت أنني تحولت لامرأة فارغة بلا كرامة، بلا عقل.. لم أحقق شيئًا، بل كنت منشغلة بتحقيق ما تمناه فقط

همست دنيا بصوتٍ أجوف

- الاستغلال.. أنتِ تذكريني نوعًا ما بأختي فاطمة..

ردت فتاة اسمها تسنيم ضاحكة رغم الحزن في ضحكتها

- طبعًا تعرفون اسمي.. أنا عن نفسي كانت لدي حياة مثالية.. عائلتي عريقة راقية، كنت راقصة باليه ممتازة.. حتى أحببت شاب من مستوى آخر.. لا أقصد الناحية المادية، لكن طبيعة نشأته كانت مختلفة عنا.. كان الصبي الوحيد على ست بنات.. فكان مدللًا من أمه وشقيقاته تدليلاً لم أستوعب خطورته حتى تزوجنا وبدأ الاختلاف بيننا في الظهور..

كنت مطالبة بتلبية كافة رغباته وأوامره.. حتى كوب الماء أحضره له وكأنه عاجز عن الحركة!!.. كنت أخدمه بكل حب وأنا أقنع أُمي أن خدمة الزوج واجبة وأُني أفعل هذا لأنني أحبه.. لكن بمرور الوقت لم أجد عنده صدى لهذا الحب.. بل تحولت لخدمة بلا مقابل، لا يحق لي رفض أي شيء مهما بلغ تعبى جسديًا أو نفسيًا..

مهام مهينة مؤذية دون كلمة شكر أو لمسة على يدي فيها محبة.. وحين أرفض شيئًا كان يهينني أمام أهله ثم أمام

أهلي.. حتى بدأ بالسباب العنيف بالأب والأم.. قبل أن يبدأ
أخيرًا بمد يده.. لقد خرجت من التجربة ذليلة مهانة بعد أن
كنت أنا نفسي مدلة والدي.. بت أعجز عن قول لا لأي أحد..
والله إن اختطف أحدهم حقيبتني في الطريق أعجز عن قول
لا

همست رانيا بتعاطف

- يا له من نرجسي!!...

تكلم التالي وكان شابًا جميل المحيا مبتسم على الدوام في
بداية العشرينات من عمره

- حسنا أنا مهاب.. أنا عن نفسي أشعر بالخجل من ذكر
مشكلتي، فهي تافهة أمام مشاكلكم.. لكن على أي حال هي
السبب في مجيئي إلى هنا.. لدي أخ أكبر مني يحرمني من
النوم

اتسعت الأعين ثم بدأت الضحكات من الجميع وكأن
مشكلته قد خفت قليلا من الكآبة المنتشرة فابتسم متجاوبًا

سعيدًا أنه رفعه عنهم ثم تابع يحكي

- نحن صبيان فقط.. والدنا توفي منذ سنوات، وأمي هي التي قامت بدور الأم والأب.. أظن المشكلة بدأت قبل وقت طويل جدًا.. تقريبًا منذ ولادتي.. حين عادت أمي تحملي بين ذراعيها لتخبر أخي بأنه بات أخ أكبر.. أظن المشكلة بدأت منذ ذاك اليوم.. لقد مررت خلال طفولتي ومراهقتي بكل مظاهر الغيرة والتي كبرت معه.. غيرة الأخ الأكبر تنتهي عند مرحلة معينة من الطفولة.. أما عنده فقد استمرت حتى يومنا هذا، لقد ذقت الأمرين منه، لكنني وكما بدأتم تتعرفون طباعي.. فأنا هادئ مرن قادر على احتواء غضب أي إنسان والتعامل معه بسلاسة.. أما ما لا أستطيع التعامل معه مطلقًا هو حرمانني من النوم.. النوم ضرورة أساسية في مجالنا، بل هو ضرورة ملحة لأي إنسان طبيعي.. وعلى ما يبدو أنه اكتشف نقطة ضعفي.. وبات يستغلها كأكثر سلاح مؤذي عرفته في حياتي.. يتعمد الرجوع في وقت متأخر لإيقاظي بإصرار والكلام معي في مواضيع شديدة التفاهة أشك أن يتذكر ولو واحد منها.. يتعمد خدش ظهر السرير بأظافره في الظلام وهو يقلب في هاتفه.. يغني بصوت عالٍ.. يوقظني ليضحك فحسب وكأنه يرى نفسه مسليًا.. لا يحلو له الكلام

عن مشاكله إلا في منتصف ساعات نومي.. ينتزعني..
ينتزعني من نومي بصوته العالي وكفه التي تهزني بقساوة..
وأينما ذهبت للنوم يلحق بي ولو نمت في المطبخ!!.. وكلما
شكوته لأمي تستاء لأنني أفعل المشاكل معه لسبب تافه
كهذا!..

مع نهاية كلامه كانت الابتسامة قد غابت عن وجهه وحل
محلها التوتر العنيف حد اهتزاز ساقه مع القسوة التي بدت
على شفتيه



تكلمت تسنيم قائلة بعذاب وهي تتأوه

- هذا أيضًا كنت أتعرض له من زوجي السابق.. كان
يوقظني من النوم لتلبية طلباتٍ شديدة الغرابة بأسلوب الأمر
وإن رفضت يكيل لي الإهانات المريعة قبل حتى أن يستيقظ
عقلي بالكامل

ساد صمت موجه بينهم حتى تكلمت واحدة تنوي التخفيف
قليلا فهمست مبتسمة وإن كانت ابتسامتها مهتزة

- آسفة لما سأقوله، فهي أيضًا مشكلة تافهة.. أُمي تكره شعري الخشن وملامح وجهي الدميم..

التفت الجميع ينظرون إليها بدهشة واستنكار

داليا.. فتاة في عمر مهاب الذي سبقها في الكلام، ربما تكون متوسطة الجمال.. أو كما يقال متواضعة الجمال، لها وجه لم يشف من حب الشباب الذي ترك آثاره ما بين حفرٍ وندوب.. لها شفتين عريضتين وشعر خشن يصعب التعامل معه.. حالها حال ملايين الفتيات من العرب وغير العرب أيضًا.. ربما لا يمكن وصفها بمقاييس الجمال المتعارف عليها لكن بكل تأكيد لم تصل لدرجة الدمامة.. هذا إن كان يحق لمخلوق أن يصف انسان بالدميم!!

وكان الله خلق ما هو دميم!!.. الله لم يخلق إلا الجمال..

تنهدت داليا قائلة بفتور وهي تتلاعب بأصابعها

- أُمي جميلة جدًا.. ولي أخت ورثت جمالها، أما أنا فوُلدت نسخة من أبي.. لم تتوقف لحظة عن ذكر الأمر لكل الأقارب

والصديقات وكأنها تنفي عنها تهمة تورثي أي شيء من شكلها!.. أمي مهووسة بالشكل الخارجي لذا بذلت ما في وسعي للحفاظ على رشاقتي على الأقل.. ولهذا السبب تحديداً تابعت تمرينات الباليه والتحقت بالمعهد، فلراقصات الباليه هيئة قد تزيد من رصيد جمالهن وإن لم يملكن منه شيئاً.. لكن حتى هذا لم يشفع لي عند أمي..

وسيلتها لتكون أمّاً صالحة هي البحث الدائم عما قد يخفي عيوبي.. شعر مستعار أو مواد كيميائية لفرده ومواد زينة لتغطية آثار الحبوب في وجهي.. إن خرجت من البيت لشراء علكة من الطريق تجبرني على تغطية وجهي بدهان الأساس الثقيل وكأنني غرفة في حاجة للدهان يومياً لإخفاء عيوب جدرانها.. وصل بي الحال لكره نفسي ورفض الخروج، حتى أنني توقفت عن تمرينات الباليه لفترة قبل أن أقرأ إعلان كريم..

ساد الصمت إلا من بعض التنهدات الكئيبة وقد غام جو المسرح بسحابة حزينة حتى قال شاب آخر

- أنا يزن.. أحببت فتاة لسنوات طويلة، لا أعلم إن كان

حبًا من طرف واحد أم أنني موجود على رف الاحتياط كل تلك السنوات.. ترتبط فتنساني تماماً وتعتذر لي عن قطع صداقتها بي.. وما أن يفشل ارتباطها تعاود الاتصال بي..

لتمارس نفس الهواية من محاولات تغييرى.. شكلي لا يعجبها، ملابسي لا تليق.. شعري يحتاج قصة مختلفة.. حتى هواياتي تغيرها وفقا لما تراه السائد!!.. أدركت منذ زمن أنني لا أملاً عينيها ولا أعجبها كرجل وحاولت الابتعاد لكنها كحبة ترفض أن تحررني من سلطانها وكأنها تتمتع بتلك المشاعر المريضة فتشكلني كعجينة بين يديها.. لا أرغب إلا في التحرر منها ولا أقدر حتى أصبحت معروفاً لدى الجميع بالشاب المهان الأضحوكة.. أنا أسمع النكات التي تلقى علي خلف ظهري..

ولا أقدر على التحرر..

لم يضحك أحد.. ربما لو سمع أحدهم الحكاية خارج هذا المسرح لضحك مما يفعله بنفسه الشاب الأضحوكة فعلاً..

لكن هنا على خشبة هذا المسرح، لم يضحك أحد!!..

حركت عيناها بينهم ثم قالت بصوتٍ أجوف

- أنا أيضًا أخجل من قول السبب فقد يبدو تافهًا بالمقارنة
بأسبابكم..

قالت رانيا بخفوت - بل احكي يا دنيا.. فمن الواضح أن ما
ظنناه تافهًا كان هو سبب بقائنا على الهامش طويلاً..

شردت عينا دنيا وهي ترفع ركبتيها تضمهما إلى صدرها ثم
قالت بصوتٍ باهت

- فجأة وجدت نفسي على الهامش بعد أن كان جمهورًا
عريضًا يصفق لي.. فجأة اكتشفت أن للدنيا قوانينها
وحساباتها التي أغفلتها حتى باغتتني..

انتهى مصدر سعادتي في القيام بالشيء الوحيد الذي
أجيده، لكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد.. السبب الحقيقي
كان شقيقاتي..

أنا لم أجد يومًا الامتنان من شقيقاتي.. لقد تعبت وقدمت

الكثير لأجلهن، لكنني لم أجد منهن أي امتنان..

لم أقم بدوري انتظاراً لكلمة امتنان، لأنني كنت واثقة من وجوده بداخل كل واحدة منهن.. وكان وجوده يرضيني دون الحاجة لسماعه..

لكن ما أن تفرقت بنا الطرق، لم أكتشف أنه لم يعد موجوداً فحسب.. بل فوجئت عوضاً عنه أنهن يحملن بداخلهن خجلاً مني..

اكتشفت أنني غريبة.. لا مكان لي.. لا أهمية.. لا وجود.. وإن وُجدت فسوف يدرن وجوههن حرجاً من أن لهن شقيقة مثلي.. وكأنني تحولت فجأة إلى مشبوهة أخلاقياً!!..

أكره أن يخجل بي أحد.. أمقت هذا الشعور

ملاً التعاطف والحزن أعينهم، بينما قالت داليا بصدق

- ليت لي أخت مثلك يا دنيا.. كنت لأزهو بها أمام الجميع..

ابتسمت دنيا ابتسامتها العريضة الكبيرة وكأن كلمة بسيطة
كفيلة بتطبيب خاطرها.. ثم ردت تومئ برأسها سعيدة ولو
للحظة

- وليت لي أخت مثلك.. أسمعني هذا الكلام..

تكلمت رانيا قائلة فجأة وبلا تحذير

- ماذا عنك يا زاد؟....

انتفضت زاد الجالسة بشرود ضائع وساقها تحتها..

انتفضت حين سمعت اسمها ورأت الأعين تنظر إليها
مسلطة الأضواء على آلامها فجأة!!..

ثم بدأت نظرات التحذير والتأنيب تتجه لرانيا في إشارات
كي تصمت وتجنب زاد الحديث فالسبب واضح ولا يحتاج
للكلام ونثر الملح على جراحها الحية.. إنها تخجل بوجهها!!..

نقلت رانيا عينيها بين الجميع وقالت تبرر شاعرة بالرهبة

من نظرات الاتهام الموجهة إليها

- أنا.. لم أقصد.. لقد قال كريم أنه فرض على الجميع..
وفكرت أن الكلام قد يُفيدها..

بدأت الغمزات لها كي تتوقف ولا تتابع فصمتت بالفعل..
إلا أن دنيا هي من تكلمت، فقالت بإصرار تنظر لزاد الجالسة
بجوارها بعينين زائغتين وكأن القناع امتقع وشحب لونه
أكثر من بياضه المعتاد!..

- بل عليها أن تتكلم.. زاد لا تقل عن أي منا كي لا تتكلم
بما يؤلمها.. زاد ليست في حاجة لأن نتبادل الغمزات كي لا
نجرحها ونحن نعلم أنها ترانا!!..

صمتت للحظة ثم حدقت بعينيها الظاهرتين من ثقب
القناع وتابعت بثبات

- تكلمي يا زاد.. قولي أي شيء يشعرك أنك حية ولست
مجرد تمثال عرض..

نقلت زاد عينيها بين الجميع وكانوا يحدقون فيها بحدة وترقب.. ومضت فترة صمت قبل أن تنطق ببطء شديد بصوتها الفاتر المبحوح بنغمٍ مميز

- أنا.. لقد تعرضت لكل هذا مجتمعًا..

بدا عدم الفهم على الوجوه ناظرين لبعضهم بحيرة، بينما تابعت بنبرة متقطعة وكأنها تحكي عن إنسانة غريبة وليس عن نفسها

- لقد تعرضت للاستغلال.. الانتقاد الدائم.. الاحتجاز.. الحرمان من النوم والأكل.. فرض الأوامر وتسخيري لتبليتها.. محاولة تغييرني لإنسانة لا تشبهني.. ترسيخ فكرة أنني غبية لا أستطيع القيام بأي شيء إلا الشيء الوحيد الذي أجيدوه وهو رقص الباليه وتلبية الأوامر.. ثم التشكيك في استقرار نفسي حتى صدقت..

انحنت خطوط الملامح حزنًا وصدمة مع كلماتها البطيئة بلا تعبير أو شعور وهي تنظر لكل واحد منهم مؤكدة له أن ألمه كان جزءًا مما عاشته..

أخفضت وجهها وهي تتابع بعينين غائمتين

- وحين تمردت للمرة الأخيرة.. عوقبت.. عقابًا ليس كأى
عقاب اعتدته على مدار السنوات الطويلة، لقد كان العقاب
الأخير

- هل أنت بخير؟..

سألت دنيا السؤال بصوتٍ خفيض كي لا تفزعها كطائر هش
مريض.. لدقيقة كاملة وهي تقف مفرودة الظهر رافعة ذراعها
وذقنها.. إحدى ساقيها ممتدة خلفها، مشدودة كقوسٍ رائع
في زيبها الملفت حولها بطبقاتٍ من القماش الوردي والناعم
يزيدها نعومة ورقة..

أخفضت ذراعها على الفور وأراحت ساقها مستديرة
لتواجهها ثم أطرقت تجيب ببطء

- كنت أقوم ببعض الحركات لأشغل الوقت لحين وصول

أمي.. فاليوم لم ينتهِ بعد لكننا انتهينا..

اقتربت منها دنيا ببطء على خشبة المسرح تدقق النظر
فيها ثم سألتها مجددًا بحذرٍ أكبر

- هل.. أنت بخير؟..

أومأت زاد برأسها وهي تجيب - نعم بخير.. لما لا أكون؟!..

أرجعت ذراعيها للخلف تمدد جسدها ثم نظرت إلى دنيا
قائلة بخفوت

- تعالي لأدريك على بعض الحركات تضييغًا للوقت..

ارتفع حاجبا دنيا وهي تردد بدهشة بالغة ضاحكة -
حركات؟!...

أومأت زاد برأسها قائلة - بعض حركات الباليه..

هزت دنيا رأسها نفيًا وهي تقول مُتسلية - طبيعة عرضي

تختلف عن طبيعة عرضكم، كريم لا يحتاج مني سوى
مهارات السيرك

أجابتها زاد قائلة بهدوء أنيق

- هذا غير صحيح.. يحتاج منك إلى المهارات البهلوانية
لكن عليك أن تتناغمي مع حركاتنا في بعض التفاصيل..

ضحكت دنيا تقول بخشونة

- طبيعة جسدي تختلف عن طبيعة أجسادكم..

ردت زاد بتلك الطريقة الملوكية - هراء.. تتمتعين بنفس
اللياقة والمرونة، ينقصك تلك الهالة..

ارتفع حاجب دنيا بتوجس سائلة - من هالة؟..

تجاهلت زاد سخريتها ووقفت بجوارها رافعة ذقنها لتقول
برقة

- ارفعي ذقنك.. شدي عضلات ذراعيك واسحبي معدتك
أكثر.. باعدي بين قدميك.. ارفعي ذقنك بخيلاء

حاولت دنيا التطبيق ثم لم تلبث أن ضحكت قائلة - أشعر
بالغباء..

لم تتجاوب زاد مع ضحكتها بل تابعت بكل ثبات

- مدي ساقك اليسرى جانبًا وشدي مشط القدم لتستندي
على أطراف أصابعك ثم اجعلي قدمك اليمنى مرتاحة على
الأرض، ثم ميلي بنصفك العلوي لليمين رافعة ذراعيك بحركة
أصابع وكأنك تنادين الطيور..

ردت دنيا ببلادة وهي تهز رأسها - أنادي الطيور!.. حسنا،
هذا أكثر وضوحًا..

شدت الطوق لأسفل حتى بات على مقربة من خشبة
المسرح قائلة بحرص

- ستجربين الطوق بهذا الارتفاع.. لن نجازف بتعريضك لأي إصابة، فلو استلمك كريم غداً مصابة بخدش واحد قد يزهق أرواحنا جميعاً.. إنه يعتبرك أميرة الفريق وواجب علينا خدمتك..

أمسكت زاد بالطوق ونظرت من خلاله لدنيا قائلة بحيرة

- أنا!!!.. ظننتك المقصودة بتلك المعاملة المميزة.. إنه يعتبرك اكتشافاً..

ضحكة دنيا بسخرية عالية وهي تقول ممتعة

- ألم تكوني موجودة وهو يسجل وزني؟! ألم تكوني حاضرة الإهانة التي نلتها على الملأ!!!..بئس المعاملة للاكتشاف.

ضحكت زاد ضحكة مكتومة.. لكن بدا فيها لحن حزين أثار استغراب دنيا..

لكنها لم تتكلم، بل أمسكت بالطوق تتسلقه فساعدتها دنيا

قائلة وهي تثبت ركبتها

- شدي ركبتك على الطوق وكأنهما كفيك.. إياك وإرخائهما،
تمسكي به تحتها وكأنه جزء لا يتجزأ منك.. والآن ارخي
جسدك واسدلي ذراعيك للأسفل..

تركت زاد الطوق من بين أصابعها لتتدلى للأسفل.. ذراعاها
وشعرها يتأرجحان وكأنها طفلة..

العالم أمامها بالمقلوب فتذكرت حين كان والدها يلعبها
ويؤرجحها مقلوبة رأسًا على عقب..

بدأت تتأرجح بالطوق متدلية منه وهي تطوح بذراعيها
حتى أفلتت منها ضحكة واهية، فما كان من دنيا إلا أن
حذرتها قائلة

- انتبهي بالله عليك، نريد أن نسلمك لكريم كما استلمناك..

لكن زاد كانت تعيش ذكريات طفولتها وتسلقها الأشجار..
ليت تلك الأيام تعود.. ليتها تعود طفلة وليت والدها يعود..

انتفضت تتأرجح بالطوق المتعلقة به بواسطة ركبتها بقوة أكبر.. لكن ما حدث تاليًا لم يكن في الحسبان..

فبينما هي تتأرجح متدلية، انزلق عنها القناع ووقع من فوق رأسها ليسقط في منتصف خشبة المسرح!!..

صرخت واختل توازنها ف وقعت خلفه على الأرض مما جعل دنيا تسرع إليها لتتأكد من أنها بخير، لكن وقبل أن تقترب منها كانت زاد قد جلست رافعة ركة من ركبتها إلى صدرها تغطي وجهها بكفيها وهي لا تزال تصرخ

- لا تقتربي مني.. لا تقتربي..

تسمرت دنيا مكانها مصدومة لكنها انخفضت على ركبتها أرضًا وزحفت تقترب منها ببطء ممسكة بالقناع كي تناوله لها.. ثم همست بخفوت وتعاطف

- لا بأس يا زاد..

لكن بدا وكأنها كانت كبالون ضخمة ممتلئ بمختلف

الانفعالات وانفجر فجأة..

ظلت تبكي تبكي وهي تخفي وجهها بين كفيها وفوق
ركبتها.. فاستمرت دنيا في الزحف إليها حتى جثت بجوارها
ومالت إليها تهمس

- الأمر لم يكن بمثل هذا ال...

صرخت زاد فجأة شاهقة ببكاء مرير

- لا تخبريني أنه ليس بمثل هذا السوء كما يقول الجميع..
ما أدراكم عن السوء!! ما أدراكم إلى أي درجة قد يصل!!..

صمتت دنيا تمامًا شاعرة بالصدمة وتركتها تبكي لتفرغ
شحنة الانفعالات التي أوشكت على أن تخنقها والقناع في
يدها..

وما أن شعرت بها تهدأ قليلاً بعد دقائق طويلة تجرأت على
سؤالها بحذر

- هل تحبين أن أوصلك للبيت؟....

رفعت وجهها المغطى بكفيها ببطء تحقق في الفراغ
بعينين حمراوين مُحْتَقْنَتَيْن ثم همست أخيرًا بصوتٍ متقطع

- لا يمكنني.. لا يمكنني هذا..

مدت دنيا كفها بحرص تربت على كتف زاد برفق وهمست

- هل أتصل بأمك إذن لتبكر في المجيء؟..

سكتت زاد وهي تحقق بعيدًا بعينيها المغرقتين ثم قالت
بصوتٍ باكٍ منتفض

- لا لا.. لا أملك مواجهة أُمي الآن.. أرجوك..

ربت دنيا على كتفها مجددًا وسألتها برفق هامسة - ماذا
تريدين إذن؟.. أخبريني وأنا سأساعدك..

أدارت زاد وجهها بعيدًا كي لا تراه دنيا وهمست بصوتٍ

مختنق ترتعش

- هلا اتصلتِ ب.. شخص.. شخص اسمه سائد..

لاحت ابتسامة على شفتي دنيا وهي تسألها بفضول

- أهو نفس الشخص الذي تصدى لفضاظة كريم تجاهك
ذات يوم!!.. يبدو أنه أكثر من مجرد شخص!..

لم ترد زاد بل شردت عيناها وهي تهز كتفيها بشكلٍ مبهم
ثم همست بضياع وكأنها تهمس لنفسها

- شخص يساعدني..

أومأت دنيا برأسها ثم قالت بخفوت - لا بأس.. تعالي معي
لتبدلي ملابسك ثم نتصل بالسيد شخص..

انتظرته دنيا أمام باب المسرح وهي تدس يديها في جيبي

سترتها الثقيلة لتقيهما شر البرد القارص.. وما أن أبصرته
يوقف سيارته ثم يخرج منها وعلى ملامحه تبدو مشاعر
متناقضة تجعله متجهماً متحفزاً.. فبادرته مقتربة

- أنا دنيا.. التي اتصلت بك..

توقف سائد أمامها متوترًا وسألها مباشرة - نعم مرحبًا، ما
الذي جرى؟!... هل هي بخير؟..

هزت دنيا رأسها وهي تجيبه بصوت مبهم

- لقد وقع القناع عن وجهها.. أمامي أنا فقط، لم ير وجهها
غيري.. لكن أظنها كانت منهكة نفسيًا من قبل هذا.. فقد كان
يوم مشحون لنا جميعًا.. لقد توقفت عن البكاء، لكنها تبدو
وكأنها شديدة الإجهاد..

سمعت صوت تنهده المثلث قبل أن يسألها باقتضاب وكأنه
يود لو اختصر كل الكلام ليذهب إليها

- أين هي؟..

هل تبسم القناع لتوه؟!..و ما أدراك عما تفعله بي ابتسامة
من قناعك!!

رآها ما أن دخل المسرح.. كانت تجلس على خشبته،
متربعة أرضًا ترفع احدى ركبتها تستند بذقنها إليها..

ملامح القناع كانت حزينة، بعيدة.. بعيدة جدًا..

توجه إليها تسابق خطواته دقات قلبه في الوصول إليها
حتى اعتلى خشبة المسرح ثم اقترب منها ودون تفكير
جلس بجوارها أرضًا..

ظل صامتًا دون كلام لفترة طويلة قبل أن يتحرك كفه فوق
الخشب حتى لامست أصابعه أصابعها المرتاحة على الأرض..

حينها حركت وجهها بعض الشيء حتى التقت عيناها
بعينه.. فابتسم لهاتين العينين ابتسامة عميقة تغضنت لها
زاويتي عينيه..

لم تتكلم على الفور، ولم يحاول هو الكلام أو سؤالها عن شيء.. فقط جلس بجوارها.. لامس إصبعه إصبعها..

بدا وكأنها تريد الاحتفاظ بنظراته فترة أطول، فلم تحد بعينيها عن عينيهِ.. ولم تبعد يدها عن أصابعه..

وكانها تسترد توازنها عبر ذلك التواصل الصامت، دون الحاجة لأي كلمات..

مالت عيناه تتأملان شعرها الذي جمعته أعلى رأسها.. ملامح القناع التي لم تعد غريبة بالنسبة له بل أصبحت مألوفة وعادية جدًا..

عنقها الطويل الذي تتحرك عضلاته بتأثير من مشاعرها.. ما بين خجل وغضب.. توتر وخوف.. ضحك!..

تظهر عليه بعض الجروح لكنها على ما يبدو لا تماثل جروح وجهها قسوة، لذلك لا تهتم بإخفائها.. إنه وجهها فقط الذي تحرص كل الحرص على رفع الحواجز أمامه وكأنها تخجل

به!!!..

تكلمت أخيرًا مبددةً سحر الصمت بينهما فهمست بصوتٍ
ضعيف يمس القلب

- آسفة لأني أحضرتك بهذا الشكل...

لم تتغير ابتسامته بل ازدادت عمقًا ثم رد عليها وعيناه
تعاودان أسر عينيها

- أما أنا فلست آسفًا على الإطلاق... حين سمعت صوت
صديقتك وهي تقول - زاد تطلبك بالاسم شعرت وكأنني
ربحت الجائزة الكبرى..

أطرقت بوجهها وانغلقت يدها في قبضة مضمومة فوق
الخشب فابتعدت أصابعها عن أصابعه قاطعة الاتصال الدافئ
ثم همست بسخرية مريرة

- الجائزة الكبرى!!!.. لقد اتصلت بك شابة غريبة الأطوار
تضع قناعًا تترجأك كي تأتي وتقلها للمنزل لعدم مقدرتها على

التحرك بمفردها لأي مكان وهي في الثامنة والعشرين من عمرها!!!... إنها أكبر جائزة ساخرة قد تربحها في حياتك!..

ازدادت ابتسامته أكثر حتى ظهرت أسنانه ثم قال متشدقًا

- وما أدراك أنتِ بالجوايز!!.. إنها جائزتي وأنا الوحيد المسموح له بتحديد قيمتها..

بقي وجهها منخفضًا وهو يتأملها لا يمل ولا يتعب.. حتى قال أخيرًا بخشونة ممازحًا

- وبالمناسبة لي عندك حق... لقد سمحت لضابط اللجنة برؤية وجهك... كما رأته زميلتك في المسرح.. بينما ترفضين أن أراه رغم قيامك بجري خلفك في كل مكان!!...!

هل تَبَسَّم القناع لتوه؟!..

يكاد أن يقسم على أن ملامح القناع قد تَبَسَّمت وهي تخفض وجهها هامسة بصوتٍ محبب رغم قساوة الكلمات التي نطقت بها

- أنت الراح... صدقني..

مالت ابتسامته بتعبير قوي وقد امتلأت عيناه حناًا لكنه
همس بصوتٍ أجشٍ ممازحًا

- وما أدراكِ أنتِ!!....

وقفت عند الباب الخلفي للمسرح تراقبهما من بعيد..
جالسان أرضًا على خشبته يحادثها بصوتٍ خفيض لم تتمكن
من سماع ما يقول.. إلى أن رأته يبتسم وزاد تتجاوب معه
مخفضةً وجهها..

حينها فقط ابتسمت دنيا وأمسكت بحقيبتها متنهدة لتلقي
بها على ظهرها خارجة دون أن تحدث صوتًا..

سارت في الطريق المظلم والذي بدا خاليًا أكثر من أي
وقتٍ آخر خاصة مع بدء تساقط رذاذ المطر الخفيف فتنهدت
مجددًا وهي تشدد طرفي السترة حول عنقها... إن أصيبت

بالبرد فسيقتلها كريم أسرع وأسهل من العلاج..

كانت في منتصف الطريق حين سمعت صوت خطواتٍ خلفها!!! إن أسرع لحقت بها وإن أبطأت تمهل صوتها!!!..

ضاقت عيناها وهي تحاول التركيز مقنعةً نفسها أنه ربما يكون شخص يسير في طريقه.. فلا داعي للقلق..

لكن مع بضعة خطوات إضافية، لاحظت خروج أحدهم من مدخل بناية قديمة وهو يحدقها بنظراتٍ غريبة لم تشعرها بالراحة..

حسنًا إن كان ينوي اختطاف الحقيبة فلن ينال إلا مقلبًا كبيرًا لأنها لا تحتوي إلا على ملابس التمرين وبعض مستحضراتها الخاصة.. أما إن أراد التماذي والتعرض لها فهذه ستكون مشكلة..

زمت شفتيها بقسوة ونظرت في مركز عينيه رافعةً وجهها بشجاعة دون أن تُظهر له قلقًا أو خوف... لكن قلبها كان ينتفض خوفًا وهي تشك أن يكون صاحب الخطوات من

- أنت الرابع... صدقني..

مالت ابتسامته بتعبير قوي وقد امتلأت عيناه حناًا لكنه
همس بصوتٍ أجشٍ مازحًا

- وما أدراكِ أنتِ!!....

وقفت عند الباب الخلفي للمسرح تراقبهما من بعيد..
جالسان أرضًا على خشبته يحادثها بصوتٍ خفيض لم تتمكن
من سماع ما يقول.. إلى أن رأته يبتسم وزاد تتجاوب معه
مخفضةً وجهها..

حينها فقط ابتسمت دنيا وأمسكت بحقيبتها متنهدة لتلقي
بها على ظهرها خارجة دون أن تحدث صوتًا..

سارت في الطريق المظلم والذي بدا خاليًا أكثر من أي
وقتٍ آخر خاصة مع بدء تساقط رذاذ المطر الخفيف فتنهدت
مجددًا وهي تشدد طرفي السترة حول عنقها... إن أصيبت

- أنت الرابع... صدقني..

مالت ابتسامته بتعبير قوي وقد امتلأت عيناه حناًا لكنه
همس بصوتٍ أجشٍ ممازحًا

- وما أدراكِ أنتِ!!....

وقفت عند الباب الخلفي للمسرح تراقبهما من بعيد..
جالسان أرضًا على خشبته يحادثها بصوتٍ خفيض لم تتمكن
من سماع ما يقول.. إلى أن رأته يبتسم وزاد تتجاوب معه
مخفضةً وجهها..

حينها فقط ابتسمت دنيا وأمسكت بحقيبتها متنهدة لتلقي
بها على ظهرها خارجة دون أن تحدث صوتًا..

سارت في الطريق المظلم والذي بدا خاليًا أكثر من أي
وقتٍ آخر خاصة مع بدء تساقط رذاذ المطر الخفيف فتنهدت
مجددًا وهي تشدد طرفي السترة حول عنقها... إن أصيبت

بالبرد فسيقتلها كريم أسرع وأسهل من العلاج..

كانت في منتصف الطريق حين سمعت صوت خطواتٍ خلفها!!! إن أسرع لحقت بها وإن أبطأت تمهل صوتها!!!..

ضاقت عيناها وهي تحاول التركيز مقنعةً نفسها أنه ربما يكون شخص يسير في طريقه.. فلا داعي للقلق..

لكن مع بضعة خطوات إضافية، لاحظت خروج أحدهم من مدخل بناية قديمة وهو يحدقها بنظراتٍ غريبة لم تشعرها بالراحة..

حسنًا إن كان ينوي اختطاف الحقيبة فلن ينال إلا مقلبًا كبيرًا لأنها لا تحتوي إلا على ملابس التمرين وبعض مستحضراتها الخاصة.. أما إن أراد التماذي والتعرض لها فهذه ستكون مشكلة..

زمت شفتيها بقسوة ونظرت في مركز عينيه رافعةً وجهها بشجاعة دون أن تُظهر له قلقًا أو خوف... لكن قلبها كان ينتفض خوفًا وهي تشك أن يكون صاحب الخطوات من

خلفها موالياً لذلك الرجل المريب كتشكيل إجرامي للتعرض للنساء!..

ازدردت لعابها وهي تزيد من سرعة خطواتها فزادت سرعة الخطوات تلحقها حتى استطاعت أن تسمع صوت أنفاس ذلك المتربص بها !!..

في نفس اللحظة كان الرجل مريب المظهر قد نزل عن الرصيف وهي تقترب ناوياً على شيء غير سليم..

الآن فقط قررت أن تنطلق لتجري وربما يمكنها الصراخ فهي وإن كانت رياضية إلا أنها لم تتعلم طرق الدفاع عن النفس خاصةً أمام رجلين!!..

وبالفعل بدأت بالجري خطوتين إلا أن صوتاً خشناً ناداها من خلفها غاضباً...

- انتظري، لقد انقطعت أنفاسي وأنا ألحق بك..

تَسَمَّرت مكانها قبل أن تستدير ببطء تحت رذاذ المطر

الناعم محاولةً التأكد من هوية محدثها في الظلام رغم أنها
شبه تعرفت على صوته...

وعلى بعد خطوة منها تأكد لها ظنها.. لقد كان هو..
الأسطى!!..

وصل إليها قائلاً بنبرته الجافة - لماذا تسرعين بهذا الشكل
ولماذا لم تنتظريني؟..

لم تفهم ما يقول ففغرت فمها ذاهلة تنوي سؤاله عما يقصد
لكنه تابع سيره بجوارها يدعوها لإكمال طريقها ثم همس
إليها بصوتٍ هادئٍ

- تابعي طريقك بجواري...

وكأنها مأمورة، لم تحاول الاعتراض بل مشت بجواره
صامتة لكنها لمحتة بطرف عينيه يرمي الرجل المريب بنظرةٍ
مهددة مما جعله يتراجع عائداً للجحر الذي خرج منه!..

مشيا سوياً صامتين بغرابة والمطر يبللهاما بقطراته

الناعم محاولةً التأكد من هوية محدثها في الظلام رغم أنها
شبه تعرفت على صوته...

وعلى بعد خطوة منها تأكد لها ظنها.. لقد كان هو..
الأسطى!!..

وصل إليها قائلاً بنبرته الجافة - لماذا تسرعين بهذا الشكل
ولماذا لم تنتظريني؟..

لم تفهم ما يقول ففغرت فمها ذاهلة تنوي سؤاله عما يقصد
لكنه تابع سيره بجوارها يدعوها لإكمال طريقها ثم همس
إليها بصوتٍ هادئٍ

- تابعي طريقك بجواري...

وكأنها مأمورة، لم تحاول الاعتراض بل مشت بجواره
صامتة لكنها لمحتة بطرف عينيه يرمي الرجل المريب بنظرةٍ
مهدة مما جعله يتراجع عائداً للجحر الذي خرج منه!..

مشيا سوياً صامتين بغرابة والمطر يبللهما بقطراته

الناعمة.. حتى شعرت بوجوب قولٍ شيءٍ فقالت بقنوط

- أظن أنني ربما أكون مدينة لك بالشكر!!..

سألها بصوتٍ جاف وهو يسير بطبيعية ناظرًا أمامه دون أن يلتفت إليها

- ما الداعي؟....

زمت شفتيها تحذقه بنظرةٍ جافة لكنها اضطرت للقول
بفتور

- أظنك أنقذتني لتوك من شيءٍ ما..

لم يرد ولم يلتفت إليها وإن كان الجفاء على ملامحه قد
لان بعض الشيء.. فتابعت تقول ممتعة من فظاظته في
الصمت

- شكرًا لك....

أوماً برأسه كردِ على تحيتها!!.. فقط!!..

نظرت أمامها وقد عاد الصمت المخرج مجدداً فسألته من
باب تبادل الحوار لا أكثر

- ماذا كنت تفعل في المسرح حتى هذه الساعة؟... ظننت
أن جميع العاملين قد غادروا منذ ساعات!..

رأته يتنهد!!... أهى مملة لهذا الحد!!.. كانت تحاول التصرف
بتهذيب فحسب!

لكنه رد بهدوء واقتضاب

- أبقى بعد انصراف عمالي عادة لأتمم على العمل الذي تم
تنفيذه خلال اليوم..

أومات برأسها ثم قالت تثرثر

- أتصور أنك تجد صعوبة في الالتزام بالجدول السريع
المُضني والذي وضعه كريم للتوفيق بين فترات تمرين

الفريق وتنفيذ عملك أنت والعمال .. أشعر وكأن المسرح
حلبة سباقٍ.. البعض يخرج جريًا ليدخل محلهم آخرين جريًا
أيضًا!.. الجميع يلهث..

ساد الصمت للحظات لم يقطعه سوى صوت الرذاذ على
أسفلت الطريق الخشن.. لكنه هزَّ رأسه قائلًا بلا اهتمام

- اعتدنا تنفيذ ما هو صعب... من حيث الوقت والمجهود...

ثم صمت.. وكأنه أجاب بالمفيد وتمنى أن تصمت أخيرًا!!

ارتفع حاجباها وهي تتأمل به بطرف عينيها يسير عاقدًا كفيه
خلف ظهره وكأنه يتمشى في طريقه بطريقة طبيعية

وكانها لا تمشي بجواره!.. لذا قررت إعفائه من المهمة
الثقيلة فتوقفت وقالت بنبرة لطيفة

- يمكنك العودة الآن صدقًا.. وشكرًا لشهامتك...

لم يتوقف ولو للحظة، بل تجاوزها وهو يقول أمرًا بجفاء

كوالد يمشي مع ابنته في الطريق!!

- تابعي طريقك....

وقفت مكانها للحظة بحاجبين مرتفعين والرذاذ يغرق بشرة وجهها ثم لم تلبث أن سارعت لتلحق به وهي تعدل حقيبتها على ظهرها ناظرةً إليه بفضول واهتمام ثم قالت مشيرة لآخر الطريق

- أنا أسكن في نهاية هذا الطريق... سأكون بخير صدقني..

ظنت أنه سيتجاهلها لكنه تنهد مجددًا!!!... حسًا هذا عظيم، إنه لا يدخر جهدًا في إظهار ملله!!..

لكنه قال في النهاية متنازلًا وهو يشير بإصبعه لنهاية الطريق كما فعلت لتوها

- سيارتي واقفة على الطريق الخارجي الموازي لهذا الطريق... طريقنا واحد..

ردت بحيرة وهي تشير للخلف

- لكن يمكنك الذهاب من...

حين التفت إليها بملامح جامدة وعينين نافذتي الصبر،
أشارت بكفها للطريق الممتد أمامهما قائلة تبتلع اعتراضها

- تفضل يا أسطى... الطريق طريقك..

سارا معًا بضعة خطوات وهي تتأمل كل اتجاهٍ إلا اتجاهه
شاعرةً بالحرَج الشديد حتى أجفلت حين سمعته يقول
بجفاء

- لا ينبغي عليك المشي في هذا الطريق وحدك ليلاً.. إنه
مظلم كما أن سمعته ليست مثالية..

ضحكت رغماً عنها وقالت بمزاح

- أنت تتكلم وكأنني فتاة صغيرة!!....

نظرتة إليها أشعرتها بالبلل كصوص صغير يمشي تائهاً في
المطر فصمت مبتلعة المتبقي من كلامها الساذج.. لكنه قال
بنبرة صلبة

- اسمعي الكلام، فأنا لدي مثلك...

ارتفع حاجباها وهي تكرر بغباء

- لديك مثلي!!!...

نظر إلى دهشتها البالغة مقطباً ثم لَوَّح بكفه مضيئاً ببديهية
- بنات...

اتسعت عيناها كما ازداد ارتفاع حاجبيها لكنها كتمت
ضحكة عالية واكتفت بابتسامتها العريضة الواسعة ثم سألت
برزانة وهي تسعل كي تجلي صوتها من الضحك المحشور
فيه

- وهل هن.. شقيقاتك أم بناتك... هؤلاء البنات؟...

أجابها ببساطة وقد بدأت تلين نبرته وكأنه اقتنع أخيرًا
بتبادل الحوار

- هذا وذاك...

مَظَّتْ شفيتها مكتفية وهي تبسم بمرح ناظرةً أمامها..
لكنها فوجئت به يتابع من تلقاء نفسه

- لدي شقيقتين وأخ.. قمت برعايتهم بعد وفاة والدي.. فأنا
الأكبر..

هتفت قائلة بعفوية - وأنا أيضًا لدي شقيقاتٍ قمت
برعايتهن بعد وفاة والدي لأنني الكبرى...

التفت إليها سائلًا بنبرةٍ مبهمة

- هل قمتِ بتربية شقيقاتك؟....

هزت رأسها نفياً وهي تقول بابتسامتها العريضة ذات
الأسنان الكبيرة البيضاء

- لا، أنا لم أربي أحدا... كنت أنفق فحسب..

ظهرت ابتسامة لا إرادية على شفتيه إلا أنه مسحها على الفور ملتزماً بالرزانة والجفاء ثم قال متنهداً..

مجدداً؟!!

- المهم.. فكري في كلامي، البنات مطمع..

هذه المرة لم تتمالك نفسها فضحكت مما جعله ينظر إليها عابساً فاعتذرت قائلةً بمرح

- أنا آسفة لم أقصد الضحك... أنت فقط تتكلم عن البنات وكأنهن عرائس، لكن هذا ليس غريب على من ناداني أول مرة قائلاً بخشونة - أنتِ يا عروسة.. تعالي هنا..

كانت تضحك وهي تقلد نبرة صوته الخشنة، لكنه لم يشاركها الضحك، بل نظر إليها سائلاً بحيرة

- لم أناديك بهذا مطلقاً!!...

أومأت برأسها وبملامح ضاحكة قالت

- بلى فعلت....

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يرد بإصرار - لا لم أفعل... على ما
أتذكر أنني كنت أصرخ فيك غاضبًا..

توقفت للحظة ثم ارتفع حاجباها وابتسامتها تتسع، فقد
أدركت للتو أنه لم يتعرف عليها في زي تكتكة!!..

حيث كان وجهها ملونًا بالكامل، تصعب تحديد ملامحه
الحقيقية.. حتى صوتها تعمدته وقتها أن يكون الصوت
الطفولي الخاص بشخصية تكتكة ... لذا قالت أخيرًا
بابتسامة جميلة

- ربما...

وصلا للبناية الصغيرة التي تضم شقة جلال فوقفت أمامها
مشيرةً بلطف

- هذه هي... لقد وصلنا..

توقف معها ناظرًا للبناية ثم قال بهدوء

- ادخلي إذا..

أومأت برأسها ورفعت يدها في تحية مقتضبة تنوي
الدخول مبتسمة وبالفعل دخلت من باب البناية الضيق إلا أنه
لم يتحرك بل بدا مترددًا بعض الشيء ثم لم يلبث أن ناداها
بسرعة

- انتظري يا بنت...

كانت قدمها على الدرجة الأولى من السلم حين سمعت
نداءه فاستدارت عائدةً إليه بعينين واسعتين وابتسامة
عريضة وهي ترد

- نعم يا ولد..

تجهمت ملامحه وهو يقول بجفاء يحدقها بطرف عينيه

الصارمتين

- تأدبي....

لم يكن في أمره إهانة لتغضب، بل كان فيه شيئاً غريباً
وكأنه أبٌ بالفطرة.. حتى أنها ابتسمت أكثر ملتزمة الأدب
بروحٍ مريحة منتظرة سماع ما يريد..

كان أكثر ترددًا لكنه استجمع تنازلاً وكأنها تضحية كبيرة
يقوم بها وهو يقول بخشونة

- لم أقصد الصراخ بوجهك المرة السابقة.. لقد أفزعني
فحسب..

بدت ابتسامتها أكثر جمالاً حتى شملت وجهها كله لكنها
ردت بمودة هامسة - أشكرك..

أوماً برأسه وهو يشيح بكفه يصرفها فاستدارت لتغادر لكنه
قال من خلفها

- وأمر آخر.. مساندتك لصديقتك على خشبة المسرح...
كانت رائعة...

التفتت ناظرةً إليه بدهشة فما ظنت أنه رآها أو سمعها،
لكنها ابتسمت قائلة بتردد وحرص وبعض الزهو
- أشكرك....

أوشكت على الصعود لكنها التفتت إليه مُنادية

- يا أسطى... ما اسمك مجددًا؟..

أجفل للحظة، لكنه أجاب بذلك التنازل العظيم - حكيم...

لَوَّحَتْ له قائلةً ببشاشة - عمت مساءً يا أسطى حكيم..و
أشكرك مرة أخرى..

أوماً برأسه وهو يرد بهدوءٍ وبطء - تصبحين على خير يا
دنيا..

لم يتركها إلا أمام باب غرفتها.. فوقف بجوارها يقول أمرًا
بصلابة

- سأرسل لك فتحة حاملة الأكل وشراب ساخن.. ستأكلين
مرغمة يا زاد وإن اضطررت لإطعامك بنفسي..

أجفلت وكأنها شعرت بالدهشة لاهتمامه، إلا أنها ردت
بخفوت

- أنا أخضع لنظام غذائي صارم.. لا يمكنني أكل أي شيء
خارج هذا النظام، كما أنني لست جائعة صدقًا.. كل ما
أحتاجه هو النوم وبعمق.. أشعر بنفسي مرهقة جدًا..

أجابها بإصرارٍ غاضبًا

- أنتِ مرهقة لأنكِ لا تأكلين كما يجب... انظري إلى قناعك
إنه شاحب جدًا!..

ضحكت.. التقطت أذناه صوت ضحكتها الخافتة، كما رأت
عيناه لون تلك الضحكة في عينيها عبر ثقبى القناع!..

فضحك مكتفًا ذراعيه وهو يستند بكتفه إلى جدار الرواق
يتأملها طويلاً حتى وقفت أمامه ساكنة تتطلع إلى عينيها
بنظرة صافية دون أن تجفل أو ترتعش.. حينها قال بهدوء

- ستكونين بخير يا زاد..

عادت السحابة الرمادية إلى عينيها وكأن بداخلها شيء
يرفض التصديق... أو ربما.. كأنها ترفض أن تكون بخير!..

يشعر ولا يعلم إن كان إحساسه صادقاً.. أنها واقعة تحت
شعورٍ ثقيل بالذنب وجلد الذات..

تعاقب نفسها بنفسها حد الاستنزاف.. ومع ذلك يبدو أن
نفسها تعاند عقلها، فهي تتأقلم وتتطور وتنخرط في الحياة

تصارع عقلها وعقلها يقاوم!..

أطرقت بوجهها وهي تهمس بخفوت وقد ضاعت الضحكة
من عينيها

- تصبح على خير... وشكرًا لك..

تركها تدخل دون أن يطيل معها الكلام أكثر، وإن كان الأمر
بيده لتكلما أكثر وأكثر.. لكنه أشفق عليها وهو يشعر بها تكاد
أن تقع من شدة الإرهاق..

دخلت زاد لغرفتها لكن ما أن فعلت حتى تَسَمَّرت مجفلة
لتكتم شهقة كادت أن تخرج عالية من بين شفتيها وهي ترى
أمها جالسة على حافة سريرها في انتظارها..

تراجعت لتستند بظهرها إلى الباب من خلفها ويدها على
عنقها محاولة التحكم في توترها البالغ، بينما سألتها جيها
بصوتٍ خفيض

- هل أنت بخير؟..

أومأت زاد بوجهها دون أن تنطق وهي تنظر لملامح أمها

وتعابير وجهها الحزينة المتألّمة.. كان ألمها ظاهرًا بوضوح
في عينيها..

عيناها حمراوان جافتان وكأنها انتهت للتو من البكاء..
تحملان لوم الدنيا وعتاب الكون!!

نهضت من مكانها ببطء ثم استدارت توليها ظهرها وهي
تقول بصوتٍ مبحوح فاتر لا حياة فيه

- هل فكرتِ ولو للحظة في إحساسي حين أبلغني سائد..
الغريب الذي لم تتعرفي إليه إلا منذ أشهرٍ قليلة تُعد على
أصابع الكف الواحد... أنكِ منهارة وتطلبينه بالاسم عوضًا
عني!!..

غامت عينا زاد تراقب أمها بعجزٍ من خلف القناع ولا تزال
يدها على عنقها المتشنج بينما تابعت جيها بصوتٍ أكثر
خفوتًا وألمًا مقتربة من النافذة لتتأمل الظلام السائد أمام
عينيها المظلمتين

- لقد قضيت الساعة الماضية أفكر.. فيما أخطأت؟!.. ما

هو ذنبي؟!... لحظة أشعر أنني بريئة، أشعر بالظلم والرغبة في الصراخ، فما أنا إلا أم حُرِمَت من ابنتها الوحيدة مُرغمة وقاست الأمرين في البحث عنها.. تتقضى آثارها كالمتسولين، تتوسل نظرة أو كلمة منها.. وفي اللحظة التالية أشعر بنفسى المذنب، فأنا من أدخلت الشيطان بيتنا وأستحق كل الأذى الذي مررت به عقابًا على فعلتي...

أغمضت زاد عينيها بشدة بعد أن تحركت وكأنها تنوي اللحاق بأمها لتلمس ظهرها بأصابعها.. لكنها عادت وشعرت بالجبن فانحنت لتجلس على حافة السرير مطرقةً بوجهها صامتة تمامًا..

تنهدت جيهان تنهيدة أخيرة مُثقلةً بالعذاب ثم قالت بصوتٍ هادئ وكأنها استجمعت قواها واثزانها بعد أن استدارت تنظر بثباتٍ لابنتها المحدقة في الأرض

- لن أفرض وجودي كأم عليك أكثر من هذا يا زاد.. وإن كنتِ تفضلين أن يقلك سائد صباحًا ومساءً فلتفعلا..

اتجهت للباب كي تخرج من الغرفة دون كلمة إضافية ولم

تسمع صوت زاد التي همست بجمود في اللحظة التي أغلقت
فيها الباب خلفها

- أنا آسفة.. أمي!...

التظاهر بأن كل شيء على ما يرام وأن الأنفس راضية لهو
واحد من أشد المشاق التي يمكن للإنسان أن يتحملها..

كدعوة لبثها حنان بطيب خاطر، في بيت عاشت به عمرًا
طويلاً كانت الأم لأطفالٍ أنجبته وأطفال لم يضمهم رحمها
ومع ذلك احتضنتهم وأعطتهم من حبها بلا حساب.. بيت
عاشت فيه أم لكنها لم تكن امرأة أحس بها زوجها..

كانت على هامش حياته، لكن طفليه وطفليها كانوا كل
حياتها

وها هي الآن تجلس ضيفة على مائدة الطعام تتحاشى
النظر إليه وهو يبالغ في تدليل زوجته الجديدة والتي يبدو

أنه وجد الحب الصادق معها أخيرًا بعد أن كان قد فقدته
بموت أسمهان..

التظاهر.. التظاهر يجبر نوران على تكلف ابتسامة أنيقة
مهذبة ومضيافة، رغم أن الضيفة أمها، والبيت لم يعد بيتها
بل بات له سيدة جديدة!..

تكاد وجنتاها أن تتحطما من شدة الألم.. من زيف
الابتسامة بينما القلب ناغم على تلك المسرحية الهزلية التي
قبلت أمها بحضورها إن لم يكن قبول التمثيل على خشبة
مسرحها كذلك..

أمها السلبية.. والتي أورثتها سلبية تكفي لملء مجلدات!!...

التظاهر.. التظاهر يجبر جيهان على الابتسام برقة تجاوبًا
مع معاملة خطاب شديدة اللطف لها، ومع ذوق حنان
وتحضرها الراقى.. بينما في داخلها تختلس النظر بكره ساكن
وغيره لسائد الجالس على الجانب الآخر من المائدة متجههم
الملامح، ساخر العينين وهو يرمقهم بنظرة باردة نافذة
الصبر..

تغار.. تغار منه على وحيدتها والتي تميزه عليها!!..

التظاهر.. التظاهر ينهك روح خطاب الذي كبر في العمر
محاولًا استعادة شبابه وقدرته على الشعور بالحب من جديد
بعد عمرٍ قضاه منكبًا على العمل دون إحساس أو شعور..
فيبالغ الآن في محاولات إسعاد زوجته بينما بداخله يدرك
أنها لم تعد قادرة على التجاوب معه كما يتمنى

فجيهان تصغره بالكثير رغم أن لديها ابنة شابة.. لكن هناك
فرق في العمر بينهما ليس بالهين، ولقد اكتشف مؤخرًا أنها لم
تشعر بالحب له إلا لأن الوحدة قد نالت منها بعد سنواتٍ من
ابتعاد ابنتها عنها..

وبعودة زاد يبدو أنها بدأت تدرك تسرعها في الزواج منه!...

التظاهر.. التظاهر مؤلم وبشدة وهنيئًا ل زاد ووائل فرارهما
من فحه خلال تلك الجلسة الباردة كالجليد والمزينة
بالابتسامات الزائفة كأقنعة تخفي قلوبًا منهكة خلفها...

أمسك بهاتفه وأرسل لها رسالة كتب فيها

- لما لا تشجعين وتنزلين لتناول الطعام معنا؟... أريد أن أعرفك بحنان..

لحظات ووصله الرد

- تعرف أنني لا أستطيع.. طعام يعني بالضرورة أن أرفع القناع أمام الجميع..

زم شفتيه وهو يكتب رسالة مختصرة

- ربما كان هذا هو هدفي!..

الرسالة التالية منها كانت مجرد ابتسامة صفراء!!!

فأرسل لها الرد كاتبا

- لا يمكنني الأكل وأنتِ تحتجزين نفسك وحيدة بالأعلى يا زاد!!... أنتِ تسيئين معاملة نفسك

انتظر للحظات بتوتر حتى جاءه الرد الصادم

- ربما سأمر على وائل لأتفقده... أشفق عليه كما تشفق علي..

أراد الصراخ فيها بقوة أن ما يشعر به تجاهها ليس شفقة على الإطلاق، بل هو أبعد ما يكون عن الشفقة.. لكن استيعابه للكلمات التي كتبتها جعلته يشعر بالجنون فأرسل لها

- حذرتك من دخول غرفته يا زادا!!.. وأنا أعني ما أقول، ولا أظنك تريدان إغضابي اليوم تحديدًا أمام حنان!

أخذ يهز ساقه بعصبية تحت المائدة منتظرًا الرد حتى وصله سؤالًا حائرًا مختصرًا

- لما كل هذا الغضب تجاه أخيك؟!..

ضاقت عيناه وهو يهز رأسه بغيظ لكنه كتب لها الرد بتشنج

- غضبي ليس بسبب أخي.. بل بسببك.. ألا تفهمين؟!...

انتظر بعد أن أرسل رسالته.. انتظر وانتظر وانتظر... وعلى ما يبدو أنها قررت عدم الرد، وهذا التصرف تحديدًا جعله يدرك أنها ليست غبية أمام ما يشعر به تجاهها، بل هي تخشى الاعتراف به أمام نفسها ..

وتسعى لتجنبه والتهرب كلما اقترب من حافة البوح ...

تلاعب بمعلقته في صحنه شارد الذهن، بينما التفتت إليه حنان سائلة برفق ممازحة

- لماذا لا تأكل يا سائد؟... أم تريدني أن أقطع لك اللحم قطعًا صغيرة كما كنت أفعل في صغرك!!..

التوت شفتاه بسخرية رغم المحبة الظاهرة في عينيه لها، لكنه فضّل عدم الرد بينما تابعت حنان موجهة كلامها لجليهان قائلةً بلطف

- كان خطاب يغضب حين أفعل هذا ويهتف حانقًا بأنه

أصبح رجلاً ولا يصح لي أن أدّله إلى هذا الحد..

بادلتها جيهان الابتسام، لكنها كانت ابتسامة شديدة البرود والزيّف.. أما عيناها فنطقتا بالصدق وهي ترمي سائد بالنظرة النارية الحاقدة..

مطت نوران شفّتها ممتعضة وهي تقول متظاهراً بالمشاركة في المزاح

- أنا أشهد بتدليلك له.. يا إلهي!!.. لطالما كانت لديك مبالغة في كل شيء يا أمي.. مبالغة في الحب.. في التدليل..

في السماح!!.. بدأت أفهم انفصالكما أنت وأبي، فالحياة مع شديدي المثالية تبدو مرهقة..

بهتت ابتسامة حنان على الفور وهي ترفع وجهها لتنظر لعيني نوران بصمت، بينما تكلم سائد فجأة قائلاً بصرامة واستياء

- انتبهي لمزاحك فقد تجاوزت كل حدودك!!..

مدت حنان يدها لتمسك بمعصم سائد المرتاح على المائدة
كي تمنعه من التدخل بينما ردت نوران بحنق

- لماذا تتدخل في مزاح بيني وبين أمي!!!..

أجابها راميًا كلماته بقسوة - هذا ليس مزاحًا وإنما وقاحة..

شدت حنان على معصمه تقول بحزم

- كفى يا سائد.. قلت كفى..

رمقها بحدة ثم لم يلبث أن زفر مشيحًا بوجهه وهو يتابع
التلاعب بملعقته في طبقه بصوت مزعج.. أما خطاب فقد
كان ينظر إليهما بعينين جامدتين قبل أن يقول بصرامة

- يا له من منظر مُشَرَّف أمام أمكما وزوجة والدكما!!!.. هل
هناك المزيد؟!!!..

رفع سائد وجهه ينوي رمي كلمة حادة قاسية، لكن أصابع
حنان لا تزال ممسكة بساعده وكأنها مكابح تمنعه من التهور

وترك نفسه لهواها الغاضب.. فاضطر للصمت بينما تابع
خطاب بصوتٍ بدا أكثر هدوءً وتفاؤلاً

- ربما خبر سعيد سيلطف الأجواء...

بدا وكأن الجميع غير مهتمين لكنهم نظروا إليه بوجوم
فقال مبتسمًا ناظرًا لنوران

- لقد تقدم المهندس ماهر الذي يعمل لدي في المصنع طالبًا
يد نوران للزواج..

ساد الصمت التام فوق رؤوسهم بينما نظرت إليه نوران
بعينين واسعتين تراقب بهما فرحته وعلى ما يبدو أنه اتخذ
قراره بالموافقة!!..

بداخلها شيء محتجز منذ فترة طويلة جدًا... بدأ في
التراكم حتى ازدحمت نفسها وأوشكت على الانفجار، وها هو
ما احتجزته طويلاً على وشك الخروج دون إرادتها..

بدأته بالقول فجأة وبصوتٍ مهتز

- لكني لا أفكر في الزواج يا أبي!!..

نظر إليها خطاب متفاجئًا لدرجة أنه ظنها تمزح فابتسم
قائلًا بلطف

- كل الفتيات يقلن نفس الشيء، لكن بداخلهن يتمنين
الزواج...

ثم تابع أكله ببساطة أمام عينيها الذاهلتين، فما كان منها إلا
أن كررت بصوتٍ أعلى نبرة وأكثر تشديدًا

- أنا لا أريد الزواج يا أبي..

ساد الصمت وقد توتر الجو فجأة.. فنظر خطاب إلى ابنته
عاقداً حاجبيه بشدة وقد أدرك جديتها هذه المرة فسألها
بتعجب

- ألا يعجبك ماهر؟!... لقد تعرفتِ إليه وتكلمتِ معه عدة
مرات، إنه شخص مهذب وله مستقبل ممتاز!..

ازدردت لعابها وهي ترد بنفس الصدمة

- أنا لا أرفضه هو شخصيًا... وإنما أرفض فكرة الزواج كمبدأ..

وضع خطاب الشوكة والسكين جانبًا مركزًا انتباهه بخطورة على نوران مكرراً بنبرة جافة قاسية

- ما الذي تعنيه بالضبط بأنك ترفضين فكرة الزواج كمبدأ؟!...

تكلمت حنان بحزم وبنبرة ذات مغزى

- ألا يُستحسن أن تؤجل الكلام في هذا الموضوع إلى أن نكون على انفراد يا خطاب!!..

نظر إليها خطاب قائلاً بخشونة

- لا أحد غريب يا حنان فجميع المتواجدين معنيين بالأمر.. أمها وأخوها الأكبر وزوجة والدها التي تُعد بمثابة أمها

كذلك..

زمت حنان شفتيها بينما برقت عيناها بالرفض النادر الذي لا يخرج منها إلا في المواقف التي تستحق فقط.. لكنه لم يمنحها الفرصة بل التفت إلى نوران وسألها بنبرة قوية جعلتها ترتجف رغماً عنها

- نعم يا نوران... ماذا كنتِ تقولين؟... أترفضين الزواج؟.. لا بأس، سأجاريك.. أخبريني ما هو الهدف الذي تسعى إليه في حياتك بخلاف الزواج؟!.. ماذا حققتِ حتى الآن وقد بلغتِ الثامنة والعشرين من عمرك؟!..

أنتِ لم تقومي بتطوير نفسك بعد التخرج، لم تنجحي في عمل.. سواء عندي أو عند غيري.. حياتك فارغة، لا تقومين بما هو مهم.. لطالما كنتِ فاقدة الاهتمام بكل شيء، كسولة.. حتى في طفولتك لم تنمي هواية أو رياضة.. كلما بدأت شيئاً بعد محاولتين على الأكثر تأتيين قائلة بتخاذل " لا أريد المتابعة"...

لطالما نظرت إليك وسألت نفسي ما هو هدف نوران في

حياتها!.. ما الذي تسعى لتحقيقه؟!.. وكان الجواب دومًا واحد

لا شيء!!..و الآن حتى الزواج، أظنك من الكسل وعدم تحمل المسؤولية للدرجة التي تجعلك ترفضين بدء حياة جديدة خارج جدران هذا البيت.. كم تختلفين عن أختك سلسبيل رحمها الله!!!.. كان لها دوماً هدف وشغف.. كانت لا تكتفٍ مطلقاً وتود تحقيق الأكثر والأكثر... كانت..

قاطعته حنان بقوة صارمة وهي تضرب بيدها على المائدة
- كفى يا خطاب..

لكنها لم تجد الفرصة لتتابع ثورتها الغاضبة لأن نوران سبقتها فنهضت قافزة من مكانها وهي تصرخ بذهول

- الآن تقارنني بسلسبيل!!!... الآن يا أبي؟!... ألم تكن الحروب بينك وبين سلسبيل قائمة لا تهدأ كل يومٍ لأنها

تقاوم لتحقيق ما تريد بينما أنت تريد فرض سيطرتك

عليها!!.. لقد كنت تعارضها على طول الخط في كل هدف
وضعته لنفسها!!..

أتعلم لماذا كبرت أنا بتلك الصورة الباهتة عديمة الأهمية
التي رسمتها لي للتو؟!.. لأنني كنت أحاول إرضاءك بشتى
الصور.. كنت أحاول أن أكون المفضلة لديك فكبرت وأنا
أخشى القيام بأي شيء خوفًا من أن أصادم معك كما كان
يحدث بينك وبين سلسبيل..

لكن للمرة الأولى سأقف وأقول لك لا... لن أفعل شيئًا
لمجرد إرضائك، خاصةً الزواج... أنا أمقت فكرة الزواج..

وفكرة أن يتقدم بي العمر لأجد نفسي جالسة على مائدةٍ
كهذه كما تجلسون الآن تُشعِرني بالغثيان..

كانت تشهق وتبكي بقوة وكلماتها تزداد حدة بينما الجميع
ينظرون إليها بصدمةٍ وذعر... إلى أن اختنق صوتها فضربت
ملعقتها واستدارت لتجري خارجة من البيت..

هز خطاب رأسه غير مصدقًا لما حدث للتو وما أن تما لك

نفسه حتى اقْفَهَرَت ملامحه وهدر بصوتٍ صادم شديد
الغضب والذهول

- ماذا أصابها؟!!!!.. هل جُنَّت الفتاة؟!.. لقد..

قاطعته حنان بقسوةٍ وبصوتٍ عالٍ

- لقد انفجرت من ضغطك عليها... أنت..

قاطعها سائد يقول بصوتٍ أعلى وأشد نبرة

- أنت والدٌ مؤذي....

اتسعت عينا خطاب قبل أن يهتف بصوتٍ يرتعش ألماً
ومهانة

- نعم يا سائد... ماذا لديك أنت أيضاً لتضيفه؟!.. هل اتفقتم
جميعاً على الوقوف بوجهي لإفهامي كم كنت والد مريع
متوحش!!..

تكلمت حنان بصرامة مُمسكةً بمعصم سائد

- اسكت يا سائد فهو يحاول استغلال غضبك لقلب الطاولة.. اترك أمر نوران لي، فعلى ما يبدو أنني مدينة لها ولنفسي بحوارٍ طويل مع خطاب..

إلا أنه نهض من مكانه قائلاً بصوتٍ قاسٍ وعيناه تفيضان بالكره والمرار

- اطمئني يا حنان لن أتهور فعلى ما يبدو أنه لا كلام قادر على تغييره... لقد فات أوان التغيير وانقضى من أعمارنا..

لا تحاولي إرهاق نفسك فلا جدوى..

صمت للحظة ثم نظر لعيني والده قائلاً بنبرةٍ أجفلته دون أن يضطر ابنه لأن يرفع صوته

- لكن اسمعني جيداً، لن أسمح لك بإفساد المزيد من حياة نوران كما سبق وفعلت مع سلسبيل.. حتى تقرر بنفسها أنها تريد الزواج، فأكسر ساق كل من يدخل من باب هذا البيت

طالبًا يدها.. وصدقني لقد وصل بي الجنون ورفض سيطرتك
للحد الذي يجعلني أعني ما أقول...

نظر للجميع قبل أن تستقر عيناه على خطاب ثم تابع بنبرة
ساخرة

- استمتعوا باحتفالكم الحزين، تابعوا التظاهر وادعاء
التحضر في علاقات ظالمة مؤذية...

نظر لحنان ثم قال بصوت باهت قبل أن يخرج من باب
البيت

- أنتِ خارج كل هذا يا حنان... فقد كنتِ الحسنة الوحيدة
التي قدمها أبي لحياتنا..

أخفضت حنان وجهها بينما بدا خطاب وكأنه غير قادر
على التنفس بشكلٍ طبيعي مما جعل جيهان تهمس له بقلق
وبوجهٍ شاحب وهي تمسك بكفه

- هل أنت بخير يا خطاب؟...

نهضت حنان من مكانها لتقول بخفوت

- لو تأذنا لي، سأذهب لأرى أولادي قبل أن أغادر...

لكنها توقفت لتقول بهدوء

- يبدو أنني نجحت في شيء واحد يا خطاب... أنا حتى لم أجد الفرصة لأفتح فمي دفاعًا عن ابنتي، فقد تصدّى أخوها نيابة عني... الآن فقط تيقنت أنني ربحت..

كانت تلك الشجرة هي مكانها المثالي لسنواتٍ طويلة، لتودعها آلامها ودموعها التي لم ترغب لأحدٍ أن يراها..

كم من مرة أتت إلى هنا وبكت دون أن يعلم أحد، ثم تعود مبتسمة وكأن شيئًا لم يكن!!..

وضعت كفها على جذع الشجرة وانحنى وجهها لتهتز كتفاها وهي تنفجر في بكاءٍ مكتوم مطبقةً عينيها حتى

سمعت صوت يقول من خلفها

- كما أنت منذ صغرك... تقومين بفعل المصيبة ثم تنفجرين
في البكاء كي لا يلومك أحد..

تَصَلَّبَ جسدها، فرفعت وجهها تمسحه بكفها وهي تقول
بصوتٍ مختنق خشن

- ماذا تريد؟.. هل جئت لتقتلني بسبب كلامي عن
سلسبيل؟...

هز رأسه رافعًا حاجبيه قائلاً وقد استحسن الفكرة

- فكرت في ذلك، وبما أننا واقفين هنا فربما دفنك تحت
تلك الشجرة سيكون فكرة سديدة..

أولته ظهرها محاولةً السيطرة على دموعها المنهمرة بغزارة
ترفض أن يراها بهذا الشكل لكنه حين تكلم بعد فترة صمت
طويلة شاركها فيها، كان صوته هادئًا ثابتًا

- أريد اخبارك شيئًا يا نوران.. لن يجبرك أحد على الزواج طالما لا تريدن، واعتبريه وعدًا مني..

التفتت تنظر إليه بعينيها الحمراءوين المُحْتَقْنَتَيْنِ الفارغتين
ثم سأله بصوتٍ أجوف

- لماذا تهتم؟!....

هز رأسه محدقًا بعيدًا ماطًا شفثيه متظاهراً بعدم الاهتمام
وهو يقول ببساطة

- أشفق على المسكين الذي لا يدرك خطورة ما يطلبه!..

ردت بصوتٍ قاتم وهي تشهق منهيةً بكائها - لست
مضحكًا....

لكنه ضحك وهو يخرج من جيبه محرمة ورقية ناولها لها
وهو يقول بجفاء

- خذي امسحي أنفك، كفانا قرعًا ليومٍ واحد ...

أخذت المحرمة تمسح وجهها وأنفها ووقفت بجواره صامته كما وقف هو.. ثم قالت أخيرًا بفتور دون أن تنظر إليه

- لم أقصد الإساءة لسبيل..

التفت ينظر إليها ثم أوماً قائلاً بصوتٍ خفيض - أعرف..

وفي نفس لحظة كلامه تابعت منفجرةً في البكاء العنيف تهز رأسها نفيًا بيأس

- لم تكن المقصودة.. لقد حزنت لوفاتها جدًا أقسم بالله.. لقد أحببتها حتى وإن لم يظهر علي هذا الحب، لقد كانت أختي أنا أيضًا

أوماً برأسه مجددًا وهو يشدها بين ذراعيه مكرراً بصوتٍ أجش - أعرف... أعرف يا نوران

أغمضت عينيها وهي تبكي على صدره بينما ربت على كتفيها محاولاً تهدئتها.. وحين هدأت قليلاً سألها بصوتٍ خفيض مُعَيَّرًا الموضوع

- إن كان هناك من يريد التقدم لخطبتك يا نوران وتخشين
رفض والدك يمكنك إخباري...

أبعدت وجهها عن صدره صارخةً بوجهٍ متورم

- لا يوجد أحد... وأنا لا أريد الزواج... هل رأيت حولك أي
تجربة تشجعك على خوض مثلها!!...

زواج أمي الذي ضيع عمرها وشبابها!... أم زواج أبي من
جيهان التي تبدو وكأنها ندمت على زواجها منه...

حتى حب أبي لوالدتك كان حبًا مرضيًا أقرب للهوس دفعنا
ثمنه كلنا..

صمتت قليلاً وهي تخفض وجهها ثم تابعت بصوتٍ خفيض
تلوح بكفها بعصبية

- آسفة... لم أقصد...

مط سائد شفتيه ممتعضًا وهو يرد بجفاء - لسانك... لسانك
يا نوران، انتبهي للحجارة التي يقذفها دون تمييز..

بان عليها الندم والتخاذل وهي تبرم المحرمة الورقية بين
أصابعها تقطعها وتفتتها ثم قالت بصوتٍ مختنق

- حتى زاد الغريبة عنا... انظر ماذا فعل بها الزواج!.. لقد
أفقدنا عقلها على ما يبدو!..

اضطربت ملامح سائد وانعقد حاجباه بشدة لكنه تجنب
الكلام عن زاد وقال ببطء

- أصابعك ليست متشابهة... ونشأتك في عائلة مجنونة لا
يعني بالضرورة أن تفشلي كما فشل مَنْ قبلك..

برقت عيناها رفضًا وهي تهتف بعنف وقساوة

- إن كانوا قد أرسلوك لتقنعني فأنا لن..

أمسك بذقنها يشدها بقسوة وهو يقول حانقًا من بين

أسنانه - أنا لا أُرسل... أنا آتي من تلقاء نفسي..

بدا وكأنها غير قادرة على منع نفسها من البكاء فانتحبت
فجأة مجددًا وهي تهمس مُشيحة بكفها

- لماذا تهتم أصلاً؟! أنت لم تُشعري يومًا أنني أختك.. لقد
رفضتني على الدوام بعكس شعورك تجاه سلسبيل...

أمسك بساعدها يضمها إلى صدره وهو يقول بصوتٍ أجش
خفيض ينضح بالألم

- كانت قوة ارتباطي بسلسبيل حصنًا حرصنا على أن
يحمينا بعد وفاة أمنا... كنا كالعاجزين عن بدء أخوة جديدة
وارتباطًا آخر بعد البعد الذي شعرنا به من والدنا والفجوة
التي أسقطنا فيها.. وبعد رحيلها المفاجئ كاد الألم أن يودي
بقلبي، ثم وبعد فترة حداد طويلة جدًا اكتشفت أنني لا
زلت أختًا وأنني إن لم أدرك أختي الصغرى فلربما فقدتها هي
أيضًا... و اكتشفت وقتها أنني لن أقدر على المرور بهذا الألم
مجددًا.. أعدك أنني سأكون بجوارك ولن أتخلى عنك مطلقًا

كانت قد خرجت للتو تنوي اللحاق بابنتها لكن ما إن رأتها
تبكي بين ذراعي أخيها الأكبر حتى توقفت تتأملهما..

ابتسمت حنان ابتسامة حنونة وهي تضع يدها على صدرها
الخافق

لقد أثمرت أمومتها.. وربحت سائد لطفليها... ربحت سائد
لأخويه... وهو الربح الأكبر في القصة الحزينة .

- وإن كنت لا أشعر بالندم مطلقًا، فهل تدينني لذلك؟... أنت على الأرجح تكره شخصيتي.. أليس كذلك؟.

ارتفع حاجباه بعض الشيء إلا أنه أجاب باتزان

- وظيفتي هنا ليست الحكم عليك يا ريم... أنا هنا لأسمع وأحل وربما تمكنت من حل المشكلة..

اتسعت ابتسامتها وهي تكرر ساخرة

- ربما!!.. يجدر بك أن تكون واثقًا في قدرتك على إيجادك الحل، فأنا أدفع الكثير...

ابتسم وهو يريح وجنته على كفه يتأملها طويلاً دون كلام مما جعلها ترتبك قليلاً فبدأت تعدل من ملابسها وأنزلت ساقها عن الأخرى ثم سأله بجمود

- هل تشعر أنت؟..

سألها منتبهًا وكأنه لم يكن في كامل تركيزه

- أشعر... بماذا؟..

أجابته مبتسمة ببساطة - بالندم... هل تشعر بالندم؟..

أسبل جفنيه مبتسمًا ثم قال بجفاء

- أنتِ تراوغي... حسناً، لنسأل سؤالاً آخر... هل لديك القدرة على الشعور بالتعاطف؟..

ابتسمت مجدداً وسألته

- هل تشعر بالتعاطف حيال مرضاك؟..

أغلق دفتره متنهداً ثم سألها بجدية

- أنتِ تضيعين الوقت... إن كنتِ لا تجدين فائدة من مجيئك إلى هنا فلماذا تأتين؟..

تعمقت ابتسامتها ثم قالت ببطء

- ولماذا تستقبلني؟! ...ربما واحد من مرضاك أولى مني بوقتك..

أخفض ساقه ببطء شديد عن الأخرى حتى استوى حذاءه أرضًا متجاورين وهو يحدق فيها بعينين محاصرتين تحاولان اختراقها ثم قال بصوتٍ هادئٍ يُحسد عليه

- ربما لأنك تعجبيني يا ريم ..

اتسعت عيناها وهي تنظر إليه متفاجئة والصمت من حولهما ثقیلاً، موتراً.. ثم أخفضت وجهها صامتة وعلى شفيتها ابتسامة باهتة

مارس - الربيع

.. كما يطلع النهار أخيراً ليبدد عتمة الليل، يأتي الربيع باعثًا الحياة في الأغصان اليابسة..

.. مُرسلاً الخضار كبساطٍ على مدِّ البصر..

.. كشقٍ شعاع الأمل ظلمات اليأس..

.. لكن لماذا يتعين على الربيع أن يكون قصير العمرِ كعمرِ
السعادة دائماً!!..

الاستغلال

.. انتهاكٌ بغير حق..

.. استهلاك المُستغل لما لا يملك..

.. استنزاف الآخر، مالاً، أو نفساً أو جسداً..

.. الاستغلال آفة والمُستغل عضو مريض وجب بتره..

فاطمة

كانت تعلم في قرارة نفسها.. كانت تعلم وكيانها يخبرها
مستشعرًا إشارات الخطر إلا أنها كذّبت إحساسها كثيرًا

إلى أن جاءت اللحظة التي عجزت فيها عن خداع نفسها
أكثر، فطلبت التحري... من غربتها أرسلت من المعارف من
يقتفي أثره ويجلب لها أخباره.. وقد حصل .

شدت أصابعها المرتجفة حول الهاتف تثبّته بالقوة على
أذنها كي لا يقع منها أرضًا.. وإن كانت قد نجحت في تثبيت
الهاتف فَمَنْ ذا الذي يساعدها على تثبيت ساقها الهشّتين
في تلك اللحظة!!..

ليس لها سوى الجدار تستند إليه الآن، فقد اتضح أن ظله
أنفع من ظل رجل!!..

استغرقها تمالك نفسها واستجماع سيطرتها لتلتقط أنفاسها
بضعة لحظات قبل أن تهمس بصوتٍ مرتعش

- هل تأكدتم؟!... أقصد ربما كانت مجرد أقاويل تنتشر،
وتعرفين أن المؤذنين كُثُر، لا عمل لهم سوى السعي في
خراب البيوت!!...

أجابتها المرأة التي اتصلت بها بنبرة مُتَحَسِّرةٍ غاضبة

- وهل يُعَقَّل أن أطلعك على خبر كهذا دون أن نتأكد منه
بأنفسنا؟!.. قلبي معك يا فاطمة يا حبيبتي، أتخيل ما قد
تُحَسِّين به الآن في غربتك..

لا.. لا يمكنك التخيل

لا يمكن لأحد أن يتخيل مبلغ ألمها وشعورها بالاستِغْفَال..
الانتهاك.. الاستنزاف حتى الرmq الأخير..

لا يمكن لأحد أن يستوعب شعورها بالتحقير والمهانة..

كثورٍ رُبط في ساقية يدور فيها ويدور، غير مسموح له
بأن يكل أو يمل متمنياً الراحة ثم اكتشف ليلة فك وثاقه أنه
اقتيد لذبحه!..

رمشت بعينيها الجافتين الفارغتين من الدموع ثم همست
بصوتٍ مرتعش

- من هي يا فضيلة؟... أهي شابة نعرفها؟..

ردت عليها المرأة تقول بمرارة متعاطفة

- بل من بلدةٍ أخرى يا فاطمة، كان قد أقنع خالتك
وشقيقاتك بأنه وجد محل رزقٍ في بلدةٍ أخرى ليتمكن من
ترك الطفلين لهن وقتًا أطول حتى يُتم زيجته... كان يذهب
ويعود ولا يدري عنه أحد شيئًا..

ابتلعت الغصة المؤلمة في حلقها ثم سألت بصوتٍ ميت
أجوف

- أهو عقد قران فحسب أم....

ردت فضيلة تتنهد بتحسر

- بل تتم الزيجة يا فاطمة وهو الآن يقضي شهر العسل مع

العروس عسى ألا يربح أو يفرح كلاهما..

رمشت بعينيها مجددًا، لا ترى بوضوح وكأن سحابة غشت
هاتين العينين الضائعتين ثم سألت مجددًا

- وأهلها.. كيف وافقوا على زواج ابنتهم من رجلٍ متزوج
ولم يُبلغ زوجته حتى!!..

طقت بلسانها وهي تقول بحدة هاتفة

- أهلها!!... بالطبع لم يكن واحدٌ منهم ليعترض وهو يرى
الخير الذي عرضه زوجك التعيس ليقبلوا بالزيجة..

اتسعت عيناها الغائمتان وهي تكرر ببطء

- الخير؟!...!!..

أجابتها فضيلة تقول بغیظ

- آه لو عرفتِ عن المهر والشبكة الذهب يا فاطمة!!... آه لو

عرفت عن الأجهزة من الإبرة للصاروخ والتي قام بتجهيز
شقة العروس بها.. والتي لم تحصل على مثلها واحدة من
قريتهم... خسارة والله مالك ومال طفليك من شقائك وعرق
جبينك وغربتك...

لم يَعد الجدار قادرًا على تحمل وزنها فانخفضت ببطء
حتى جلست أرضًا في رواق غرف الممرضات لا تأبه بمن
يراها أو يسمعها..

تميل برأسها تستند بها للجدار تحقق أمامها بتعب يمنعها
حتى عن البكاء.. فنادتها فضيلة شاعرة بالقلق

- فاطمة؟!... يا فاطمة؟!... أجيبيني يا حبيبتى... بالله عليك
لا تقس على نفسك.. إنه لا يستحق دمة واحدة من عينيك

دمة من عينيها!!... عيناها جافتان، بل متحجرتان تمامًا..
لم تجد دمة واحدة لتذرفها على تعبها وأحلامها وروحها
المستنزفة!!

أغمضت العينين الجافتين وهي تهمس بتعب

- اغلقي الاتصال يا فضيلة.. أحتاج للراحة، لكن لا تخبري
أحدًا أنني عرفت بأي شيء...

ردت فضيلة بقساوة

- ارتاحي.. ارتاحي يا حبيبتي، لا رجل يستحق أن تهلكي
نفسك لأجله... سأرسل لك كافة المعلومات في رسالة..

أسقطت الهاتف في حجرها وهي تنظر للبعيد بنظرات
الميت في جسدٍ حي.. غير قادرة على تحريك إصبع أو حتى
أن ترمش بعينيها..

هل ما سمعته حقيقة فعلاً أم أنه كابوس وستستيقظ منه
في أي لحظة!!

ألهذه الدرجة اتضح أنها لم تكن سوى عاملة بلا أجر.. بل
مُطالبة بالسعي!!.. ألهذه الدرجة كانت غبية وسمحت له بأن
يستهلكها.. يستنزفها.. يستغلها، مالا ونفسا وجسداً!!!..

ألهذه الدرجة لم تساوي أكثر من القروش التي ترسلها!!..

ارتفع رنين هاتفها على حجرها فانتفضت مذعورة وكأن
حية بثت سمها في عروقها وهي ترى اسمه أمام عينيها
الزائغتين يَتَرَّحُّ أم تراها هي من تَتَرَّحُّ!!..

أمسكت بالهاتف بأصابع مرتعشة حتى تمكنت من رفعه
بكفيها معًا إلى أنها تحاول تثبيته ثم ردت بهدوءٍ تعجبت له

- نعم.. نعم يا مجدي..

وصلها صوته ساخطًا يسألها - لماذا لا تردين على الفور؟!..

أجابته بخفوتٍ مُحَاوَلَةً أن تُنظِّم أنفاسها

- كنت على وشك النوم... ربما أغمضت عيني بضعة دقائق
قبل أن تتصل...

تكلم بحدةٍ واستنكار

- تنامين يا فاطمة وتنسين الطفلين!!...

سألته بصوتٍ خفيضٍ ثابتٍ رغم نبرته الفاترة دون أن تُظهر
لهفتها المعتادة ما أن يذكرهما

- ماذا عنهما؟....

هتف متعجبًا وكأن بها شيئًا غريبًا الليلة

- ماذا عنهما؟!.. لقد تأخرت في تحويل المال هذا الشهر..

ابتلعت الغصة في حلقها ثم ردت بهدوء

- نعم صحيح، هناك مشكلة في التحويل... ما أن يتم حلها
حتى أقوم بتحويل المال إليك على الفور..

هتف مجددًا بغيظ

- ما نوع المشكلة؟!.. وما هذا الهدوء الذي تتكلمين به!!...

أغمضت عينيها للحظات ثم سألت

- بالمناسبة يا مجدي... لقد وصلني من المصرف أنك
قمت بفك الوديعة قبل موعدها... لماذا فعلت هذا دون
استشارتي؟..

بدا وكأن صوته ينفجر غضبًا وهو يصرخ فيها

- ما الذي يمكنني فهمه من كلامك؟!... هل تتهميني
بشيء؟!...

أجابته بصدمة خفية

- أبدًا يا مجدي... أنا أسألك فقط من باب العلم بالشيء..

رد عليها حانقًا بعصبية

- وهل تطلقين على هذا المبلغ المتواضع اسم وديعة يا
فاطمة وتخشين أن أسرقه خلف ظهرك؟!..

قالت بصوتٍ هسٍ خفيض

- لست أنا من أطلقت عليه هذا... بل المصرف مهما كان مبلغًا غير مجزيًا من وجهة نظرك... لكنك لم تُجب سُؤالي بعد يا مجدي..

هتف بقسوة وقد بدا اضطرابه واضحًا

- حاضر يا فاطمة، سأعطيك كشف حساب عَّلِّك تطمئني... أردت استثمار جزء من المبلغ في مشروع صغير قد يُدرُّ علينا دخلًا إضافيًا..

أغمضت عينيها مجددًا للحظات ثم سألته بنبرة طبيعية

- أي مشروع ولماذا لم تعرضه علي كي ندرسه سوياً؟..

صرخ فيها بغضب

- ما الذي أصابك اليوم، وما الغرض من هذا التحقيق؟!.. هل أنا مُطالب لأخذ الإذن منك كلما قمت بشيء لمصلحة تلك الأسرة؟!... اسمعي يا فاطمة أنا لا أعمل عندك ولست حارسًا على مالك، حين وافقت على عقد السفر اتفقنا سوياً على

أنه مشروع مشترك بيننا، المجهود مشترك والربح مشترك...
أم أنك لا تحسبين حسابًا لقيامي بدور الأم في غيابك!!...
أتظننه مجهودًا تطوعيًا بالمجان!!... لا، نحن شركاء في كل
قرش..

أطبقت عينيها بشدة كي لا ترى بهما شيء، ثم همست
بضعف

- نعم... نحن شركاء في هذا..

مضت بضعة دقائق أخذ يشكو خلالها من تضرر خالتها
وشقيقاتها من طول الفترات التي يترك فيها الطفلين لهن
وأنهن لا يراعين مصدر رزقه الجديد.. وعليها اقناعهن
بضرورة الوقوف لجانبها وتحمل الطفلين في الليلتين اللتين
يقضيهما خارج البيت..

وكانت فاطمة تستمع صامتة تمامًا تحقق أمامها بعينين
خاويتين وما أن انتهى من الجرعة اليومية السامة حتى
قالت في النهاية بصوتٍ باهت ثابت

- سأكلهن يا مجدي... سأقنعهن... وسأقوم بتحويل المال
في أسرع وقت... اصمد أنت في مشروعنا المشترك أرجوك

ما أن فتحت الخالة فكرية الباب ورأت الطارق حتى هتفت
ذاهلةً بصدمة

- فاطمة!!! متى وصلتِ؟.. وكيف؟!.. أي مفاجأة تلك؟!..
ماذا حدث؟!..

ابتسمت فاطمة ابتسامة ضعيفة وهي تجر حقائبها لتقول
بتعب

- أدخليني أولاً يا خالتي..

سارعت الخالة فكرية بفتح الباب على مصراعيه سامحةً
لها بالدخول وهي تجر الحقائب وتجر نفسها بالكاد، تكاد أن
تقع أرضاً لشدة ما تعبت وهزل جسدها وبان الشقاء على
وجهها وتحت عينيها..

وما إن أغلقت الباب خلفها حتى اندفعت الخالة فكرية
تحتضنها بكل قوة بين ذراعيها هاتفةً

- حمد لله على سلامتك يا فاطمة... حمد لله على سلامتك
يا حبيبتي...

استسلمت فاطمة تمامًا لعناقها كذمية من القماش مُرخية
الأطراف بينما عيناها تجولان زوايا البيت بلهفة والنار تحرق
قلبها وما أن أبعدتها فكرية عنها تنظر إليها بدهشة وتعجب
حتى سألتها ولا تزال علامات الصدمة بادية عليها

- لماذا لم تخبري أحدًا بوصولك كي ننتظرك يا فاطمة؟!..
هل يعلم مجدي بوصولك؟ لقد كان عندي اليوم صباحًا حين
أتاني بالطفلين ولم يخبرني شيئًا عن قدومك!!.. أهى إجازة
مفاجئة؟!.. هل..

قاطعتها فاطمة بصوتٍ متشنج يرتعد رغم التعب البادي
في نبراته وهي تمسك بذراعي خالتها بقوة

- ليس الآن يا خالتي... أين الأولاد؟... أين طفلاي؟..

ابتسمت الخالة فكرية بتعاطف وهي تربت على وجنتها
برفق

- يتفرجان على التلفاز بالداخل... اذهبي إليهما...

نظرت فاطمة على الفور تجاه الغرفة المقصودة وبابها
المفتوح بعينين كبيرتين وقد بدأتا تسبحان في دموع
حارقة..

لم تتحرك على الفور، وكأن قدميها لا تسعفانها... وكأنها لا
تملك الشجاعة لمواجهة الطفلين...

وكانها تخشى أن ترى أعينهم الصغيرة نظرات اللوم
والاتهام...

لكنها أجبرت نفسها على التحرك تجر هاتين القدمين
الهلاميتين حتى وصلت للباب المفتوح وهناك وقعت بكتفها
تستند به على إطاره وهي تراهما جالسين متجاورين على
الأريكة الواسعة كل منهما في يده شطيرة صغيرة.. يشاهدان

الرسوم المتحركة

كم كبرا!!!

وكم بديا صغيرين في نفس الوقت!!

انسابت الدموع على وجهها الشاحب بصمتٍ تام وهي تتأملهما بنهمٍ تريد أن تُشبع عينيها أولاً قبل أن تُدفع حاجة صدرها باحتضانهما..

إلا أن الخالة فكرية اقتربت منها تربت على كتفها قائلة بعطف

- لماذا تقفين عندك يا حبيبتي؟... ألا تشتاقين لأخذ طفليكِ بين أحضانك؟... يا أولاد.. يا أنس يا مودة.. تعالا لتسلما على أمكما

التفت الطفلان إليها على الفور بأعينهما الواسعة الجميلة وقد بدا عليها الرهبة والمفاجأة.. زحفاً ببطءٍ إلى حافة الأريكة وكأنهما يودان القيام لكنهما تردداً خائفين!!..

ضحكت فكرية وهي تقول ممازحةً

- خوف كل إجازة... يحتاجان لبعض الوقت حتى يعتادان عليك كما تعلمين

ثم كلّمت الأولاد مجددًا وهي تذهب إليهما وتمسك بكفيهما
قائلةً بلطف

- هذه ماما.. تكلمانها كل يوم وتعرفان شكلها.. هيا اقتربا
لتسلما عليها..

في تلك الأثناء كانت العينان الجافتان قد فاض نبعهما
أخيرًا.. فانهمرت الدموع الغزيرة على وجهها تنسكب بلا قيدٍ
أو حساب

لم تقترب بل اكتفت بالنزول أرضًا على ركبتيها فاتحة
ذراعيها لهما وانتظرت.. يمكنها انتظار العمر كاملاً كي يقتربا
بنفسيهما..

لكنها لم تكن في حاجة سوى لدقيقةٍ واحدة قبل أن يقتربا

منها بحذر... وما أن أصبحت أمام صدرها مباشرة حتى
ضمتها بقوة أقرب للعنف وهي تستنشق رائحتها وكأنها
ترياق الحياة بالنسبة لها بينما تشهق باكيةً بجنون

- أنا آسفة.. أقسم بالله أنني آسفة.. سامحاني

- جميعنا مهرجون.. نرسم القناع الضاحك فوق شفيتين
تبكيان، مجبرين على تأدية أدوارنا في سيرك لن تنتهي
حفلاته اليومية إلا بتوقف دقة القلب الأخيرة!

- فاطمة!!!!

نطق الكلمة بذهول ما أن فتح الباب وقد بدت ملامحه في
تلك اللحظة مضحكة، فلو كانت لديها القدرة لضحكت من كل
قلبها..

لكنها اكتفت بأن ابتسمت ابتسامة ودودة وهي تقول
ببشاشة

- ألن تدعوني للدخول يا مجدي؟...

لا يزال ذاهلاً وهو يتلعثم، لا يتفوه بكلمة كاملة حتى تَمَكَّن
من القول بصدمة

- فاطمة!!... متى أتيت وكيف؟... ولماذا لم تخبريني؟!..

تنهدت وهي تضع كفًا فوق كف قائلةً بامتعاض

- والله لا يصح تركك لي واقفة على باب بيت واقفة بهذا
الشكل بعد غيابٍ أشهرٍ طويلة.. ألم تشتاق إلي؟!..

تمالك نفسه أخيرًا بعض الشيء وهو ينظر خلفه بوجهٍ
مسود ثم أعاد عينيه إليها قائلاً بتعثر

- لا داعي للفضائح يا فاطمة... لنعد لبيتنا ونتكلم هناك...

ارتفع حاجباها وهي تقول بعتاب

- استغفر الله!.. ومن أتى على ذكر الفضائح الآن يا

مجدي!... بنت الأصول لا تصدر عنها الفضائح.. والآن هل ستسمح لي بالدخول أم أعود من حيث أتيت؟!..

كان في سؤالها الأخير نبرة تحذير وهي ترمقه بقساوة، تتأمله في البيجاما الحريرية بلونٍ قرمزي!!.. ثم مدت يدها تربت على صدره بقوة متحسنةً نعومتها..

فما كان منه إلا أن أبعد الباب مضطراً على مضض وهو يرمقها بنظرة مضطربة وملامحه تبدو وكأنه قد ضُبط بالجرم المشهود

دخلت فاطمة للشقة الصغيرة تتجاوزه وهي تجيل عينيها بين أنحائها بصمتٍ تام.. والتي تبدو وكأنها مهرجان من الألوان الزائدة عن الحد دون تنسيق أو ذوق.. إلا أنها فقط تثم عن المبالغة في كل شيء..

وكان من صرف، كان يصرف بلا حساب بكرمٍ وبذخ...

انتبهت من شرودها على دخول شابة صغيرة ترتدي مبدلاً من الحرير الوردي تبادلهما النظر ممتعة تمط شفيتها

مستعدة للدخول في حربٍ شعواء إن تَطَلَّب الأمر.. لكنها لم تكن مستعدة لسماع صوت فاطمة الهادئ ورؤية ملامحها والابتسامة مرتسمةً عليها.. وقطعًا لم تكن مستعدة لسماعها وهي تقول دون أن يرف لها جفن

- مبارك يا عروس... اعذريني إن كنت قد جئت ويدي خاليتان.. لكن على كل حالٍ فمعظم أجهزة هذا البيت من حر مالي، يمكنك اعتبار أفضلها وأغلاها هدية زواجك...

أغلق مجدي الباب بقوة ودخل الى منتصف صالة الجلوس ليقول بصرامةٍ وعصبية وإن كانت ملامحه شديدة الشحوب

- لا داعي لمثل هذا الكلام يا فاطمة.. أقدر صدمتك وأتفهم غضبك... لكن إن كنتِ غير قادرة على لجم لسانك فلتعودي لبيتك وهناك سنتكلم..

التفتت تنظر بدهشة لملامحه شديدة الغضب وكأنه على وشك ارتكاب جريمة فقالت ببساطة

- لما اعتبرت كلامي إهانة يا مجدي!!.. أنا أقول الحق ليس

إلا، هل نسيت أنني أعرف دخلك وإن جمعته كاملاً دون أن
تصرف على طفليكَ قرشاً واحداً خلال الأشهر الماضية فلن
يكفي نصف ما أنفقته من تكاليف لتلك الزيجة.. بينما كان
حسابي يتناقص تدريجياً، الأمر لا يحتاج إلى ذكاءٍ مفرط كي
أدرك أنك تزوجت من مالي!

تحوّل لون وجهه للونٍ أسودٍ غريبٍ إلا أنه رد بطريقةٍ مهينةٍ
فظة

- أتظنين أنك بكلامك هذا قد تثنييني عن فعل شيءٍ
يحق لي بالشرع!!.. حسناً اسمعي إذاً، ليس هناك ما يُسمّى
حسابك.. مالك.. فقد سبق واتفقنا قبل سفرك، لقد كان
حساباً واحداً والمال واحد.. أنا هو من بقي بالطفلين وكنتِ
على دراية من البداية بشروط اتفاقنا...أم ظننتِ أن الوضع
سيكون ذاته كتصرفك في نصيبك من بيع بيت والدك!!.. لا
يا فاطمة، هذا لن يحدث مع دخل عملك في الغربة، نحن
شركاء.. هل نسيت أننا اتفقنا ذات يوم، أنه إن سافرتِ
فسيكون المجهود على اثنين والدخل بين اثنين!!

ابتسمت ابتسامة هادئة وهي تتأمل وجهه البشع ونظرات

عينيه السوداء كماءٍ راكد عطن.. ثم أحتت وجهها وتمهلت
خطوتين قبل أن تتخذ أول كرسي واجهها من كراسي طقم
الاستقبال المخملي ذي الزخرفة الذهبية..

لم تعد ساقاها قادرتين على حملها أكثر، لكنها جلست رافعةً
رأسها واحةً ساقًا فوق أخرى وكأنها في بيتها ثم نظرت
إليه متابعةً حوارها لتقول بهدوء

- بين اثنين.. لا ثلاث يا مجدي... لا أذكر أن اتفاقنا نصّ على
شركة من ثلاثة أطراف...

نظرت العروس بعينين حادتين لمجدي تأمره بالإشارة أن
يتصرف، فقالت فاطمة مبتسمةً تدعوها

- لماذا تقفان؟!... اجلسا لتتكلما، لا تخشيا شيئًا..

ردت العروس بنبرة قوية فظة وهي تتحرك مُتلوية تضع
كفًا فوق الآخر والأساور الذهبية في معصمها تضرب بعضها
مُصدرةً رنيًا متوحشًا

- ومما نخشى يا حبيبتي؟!... لقد تزوجنا على سنة الله ورسوله والقرية كلها تعلم... نحن يا حبيبتي لم نفعل شيئاً نخجل منه لنخفيه..

اضطربت ملامح مجدي وهو يشعر بأن زمام الأمور قد بدأ يفلت من بين يديه فاقترب ليجلس على الكرسي المواجه لفاطمة ثم التفت ناظرًا لعروسه قائلاً بنبرة آمرة

- اجلسي يا سالي...

سالي؟!..

ارتفع حاجبا فاطمة ببطء وهي تراقب العروس واسمها سالي تجلس أمامها واضعةً ساقًا فوق أخرى مثلها متعمدةً إظهار إحدى ساقها شديدي البياض من تحت مبدلها الوردي تتنهد بصوتٍ أنثوي بغيض وشديدة الميوعة.. تنفض شعرها الزيتي خلف ظهرها بأظافرها الحمراء الطويلة المدببة..

إنها حتى لا تجيد وضع أحمر الشفاه فهو خارج عن حدود

شفتيها كطفلة كانت تلهو بزينة أمها.. كم عمرها!!!..

شعرت فاطمة بالرغبة في الضحك بهستيريا حتى أن عينيها لمعتا بدموع الضحك الذي حاولت كبته.. ضحك مريـر..

تكلم مجدي بخشونة مشبكاً أصابعه المتوترة

- يا فاطمة أنا رجل .. لم أكن لأقدر على البقاء بلا زوجة فترات سفر، وما فعلته لا يخالف شرعاً.. أعلم أنك غاضبة وربما غير قادرة على الاستيعاب.. أعرف أنك تقولين بداخلك-- وماذا عني في الغربة!.. لكن الرجل غير المرأة، نحن لن نعارض طبيعة الحياة...

كانت تستمع إليه شاردةً بوجهها والابتسامة الهادئة تجعل منه قناعاً مرسوماً بلا روح.. تومئ برأسها وكأنها مع كل إيماءة تعد ليلة من ليالي الغربة بعيدة عن طفليها.. تتساءل إن كانا يتذكراها فعلاً أم أنها باتت لا تثقل بالنسبة لهما سوى اتصالاً مصوراً محفوظ الكلمات!!!.. تتساءل إن كان ينقصهما ضمةً لصدرٍ حنون أو حكايةً تُروى لتحيا معهما، في ذاكرتيهما

حتى يشيب شعر رأسهما ويقولان.. تلك حكاية كانت ترويها
أمي..

أفاقت فاطمة من شرودها على صوته يناديهما بجفاء

- فاطمة... ألم تسمعي شيئاً مما قلت؟!...

رفعت عينيها إلى عينيهِ ثم أجابت بهدوء

- بالطبع سمعت كل كلمة... واستوعبت وقَدَّرت موقفك
يا مجدي.. الفراق بين زوجين مرَّ قاسٍ يجعل من زواجهما
شجرةً يابسة لا خضار فيها...

انعقد حاجباه بريبة وهو يسألها بتردد

- حقاً؟!... أتعنين أنك متقبلة لزواجنا؟!..

هتفت العروس المدعوة سالي بحدة وهي تُنزل ساقها عن
الأخرى بفضاظة وقد نفذ صبرها

- أتسألها إن كانت مُتَقَبِّلَةٌ زواجنا؟!... ما معنى سؤالك هذا؟!.. وماذا سيحدث إن أجابت أنها لا تقبل فهل ستطلقني مثلاً بناءً على أمرٍ منها!..

هدر فيها مجدي بعصبية

- اخرسي يا سالي... أنتِ تفسدين كل شيء، من الواضح أن فاطمة لم تأتِ إلى هنا والشر من نواياها، فاحترميها واحترمي وجودي...

زمت شفتيها وهي تضرب كفيها تجبر نفسها على الصمت بينما ملامحها الملونة بالأصباغ تبدو كلوحةٍ من الغضب والاستياء لمداهنته زوجته الأولى عوضاً عن طردها كي لا تكررهما..

تكلمت فاطمة بهدوءٍ شديد وهي تنقل عينيها بينهما

- كلام مجدي صحيح... لم آتِ إلى هنا والشر من نواياي فعلاً... كيف أمرك أن تطلقها وأتَحَمَّلَ ذنباً كهذا؟!... هل يُعَقَّلُ أن تُنْفَذَ أنت الشرع وأتَحَمَّلَ أنا الذنب؟!... لقد جئت إليكما

أعلن أنني موافقة على وضع لا أملك تغييره.. فقد حدث ما
حدث

مطت العروس شفيتها المصبوغتين وهي تتنهد بامتعاض
وسخرية قائلة

- ثعلنين أنك موافقة؟!.. بركة يا حبيبتي فقد كاد الخوف أن
يقتلني!!..

ابتسمت فاطمة تتأملها دون رد بينما تنحنح مجدي ليسألها
بصوت لطيف مداهن

- كم ستدوم إجازتك يا فاطمة؟..

تدخلت العروس لتتهف بعصبية وهي تميل للأمام

- ليكن بعلمك أنني عروس في شهر العسل، لذا إن فكرت
في الذهاب مع زوجتك الأولى فكلامك وقتها سيكون مع
أهلي وليس معي...

هتف مجدي بغضب ليوقفها عن الكلام

- قلت اصمتي يا سالي...

لكنها هتفت بحدة وهي تشيح بكفها تجاه فاطمة

- لن أصمت، لقد تَعَمَّدَت أخذ إجازة في شهر العسل ما أن علمت بزواجنا كي تأخذك مني وتُفسد فرحتي.. إنك لا تفهم الأعيب النساء، بينما أفهمها أنا جيدًا..

فتح مجدي مجددًا ينوي إيقافها بعصبية إلا أن فاطمة تدخلت لتسبقه وهي تقول بلطف

- تسرعتِ يا عروس.. أنا لم آخذ إجازة لأسرق عريسك منك في شهر العسل، يمكنك أخذه شهرين كاملين وليس شهرًا واحدًا.. فالعام أمامنا طويل...

توترت ملامح مجدي فجأة وتغيّر صوته وهو يسألها بحذر

- ماذا تقصدين يا فاطمة؟...

أجابته مبتسمةً ببساطة

- أنا لم آخذ إجازة يا مجدي، بل أنهيت عقد عملي وعدت لك ولبيتي وأطفالي.. ولن أترككم ثانيةً..

اتسعت عينا مجدي بصدمة كما فعلت عروسه التي اضطربت وتلبدت ملامحها كسماءٍ عاصفة..

مرت لحظات الصدمة تعدها فاطمة على أصابعها حتى انفجر فيها مجدي صارخًا بغضب

- ماذا فعلت؟!.. هل جننت يا فاطمة؟!.. هل دفعتك غيرة النساء التافهة لأن تضحي برزق طفليك؟!.. ألم تفكري فيهما وأنت تتخذين قرارًا كهذا تظنين أنك ستنتصرين به على عرويس تصغرك بعشرة أعوام؟!.. إنها طفلة يا فاطمة أما أنت فناضجة عاقلة، لطالما كنت أتباهى بعقلك الراجح أمام الجميع... فكيف سمحت لنفسك أن تدخل في منافسة تقلل من شأنك ومكانتك وتضر بطفليك؟!..

القناع الهادي مُرتسم على وجهها أما القلب فينزف ألمًا..

والدم بات مسممًا والروح تحتضر..

لكن القناع كان هادئًا وهي ترد بصدقٍ تُحسد عليه

- يا مجدي يا حبيبي، المرأة مكانها أينما وُجدَ زوجها..تحت
سقف بيته ومع أطفالها.. ولقد أدركت خطأي وقررت
التعويض عنه..

صرخ بقوة وهو يقبض كفيه، ثم أغمض عينيه كاتمًا
صرخته بين أسنانه وهو يحاول السيطرة على نفسه.. ثم
التفت إليها وقال بصوتٍ خفيض أقرب للتوسل

- يا فاطمة أرجوكِ لا تنهوري... هل تدركين جيدًا الفرق بين
دخلك بالخارج ودخلك هنا في وظيفة حكومية!!..

انعقد حاجباها وهي تقول بحيرة

- أي وظيفة حكومية يا مجدي!!... لقد استقلت، من اليوم
لن أكون سوى ربة منزل تسهر على راحة وخدمة زوجها
ورعاية أطفالها.. أنا بصراحة أنوي انجاب المزيد من الأطفال

قبل أن ينقضي عمر قدرتي عليه..

الآن بدا اتساع عينيه مخيفًا للحظتين اثنتين فقط قبل أن
يصرخ هادرًا بنبرة إجرامية

- الآن فهمت اللعبة القذرة.. تظنين أنك بهذا الشكل
تعاقبينني!!... هل أنت أم فعلا!! تلك التي تقوم بالانتقام من
زوجها ليدفع طفلها الثمن!!... أقسم بالله أن هذا لن يحدث
يا فاطمة، ستقطعين تلك الإجازة يا فاطمة وستكملين عقد
عملك وتعودي لعقلك أو..

قاطعته فاطمة وهي تقوم من الكرسي الذي كان نسيجه
المخمل يحرق بشرتها وكأنها جالسة في حقل أشواك

- لقد تم استبدالي بالفعل ولم يعد رجوعي مطروحًا من
الأساس..

هتف فيها بجنون دون أن يستطيع منع نفسه والتفكير في
كلامه

- أنا لا مقدرة لدي على فتح بيتين.. طفلاً سيدفعان الثمن!!..

فتحت كفيها سائلةً بدهشة - وما دخلي أنا؟!... تلك واجباتك وأنت من عليك تدبير مشاكلها بنفسك!..

انقض عليها ليقبض على ذراعها هاتفاً من بين أسنانه

- يوم تزوجتك كان شرطي الحصول على زوجة عاملة.. لا يمكنك خرق الاتفاق الآن..

أشارت فاطمة للعروس قائلةً- فلتعمل هي إذا.. عن نفسي لقد عملت بما يكفي.. العدل يقول أن تبدأ هي في العمل..

هتف بحدة يهزها - إنها لا تحمل مؤهلاً كمؤهلك.. إنها لا تحمل أي مؤهل... كيف لنا أن ندبر أمورنا جميعاً؟!.. أنس ومودة هما من سيدفعا الثمن غالباً يا فاطمة.. تعقلي..

هزت رأسها متظاهرةً بالأسف

- والله يا مجدي الأمر خرج من بين يدي.. أخبرتك أنني أريد أن أنجب طفلين آخرين على الأقل وقررت التفرغ لتلك المهمة قبل أن يسرقني الوقت..

هتف فيها بحدة وسخرية وملامح وجهه ترعد وتزبد

- تريدان الإنجاب!!.. في حياةٍ أخرى يا فاطمة.. أنا لن أَتَحَمَّلَ وحدي هذا الحمل بعد أن قررتِ نقض اتفاقنا منذ اليوم الأول لزواجنا.. لذا إن لم تعودى لعقلك فسأطلقك.. هل هذا هو ما تتمنيه لطفليكِ؟!!!!... هل ستكونين قادرة على التعايش مع ذنبٍ كهذا يا فاطمة؟!!..

تنهدت فاطمة تقول بحزن

- لله الأمر من قبل ومن بعد... لكن تذكر يا مجدي أنني لا أريد الطلاق، أنت من أراد.. وعليه، فلن أتنازل عن قرشيٍّ واحدٍ من حقوقي وحق أنس ومودة.. أي أنك ستنفق عليهما في الحالتين شئت أم أبيت

نظر إليها ذاهلاً وهي تستدير لتغادر ثم وقفت أمام الباب

لتلتفت إليه قائلةً بهدوء

- بالمناسبة، لقد أغلقت حسابي في المصرف... فكرت أن أخبرك كي لا تتكلف مشوارًا طويلًا إلى هناك محاولًا سحب الباقي من .. - مالنا المشترك.. وبالنسبة للشقة لن تدخلها بما أنك ستطلقني بكامل إرادتك.. لذا لقد حزمت أغراضك وهي الآن في طريقها لبيت أمك.. سلام يا مجدي، ومبارك عليك بضعة أجهزة وطقم مخملي.. لقد سامحت فيها..

انحنى حاجباها وارتجفت ابتسامتها المشتاقة بينما ترفع وجهها لتتأمل شقيقتها وهي تلتف وتدور في الهواء بشريط عريض وكأنها لا تزن شيئًا!.. لقد كانت مذهلة في براعتها، حتى أنها نسيت مشاكلها للحظات تتمتع بالتفرج على هذا التمرين متشبثةً بحقيبتها..

تذكرت أنها لم تذهب إلى سيرك منذ فترة طويلة جدًا.. منذ أن كانت طفلة تقربيًا، ورغم أن شقيقتها تقدم عروضًا فيه!..

اتسعت ابتسامتها وبرقت عيناها كعيني طفلة خرجت
أخيرًا في نزهة.. لقد كانت مستمتعةً بحق!!..

و طال وقوفها كمتفرجة حتى وصلت قدمي دنيا للأرض
ببراعة مغمضة عينيها، فما كان منها إلا أن صَفَّقَتْ بكفيها
بقوة وهي تقف مكانها مبتسمة..

تصفيقها أثار الانتباه لها، مما جعل كريم يهتف

- من أنتِ؟.. ماذا تفعلين هنا؟!... ألم أنه على أن...

لم يكمل كلامه فقد هتفت دنيا من خلفه بذهول

- فاطمة!!!!!!....

لم تتخيل مقدار حاجتها لأن تضمها ذراعي أختها إلى هذا
الحد!!.. لقد باعدت بينهما الأيام والمسافات وتفرقت بهما
الطرق فظنت أن الأخوة بهتت حرارتها كما بهت الكثير في

حياتها.. لكن ما أن وقعت عيناها على دنيا حتى انهارت
بداخلها آخر بقايا القدرة على التماسك فاندفعت إليها، ترمي
نفسها بين ذراعيها منفجرةً في بكاءٍ عنيف ولم تتركها حتى
دخلا سوياً لغرفة تبديل الملابس.. وهناك جلست دنيا وهي
تضم فاطمة إلى صدرها تحاول تهدئتها دون كلمات..

فقط تضمها وتربت على ظهرها وثَقْبَلْ جبهتها بين الحين
والآخر..

و بعد فترة طويلة بدت كدهرٍ من الزمن سألتها دنيا بصوتٍ
خفيض يرتعش

- ماذا حدث يا فاطمة؟!.. لماذا رجعت فجأة وما السبب في
انهيارك هذا؟!... أجيبيني بالله عليك فأنتِ ترعبينني ببكائك
العنيف وانتفاض جسدك... تكلمي أرجوك..

ابتعدت فاطمة عن ذراعي أختها منخفضة الوجه محنية
الكتفين وقَصَّت لها في كلماتٍ مقتضبة عما حدث..

ضربت دنيا على صدرها بقوة هاتفةً

- طلقك؟!...-

ابتسمت فاطمة ابتسامة واهية وهي تمسح وجهها بكفها
ثم همست مجيبة بصوتٍ ساخر

- لم يتمالك نفسه من الغضب والصدمة ، فألقى اليمين قبل
خروجه من باب بيته..

برقت عينا دنيا بجنون وهي تهتف مُكَلِّمةً نفسها تلهت من
شدة الغضب

- النذل!!.. النذل الجبان المُستغل.. ال...-

صمتت للحظة قاطعةً فيض شتائمها لتنظر إلى فاطمة
قائلةً بتردد

- إن كانت ساعة غضب وستعودان لبعضكما فنبهيني كي لا
أستفيض في السباب..

ضحكت فاطمة من بين دموعها بينما كانت النظرة في

عينها وكأنها كسيرة لكن مع أملٍ بشروقٍ عزمٍ جديد لم يكن
موجودًا من قبل ثم قالت بهدوء

- ساعة غضب!!... ساعة الغضب كانت النتيجة الطبيعية
لأعوامٍ قضيتها في زيجة قامت على الاستغلال بكافة
صوره.. لقد كانت ساعة انتفاضة لنفسي ولطفلي اللذين
حرمت نفسي منهما وحرمتهما أمهما بيدي.. بكامل إرادتي
وأنا أخضع للابتزاز العاطفي الذي أحكمه من حولي حتى
تحوّلت لإنسانة مسلوقة العقل كما سلبت مني أمومتي وأنا
راضيةٌ قانعة..

أخذت دنيا تذكّك كف فاطمة برفقٍ وهي تستمع إليها
بتعاطف غير قادرة على مراجعتها في قرارها، وما إن انتهت
حتى قالت بحزم

- ستأتين معي أنتِ والطفلان.. ستمكثون معي في شقة
جلال.. ربما كانت غير مُجهزة بعض الشيء لكن بإمكانني أن..

قاطعتها فاطمة وهي تشدد على كفيها تمنعها من المتابعة

- لن أترك شقة أولادي يا دنيا.. لقد بدأت لتوي الحرب
الحتمية والتي يخوضها كل بيت يقسمه الطلاق.. حرب
الحفاظ على حقوق الأطفال كاملة...و كأن الطلاق هو
تطليقهم وليس تطليق الأم!، لكن ما باليد حيلة.. فمجدي
لن يسكت بسهولة خاصة بعد تورطه في تلك الزيجة التي
استنزفته ماديًا

سألتها دنيا بقلق

- لكن كيف ستدبرون أموركم؟!..

أجابتها فاطمة مبتسمةً بأسى

- هل صدّقت أنني استقلت فعلاً من وظيفتي الحكومية!...
سأخرج للعمل بالطبع، لكن وأطفالي معي.. نيام تحت سقف
يعلو رأسي...لقد انتهت الغربة يا دنيا..

تنهدت دنيا قائلةً بحزن وبعينين غائمتين

- الدنيا خارج السيرك مخيفة... بدأت أعذر هدى وبسمة

وبثينة فمن الواضح أنني كنت آمنة في سيرك أكثر منهن عبر
دروب تلك الحياة القاسية خارجه...

ربت فاطمة على كفها تقول بصدقٍ موجه

- لم تكن حياتك سهلة كذلك... ومع ذلك لم تتوقفي يومًا
عن مساعدة الجميع..

ابتسمت دنيا رغماً عنها وكأن كلمة الامتنان كانت كل ما
تحتاج إليه لتشعر بأن حياتها ذات معنى، وليست مُكرّسة
فقط لأداء ما أحبت..

ازدردت فاطمة لعابها متغلبةً على الغصة في حلقها وهي
تقول بتشجيعٍ حار مشددةً كفيها حول يدي دنيا

- بالمناسبة، كنت رائعة في سماء المسرح.. لم أر عرضاً لك
منذ سنواتٍ طويلة، ولا أصدق أننا ضيعنا تلك السنوات دون
أن نستمتع بعروضك.. لكن سأحضر أنس ومودة لمشاهدتك...
أنت في كامل لياقتك يا دنيا..

ابتسمت دنيا قائلةً بسخرية تنهد

- تقصدين... في آخر أيام لياقتي...

عقدت فاطمة حاجبيها وهي تهزها قائلةً بجدية

- هراء.. لا يزال أمامك أيامٌ من التألق، وهذا العرض ما هو
إلا بداية..

هزت دنيا رأسها نفياً ثم قالت هامسة

- سيكون هذا هو العرض الأخير يا فاطمة... لقد اكتفيت...

صمتت للحظة وهي تخفض وجهها مبتسمة ابتسامة بدت
غريبة في عيني شقيقتها، أما الأغرب فكانت نبرتها التي
تحمل آلاف المعاني والمشاعر حين تابعت تقول بأنوثة
عجيبة

- كما أن... كما أن الأمر ربما لن يكون خيارياً تمامًا... فقد
أبدأ حياة جديدة مثلاً.. أكثر استقراراً..

ضاقت عينا فاطمة قليلا وهي تدقق النظر في ملامح
أختها دنيا، ثم اتسعتا وهي تهتف هامسة تشدد على قبضتيها

- دنيا!!... هل ستتزوجين؟!... هل خُطبتِ؟!..

ازدادت ابتسامة دنيا تعمقا وخجلا ثم قالت تهز كتفها

- مجرد كلام.. لا شيء رسمي بعد، لكنه سألني أن أكمل
حياتي معه..

تأوهت فاطمة بصوت عالٍ وهي تشدها بين ذراعيها
لتحتضنها بقوة هاتفة

- مبارك يا دنيا... مبارك يا حبيبتى.. أخبريني من هو وماذا
يعمل وأين يسكن؟

أجابتها دنيا بحرج

- ليس الآن يا فاطمة، انتظري حتى يطلب يدي رسميا..
حينها سأصر على أن يطلب يدي من جلال أولاً، ثم من

الخالة فكرية ثانيًا.. سأكون عروس في السيرك وعروس عند خالتي.. سأفعل كل شيء وأعتني بكل تفصيلا لأشعر بنفسي عروس بحق

سألتها فاطمة ذاهلةً وهي تبتسم بعطف

- هل تحبينه إلى هذه الدرجة يا دنيا؟!....

اتسعت ابتسامة دنيا وبدأت حالمة وهي تهمس واحةً يدها على قلبها

- جدًا يا فاطمة... لم أعرف الحب أبدًا قبل أن أعرفه، وصلت لسن الثلاثين ولم أستوعب تلك المشاعر التي يتغنى بها الجميع حتى ظننتها وهمًا يرسمونه في خيالهم... حتى عرفت.. حينها فقط شعرت وكأن جميع الأغاني والأشعار لا تصف ولو الشيء اليسير مما أشعر به تجاهه..

ضحكت فاطمة من بين دموعها فشاركها دنيا الضحك دامعة العينين، لكنها مسحتهما بظهر كفها وهي تقول بأسى

- أما بالنسبة للعمل، فقد تعرض لظلم بين.. وبين ليلة وضحاها بات خالٍ من العمل... أنا أحاول مساندته كي يبدأ من جديد لكنه متمسك باليأس... الظلم مرّ كالعلقم، لكنني سأظل بجواره أدفعه..

لا ينكر أن ملاحقته لها تسليه.. تشعره بسعادة طفولية مر زمن على شعوره بمثلها.. لكن رؤيتها مصادفة تربك دقات قلبه

ك هذه اللحظة تحديدًا وهو يسير في الرواق متجهًا لغرفته، فيراها خارجة من غرفتها في ذات اللحظة!..

توقفت يده على مقبض باب غرفته يتأملها مبتسمًا تلك اللحظة الخاطفة قبل أن تشعر بوجوده..

تبدو كوردة ربيعٍ متفتحة، بتنورتها ذات الطبقات الملونة ما بين وردية وبرتقالية.. كيف نجحت في تنسيق البرتقالي والوردي ليليقا سويًا!.. أما قميصها الوردي الداكن فقد أضفى

بعض التورد إلى قناعها!!..

ما الذي يقوله؟!... يبدو أنها نجحت في إفقاده عقله فعلاً!!..

لقد أتى الربيع وتفتحت معه زاد كوردة حمراء قانية، غير ورقة الخريف الذهبية الهشة والتي جاءت للبيت أول مرة..

تبدو وكأنها تكبر كل يومٍ عام!!... تبادر بالمزاح!.. يسمع صوت ضحكاتها من خلف القناع!..

تتكلم أكثر حتى بدا وكأنها تثرثر في بعض الأحيان، وهو لا يمانع مطلقاً!.. كانت خرقاءً على نحوٍ صادق وممتع

وكانها لم تتجاوز العشرين من عمرها!... حتى رقصاتها الأنيقة تتحول خلال مراتٍ عديدة لحركاتٍ هزلية تُضحكه من كل قلبه...

أبعد يده عن مقبض غرفته ببطء، ثم تحرك ناحيتها مع سبق الإصرار والترصد.. حينها فقط لاحظته فتوقفت مكانها وتبسّم القناع!!.. ما ألذّها في ذيل الحصان الطويل!

تابع اقترابه منها فأثرت المضي في طريقها، وعلى ما يبدو أنها قررت تجاوزه بطبيعية وكأنه غير موجودا..

فما كان منه إلا أن مد ذراعه ليريح كفه على الجدار المقابل يمنعها من المرور مبتسمًا...

حاولت المرور من الجانب الآخر، فأسرع يمد ذراعه ليستند بالكف الآخر على الجدار المواجه ليحتجزها مجددًا..

حاولت مرة ثالثة فاعترضها تتسع ابتسامته، حينها قالت بصوتٍ مبتسم

- توقف عن هذا يا سائد...

ليتها تعلم كم يبدو اسمه شهياً من بين شفيتها بنغم صوتها المبحوح!..سألها أخيراً بصوتٍ مشاغب

- وإن لم أتوقف؟!....

رفعت وجهها إليه مكتفة ذراعيها وهي ترد بنبرة أكثر

مشاغبة من نبرته

- كم تظن عمرك بالضبط؟!.. لقد بدأت الشعرات البيضاء في
الظهور على جانبي رأسك!!..

تغضنت زاويتي عينيهِ أكثر دون أن يحرر عينيها من أسرهما
ثم قال بصوتٍ أجش جاد رغم الابتسامة

- أمامك أشعر وكأنني مراهق أخرق!....

لم ينتبه هذه المرة إن كان القناع قد تبسم، فما همه إن
تبسم القناع بينما العينين الجميلتين تبسمان له قبل أن
تسدلا الجفنين ترد نظراته عنهما

تكلمت مدعية الصرامة رغم رنين الضحك في صوتها

- ربما ينبغي أن أهتف مُناديةً والدك إذا...

لمعت عيناه استحسانًا للفكرة وهو يتخيلها تنادي خطاب
لتكن له الفرصة ليخبر الجميع أنها له!!...

لكنه حين تكلم قال بصوتٍ خفيض جاد دون أن يفقد
ابتسامته

- ربما أنا من سيهتف مناديًا ذات يوم..

أطرقت بوجهها للحظات فعَقَّب قائلاً بتدليلٍ واضح

- ما أجمل الألوان عليكِ يا زادا..

ارتفع جفناها لتنظر إليه بدهشة وكأنها تعجبت اعجابه، ولا
إرادياً رفعت أصابعها لتلاعب شريط حبري وردي يزين قبة
القميص ثم ردت بحرج والعينان تبتسمان سروراً

- لقد عاد الربيع... ففكرت أن أرتدي ما يليق به...

لم يرد على الفور، بل تأملها ملياً حتى أسبلت جفنيها
مجدداً... وتورد القناع!

لكنه قال بهدوء

- تليقين بالربيع يا زاد.. لكنك تشبهين الخريف..

نظرت إليه بدهشة، ثم ضحكت تسأله بتردد

- الخريف!.. ولماذا؟!..

كتف ذراعيه وهو يستند بكتفه للجدار قائلاً ببطء مكلماً
عينيها بتركيز

- لأنني أحب الخريف....

مالت بوجهها تسأله بحيرة - تحب الخريف؟!.. لماذا؟...

رفع حدقتيه متظاهراً بالتفكير ثم عاد بهما إلي عينيها
سريعاً وكأنه لا يقوى على الابتعاد عنهما كثيراً فأجاب
بتشدد

- لأنه... ذات خريف، انقلبت حياتي رأساً على عقب.. وكأن
قلبي استيقظ من سباته الطويل..

أومأت برأسها مصدرة صوتًا يئم عن التفهم ثم قالت
ببساطة

- أنا أيضًا أحب الخريف رغم رائحة الشجن في نسائمه، إنها
مصادفة....

تكلم قائلاً بنبرة ذات مغزى

- لعلني أشبه الخريف إذا؟!....

هزت رأسها نفيًا فاهتز ذيل الحصان الطويل وقالت بمرح

- أنت تشبه الشتاء... ما أن تظهر حتى يختبئ الجميع..

ضحكت لروح النكتة الجديدة عليها بينما وقف مكانه
يرمقها ببلادة لا يشاركها الضحك

غبية بعض الشيء في استيعاب الإشارات، لكن لها ضحكة
قادرة على نشر السعادة خلال يومه كاملاً، ربما لأن ضحكاتها
قليلة كأمطار الخريف..

ابتسم متمتّعًا بضحكتها حتى انتهت تمامًا فوقفت ترمقه
بطرف عينيها بترقب، حينها اضطر لسؤالها علّه يطيل الكلام
معه قليلًا قبل انصرافها

- إذا كيف ستقضين يوم إجازة من التدريبات، طال
انتظاره؟...

هزت كتفيها وهي تتهدد قائلة بخفوت

- ليس الكثير... فكريم أعطانا فروض لنقوم بها، وربما
سأدخل لوائل لنلعب الشطرنج...

استقام في وقفته متحفزًا وقد ظهر تغير ملامحه على
الفور، فقالت تبادره

- ترفّق بأخيك أرجوك... لم يؤذيك أبدًا لتمنع عنه
المساعدة!!..

اتسعت عيناه بتعبيرٍ مخيف قبل أن يضرب الجدار بقبضته
مما جعلها تجفل منتفضة، لكنه سألها من بين أسنانه

- هل لديك فكرة عن نوع المساعدة التي تقدمينها أم أنك تتظاهرين بعدم الانتباه!...

عقدت حاجبها بحيرة لكنها ردت بخفوت

- أقدم ما أقدر عليه... أنا أرغب حقًا في مساعدته، إن كنت أنا الغريبة!.. فكيف وأنت أخاه ترفض!..

ضغط أسنانه وهو يحدق في عينيها بنظرة نارية، إلا أنه سألها بحدة

- بلعب الشطرنج؟!... يا لها من مساعدة جبارة يا زادا!... لكن ألا يلعب هو عبر الشاشة؟!.. يمكنك اللعب معه عبر الشاشة كل من غرفته.. هذا حل لا بأس به..

أجابته تهز رأسها نفيًا ببطء فتشتت تركيزه مع اهتزاز ذيل الحصان

- الغرض هو إبعاده عن الشاشة ومساعدته على التواصل

وفي المرحلة التالية إخراجہ من الغرفة... لهذا ألاعبه
بالشطرنج الحقيقي...

ضاقت عيناه وهو يسألها ببطء شاعرًا بالدم يغلي في
عروقه

- من أين حصل عليه؟... هل أحضره والدي كي تلعبا به
سويًا؟..

هزت رأسها نفيًا مجددًا.. تبًا لذيل الحصان، ربما عليها
جمعه إن أرادت منه التركيز على ما تقول!.. لكنه انتبه حين
قالت بخفوتٍ شديد

- بل أنا من أهديته واحدًا....

ارتفع حاجباه شاعرًا بالنار تندلع أكثر وأكثر على نحوٍ
مخيف ثم هتف غير مصدقًا قبل أن يستطيع منع نفسه

- أهديته واحدًا!!!!!!.. أنتِ لم يسبق لك أن أهديتني أنا
شيئًا!!..

اتسعت عيناها بشدة، ثم لم تلبث أن ضحكت بصوتٍ عالٍ
تردد صداه في الرواق، حتى أنها وضعت أصابعها أمام فم
القناع المغلق والمنحوت!..

وكأن الغضب بداخله قد تبدد في لحظةٍ واحدة وهو
يتأملها في ضحكتها العالية ذات الصخب النادر..

لقد عاد الربيع فعلا على ما يبدو!!

وحين تمالكت نفسها نظرت إليها وقالت بصوتٍ متعثر من
بين دموع الضحك المنهمرة

- لقد نجحت في إحراجي فعلاً!!... أعدك أن آتيك بهدية،
هل أنت راضٍ؟...

تكلم قائلاً بصوتٍ غريب خفيض جعلها ترتعش رغماً عنها

- أنا الآن أكثر من راضٍ....

أخفضت وجهها شاعرةً بحرارةٍ غريبة تلهب وجنتيها دون

أن تملك تفسيرًا محددًا لذلك.. لكنها قالت بعد لحظات

- في الواقع أنا لم أشتريها له خصيصًا... لقد كان الشطرنج ملكًا لوالدي رحمه الله واحتفظت أُمي به لي...

كل كلمة بسيطة تنطق بها تتسبب في إشعال النار بداخله
كلاعب النار في السيرك، وضحكة منها تطفئها في لحظة
واحدة فيقف أمامها أحمقًا أخرقًا... الغيرة قادرة على فعل
أكثر من هذا بداخله

تكلم قائلاً بصوتٍ يرتعد غضبًا و... قلقًا

- شيء له قيمة كهذه لديك، كيف تهادين به شابًا غريبًا
عني؟!... إلا إن كان يحمل نفس القيمة!...

وكأن الربيع قد غادر العينين الجميلتين سريعًا ليتركهما
غيمتين رماديتين

تكلمت بصوتٍ متردد مضطرب والندم يقطر من كل حرفٍ
تنطق به همسًا

- أنا... أنا لا أستحق شيئًا كهذا يا سائد.. سيكون مفيدًا
لوائل أكثر مني...

أراد الكلام معها بشدة.. يستفسر عن الكثير.. يثنىها عن
الأكثر.. يفهمها الأكثر والأكثر... لكن صوت فتحة جاء من
خلفه وهي تقول ناقلًا عينيها بينه وبين زاد بفضول

- السيد خطاب يريدك على وجه السرعة يا أستاذ سائد..

أغمض عينيها للحظة ناقلًا على هذا الفاصل الغير مرغوب،
إلا أنه التفت إلى فتحة وقال بجفاء

- لا بأس يا فتحة... سأنزل حالًا..

وقفت مكانها تطيل النظر إليهما مبتسمة ابتسامة خبيثة
فما كان منه أن كرر بصلابة

- شكرًا يا فتحة... سأنزل حالًا!!...

رمته بنظرة خبيثة مرة أخرى ثم أرسلت قبلة لزاد في

الهواء مما جعله يهز رأسه بنفاذ صبر... وحين أعاد عينيه إليها قال أمرًا بخشونة

- سيكون لنا كلام آخر فيما بعد... عودي لغرفتك الآن... هيا...

ترددت متجهةً لغرفتها وهي تنظر إليه بدهشة وهو يغادر، تشعر بشيءٍ يعصف داخل صدرها.. خوفًا.. قلقًا.. نوعًا غريبًا من الفرح!!.. لا تستطيع التحديد... تخشى التحديد!..

- طلبتني؟....

سأل سائد بجفاء وهو يدخل غرفة مكتب خطاب والذي كان واقفًا يرتب بعض أوراقه، فأجابه بهدوء وبلا تعبير أقلق سائد

- نعم... ادخل واغلق الباب خلفك..

أغلق الباب بالفعل وعيناه على والده، متيقنًا أن ما سيقال
لن ينال إعجابه لكن الفضول بداخله حثه على الاقتراب
والرد بجمود

- كلي آذان صاغية...

بدا وكأن خطاب يطيل الصمت قبل أن يبدأ الكلام، متابعًا
ترتيب أوراقٍ ربما لا تحتاج إلى ترتيبٍ من الأساس مما زاد
من شكوك سائد فوق رافعًا ذقنه مترقبًا جولة من جولات
المعارك بينه وبين والده...

لكن انتظاره لم يطل، فقد تكلم خطاب قائلاً بصوتٍ جاف

- بما أنك ابني البكر والأخ الأكبر أولًا.. وكي لا تفتعل
المشاكل كما فعلت اليوم الذي أتت حنان لزيارتنا، قررت
إخبارك على انفراد...

انعقد حاجبا سائد شاعرًا بالغضب والتمرد يحتلانه على
الفور.. أثراه سيعلن خطبة نوران دون رغبتها!!..

حسنًا سيجده واقفًا له موقفًا مخططاته.. لكن ما قاله
خطاب كان صادمًا فقد تابع بخشونة

- اليوم سأفتح جيهان بخصوص طلب يد زاد لأخيك
وائل..

ساد صمّ طويل وكأن الغرفة تحولت في لحظة واحدة
لغرفة أشباح..

لو أخبره أحدهم قبل دخوله أن هذا هو ما سيسمعه لظن
أنه سينفجر جنونًا ليصرخ ويتهور..

لكن العجيب أنه ظل هادئًا تمامًا، حتى أنه دسّ كفيه في
جيبيّ بنطاله ثم قال بصوتٍ جاد شديد الهدوء

- لن يحدث هذا....

رفع خطاب وجهه عن أوراقه مجفلاً من نبرة ابنه الصلبة
وأصابه القلق أكثر من أي اندفاعٍ توقعه.. لكنه أخفى اجفاله
وقال بنفاذ صبر

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. هذا ما كنت أحسب حسابه
ولهذا قررت الانفراد بك..

دار حول المكتب حتى استند إلى حافته يبادل ابنه النظر
بجفاء ثم سأله بخشونة

- ما هي مشكلتك بالضبط؟!... مما أراه أن علاقتك بزاد أكثر
من ممتازة، أي أنك لا تحمل للفتاة أي ضغينة فلماذا ترفض
زواجها من أخيك؟!..

ضاقت عينا سائد وهو يقترب من والده حتى وقف أمامه
مباشرة ثم أجاب من بين أسنانه بغضبٍ جارف دون أن يرتفع
صوته

- ربما عليّ أنا أن أسألك نفس السؤال... ما هي مشكلتك
بالضبط؟!... إلى متى ستظل تلقي بمسؤولياتك تجاه أبنائك
على

آخرين ليتحملونها نيابةً عنك؟!.. إلى متى؟!... لقد اعتدنا
منك هذا الطبع، لكن هذه المرة بلغت منك الأنانية أقصى

مستوياتها..

كتم أنفاسه شاعرًا بضربات قلبه تزداد جنونًا ثم تابع من بين
أسنانه بصوتٍ هادر مخيف كتلك النظرة النارية في عينيه

- ألم تجد سوى زاد لتحل مشكلة وائل؟!.. ألا تملك عينين
لترى بهما أنها ليست الأصلح لمهمة زجّها بتحملٍ مسؤولية
مرعبة كهذه؟!.. زاد بالكاد تحاول التعافي من تجربة تركت
آثارها المدمرة عليها.. إنها تحتاج إلى من يعالجها، لا أن تُعالج
غيرها!!!... ما هي مشكلتك؟!.. توقف عن أذية الغير، فقط
توقف!!..

ارتبك خطاب وبدا الألم في عينيه وكأنه تلقى لكمة من ابنه
للتو!!... حتى أنه اعتاد تلقّي اللكمات من سائد دون رحمة..

ظل صامتًا لفترة، ثم تَمَكَّن أخيرًا من الرد بصوتٍ خفيض

- وما أدراك أنت؟!....

برقت عينا سائد وهو يهتف بقوة

- هذا السؤال أنا الوحيد الذي يحق له سؤاله للجميع فيما يخص زاد..

ضاقت عينا خطاب وهو ينظر لابنه بنظرة غريبة ثم سأله ببطء متوترًا

- ماذا تقصد بالضبط؟!...

تراجع رأس سائد للخلف وهو يلهث بنفس حاد متسارع وعلامات الإصرار على وجهه لا تخطئها عين ثم قال أخيرًا مُشدّدًا على كل كلمة

- زاد لن تكون لغيري....

اتسعت عينا خطاب بذهول وهو يهز رأسه وكأنه لا يصدق ما سمع للتو ثم هدر ضاربًا سطح المكتب بقبضته

- هل جنت؟!.. هل فقدت عقلك؟!.. زاد لا تناسبك البتة!!..

سأله سائد بصوت جامد يفيض حنقًا

- بينما تناسب وائل؟!.. ألسـت ابنك أنا أيضًا؟!...

هتف خطاب بغضبٍ وهو يضرب صدر ابنه بقبضته هذه
المرّة

- بالطبع تناسب وائل ولا تناسبك.. ولأنك ابني البكر يا غبي،
ما الذي يدفعك للزواج من شابة مطلقة بوجه مشوه؟!..
لوائـل ظروف تجعلها مناسبة له، أما أنت فلا...

تراجع سائد للخلف بضعة خطوات ناظرًا لخطاب وهو يهز
رأسه شاعرًا بالمرض لكنه قال بعد صمتٍ قاتم طويل

- ليتني ما سمعت تبريرك.. لم يعد هناك المزيد لنقوله، إلا
شيء واحد فقط استوعبه جيدًا.. زاد لن تكون لغيري..

ودون انتظار ردٍ منه اندفع ليستدير خارجًا من المكتب قبل
أن يصفق الباب خلفه بعنف..

أما خطاب فجلس على الكرسي القريب منه متجهّمًا

ذاهلاً... يحاول استيعاب ما سمعه للتو ...

وبعد فترة طويلة قضاها في التفكير بمفرده، أمسك بهاتفه
واتصل بشقيقه والذي ما أن رد عليه حتى قال بجمود

- اسمعني يا صادق.. أريدك أن تسأل وتجمع لي معلومات
عن زواج زاد السابق.. ظروفه وأسباب فشله.. ومن يكون
طليقها...

صمت للحظات وقد بدا متردداً إلا أنه أجاب بصوتٍ مبهم

- سبق وأخبرتني أنني أريدها لوائل، وأظنه الوقت المناسب
لنسأل عن ظروف زيجتها السابقة..

طال بها الوقت وهي تتلمس بأصابعها قطع الشطرنج
القيّمة والمصنوعة من الخشب والعاج بطريقة فنية زادت من
جمالها وقيمتها..

وكأنها كفيفة ترى جمالها بأصابعها بينما العينان غائمتان
تجاهدان لتمدن الدموع من القفز عبرهما..

سألها وائل الجالس أمامها بنبرته الخشنة المرتابة دائماً
وطاولة الشطرنج بينهما

- إن كنتِ قد ندمتِ على إهدائها لي، يمكنكِ استردادها..

انتبهت زاد من شرودها على كلماته الفظة فطرفت بعينيها
وهي تسأل بتردد

- ما الذي جعلك تظن أنني ندمت على إهدائها لك؟!..

رد بنبرة أكثر خشونة واضطراباً

- كلما لعبنا... تشردين طويلاً .. تتلمسين القطع والحسرة
بادية في عينيك...

أسبلت جفنيها وهي تهز رأسها نفياً قائلة

- الأمر ليس كذلك.. أنا أتذكر والدي وأوقات لعبنا سويًا
فحسب...

ازداد تجهم ملامحه ثم كرر بصوتٍ أجش بعد لحظات
- يمكنك استعادتها...

هزت رأسها نفيًا مجددًا ثم قالت بخفوت

- أنا لا أستحقها... أريدك أن تحتفظ بها، لذا لا تكرر تلك
الكلمات مجددًا...

بدأت بتحريك القطع وهو يختلس النظر إليها ثم سألها
ببطء

- كيف تشوه وجهك؟....

تسمرت أصابعها فوق قطع الشطرنج وتشنّجت.. حتى أنها
تسببت في إسقاط بعضها لثحدث صوتًا مزعجًا ثم قالت
بصوتٍ فاتر بعد فترة

- أنا فعلت هذا بنفسى...

تَصَلَّبَ وهو يتراجع فى كرسيه بحذر، يرمقها بريبةً
وتوجس أكبر... ينقل عينيه بينها وبين الباب المفتوح ثم
سألها بخشونة

- هل أنتِ مجنونة؟!..

رفعت وجهها تنظر إليه بدهشة، وحين لاحظت قلقه
واضطرابه أجابت بخفوت

- لا تقلق... لست مجنونة، بل غبية فحسب..

- أتمنى أن تكونى فى انتظارى يا وردة الربيع

أوشكت على نزول درجات السلم ممسكةً دفترها وأقلامها،
لكن قبل أن تفعل رأته جالسًا على آخر درجتين بالأسفل
شاردًا محددًا بعيدًا وكأنه فى عالمٍ آخر..

ترددت للحظة، لكن جلسته الغريبة جعلتها تنزل درجات السلم حتى وصلت للدرجة التي يجلس عليها مستندًا بمرفقيه لركبتيه فأنحنت ببطء لتجلس بجواره على نفس الدرجة..

التفت من شروده لينظر إليها جالسةً بجواره صامتة تتطلع إليه من خلف قناعها تضم دفتراً وأقلاماً لصدرها..

للمرة الأولى منذ وقتٍ طويل لم يحاول أن يبادرها بالمزاح أو التدليل، بل اكتفى بالنظر إليها بطريقة غريبة دون حتى أن يبتسم فسألته بتردد

- لماذا تجلس بهذا الشكل؟!..

لم يرد ولم يحد بعينه عن عينيها عبر ثقب القناع، لم يبتسم كذلك وقد بدا هذا غريباً عليها فكررت بقلق

- ماذا بك يا سائد؟!.. هل تشاجرت مع والدك؟!..

لم يتحرك للحظة وكأنه صنم ثابت، ثم قال أخيرًا بجمود

- نعم يا زاد.. تشاجرت مع والدي..

تنهدت بتعب وهي تضع الدفتر وأقلامها على ركبتيها ثم
قالت مُؤنِبة

- لماذا يا سائد؟... أنت تعامله بطريقة سيئة جدًا.. تَرْفُقُ به

ارتفع حاجباه بعض الشيء ثم سألها بتعجب

- ألا تعاملين أمك بنفس الطريقة السيئة؟!... لماذا لا
تترفقين بها؟!...

اتسعت عيناها من خلف القناع وتوتر جسدها بالكامل إلا
أنها ردت بصوتٍ مضطرب

- الأمر مختلف... أمي لم تخطئ بحقي بأي شيء..

ابتسم مُعَقَّبًا بقساوة

- بينما أخطأ والدي بحقنا جميعًا.. ها قد اعترفت..

صمت للحظات مُحَدِّقَةً به وقد أدركت مدى فشلها في معالجة الموقف فأخفضت وجهها ملتزمة الصمت بينما هو يراقبها بنظراتٍ قاسية ثم سألها فجأة بنبرة مباشرة جافة دون مقدمات

- أيعجبك وائل؟....

نظرت إليه مُجْفِلَةً فأخافتها ملامح وجهه وكأنه عاد لنفس الشخص الغريب الذي قابلها أول مرة من دخولها لهذا البيت وأفزعها بنظراته القاسية وتعبيرات وجهه التي لا ترحم..

سأله بصوتٍ خفيض

- هل كان شجاركما بخصوص وائل؟!..

أوماً برأسه دون أن يرد ودون أن يقبل لعينيها تحريراً من عينيهِ السوداوين فعقدت حاجبيها وقالت بتبرم

- مؤكّد لاحتّجّجك لمساعدته بشتّى الطرق... لا أعرف
سر ابتعادك عن الجميع هنا بينما قدمت لي أنا الغريبة كل
مساعدة ممكنة...

سألها بصوتٍ أجشّ وعضلات عنقه تتحرك بصعوبة

- هل تشعرين بأنني ساعدتك؟....

رمشت بعينه وهي تسأل بصوتٍ خفيض صادق

- هل تسأل حقًا؟!... أنت أقرب الأشخاص لي هنا، في هذا
البيت...

شعر بتضخم في قلبه مع تزايد سرعة خفقاته، كانت
المشاعر تعصف به، تتّفافه كأموّاج بحرٍ عاتية..

أُثراها الكلمات الأجلّ من بين ما سمع منها على
الإطلاق!!... أم تُراها مجرد كلماتٍ امتنانٍ لصداقةٍ لطيفة
أشعرتها بأنها ليست غريبة!..

تحرك حلقه مجددًا بتوتر، إلا أنه حين تكلم قال بصوتٍ
أجش

- عجبًا!.. كانت سلسبيل تقول نفس الكلمات دومًا..- (أنت
أقرب الأشخاص لي هنا، في هذا البيت

اضطربت عينها وهي تهمس سائلةً بخفوتٍ ورقة

- هل أذكرك بها؟!... انتابني الشك في هذا منذ فترة، وربما
لهذا تهتم بي وتساعدني...

لم تكن مستعدة للضحكة العالية التي خرجت من حنجرتة
مما جعلها تُخَفِّض وجهها حرجًا إلا أنه لم يرأف بإحراجها بل
قال بخشونة

- أنت أبعد ما تكوني عن سلسبيل..

انتفضت بشدة وهي تشعر ببرودة في أوصالها لكنها أجبرت
نفسها على القول باختناق

- بالطبع.. كانت أفضل مني وأنا لا أجرؤ على مقارنة نفسي بها... أعتذر إن خانني التعبير

انعقد حاجباه وقد بدت عيناها غاضبتان منها مما زاد ارتجافها إلا أن ملامحه لانت أخيراً وهو يقول بجدية وصرامة

- أولاً أنتِ لم تعرفيها لتقرري أنها أفضل منك بهذه الثقة..
ثانياً...

صمت قليلاً وهو يُحدّق في عينيها مباشرةً وقد تغيّرت نظرة عينية وتبدّل صوته وهو يتابع بخفوت

- ثانياً... ما أشعر به حيالك لا يمت بصلة لشعوري تجاه سلسبيل...

اتسعت عيناها للحظة قبل أن تسبل جفنيها مُحدّقةً في دفترها وأصابعها تتلاعب بحوافه بتوتر ثم همست قاطعةً الصمت

- تقول فتحية أنك.. أنك تلوم خطاب على.. على وفاتها..

حين طال الصمت دون جوابٍ منه، تجرأت على النظر إليه لكنها فوجئت به ينظر بعيدًا عنها وقد بدت خطوط وجهه الجانبية شديدة القسوة خاصةً وهو يهمس بخفوت

- سلسبيل كانت حالة خاصة... كانت شخصية مُتَّقدة بالحياة... أما هو فلم يَدَّخر جهدًا ليطفئ بداخلها ذاك الضي، حتى انطفأ القبس الأخير من حياتها... ليلة وفاتها أتذكرها وكأنها كانت بالأمس.. تشاجرا شجارًا عنيفًا سمعتها تصرخ خلاله قائلةً

“ ليتني أموت فترتاح “.. كانت المرة الأولى التي أسمعها تنطق فيها شيئًا غريبًا كهذا حتى أن صدري ضاق وتحشرجت أنفاسي لكنني كذَّبْتُ ذلك الإحساس بداخلي... وفي الصباح حين تأخرت في النزول دخلت إليها لأوقظها وأطيب خاطرها.. كانت..

صَمَتَ غير قادر على المتابعة وقد اختنق صوته فأدار وجهه، لكنه همس بصوتٍ متقطع بالكاد تَمَكَّنْتُ من سماعه

- حتى في موتها حملها ذنب غضبه قبل أن تجد الفرصة لتراضيه.. لطالما كانت تفعل، لكن هذه المرة...

صمت مجددًا بعد أن ذهب أنفاسه، لا يزال مُشيحًا بوجهه عنها.. وشاركته صمته حتى لاحظت أنه رفع يده ليمسح بها طرف عينه بحركةٍ خاطفة!!!..

اتسعت عيناها بتأثير اللحظة لكنها لم تتكلم بل أخفضت وجهها إلى دفتريها وأقلامها على ركبتيها فأخذت قلم تحديد أسود ثقيل وببطء وحذر رسمت شيئًا على القناع..

ثم مدت يدها لتمس بها ذراعه برفق.. التفت ينظر للأصابع الرقيقة الممسكة بذراعه قبل أن يرفع عينيه إلى وجهها المغطى بالقناع ثم توقف...

لقد رسمت دمة تحت عيناها اليمنى!!..

وكأنها تخبره بتلك الطريقة أنها تشاركه الدموع!..

ساد الصمت بينهما طويلاً وهو يتطلع لعينيها والدمعة

المرسومة بعينين عميقتين وشفيتين تلتويان وكأنه غير قادر على الالتزام بثبات الملامح أكثر من ذلك...

ثم بدا وكأن عزمًا قد ارتسم في عينيه.. وكأن شيئًا أضاء!..

مد يده ليسحب القلم الأسود من بين أصابعها ثم اقترب به من وجنتها.. وفوق القناع خط شيئًا ببطء وعيناه شديدي التركيز، أما يده الأخرى فكانت مُمسكة برأسها تُثَبِّتَه كي لا تتحرك..

وحين انتهى تراجع رأسه متأملًا ما كتبتُه أصابعه ثم وضع القلم على دفترها دون كلام!...

سألته زاد بصوتٍ خفيضٍ يحمل بعض الرهبة

- ماذا كتبت؟...

لم يُجب سؤالها بل ابتسم!!.. ثم سألها مُغَيِّرًا الموضوع بصوتٍ بدا غريبًا..

- ماذا تفعلين بالدفتر والأقلام؟..

رمشت بعينيها تخرج من هالة الصمت التي جمعتها منذ لحظة، فقالت تضحك بخفوت ناظرةً للدفتر ثم قالت

- لقد طلب منا كريم كفرض منزلي تصميم لوحة استعراضية قصيرة.. ليست رقصة فحسب بل أقرب لقصة وحتى الآن لم أجد واحدة!..

اقترح عليها بصوتٍ خفيض أجش

- ربما قصتك ستكون الأصدق....

انعقد حاجباها وهي تُخَفِّض وجهها تتلاعب بالأقلام ثم ردت بسخريةٍ مريرة

- ستكون قصة مُخزية لا ترقى لمستوى خشبة المسرح..

نهض واقفاً، مما جعلها ترفع وجهها ناظرةً إليه فوجدته يتأملها من علوٍ وعلى فمه طيف ابتسامة وكأنما يتأمل ما

رسمته أصابعه على القناع ثم قال بصوتٍ هادئٍ غريب

- أنا مضطر للخروج الآن... كوني عاقلة لحين عودتي،
أتوقع أن تكوني في انتظاري... أتمنى أن تكوني في انتظاري

بعد خروجه ظلت جالسة على درج السلم ترسم خربشاتٍ
لا معنى لها فوق ورقةٍ من دفترها.. ثم تنهدت عاجزةً عن
تصميم لوحة مُحددة فنهدت من مكانها تنوي الذهاب
للمطبخ لتلقي التحية على فتحية بملل..

لكنها توقفت مع نزول نوران فقررت مبادرتها بالكلام هذه
المرة...

لكن حتى هذه المرة كانت نوران هي البادئة بالكلام فقالت
مبتسمة بتهذيب

- زاد!!... يا لها من مفاجأة!... لا تتخيلي مدى سعادتنا بتكرار
نزولك مؤخرًا، صحيح أنك لا تكثيرين لكن على الأقل بدأتِ

بالتأقلم والاندماج بيننا...

فتحت زاد فمها لترد لكنها لم تجد الفرصة فقط تغيرت
ملامح نوران فجأة وقد ارتسمت عليها الصدمة حتى أنها
فغرت فمها وهي تحقق في وجه زاد!!..

وما أن تمكنت من النطق حتى أشارت إلي وجهها بإصبعها
وقالت ببطء

- من كتب هذا على قناعك؟!...

رفعت زاد أصابعها على الفور إلى القناع وهي تجيب
متردة

- سائد... لماذا؟!... ماذا كتب؟!..

كانت فتحية قد خرجت من المطبخ في تلك اللحظة قائلة

- جيد أنني رأيته يا آنسة نوران لتخبريني ماذا أطبخ مع
ال...

توقفت حين استدارت إليها زاد فضيقت عينيها، ثم انعقد
حاجباها قبل أن تتراجع برأسها سائلةً بصدمة

- هل أنتِ من كتب هذا على قناعك يا زاد؟!...

فتحت زاد فمها لترد بينما تطوعت نوران لتقول بنفس
الصدمة ولا تزال عيناها واسعتين

- بل سائد من فعل..

شهقت فتحية مصدومة وهي تضرب صدرها بيدها ثم لم
تلبث أن ضحكت بصوتٍ عالٍ مما جعل زاد تتحرك تنوي على
الهرب لغرفتها هاتفةً

- ماذا كتب؟!..

لكن قبل أن تبتعد قالت نوران ببطء

- انظري خلفك...

توقفت زاد تنظر إليهما بقلق وصدرها يخفق بشدة قبل
أن تستدير ببطءٍ شديد.. وما إن فعلت حتى رأت صورتها
منعكسة في المرآة المعلقة خلفها على الجدار المواجه.. ورغم
أن المسافة لم تكن قصيرة، إلا أن عينيها تمكنتا من التقاط
المكتوب بوضوح

لقد كتب سائد على قناعها

- أحبك يا زاد وقلب صغير!!

توقف الزمن كما اختفى العالم من حولها وساد صمت تام،
بينما كان الدوي في أذنيها وقلبها كطبول الحرب!!..

- تمنيت أن أجذك هنا، كما تمنيتك أن تكوني في انتظاري..

وصلها صوته الخفيض من خلفها وهي تقف أمام سور
السطح وكفاها مرتاحتان عليه تتأمل الجو الصحو.. أما هو
فكان يلتقط لها صورة جديدة.. صورة الربيع بألوانها الوردية

والبرتقالية والخضار ممتد أمامها أشجارًا زاهية..

استدارت زاد إليه ببطءٍ دون كلام.. وجهها مُغطى بقناعٍ
أبيض نظيف جديد.. لا أثر عليه لدمعة أو تصريح على الملاء

حين ظلت صامته أمامه لا ترد ولا تتحرك.. اقترب منها
وهو يتابع بحذر وعيناه تتربصان بها

- كما تمنيت أن تكوني في انتظاري بالقناع الذي كتبت
عليه...

كان قد وصل إليها ووقف أمامها مباشرةً مما اضطرها لرفع
وجهها إليه ثم سأله بصوتٍ خفيض متقطع

- ماذا قصدت بما كتبتَه يا سائد؟!..

ابتسمت عيناه لكن ملامحه كانت جادة وهو يرد بهدوء

- قصدت ما قرأته بالضبط... أحبك يا زاد..

رأى عينيها تنغلقان بينما تسارعت صدرها على نحوٍ مؤلم
فسألها بخشونة

- ألم تشعرى بذلك قبل أن اضطر إلى كتابته على قناعك؟!..

تحرك حلقها بصعوبة دون أن تفتح عينيها ثم همست
بصوتٍ كالنسيم بعد فترة صمتٍ طويلة

- أظنني شعرت.. لكنني خفت من الاعتراف لنفسي...

تبسمت شفتاه بعمقٍ لكنه حين تكلم أمرها بنعومة

- افتحي عينيك....

امتثلت لأمره وفتحت عينيها لتجد عينيه في انتظارهما..
تتلقفان نظرة القلق والضياع فيهما.. تغرقانها في عمقهما
حتى تعجز عن الطفو مجددًا..

سألها بخفوتٍ مترقبًا - ألن تقولي شيئًا؟!....

ابتلعت الغصة في حلقها ثم همست بضعف - ماذا تريدني
أن أقول....

هز رأسه قائلاً بضراوة - ما تشعرين به.. أريد أن أسمع ما
تشعرين به نحوي...

همست بتعثر - أخبرتك أنك.. أقرب الأشخاص لي هنا، في
هذا البيت

انعقد حاجباه بشدة ورد بخشونة - وهذا ما كانت تقوله
أختي كذلك.. وهو ليس ما أنتظر سماعه منك

تنهدت تنهيدةً عاجزة متألّمة كشهقةٍ صغيرة وهي تُخَفِّض
وجهها أمامه لكنه أمسك بذقن القناع كي تضطر إلى رفع
وجهها مجددًا

و بالفعل رفعته ببطءٍ وبهدوء حتى التقت عيناها بعينه..
فابتسم معلقًا دون أن يترك القناع

- لم تجفلي خوفًا من أن أنزع القناع على حين غفلة!!..

تبسمت عيناها الحزینتان ثم همست بصوتٍ ناعم

- أثق أنك لن تفعل إلا إن طلبت أنا منك.. أثق بك..

لمعت عیناه كأضواءٍ كاشفة، ثم ترك قناعها لیضع کفیه علی
السور خلفها.. یحتجزها بینهما ثم مال بوجهه مُقبلاً شفתי
القناع!!!

شهقت زاد بصوتٍ عالٍ وهي تدفعه عنها لتبتعد بخطواتٍ
سریعة مرتبکة حتی وصلت لمنتصف السطح والتنورة
الملونة تلتف من حولها کوردةٍ تخشى أن یقطفها عاشق
لجمالها ثم همست بتوتر وهي تفرك أصابعها بتوتر

- لا تفعل هذا ثانية یا سائد....

ضحك بصوتٍ مبتهج ثم قال بعث یعدھا - حسناً لن أفعل
إلا بعد زواجنا...

تَسَمَّرت مكانها فجأة ویداها تقعان إلى جانبیها مُحَدِّقةً فیهِ
بصدمة ثم همست

- بعد ماذا؟!... هل جنت؟!..

انعقد حاجباه بشدة وهو يسمع نفس السؤال الذي ألقاه
خطاب اليوم صباحًا.. والذي لم يتخيل أن يسمعه من بين
شفتي زاد وعلى هذا النحو الصادق وكأنها تعنيه تمامًا!..

وقف يُواجهها بملامح شديدة التجهم ويداه في خصره..
ثم سأل أخيرًا باقتضاب

- ماذا ظننتِ غير ذلك؟!.. هل ظننتِ أنني ألهو معكِ لبعض
الوقت؟!..

هتفت زاد بعنف - هل جنت لتتزوج امرأة مثلي؟!...
لماذا؟!.. ماذا ينقصك؟!...

هدر فيها وقد نفذ صبره - توقفي عن النظر لنفسك بمثل
هذه الدونية!...

رفعت يديها إلى رأسها تهتف بغضبٍ وألم

- أنت لا تعرف شيئًا!!.. ربما شعرت ببعض الميل تجاهي
لكنك لست من الغباء والجنون لتقرر الزواج من امرأة لا
تعرف عنها شيئًا... حتى أنك لم تر وجهها بعد!!..

صرخ بقوة والشرر ينطلق من عينيه

- لأنني لم أحبك لوجهك أو ملامحك.. افهمي..

دارت حول نفسها وهي تصرخ ساخرةً بمرارة

- وهل أحببتني لأدبي وأخلاقي مثلاً؟!.. أم لذكائي
وشخصيتي القوية المميّزة؟!.. أنت لا تعرف عني شيئًا، ذاك
القناع الذي أضعه، لا أضعه لأخفي به وجهي... أنا أخفي به
نفسي.. أنا لست أهلاً لحبك فما بالك بالزواج!!..

أوشك على الصراخ فيها بجنون... أوشك أن يهزها حتى
تهتز الرؤية أمام عينيها..

لكنه صمت لاهثاً وهو ينظر إليها بعينين قاتمتين ثم قال
أخيراً بجفاء

- عقابك لنفسك زاد....

كانت توليه ظهرها، مُخْفِضَةً وجهها ترتعش بعنف وكأنها
واقفة في مهب الريح... فسأله بصوت خفيض ميت

- ماذا عنه؟... ألن تكمل؟...

هز رأسه نفيًا وهو يقول بخفوت

- العبارة كاملة.. عقابك لنفسك زاد.. فرفقًا بها..

كتفت ذراعيها حول جسدها الهش شاعرةً ببردٍ شديد يؤلم
عظامها رغم أنه... الربيع!!..

لكنها تَمَكَّنَتْ من الهمس بضعف - لا تذكر شيئًا عن الزواج
مجددًا... وإلا تركت هذا البيت...

عصفت ملامحه بغضبٍ أهوج ثم اندفع ليتجاوزها هاتفًا
بقساوة

- أين ستذهبين؟!...

ثم خرج صافقًا باب السطح خلفه ليقف شاتمًا بصوتٍ
خفيض يرتعد.. لم تكن جاهزة

لم تكن مستعدة بعد... وكان على استعداد لانتظارها فترة
أطول حتى تتعافى، لولا تدخل خطاب مما أجبره على غزو
مملكة تخصه ليعلنها للجميع..

شتم بعنفٍ متابعًا نزوله.. أما هي فقد وقفت تستند بكفيها
إلى سور السطح مُخْفِضةً وجهها تشهق باكيةً باختناق..

لم يكن الربيع يومًا رفيقها..

الفصل الثامن

سجلت الرزنامة المعلقة على جدار العيادة أو المكتب كيفما
يسميه، تاريخ اليوم فتعلّقت عيناها به
اليوم هو نهاية شهر يوليو...

أدركت لتوّها أنها تتردد على عيادته منذ شهرين ونصف
تقريبًا.. شعرت بها أعوامًا طويلة!!

دخلت غرفة مكتبه وكعبا حذاءها يطرقان الأرض برنينٍ
مميز تتأمله بعينين ضيقتين وهو منكب على دفتريه يكتب
شيئًا، رغم معرفته بوصولها منذ أكثر من ساعة.. إلا أنه
تجاهلها تمامًا ولا يزال!

تعرف أنه يشعر بوقوفها أمامه ومع ذلك يصّر على تجاهلها
مما جعلها تسأله بابتسامةٍ مطاطة

- هل تتعمد تجاهلي؟!...

رفع عينيه عن دفتره لينظر إليها نظرةً مهمة، لكنها نظرة لم تترك فيها تفصيلاً دقيقاً إلا وتفحصته..

لم يكن تفحصاً شهوانياً كرجلٍ يُشبع عينيه من امرأة تعجبه.. بل كان كمن يتفحص حالة أو نموذج دارساً كافة انفعالاتها من توترٍ وحركاتٍ لا إرادية..

عيناها غاضبتان وتتحركان بعصبية... تتجولان بين جدران الغرفة وكأنها تدّعي عدم الاهتمام، ثم تعود لتستقر بهما فوق ملامحه بلهفة..

تراجع في مقعده خلف المكتب واضعاً ساقاً فوق أخرى ناظرًا إليها ببرود ثم قال

- اجلسي يا ريم...

جلست أمامه على الكرسي المواجه للمكتب، تهز ساقها بعصبية وهي تتلاعب بخصلة من خصلات شعرها المستعار تحقق بعينه الهادئتين وكأن لا انفعال زارهما يوماً...

تكلمت ريم قائلةً بتوتر وهي تعض على شفتها

- أنا أنتظر خارج مكتبك لأكثر من ساعة!...

تمهل في الرد ثم قال باقتضاب - لأن اليوم لم يكن موعدك
يا ريم... فكان يتعين عليك الانتظار..

أسبلت ريم جفניה بملامح ضائعة، ثم قالت وهي تتلاعب
بأظافرها

- أسلوبك في الكلام مختلف...

سألها مبتسمًا ابتسامةً هادئة - مختلف؟!... ما هو وجه
الاختلاف بالضبط؟..

تأملته من تحت رموشها الكثيفة ثم قالت ببطء

- لا أعلم... أسلوبك يتلون، تارة تحاورني وكأنك لم تر من
تشبهني في عمرك كله.. وتارة تتجاهلني وكأنني لا أساوي
شيئًا...

شَبَّكَ أَصَابِعَهُ يَقُولُ بِبَسَاطَةٍ

- ربما أَكَلَمَكَ كَطَبِيبٍ يَتَكَلَّمُ مَع... مجرد حالة!!..

انحنى حاجبها وهي تهمس بصوتٍ مجروح

- مجرد حالة؟!.. هل كنت مجرد حالة حين قلت أنني امرأة
مختلفة عن كل النساء!..

ضحك ضحكة خفيضة ثم قال باتزان

- كان مجرد تعقيبًا...

نظرت إلى عينيه وسألت بجمود - وحين اقترحت تجربة
الجلسة خارج مكتبك؟!..

ارتفع حاجباه وهو يقول بدهشة - لقد اقترحت هذا
لشعوري أنك وبعد شهرين لم تكوني على راحتك... وربما
أفادك التغيير

لم يبدو على وجهها أي تعبير وهي تسأله بتردد

- وهل تقترح هذا على الجميع؟!....

ضحك مجددًا محدقًا بسطح مكتبه ثم نظر إليها قائلاً
بصوتٍ خفيض

- فقط المميزين...

تكلمت ريم قائلةً بأنينٍ ضعيف - ها أنت تفعلها مجددًا...
أرجوك لا تتلاعب بي..

مال للأمام قائلاً بهدوءٍ شديد دون أن يحيد بعينه عن
عينها

- أنا لا أتلاعب حيال أي شيء.. هذا المكان هو مكان عملي
والذي تحكمه قوانين لا يمكنني الإخلال بها.. هل كلامي
مفهوم؟

تراجعت في كرسيها للخلف وهي تهمس ببطءٍ وتردد

- لست متأكدة من فهمي لمقصدها!..

التوت شفتاه بابتسامةٍ ساخرة ثم قال برزانة

- إذا فلتغادري الآن يا ريم.. ولتعودي في موعد جلستك
المقبلة..

إبريل

.. يعرف قدوم إبريل بكذبة وكأن البشر صادقون بقية
الأشهر!..

... الضحك على مخدوعٍ له لذة سادية تُسَكِّن القليل من ألم
ما يمرون به من خداعٍ يوميًا طوال العام..

.. في شهر إبريل، لحظة كشف الحقيقة هي اللحظة الأكثر
إضحاكًا.. حد الدموع..

وقفت أمام المسرح متمهلة في الانصراف.. تقدم ساقًا
وتؤخر الأخرى..

تتحرك على الدرجة العليا ذهابًا وإيابًا محدقة في الأرض
وحقيبتها على ظهرها.. كان يفترض به أن يأتي اليوم،
صحيح قال أنه قد يتأخر قليلًا لكنه لم يذكر تأخيرًا قد يصل
لبعد انصراف الجميع!!..

اليوم.. هو الأول من شهر إبريل، بدأ بكذبة شديدة القسوة..

لا تعرف كيف تمكن زملائها وهم من ذاقوا مرارة القسوة
ممن حولهم.. كيف تَمَكَّنُوا من التَّربُّص بها لِخِداعها وإيهامها
بأن هشام واقف على خشبة المسرح ناويًا التقدم لخطبتها
أمام الجميع ما أن تخرج له!!..

لقد خرجت تجري كالبلهاء ثم اكتشفت أنها لم تكن سوى
كذبة إبريل!..

العجيب أنه لم يضحك أحداً!.. فمع انكسار عينيها وانخفاض كتفيها وامتقاع ملامحها حد الشحوب.. بدأت الدموع في الظهور بأعينهم.. بعضهم تجراً على الاعتذار، والبعض الآخر لم يقدر على الكلام..

مثلها تماماً، فهي لم تقدر على الكلام، بل عادت من حيث أتت تجر أذيال الخيبة والمرارة...

تعرف أنهم لم يقصدوا سوءاً، فقد كان الجميع شبه متأكدين من أن المسألة لا تتعدى كونها مجرد وقت يسير حتى يتم إعلان الخبر السعيد..

لكن ومع هذا.. لقد تألم قلبها من كذبتهم بشكلٍ مروع تسبب في إغلاقها باب الحمام على نفسها لتبكي دون صوت!...

ربما كان عليها أن تعتبر تلك الكذبة بشارة خير.. ربما كان عليها أن تتحلى بنفس ثقتهم حيال خطبتها التي ستتم قريباً..

لكن متى كان الكذب بشارة؟!..

فبينما هي واقفة تبكي دون صوتٍ في الحمام الضيق،
حانت منها التفاتة لترى انعكاس صورتها.. وبنظرةٍ وحيدة
لعينيها الحمراءوين... اكتشفت أنها لم تملك ذرة من ثقة!!..

الوحيدة التي لم تشاركهم كذبتهم كانت زاد.. ربما لم
تحاول منعهم وتنحت مبتعدة متخذة جانباً كعادتها، لكنها
الوحيدة التي رفضت المشاركة..

وحين خرجت دنيا من الحمام بعينين حمراوين وجدتها
تقف أمامها مباشرةً تنتظرها بقناعها الجامد لكن أصابعها لم
تكن جامدة وهي تربت على ذراعها دون الحاجة للكلمات...

امتنت للتربيت الحنون وقدرته جميلاً في نفسها..

وبكل قوة استجمعت إرادتها وتابعت اليوم بكفاءة وعزيمة
لا تنكسر...

حين اتصل بها وأخبرها بقدومه كادت أن تطير من الفرح..

لكن ها هو اليوم انقضى ولم يظهر، ولم تكن لتتصل به
لتسأله مطلقًا..

صوت خروج من خلفها جعلها تلتفت فرأت حكيم على
وشك المغادرة، فتوقفت وابتسمت له بحرج..

أوماً لها بإشارة بدأت تعتاد عليها فلقد سار بجوارها بضعة
مرات يوصلها لشقة جلال دون أن يتكلما تقريبًا..

كان يسير إلى سيارته وهي تمشي بجواره طلبًا للحماية..

بادرت بالقول بابتسامتها الجميلة - مع السلامة يا أسطى
حكيم...

لم يبادلها الابتسام بل سألها بجدية - هل تنتظرين أحدًا؟..

أجفت مترددة إلا أنها ردت بسرعة - لا.. كنت على وشك
المغادرة..

ودون أن تنتظر منه دعوة نزلت درجات السلم أمام باب

المسرح لتتقدمه في انتظار أن يرافقها...

مشيا متجاورين صامتين كما اعتادا.. كانت تحقق في
موضع خطواتها لا رغبة لديها في الكلام، لذا لم تكن مؤهلة
حين قال بهدوء بادئا الحديث

- أصبحت التمرينات على قدمٍ وساق على ما أظن..

التفتت إليه تنظر لجانب وجهه الرزين فضحكت بمودة
معقبة بحاجب مرتفع

- منذ اليوم الأول وهي على قدمٍ وساق.. حرفيا

ابتسم بعض الشيء فاعتبرتها ابتسامة مجاملة... خاصة
حين ساد الصمت مجددا فسألت بتهذيب بعد فترة من باب
الذوق

- عسى أن يَكُنَّ بناتك بخير...

التفت إليها عاقداً حاجبيه وهو يكرر بحيرة - بناتي؟!...

نظرت إليه نظرةً مبهمه وردت على مهل - ذكرت أول مرة
أن لديك مثلي... شقيقات وبنات

أجاب متذكرًا والابتسامة المجاملة تعود إلى وجهه مجددًا
دون أن يتكلف عناء الالتفات إليها

- آه.. هي بنت واحدة فقط، في السادسة من عمرها..

تأوهت تلقائيًا بصوتٍ أنثوي لطيف وقالت - آه... هذا
لطيف، ما اسمها؟..

أجابها باختصار - أمل..

تعمقت ابتسامتها وهي تقول - اسمها جميل وأراهن أنها
جميلة كذلك...

ابتسم رغماً عنه بزهو... وهذه المرة تيقنت أنها لم تكن
ابتسامة مجاملة، فالنظرة في عينيه وهو يتكلم عن ابنته
كانت في جمالها كما تظن..

بداخلها شوق جارف للأمومة... وكأن أحشاءها تموج
بالأجنة صبيانًا وبناتًا..

ترى هل تكونين يا أمل بشارة خيرٍ باسمك الجميل!..

تنهدت مبتسمة ترعى بين أضلاعها حلم جميل عسى أن
يتحقق قريبًا جدًا... فلم تنتبه في شرودها الحالم المبتسم
أنه كان ملتفتًا في تلك اللحظة يتأملها بصمت.. لكن ما أن
باغتته وضبطته متلبسًا حتى قال بصوتٍ أجشٍ ممتنًا للكلب
الذي ظهر فجأة من بين السيارات الواقفة

- انتبهي.. تعالي إلى الجانب الآخر، فقد يكون شرسًا..

سبقته مطيعة وديعة لكن على شفتيها الحمرانين القانيتين
كانت هناك ابتسامة عريضة ما أن لمحها حتى سألها مقطبًا
بتردد

- لماذا تضحكين؟!..

أرادت السكوت لكنها لم تستطع منع نفسها من القول بنبرةٍ

مرحة ذات مغزى

- من تربت مع الأسود لا تهاب الكلاب... لكن شكرًا لك على كل حال..

مط شفتيه امتعاضًا وهو يهز رأسه فاقدًا الأمل فيها.. مما اضطرها للضحك بصوتٍ هذه المرة، كما ابتسم هو أيضًا لضحكتها

قال بعد فترة بصوتٍ هادئ

- أتصور أن الحياة في السيرك شاقة..

حدقت في موضع قدميها مجددًا وقد غابت ضحكتها ثم قالت بخفوت

- أظن الحياة خارجه أصعب..

التفت ينظر إليها عاقدًا حاجبيه بتركيز فبدت شاردة.. لا يعلم لما بدت له كطفلة تائهة تبحث عن والديها في تلك

اللحظة!

عاد ينظر أمامه بنظرة مبهمه فالتفت إليه تسأله باهتمام

- هل أخذت أمل للسيرك من قبل؟....

بدا الضيق على وجهه لكنه رد بصوتٍ خشن - أنا.. مشغول معظم الوقت، تمر أيام قد لا أراها خلالها..

اتسعت عيناها تأثرًا وهي تلمح ذلك الضيق على وجهه والتأنيب في صوته ثم سألته ببساطة

- نعم ما هو الجواب لم أفهم؟.. هل أخذتها أم لم تفعل؟!..

نظر إليها مؤنّبًا بتجهم مما اضطرها للضحك فضحك مرغمًا ثم اعترف متنهدًا

- لا... لم أخذها للسيرك أو حديقة الحيوان وأماكن كثيرة غيرهما..

أجابته بحماسٍ وعشيمٍ زائد - حين يرجع سيرك سلطان
للمدينة سيسعدني أن آخذها...

نظر إليها بدهشة بالغة فانتبهت إلى أنها تكلمت بعفوية أكثر
مما ينبغي وهو يبدو رجلًا رزينًا متحفظًا، لذا صحت على
الفور

- هي وأمها بالطبع..

هل غامت عيناه فجأة أم أنها تخيلت تبدل تعابير وجهه!..
أثراه وزوجته من زوار محاكم الأسرة!..

أيًا كان السبب فلن تسأل.. للبيوت أسرار، لذا التفتت إليه
تسأله

- هل تخرج أم أمل للعمل؟..

أجابها بصوتٍ مقتضب - بل ربة منزل....

أومأت برأسها قائلةً بلطف - جيد.. سأخذهما في الحفلات

الصباحية إذا كي لا تتأخرا عليك...

ابتسم ابتسامة باهتة وهو يلتفت ناظرًا إليها بصمت... ثم
قال بصوتٍ متزن بعد فترة

- بالمناسبة ينبغي على خطيبك أن يوصلك ولا يتركك
تسيرين بمفردك في الطريق ليلاً..

سألته بدهشة مكررة - خطيبي!!...

نظر إلى دهشتها متجهماً قليلاً ثم بدا محرجاً وهو يسألها

- ألسِ.. مخطوبة لشقيق مخرجكم؟..

توقفت مكانها للحظة باهتة الملامح ممتقعة الوجه... لكنها
لم تلبث أن تابعت سيرها إلى جواره قائلةً بعبوس

- لا... لست مخطوبة له..

ألقي عليها نظرة سريعة ثم سألها مُضِيقًا عينيه

- أُلستما... مرتبطان؟!..

مرتبطان!!.. اكتشفت دنيا أن هشام يدعوها بالكثير من الألقاب الهامة في حياته.. يسهب في الكلام عن تغييرها لدنياه حتى بدأ يراها ويعيشها بلونٍ مختلف...

لكنه لم يُصرِّح ولو مرة بما قد يدل على أنهما.. مرتبطان!!...

لا تصرِّح أو طلب... ومع ذلك كل من يراها يظنها في عداد المرتبطين!!.. ومن جانبها تنتظر منه التصريح بمشاعره ثم يتقدم بطلبه...

الطلب!!.. كيف صاغ سؤاله ذات يومٍ فظنته الطلب المنشود؟!..

لقد قال حرفيًا

- دنيا.. لا تخرجي من حياتي أبدًا، كوني إلى جوارى دائمًا..

يومها رقص قلبها فرحًا مجنونًا.. لكن كيف صاغت عبارته

لفاطمة شقيقتها؟!..

لقد أخبرتها أنه سألها أن تُكَمِّلَ حياتها معه!!... ثرى هل هناك
فرق بين الصيغتين؟!...

كانت شاردة تمامًا تائهة التفكير والنظرات حتى سألها
حكيم مجددًا

- حسنًا، أستمأ كذلك؟!..

نظرت إليه بوجوم ثم قالت وهي تهز رأسها

- لا لسنا كذلك.. ربما يحدث، لكن حتى الآن نحن لم نرتبط
بأي شكلٍ من الأشكال...

ضاقت عيناه مفكرًا في معنى كلماتها المبهمة، إلا أنها غَيَّرَت
الموضوع سريعًا قائلة

- بالمناسبة... غدًا سنخضع لجلسة تصوير كباقي الفرق..
لكن جلسة التصوير الخاصة بنا نظمها كريم بنفسه، ستكون

أشكالنا مختلفة فيها ردًا على منشورٍ مهين من منافسي
فرقتنا.. وبعد جلسة التصوير سنقيم حفلًا لرفع الروح
المعنوية.. سيكون اليوم ممتعًا، لما لا تأتي أنت وزوجتك
وأمل... الحقيقة أنكما مدعوان على شرف أمل وحدها...

اتسعت ابتسامتها وهي تنطق العبارة الأخيرة ناظرةً إليه
ببشاشة، لكنها تعجبت حين رأت حزنًا غامضًا في عينيه..

رد حكيم قائلاً باعتراض

- لا أعرف.. إنه احتفال لفرقتكم، فبأي صفةٍ سنحضر!!...

أجابته دنيا قائلةً ببساطة

- هذا الحفل لنا ولعائلاتنا... لن تحضر من شقيقاتي سوى
فاطمة فقط، لذا ستحضرون كأفرادٍ من عائلتي..

بدا مترددًا وتردده في حد ذاته غريب على نفسه،
فشخصيته التي يعرفها جيدًا كانت لثرفُض على الفور.. لكن
ما أثار استغرابه أنه وجد نفسه مترددًا!!..

وصلا لبناية شقة جلال، فوقفا صامتين.. ثم قالت دنيا
وهي تشير لأعلى

- لقد وصلنا...

أجابها حكيم بهدوء وعلى فمه شبه ابتسامة

- لاحظت.... هيا اصعدي...

أومات برأسها مبتسمةً وهي تقول ببشاشة

- سلامي إلى أمل وأم أمل...

لم يرد وظل صامتًا هادئ الملامح بلا تعبير.. فقط إيماءة
صغيرة صعدت بعدها تحت أنظاره وما أن اختفت حتى
استدار عائداً الطريق كاملاً، فقد كانت سيارته على الجانب
الآخر.. بعيدة كل البعد عن بنايتها .

بينهما أخيرًا، فهي ليست بالغباء كي تعمى عينيها عن وجود فرق ضخم بين أسرته وأسرتها.. مستواه ومستواها... في التعليم والوضع الاجتماعي وربما كل شيء..

لكنها ظنت في أيام لفها جنون السعادة.. أن أسرة يخرج منها شخص بعقلية كريم، ربما هي أسرة تغلبت على فروض المجتمع والفوارق بين البشر.. ففي النهاية، هي ليست جاهلة أو بلا أهل..

إنها فتاة متوسطة.. فتاة عادية...

لقد صدّقت أن قصص الحب يمكن أن تكون الفتيات العاديات بطلات فيها... لكن التصديق مؤخرًا بدأ في التضاؤل بداخلها شيئًا فشيئًا..

ولقد قررت ألا تسعى خلفه مطلقًا.. ستطلق سراحه، لعله يعود..

لم تكذ تتم أمنيتها مغمضةً عينيها حتى سمعت رنين هاتفها فانتفضت وهي تسرع بإخراجه من حقيبتها ومع رؤيتها

لاسمه انتفض القلب على النغم الراقص

لكنها تغلبت على صوت الحفل الصاخب بداخلها لترد
بصوتٍ خفيض مضطرب

- مرحبًا...

لم يُجبها على الفور.. بل ساد صمتٌ مقلق على الجانب
الآخر ولم تحاول قطعه هذه المرة مبادرةً بحمايس وانفعالٍ
مُثرثرة بسعادة ككل مرة..

ويبدو أن صمتها المقابل قد أقلقته أيضًا فقال بصوتٍ أجش
خفيض

- أعرف أنك غاضبة مني..

ازدردت لعابها بصعوبة، ثم قالت ببطء - علام أغضب؟....

ساد الصمت مجددًا إلا أنه أجاب في النهاية بصوتٍ حنون
نبرته قادرة على إذابة عظامها - محبطة ربما...

اضطربت دقات قلبها شاعرة بنفسها مكشوفة له بشكلٍ
مخزي حزين فالتزمت الصمت، فالصمت نجاة للخائبات
مثيلاتها..

ومع صمتها قال بخفوت

- أردت المجيء اليوم، لكنني انشغلت....

ردت دنيا بصوتٍ مبهم واجمة - لا بأس... فكرت بالفعل أن
شيئًا هامًا منعك من المجيء..

ضحك ضحكة خشنة وهو يقول بنبرة مداعبة - أنتِ
تعتمدِينَ عقابًا من نوعٍ جديدٍ إلا أنه ناجح تمامًا

أي عقاب؟!... إنها تحاول فقط ستر مشاعرهما أمامه!.. هل
يُعَدُّ ستر المشاعر عقابًا!

خفت ضحكته حتى خبت تمامًا وعاد الصمت.. ثم قال بعد
فترة بنبرة صادقة تمامًا

- اشتقت لكِ يا دنيا.. وكم هو صعب أن يشتاق الإنسان
للدنيا وهو على قيد الحياة!..

لاحت على شفتيها ابتسامة وليدة.. كبرت وكبرت حتى
شملت وجهها كله وتلألأت أسنانها.. ثم قالت بعد لحظات

- لما لا تأتي الاحتفال الذي أعده كريم غدًا إذا... إن لم تفعل
فسأعرف أنك زهدت الدنيا...

ضحك بصوتٍ خفيض بدا مختنقًا لأذنيها لكنه قال قاطعًا
الوعد

- سأتي.. يا دنياي الملونة، فالحياة بالأبيض والأسود كئيبة
جدًا في غيابك...

حين أنهت الاتصال ألقت بالهاتف على الأريكة وهي تصرخ
صرخة سعادة مُبعثرة شعرها بأصابعٍ مبتهجة وحين وقعت
عينها على لعبة البهلوان ضغطت على الزر فتشقلب يشاركها
الفرح!

- من طلب منك أن تنشر كلامًا كهذا!!!.. ألا تفكر مطلقًا يا حسام!!!..

هتفت نسرین بغضب وهي تُمسِك بهاتفها تقرأ المنشور

- وقد اعتمد كريم لطفي على فرقة من لاعبي السيرك والمهرجين وذوي التشوهات!!!.. أثراه عملاً انسانيًا أم فرقة ليُكمل بها الصورة الفوضوية التي يُحدِثها للتشويش على حدثٍ مهم كهذا!!!.. باتت الفرقعات بغرض الشهرة مؤخرًا مهما كانت العواقب أمرًا مُحيرًا وعيب كبير أن تطال فن راقٍ بهذا الشكل!..

وضعت هاتفها جانبًا بعصبية ما أن انتهت من القراءة ثم هتفت بحنق

- لقد قدمت له دعاية مجانية!!!.. قصة مثيرة للجدل والحماس وبعض العطف الإنساني إنها التوليفة المُثلى لدعاية ممتازة دون أن يُحرِّك إصبعًا واحدًا!!!.. فيما كنت

تفكرا!!... إن تم التفاعل بشكل متزايد على النحو الذي
أراه فسيكون لديه عدة رعاة يدعمون نفس الفكرة التي
سنقدمها!!... فيما.. كنت.. تفكرا!!!!!!

حك حسام شعره بعصبية وهو يقول بصوتٍ مضطرب إزاء
انفعالها الحاد

- لم أفكر في الموضوع من تلك الزاوية.. لقد فكرت فقط
أن أسلط الضوء على سخافة ما يفعله مقارنةً بالجهود
الضخمة المبذولة في الفرق الأخرى...

هتفت نسرین بغيظٍ من بين أسنانها

- هذا لأنك لا تفكر يا حسام... لكنك مُحِقٌّ في شيءٍ واحد
فقط وهو أنك نجحت في تسليط الضوء عليه أكثر من ذي
قبل..

التزم الصمت غير قادرًا على الجدل أكثر بينما تراجعت في
مقعدتها تزفر بحنق ثم همست بقنوط

- لطالما كان لدى كريم الفكرة.. وإن لم يجدها، تَعَثَّر هي عليه!..

دنيا زاد

كانت جلسة التصوير الخاصة بفرقة كريم لطفي عجيبة على نحو يدعو لجذب الاهتمام مرة بعد مرة وما بين كل مرة وأخرى ترتسم ابتسامة أوسع!!..

كان نصف أعضاء الفرقة يضعون أقنعة ذهبية وفضية تخفي وجوههم..

أما النصف الآخر فكانوا يرتدون زيًا واحدًا وهو زي مهرج!!...

و قد استعان بمصورٍ عالي المستوى والكفاءة والشهرة ليقوم بالتقاط صورٍ مبهجة لافتة للنظر تناسب أزيائهم..

و كان مساعد كريم يقف منظّمًا.. يهتف بصرامة لينبه
البطلتين الرئيسيتين لضرورة التركيز فعلى ما يبدو أن كلّاً
منهما كانت مشغولة الذهن تتطلع عيناها للباب متوقّعةً
وصول أحدهم..

فضل ينادي بعصبية

- يا دنيا... زاد.. دنيا... زاد..

أما كريم فقد كان واقفًا عن بعدٍ ويداه في خصره يتأمل
الجلسة بعينين ضيقتين... ثم أخذ يردد بصوتٍ خفيض

- دنيا زاد... دنيا زاد..

وما إن وصل مساعده إليه يُبلغه بانتهاء جلسة التصوير
حتى بادره كريم بحزمٍ مشيرًا بإصبعه

- سنغير اسم العرض... ليكون الاسم الجديد هو- - دنيا زاد..
ابدأ بتسجيل الاسم رسميًا..

ممسكة بكف والدها تنظر حولها ذاهلة العينين البرّاقتين..
فاغرة الفم الوردي المكتنز وهي تدير وجهها ذات اليمين
وذات اليسار تكاد أن تقفز في مشيها ثم هتفت تشد كف
والدها كي ينتبه لها

- أبي.. أريد أن أسلم على أميرة منهن.. أرجوك..

انحنى حكيم لابنته أمل قائلاً بصرامة

- لسن أميرات يا أمل... لديهن عرض ولهذا يرتدين بهذا
الشكل، نحن لم نأت لحضور مسرحية

زمت شفتيها متذمرة وهي تتأمل الأميرات والمهرجين
بقنوط ثم رفعت وجهها إلى والدها وقالت مجدداً

- هلا تركت يدي قليلا يا أبي...

رمقها متجهماً وهو يقول بنبرة قاطعة

- لن يحدث.. لقد اتفقنا قبل مجيئنا إلى هنا أن يظل كفك في يدي أو سنرجع للبيت..

أخفضت رأسها وقد بان القنوط على ملامحها حد الحزن بعد الحماس الشديد مما أوجع قلبه على نحو مفاجئ.. تأملها حكيم للحظاتٍ طويلة بوجوم ثم سألها بصرامة وبنبرة جافة

- إن تركت يدك قليلًا.. فهل ستبتعدين وتختفين عن أنظاري؟...

رفعت وجهها إليه هاتفةً بقوة تكاد أن تكون توسلاً

- والله لن أبتعد يا أبي والله والله..

التوت زاوية شفتيه بابتسامة خفية رغم تجهم ملامحه، فهو يدرك جيدًا متى تكون ابنته قادرة على تمثيل دور البراعة ببراعة واللعب على أوتار قلبه وكأنها خُلقت لتلك المهمة..

تنهد وهو يخفف من قبضته محررًا يدها على مضض ثم

قال بصرامة

- إياك والكلام مع أحد.. إياك والكلام مع أحد.. إياك
والابتعاد...

نطق الأمر الأخير هاتفاً بصوتٍ عالي خلفها وهي تجري
لاهة سعيدة بين الأميرات والمهرجين!!..

وقف مكانه متنهداً بضيق لكنه قرر تحريرها لفترة كي
تتمتع في أول خروجٍ لهما معاً منذ فترة.. ثم بدأ يجول
بعينه بين المتواجدين باحثاً عن صاحبة الدعوة والتي
اعتبرته وابنته من عائلتها!!..

لكن صعب عليه التعرف عليها وجميع أعضاء الفرقة
متنكرين!.. ربما لو دقق النظر في وجه كلٍ منهم لكنه لم يكن
من النوع الماهر في تدقيق النظر..

تجَوَّلَ بخطواتٍ بطيئة متمهلة شاعراً بتسرعهِ في قبول
تلك الدعوة دون تفكير... بل فكر أنها ربما تسعد أمل!..

أما أمل فقد انتقت الأميرة الأجمل بين الأميرات!... تلك
التي ترتدي فستاناً منفوشاً من طبقاتٍ وطبقات من قماش
التل الشفاف

شعرها طويل شديد الجمال وهو يتميل على خصرها
النحيل، بينما تغطي وجهها بقناعٍ وردي بَرّاق!..

وقفت بجوارها ثم بدأت تتلمس خصلات شعرها الطويلة
الواصلة لمستوى طولها بعينيها المنبهرتين مما جعل الأميرة
تستدير إليها مجفلة.. ثم توقفت تتأملها من خلف القناع
الوردي بصمتٍ تام وملامح لا تعبر عن شيء، فقالت أمل
بسعادة

- أنتِ جميلة جداً!..

مالت الأميرة بنفسها تنحني انحناءة ملكية، شاكرة لهذا
الإطراء.. بينما اقتربت منهما فتاة أخرى تشبه دمية قماشية
بشعرها الصوفي الأرجواني ذي اللفائف والربطات الأنثوية
الحمراء.. والجوارب الطويلة المخططة باللونين الأبيض
والأرجواني الشبيه بلون فستان الذمى المنفوش ذي

الشرائط الذي ترتديه ثم سألت بصوتٍ طفوليٍّ مميز

- وأنا؟!.. ألسـت جميلة مثلها؟!..

نظرت أمل بعينين واسعتين إلى الدُمية ذات الوجه الملون
ثم هتفت بسعادة بغم لا ينغلق أبدًا

- وأنتِ أيضًا طريفة لكنها أجمل منك..

نظرت الدمية الطريفة إلى الأميرة وقالت ممتعة

- أرى أنك بدأت في سرقة جمهوري مني يا زادا!....

أجابتها الأميرة بصوتٍ جميلٍ مبحوح وهي تحرك تنورتها
المنفوشة ذات اليمين واليسار

- عليك البدء في القلق مني إذا يا تكتكة... فالأميرات
يربحن دومًا

نادى أحدهم على زاد فابتعدت بينما انحنت تكتكة إلى أمل

تسألها بالصوت الطفولي الخاص

- ترى من تكونين يا معجبة الأميرات؟.. وجهك ليس غريبًا علي..

كانت عينا أمل تلاحقان الأميرة الهاربة بانبهارٍ يثير الشفقة،
ثم التفتت إلى الذمية الطريفة وأجابت على مضض

- أنا أمل....

استقامت الذمية متفاجئة قبل أن تهتف مبتسمةً ابتسامة
عريضة - ابنة الأسطى حكيم!!.. لقد شككت..

ثم مدت يدها مصافحة وما أن أمسكت بكف أمل الصغير
حتى أخذت تنفضه بقوة في مصافحة طريفة وهي تقول
بصوت الشخصية

- تشرفت بالتعرف عليك يا أمل حكيم.. أنا تكتكة

ضحكت أمل وهي تشعر بأن ذراعها يكاد أن ينخلع من

مكانه، بينما انحنت تكتكة تسألها بعيني جاسوسٍ متربصتين
حذرتين وصوتٍ ذي نبرةٍ سرية

- أين هي أمك يا أمل؟....

ردت أمل ببساطة دون مقدمات - أمي في الجنة...

اختفى الضحك فجأة عن ملامحها وانحنت الشفتان
الحمراوان بميلٍ حزين بينما ظهرت الصدمة في عينيها وهي
تنخفض لتجثو على ركبتها هامسةً لنفسها دون صوت

“ ما أغباني!!! ”

كانت أمل تنظر إلى ملامح الدمية بعينين صافيتين.. فما
كان منها إلا أن طرفت بعينيها وهي تسترد صوتها الطفولي
الحاد قائلةً بذات النبرة السرية

- في الجنة.. يا له من مكان جميل مليء بالأميرات!!!...

برقت عينا أمل على الفور وكأن تكتكة قد نطقت بكلمة

السر للتو، ثم انحنت الدمية القماشية لتضمها إلى صدرها برفق حريصة ألا تلوث وجه الصغيرة بأصباغ وجهها، تخفي عنها عينيها الدامعتين على امرأة مجهولة وصغيرة لم تتعرف عليها إلا منذ دقائق.. ووالدٌ أدركت للتو السر في ملامحه التي لا تعرف حماسًا أو انبهار.. لكن فيها الكثير من الحنان..

دموع ملونة على فستان الدمية المكسورة!

سار بين المتجمعين من ذوي الأقنعة والمهرجين وآخرين محاولاً ألا يصطدم بأي منهم، يبحث بعينه المضطربتين عنها في كل مكان..

على الأرجح أنها واحدة ممن يضعن القناع.. أم تراها من المهرجات نظرًا لأنها في الأساس من السيرك؟!

حين يئس من إيجادها، اتجه إلى زاوية هادئة يقف فيها رجلًا وحيدًا على ما يبدو أنه أراد بعض الهدوء والابتعاد عن

الضوضاء المجنونة..

أمسك بهاتفه ينوي الاتصال بها أسهل من هذا البحث
العشوائي بين العديد من الوجوه المتشابهة في الأقنعة
وأنوف المهرجين الحمراء

لكن وقبل أن يُجري الاتصال، أجفل على صوت رنين
الهاتف في يده يسبقه.. لكن من ملامحه دلت على أن
المتصل

كان آخر شخص يود سماعه في تلك اللحظة تحديدًا!..

أرجع هشام رأسه للخلف مغمضًا عينيه، زامًا شفتيه بقوة..
لكنه بدا مضطربًا للرد فوضع الهاتف على أذنه مجيبًا بهدوءٍ
باهت مما لفت انتباه الرجل الواقف في تلك الزاوية الهادئة

- مرحبًا يا فريدة....

وصله صوتها الحاد الأقرب للانفعال وهي تسأله بجدية
دون أن ترد تحيته

- أين أنت يا هشام؟....

أغمض عينيه مجددًا للحظات وهو يضغط ما بينهما بإرهاقٍ
قائلًا

- مع... مجموعة من أصدقائي...

اضطر لإبعاد الهاتف عن أذنه حين صرخت بغضب

- كاذب يا هشام... كاذب... أنت مع كريم وفرقته..

اضطربت ملامحه إلا أنه أجابها بعصبية

- ولماذا أكذب؟!... أنا مع أخي وفرقته ممن أعتبرهم
مجموعة من الأصدقاء، ما المشكلة يا فريدة؟..

لم ينتبه إلى أن الرجل الواقف في الزاوية تَمَكَّن من سماع
كل ما نطق به وقد بدا مهتمًا بتلك المكالمة.. بينما تابع هشام
الرد حانقًا

- لديك مشكلة في الشك والارتياب وعليك التفكير في العلاج منها بكل صدق..

كل جزء منه كان متشنجًا ينبض بالعصبية والاهتزاز، وبالأخص ملامحه وعينه.. يستمع إلى ما يقال على الجانب الآخر بتوترٍ بالغ وكأنه مريض.. أو مصاب بالضغط، حتى أنه هتف بحدة

- من يقول؟!.. ولماذا تهتمين بكلام مجموعة حاقدة لا هم لهم سوى افتراء الشائعات!!... لكن هذه المرة لقد تجاوزوا الحد عبر جنونٍ مطبق!!.. ألم يتمكنوا من إيجاد شائعة أكثر قابلية للتصديق من ارتباطي بوحدة من سيرك!..

فريدة اسمعيني أنا بالكاد أحاول استعادة نفسي وتجميع أجزاء حياتي المتناثرة.. وتثبيت أقدامي في الشركة من جديد ليس قويًا بعد... لذا فإن بقيت ترددتين تلك الشائعات ستصل لوالدك وحينها سيعمل على إفساد كل شيء وليست الخطبة فحسب..

تَعَقَّلي أرجوكِ وفكري فيما تقولين..

صَمَتَ للحظات وهو ينظر أمامه بعينين غائمتين ميتين
ثم ردد بصوتٍ مختنق على سؤالٍ جاءه من الجانب الآخر

- لا... لا يا فريدة، أنا لم أرتبط بأي فتاة من أي سيرك... هل
أنتِ راضية الآن لحصولك على جوابٍ مضحك كهذا!..

التفت قليلاً وهو يقول بعصبية وغضبٍ شديد

- في انتظاري أين تحديدًا؟!.. هل تراقبينني؟!.. حسناً هذا
ليس المكان المناسب، أنا خارج لك..

ودون انتظارٍ خرج مندفعًا وهو يشتم مكفهر الملامح بعد
أن أغلق الاتصال...

في تلك الأثناء كان حكيم واقفًا بلامح شديدة التجهم
وعينين قاتمتين.. مطرق الوجه قليلاً شاعرًا بالغضب والنفور
يجتاحان صدره..

إنها شابة مليئة بالبهجة وحب إسعاد الآخرين.. ولا يحق
لمطلقٍ جبانٍ أن يجعلها مجرد مرحلة استراحة في حياته

ليستمد من رصيدها في البهجة.. فينتشي هو ثم يمضي
في طريقه مبتعدًا، بينما تبقى هي خاوية الروح بعدما تم
استهلاكها بالكامل!

بداخله غضبٌ شديد.. نفورٌ أشد...

كما شعر بحاجةٍ ملحة للبحث عنها في كل مكان ولو اضطر
لرفع الأقنعة واحدًا تلو الآخر ومسح وجوه المهرجين الملونة

ومع استدارته وجد شابة واقفة أمام الطاولة المتراص
عليها مختلف المشروبات..

شابة تشبه الدمية القماشية، بشعرٍ من الصوف فاقترب منها
سائلًا بصوتٍ أجشٍ خفيض

- أنتِ يا عروسة.. هل تعرفين أين هي....

لم يُتم سؤاله، فقد استدارت الدمية اللطيفة إليه ببطء..
وجهها الملون، أو الذي كان ملونًا بات الآن ملطخًا وكأن
الألوان البيضاء والحمراء وكحل العينين ذابت جميعها!!

همس مصدومًا وقد تعرف على عينيها الباكيتين -
دنيا؟!....

ارتعشت شفتها الحمراء وان ودون كلمة واحدة ابتعدت عنه
لتخرج من الباب الخلفي لهذا المكان جريًا وتنورة فستان
الدمى تتراقص لأعلى وأسفل وكأن الفستان الذي اعتاد
المرح طويلًا، عجز عن استيعاب دموع سيدته!..

وقفت أمام باب غرفته مغمضة عينيها، تداعب أصابع
إحدى كفيها، إبهام الكف الآخر.. تحاول تهدئة نفسها
المضطربة، بل تحاول التراجع وإثناء نفسها عن القيام بتلك
الخطوة.. لكن نفسها انتصرت، فلم تقدر على المقاومة أكثر..

أكثر من شهرٍ مر وهو على خصامه معها.. يتجنب رؤيتها،
يتجاهل الرد على سلامها الخفيض إن قابلها بالصدفة في
الرواق!..

شهر طويل شاق عليها، فقد عاشته وحيدة تمامًا..

حتى وائل عجزت عن متابعة تقديم المساعدة له خلال هذا الشهر إن كانت المساعدة التي تتلقاها شخصيًا قد انقطعت!..

لم تدرك لأي مدى كانت مساعدته مهمة لها حتى توقفت..
ازدردت لعابها ثم رفعت قبضتها لتطرق بابه برقة وانتظرت شاعرةً بعجزها عن التنفس بشكلٍ صحيح

مرت بضعة لحظاتٍ بدت لها وكأنها سنوات!!... تعرف أنه بالداخل، كما تعرف أنه ليس نائمًا.. وأكيدة تمامًا من سماعه لطرقتها..

كما... كما أنها موقنة أشد اليقين من أنه على علمٍ بهوية الطارق ولهذا يُطيل وقوفها على بابه!!..

أخفضت وجهها ذي القناع الحزين، لكنها لم تنتظر إلا لحظتين إضافيتين قبل أن يُفتح الباب فجأة ليطل منه سائد وكم بدا طويلًا ضخمًا وكأن ملامحه المتجهمة وهو ينظر

إليها من علٍ قد زادتة ضخامة وزادتها رهبةً ورغبةً في الفرار

لكنها تماسكت رافعةً وجهها محاولةً التبسم، لكنها تذكرت أنه لن يرى ابتسامتها المستترة خلف القناع على أي حال فأنحنت زاويتا شفثيها مجددًا وقالت بخفوت

- مرحبًا يا سائد..

طالت نظرتة القاتمة لها، لكن على الرغم من قتامتة إلا أنها أحست بالشوق ظاهرًا في هاتين العينين الناظرتين لها تحتويانها بالكامل..

و هذا الإحساس شجعها على المتابعة بصوتٍ أكثر لطفًا وإنما كان غير ثابتٍ

- كيف حالك؟.. مر أكثر من شهر وأنت تخاصمني..

غامت القسوة في عينيه للحظة فظنت القسوة راحلة وصديقها عائد.. لكن ظنونها تطايرت مع رده الجاف المقتضب بلا أي مشاعر

- أهلاً زاد.... هل تريد شئاً؟..

انحنت عيناها ألماً مع جفاء الرد فقالت بخفوتٍ شديد

- كنت قد تركت لك رسالة على قالب كعك أمام باب غرفتك
لأدعوك لحضور الحفل الذي أقمناه بعد جلسة التصوير..
وحين رأيت اختفاء القالب ظننتك تلقيت الرسالة فانتظرتك
طويلاً في الحفل... لكنك لم تحضرا!...

خرجت الجملة الأخيرة وكأنها أنيئاً يائساً أقرب للترجي
وهي تنظر إليه عبر ثقب القناع..

لم يرد سائد على الفور، بل تحركت عيناها على القناع
الصامت ثم جالتا برفق على عنقها الذي كانت عضلاته
تنقبض بصعوبة وكأنها تبتلع غصة مؤلمة مما جعل توجهمه
يزداد..

لكنه قال أخيراً بصوتٍ فاتر

- أخذت القالب والرسالة كي لا يراها أحدٌ غيري فيظن أن

بنا الظنون أكثر... فقد لاحظت أنك استأيت من تصرّحي
العلني المرة السابقة..

ردت بسرعة وهي تهز رأسها نفيًا - لم أستاذ...

التوت شفتاه بسخرية لم تصل لعينيهِ المظلمتين، إلا أنها
تابعت بصوتٍ أكثر توسلاً وهي تحرك كفيها المفرودتين
بتشنج حتى بانت عظامهما

- صدقني يا سائد لقد قدمت لك معروفاً.. يوماً ما ستدرك
أنك انجرفت في مشاعرك تجاه امرأة لا تستحقها، وحين
تجد الفتاة المناسبة لك ستشكرني وستكون ممتناً...

إن كانت توقعت منه تفهماً فقد خاب أملها.. لقد ازاد التواء
السخرية على شفتيه بشاعة ثم قال باستهزاء وهو يستند
بكتفه لإطار الباب متأملاً بإهمال

- خطبة أم مثالية!!.. كم من الوقت استغرقتك تلك الخطبة
في تحضيرها وحفظها يا زاد؟..

انحنى كتفها يأسًا وقد بدا القناع في عينيه ضائع
اللامح.. تائها، شاعرًا بالمرض!..

لكنه لم يتكلم بما يشعر به، بل ظل عابسًا وقد غابت
السخرية عن فمه..

أخفضت زاد وجهها وهي تتلاعب بأصابعها ثم همست
بضعف

- ألا يمكننا أن نعود صديقين يا سائد؟!...

تكلم مشددًا على كل حرفٍ بقساوة

- أنا وأنتِ لن نكون صديقين أبدًا.. كما أنكِ قطعًا لن تكوني
بمثابة أختٍ لي، فأنا أحبك يا زاد.. والصدقة لن تكفيني، إن
أردتي صداقتي عليكِ تقبل حبي معها كصفقة واحدة

أغمضت عينيهما بألم بينما تمكنت عيناه من ملاحقة خطي
الدموع المنسابين على عنقها من تحت القناع فاستقام
هامسًا باسمها دون صوت.. إلا أنها تكلمت في نفس اللحظة

قائلةً بصوتٍ ضائع

- لقد أتيت... أتتذكر اللوحة التي طلبها منا كريم منذ شهر؟... تم تصميم لوحتي كرقصة، سأرقصها غدًا وأردتك أن تشاهدها علك تفهم، فهي جزء حزين مني... لكنك لن تحضرها كذلك على ما يبدو... آسفة لوقتك الذي ضيعته..

راقبتها عيناها الداكنتان وهي تبتعد في الرواق الطويل بخطواتٍ رقيقة وكأنها لا تمس الأرض بقدميها..

وما أن اختفت حتى أطرق بوجهه هامسًا بألمٍ على ألسنها

- أحبك يا زادي.. أحبك جدًا

أتراها قادرة على رؤيته جالسًا في آخر صفٍ من صفوفٍ مقاعد المسرح الخالية؟!... كان في استطاعته التقدم ليجلس في الصف الأول لتقع عيناها عليه.. وتطمئن لوجوده أمامها، حاضرًا لرقصةٍ على إيقاعٍ لحنٍ حزين من حياتها..

لكنه فَضَّلَ البقاءَ بعيدًا.. لتكون هي تحت عينيه، أما هو فلا
يظل أمام عينيه..

أظلمت أضواء المسرح فجأة، لتبقى خشبته فقط المضيئة،
ثم بدأت موسيقى جميلة تصدح في الأجواء..

موسيقى لها جمال ورود الربيع وكأنها ترسل عبيرًا له عطر
ناعم بالإيحاء

وخلال ثوانٍ معدودة خرجت على خشبة المسرح...

خرجت زاد وقد بدت شديدة الجمال في زي باللونين
الأبيض والوردي الشاحب

وكانت تغطي وجهها بقناع سلسبيل الوردي البرّاق!...

ارتفع حاجباه بدهشةٍ بالغةٍ إلا أنه كتم أنفاسه متابعًا بعينه
حركاتها على أطراف أصابعها متناغمة مع اللحن الناعم

وبدأت تزيد من سرعة رقصتها ودورانها وكأنها تزداد رغبةً

في الحياة والتنعم بجمال ورودها..

ترقص وتدور وكأنها تدور بين الورود تنحني لتستنشق
غبيرها ثم تعاود الدوران..

حتى الآن كانت اللوحة آسرة للعين والأذن والإحساس
بشكلٍ خلاب لفتاة تعشق الحياة.. ثم طرأ تغييرٌ طفيف على
اللحن وكأن نغمة أقوى أضيفت له..

و مع تلك النغمة خرج شابٌ يضع قناعًا أبيضًا شبيهًا
بالأقنعة التي تستخدمها زائد... يتحرك برشاقة مع الأنغام
حتى وقعت عيناه على الجميلة الراقصة.. حينها توقف وقد
بدا عليه الصدمة والانبهار من حركات جسده وذراعيه!

لقد انبهر بها، ثم بدأ في ملاحقتها بحركاتٍ ينظمها اللحن
السائد.. كان يحاصرها من كل مكانٍ لكنها لم تكن تحاول
الهرب في البداية..

كانت محنية الوجه تمثل الخجل والتجاوب.. تبتعد
فيعيدها.. تفر فيلاحقها.. حتى سكنت حركاتها ووقفت

أمامه على أطراف أصابع قدميها وكأنها أنثى جميلة خاضعة
مبتسمة على الرغم من القناع الوردي الذي يغطي وجهها..

عادت الألحان من جديد بتحريكها.. فكلما تحركت حاصرها
رفيقها..

الألحان باتت أقوى.. وحركات جسدها سادها التوتر
والحدة.. تفر فيمنعها.. تحرك ذراعيها فيحاصرها..

حتى تحوّلت الرقصة السريعة لجولاتٍ من محاولات الفرار
والملاحقة العنيفة..

وبدأت حدة الألحان تتزايد أكثر وحركات الشاب تزداد
محاصرة إلى أن تظاهر بالجنون في رقصتها فأوقعها أرضًا
دون أن يمسها..

مال سائد للأمام مستندًا بذراعيه على ظهر الكرسي أمامه
وهو يشاهد بلامح شديدة التجهم.. يتأمل زاد الواقعة أرضًا
بشكلٍ جمالي حزين بينما جثى الشاب بجوارها رافعًا قبضته
لأعلى وكأنه يمسك بخنجر..

وفي تلك اللحظة تحولت خلفية المسرح لشاشة قماشية
بيضاء مسلط عليها كل الأضواء وقد انعكس عليها ظلها..

بينما اختفت زاد وشريكها في الرقص في الظلام المعتم
لخشبة المسرح نفسها

ظلان أسودان كبيران على الشاشة البيضاء... لجسد الفتاة
المرتمي أرضًا ورفيقها بجوارها رافعًا قبضته ثم بدأ يهبط بها
بقوة وسرعة مع جنون الألحان القوية وكأنه يطعن وجهها!!!

فغر سائد فمه ببطء وقد شعر بصعوبة في التنفس وألم في
صدره..

بدأت قوة الألحان تقل تدريجيًا وتتناسب معها حركة
الشاب حتى توقفت وتوقف هو، في تلك اللحظة ساد الظلام
التام للحظة بعد أن أطفأت الشاشة القماشية البيضاء.. ثم
أعيد الضوء لخشبة المسرح ولا تزال زاد مرتمية أرضًا بينما
جلس شريكها على مسافة منها وكأنه يلهث بعد تعب!..

ضاقت عينا سائد حين بدأت الألحان الناعمة البطيئة.. ثم

تحرك جسد زاد ببطء!..

بدأت تنهض من سقوطها ببطءٍ ونعومة حتى وقفت أخيرًا..
رأسها منكسر كزهرة ذابلة!..

ثابتة لا تتحرك، لكنها كانت تضع قناعًا أبيضًا الآن!!.. واحد
من أقنعتها المعتادة كما يضع الشاب واحدًا منها أيضًا!!

شريكها ينظر إليها بترقب.. ثم بدأ في النهوض على نفس
اللحن والحركات حتى وقف بجوارها

الاثنان يحملان نفس الملامح البيضاء الصماء!..

هو ينظر إليها وهي تبدو ميتة.. ثم رفع ذراعه وكأنه
يجرب... فرفعت زاد ذراعها بنفس الحركة وكأنها تقلده!

حَرَكَ ساقه.. فَحَرَّكَت زاد ساقها بنفس الحركة!

دار حول نفسه، فدارت مثله دون حياة أو انفعال.. ثم بدأ
الرقص.. كانا يرقصان متجاورين بحركاتٍ طبق الأصل وكأنها

باتت نسخة ميتة منه كما تمنى من البداية حتى أنها تحمل
نفس ملامحه!!..

انتهى الرقص بانتهاء الألحان وهنا بدأ التصفيق من
المتواجدين من باقي الفرقة والعاملين..

لكنها رفعت وجهها مباشرةً إلى حيث كان سائد جالسًا في
آخر صفوف مقاعد المسرح... إلا أن مقعده كان خاليًا!!...

لقد غادر!!

لا يعلم كم بقى جالسًا في سيارته خلف المقود.. مُرجعًا
رأسه للخلف بملامح شديدة الشحوب، كيف تمكنت من
إفهامه بعرض كالذي سبق ورسمته لوحة من حياتها!!..

لقد بدا وكأنه شاهد مشهدًا من حياتها.. مشهد شديد الألم
والرهبة

لاحقها، أغواها.. حاصرها، سيطر عليها، احتجزها... نجح
في جعلها نسخة ميتة منه تنفذ كل ما يقول دون تفكير أو
اعتراض!!..

كيف؟! كيف سمحت لرجلٍ بفعل هذا بها مهما بلغت
مكانته؟!... أي سحرٍ أجاده ليتمكن من سلبها عقلها بهذا
الشكل المؤذي!!

الأذى!!

مشهد طعن وجهها بخنجر!!.. أهو حقيقي؟!..

أهو من شوه وجهها؟!..

اتسعت عيناه وهو يحدق بشحوبٍ إلى صورته المنعكسة
في مرآة السيارة.. شعر وكأن وجهه يحرقه بشدة، يؤلمه حد
الموت!!

حتى أنه رفع أصابعه يتلمس ذلك الوجه بعدم ثبات، قبل
أن يغمض عينيه ألماً..

بعد انتهاء العرض لم يشعر بنفسه إلا وهو يخرج من المسرح مندفعًا غير قادر على التعامل مع ألمها قبل أن يتمالك نفسه ويسيطر على مشاعره..

حاول تهدئة أنفاسه عليه يستعيد توازنه، إلا أن صوت رنين الهاتف أجفله.. لم يشأ الرد إلا أن استمرار الرنين جعله يرد باقتضاب

- نعم يا أبي..

جاءه صوت خطاب يقول بصوتٍ خفيض أجش.. نبرته غامضة على نحوٍ غريب

- أينما كنت يا سائد، اترك كل ما بيدك وتعال المصنع... هناك ما نحن بحاجة للكلام عنه ولا يقبل التأجيل..

انعقد حاجبا سائد للحظات وهو يلوح الخطر في صوت والده ثم سأل ببطء

- هل كل شيء على ما يرام؟!....

أجابه خطاب آخذًا نفسًا عميقًا - لا أظن هذا يا سائد.. لا
أظن....

أول ما لمحہ لدى دخوله مكتب والده في المصنع هو
وقوف عمه صادق جانبًا.. وقد بدت ملامحه متوترة، خاصةً
وهو يتجنب النظر لعيني سائد!..

أما خطاب فقد كان جالسًا خلف مكتبه بملامح ذات عزم
وكأنه قد اتخذ قرارًا لن يسره..

لم يبادر سائد بإلقاء التحية شاعرًا أن الأجواء فاقدة كل
مودة وترحيب وأن الأمر أخطر من مجرد زيارة من ابن
لوالده..

تكلم خطاب قائلاً بصوتٍ أجش

- تفضل أنت يا صادق واطركني مع سائد..

وكأنه كان ممتنًا لهذا الأمر، منتظرًا له فقد سارع صادق بالخروج من المكتب ملقيًا سلامًا مقتضبًا على ابن أخيه قبل أن يغلق الباب خلفه..

التفت سائد ناظرًا إلى والده بعينين ضيقتين، فبادره خطاب سائلًا بصوتٍ شديد الجمود كتلك النظرة في عينيه

- ألا زلت مُصرًا على الارتباط بزاد؟..

رفع سائد كفيه إلى جانبي جبهته وقد اتقدت عيناه نارًا وأظلمت ملامحه وهو يهدر غاضبًا

- لا أصدق... لا أصدق أنك أحضرتني إلى هنا وبهذا الشكل لمجرد أن تثنييني عن الارتباط بزاد مجددًا!!.. لا أصدق حقًا

لقد خشيت أن يكون مكروهاً قد وقع!.. لماذا تتصرف بهذا الشكل؟! أخبرتك أنني لن أتركها لوائل.. كما أنها لا تصلح له من الأساس..

تنهد خطاب دون أن يرف له جفن لكن ملامحه ازدادت

جمودًا وهو يقول معقبًا

- زاد لا تصلح لأي منكما يا سائد... لقد غيرت رأيي بالنسبة
لارتباطها بوائيل، أما بالنسبة إليك فأنا مصمم أكثر من ذي قبل
على رفض ارتباطكما..

هز سائد رأسه ساخرًا شاعرًا بالغضب الأسود يجتاحه إلا
أنه قال ببرود

- ارتباطنا أمرٌ يخلصنا وحدنا لذا أنا آسف... أرفض متابعة
الموضوع معك، لكن أحبيك على رجوعك للصواب بشأن
طلب يد زاد لوائيل.. هناك تقدم على الأقل..

استدار ينوي المغادرة والعودة لزاد إلا أن صوت والده
قصف من خلفه قائلاً

- كنت أتمنى أن تعدل عن قرارك من تلقاء نفسك كي لا
أضطر لإفشاء ما يخصها وهذا ما لا أحبه، لكنك اضطررتني
إلى هذا

تصلبت يد سائد على مقبض الباب كما وقف عن الحركة
تمامًا شاعرًا بشيء بارد يزحف على ظهره قبل أن يتابع
خطاب بصوتٍ خشن

- زوج زاد السابق، كان ناويًا على الزواج من أمها في
البداية... لكن قبل أن يتزوجا فعليًا هرب هو وزاد ليتزوجا
في الخارج مما تسبب في فضيحة كبيرة.. لا أقبل أن تمس
سمعتها واحدًا من أولادي

يتسابق مع درجات السلم يقطعها كل درجتين معًا وهو
يلهث ناريًا لا هواءً كسائر البشر.. عيناه مغميتان وقلبه لا
يتحمل المزيد من الصدمات..

لا يريد سوى رؤيتها، سؤالها.. ولن يصدق غيرها ولو أكد
قصة والده ألف غيره!

ضرب باب السطح لا يكاد يقدر على التنفس بشكلٍ سوي،
ثم وقف ينتفض... وعلى ضربته استدارت بسرعة وشعرها

يدور من حولها..

تطالعه بالقناع الأبيض ميت المشاعر والتعبير.. فقد كان
في تلك اللحظة عاجزاً عن رؤية مشاعرها ترتسم على ملامح
القناع!

ساد الصمت بينهما وكلّ منهما ينظر للآخر بغرابة، حتى
بادرته سائلة بصوتٍ خفيض

- لماذا غادرت المسرح؟.. كنت أحتاجك

لم يرد عليها بل اقترب منها ببطء شديد.. صدره يرتفع
وينخفض بسرعة مؤلمة

أخبريني أنها كذبة إبريل..

أتوسل إليك قولي أنها كذبة إبريل وسأصدقك أنتِ وأكذب
الجميع!!..

لكنه لم ينطق بتوسله الحزين.. بل بدا غريباً في عينيها،

ينظر إليها بطريقة جعلتها تشعر بالخوف حتى أنها تراجعت
ليلتصق ظهرها بسور السطح.. ثم همست بصوت يرتعش

- ماذا بك يا سائد؟!..

تأوهت نفسه حين تجاوب قلبه مع نبذة الخوف في نطقها
لاسمه ثم أغمض عينيه موجوعًا..

سألته مجددًا بصوت بدا كنجيب جاف بلا دموع - ماذا بك
يا سائد؟!!..

فتح عينيه ينظر إليها طويلاً ثم سألها بصوت خفيض
أجوف

- هل... هل هربت مع رجل كان سيتزوج والدتك وتزوجتما
في الخارج؟..

شهقت بصوت عالٍ وقد اتسعت عيناها بمنظرٍ مرعبٍ من
خلف القناع.. ولم يكن في حاجة لسماع الجواب بعد ذلك، بل
تراجع للخلف هامسًا بإعياء وهو يتخلل شعر رأسه بأصابعه

- يا إلهي!!.. يا إلهي!!!...

أطبقت زاد بكفيها فوق أذنيها لتقع جالسة أرضًا مغمضة عينيها بشدة وهي تصرخ باكية كي لا تسمع صوته المصدوم

- اخرج من هنا... أتوسل إليك اخرج من هنا... أخبرتك أنني اقترفت شيئًا فظيئًا ولم تصدقني... أخبرتك أنني لا أستحق سوى هذا القناع المهين على وجهي ولم تصدقني.. أرجوك

أغمض عيني به بتعب غير قادر على رؤيتها بهذا الشكل... صراخها بدا كخناجرٍ تمزق أذنيه والحقيقة أمامه بدت أصعب من قدرته على التحمل لكنه اقترب منها يجر قدميه حتى وصل إليها ثم جثى على عقبه بجوارها وما أن مس كفها بأصابعه الباردة الجليدية حتى انتفضت تقفز كأرنبٍ مذعور وخرجت من باب السطح وكأن الشياطين تلاحقها..

سقط جالسًا في نفس المكان الذي كانت تحتله للتو ثم أرجع رأسه مستندًا به إلى سور السطح مغمضًا عيني.. لقد تعب!

- أعدك أن أعود إليك يا أمي

جالسة في غرفتها شاردة بقلق.. قلبها يخبرها أن مكروهاً قد وقع..

ثمة حركة غير طبيعية تحدث في البيت، لكنها غير أكيدة من السبب وقلبها يخبرها أن زاد هي محور كل شيء!

كانت تنظر من النافذة متجهة الملامح حتى فُتح باب غرفتها فجأة دون استئذان مما جعلها تدور حول نفسها بسرعة وقلق..

انعقد حاجبا جيهان وهي ترى زاد واقفة في إطار الباب المفتوح.. قناعها يغطي وجهها وتبدو من بعيد ساكنة تماماً..

لكن باقتراب جيهان منها وهي تهمس باسمها، صُدمت برؤية الدموع المنسابة على عنق ابنتها ولاحظت ارتعاش جسدها فهتفت وهي تندفع إليها لتمسك بذراعها بقوة

- ماذا حدث يا زاد؟!... لماذا تبكين؟!.. انطقي يا ابنتي، قلبي لم يعد قادرًا على التحمل..

ما لم تتوقعه جيهان هو رؤية زاد وهي تخلع القناع عن وجهها بعنفٍ لتقف أمامها مكشوفة الوجه دون أن تجفل لمنظره!!..

اتسعت عينا أمها بخوفٍ على ابنتها، لا منها.. فقد وصلت زاد لحد الانهيار أخيرًا!!

أثراه خيرًا انهيارها أم أشد ضررًا من فتورها؟!.. لا تعرف..

كانت زاد قد بدأت تبكي شاهقة بصوتٍ عالٍ كالأطفال، ثم هتفت من بين شهقات بكاءها

- أنا آسفة... أنا غير قادرة على تحمل كرمك ولطفك معي.. أنت تقتلينني برغبتك المستمرة في استعادتي بينما أنا لا أستحق سوى الموت بهذا الوجه المشوه... أنا أخجل منك، أخجل من أمومتك وغفرانك... أنا غير قادرة على التجاوب مع حبك من شدة كرهني لنفسي..

همست جيهان بصوتٍ منتحب وهي تومئ برأسها بحركة
سريعة شاعرة بتمزقٍ في صدرها

- لا بأس... لا بأس يا حبيبتي... خذي وقتك كاملاً.. لا داعي
لاستعجال عودتك..

صرخت زاد وانتفاضها يتزايد مما اضطرها للاستناد لإطار
الباب كي تدعم نفسها على الرغم من إمساك أمها لها بقوة

- أنا لم أعد بعد... أشعر وكأنني لم أعد إليك بعد...

ابتلعت جيهان الغصة في حلقها بصعوبة واختناق إلا أنها
قالت بصوتٍ حازم وكأنها تفكر بصوتٍ عالٍ متشبثة بذراع
ابنتها

- سنبدأ العلاج يا زاد... وبالتدريج سيعود كل شيء لأصله...
وستعودين إلى أحضاني...

كان جسدها قد بدأ يهدأ قليلاً مع زيادة تدليك أمها على

صدرها وذراعها كتريبت قوي وحنون.. وحين شعرت بالقدرة
على الكلام بشكلٍ سوي مجددًا رفعت عينيها إلى عيني أمها
الباكيتين ثم قالت بصوتٍ مختنق باهت

- هلا سمحت لي بالخروج من هنا لفترة...

صرخت جيهان بعنف وهي تنشب أظافرها في لحم ذراع
ابنتها بلا وعي

- لا... لا يا زاد... لم أعد قادرة على فراقك أكثر من هذا،
أرجوك.. لنرحل سويًا إن كنت غير مرتاحة في هذا البيت

رفعت زاد كفها لتمسك بيد أمها المتشبثة بلحمها تشدد
عليها مطمئنة ثم همست بصوتٍ عاد لفتوره سريعًا بعد
انهيارها الضخم

- لن أبتعد... سأظل تحت عينيك، أنا فقط أحتاج للتركيز
على العرض الفترة المقبلة.. وهذا ما أنا عاجزة عن فعله وأنا
هنا.. معك..

نطقت الكلمة الأخيرة بصوتٍ خفيضٍ منتحب، لكنها
مسحت وجهها بسرعة مُشيحة به عن رؤية الألم في عيني
أمها ثم تابعت

- لقد رحلت عنك قبل أن أنضج.. وما حدث في الثماني
سنوات التي ابتعدتها عنك والتي كان ينبغي أن أنضج خلالها
هو العكس، لقد رجعت أقل نضجًا عما رحلت به... أشعر
وكأنني لم أتجاوز العشرين من عمري بعد، رغم أنني مقبلة
على التاسعة والعشرين.. امنحيني الفرصة في الابتعاد، كي
أعود إليك قائلةً بكل تأكيد - أحتاج مساعدتك يا أمي

غامت عينا جيهان وهي تهز رأسها هامسة بتوسل

- لم يعد في العمر بقية يا زاد... أرجوك يا حبيبتي

ربتت زاد على كفها قائلة بابتسامة مغتصبة

- هذا أيضًا شعورٌ عليك التخلّص منه، فأنتِ لم تكبري إلى
هذا الحد... لا زلتِ جميلة وكأنكِ شابة

تنهدت جيهان باكية بصوتٍ خفيض وهي تميل بوجهها
حتى استندت بجبهتها إلى ذراع زاد غير قادرة على النطق،
فتولت هي الكلام قائلة بخفوت

- لقد اتفقت مع زميلة لي في الفرقة تسكن بمفردها بجوار
المسرح على السكن معها ولقد رَحَّبَتْ.. أعدك أن أعود إليك

.....

عاد للبيت بعد ساعاتٍ طويلة هام فيها على وجهه قاطعًا
الطرق بسيارته.. لا يريد إلا إبعاد زاد عن ذهنه

لكنه لم ينجح في هذا، فخلال تلك الساعات، لم ينجح
سوى في التفكير فيها كل لحظة مرت عليه حتى كاد أن
يُجن..

ثم توقف ليسأل نفسه عما يفعله!!...

لقد قام بذات الشيء الذي فعله خطاب!!... لقد نَصَّب نفسه
قاضيًا ليحكم عليها قبل السماع منها!!..

صحيح أنه حاول ولم يحصل إلا على اعترافها، لكنه لم
يسمع... لم يفهم...

حتى وإن قرر عجزه عن تحمل ما اقترفته من ذنب، لكن
أبسط ما يستطيع تقديمه قبل الرحيل هو السماع.. أيبخل
عليها بالسماع قبل النطق بالحكم!!

و لم يداخله المزيد من التردد وهو ينطلق بسيارته عائد
للبيت.. لزاد

لكن بدخوله متعبًا وفي عينيه إصرار غريب وجد جيهان
جالسة على واحد من الكراسي، عيناها باكيتان حد التقرح
مما جعله يتسمر مكانه شاعرًا بقلبه يهوي بين أضلاعه فسأل
برهبة دون مقدمات أو سلام

- هل زاد بخير؟... هل أصابها مكروه؟..

تنهدت جيهان في جلستها الحزينة ثم قالت بخفوت دون
أن تنظر إليه

- لقد غادرت زاد البيت....

اتسعت عينا سائد قبل أن يهتف بصدمة - ماذا؟!....

ثم لم يلبث أن هز رأسه وعيناه تتقدان بالغضب الأقرب
للجنون وهو يسأل بصوتٍ عنيف مكبوت

- أين ذهبت؟.. سأذهب وأحضرها بنفسني ولو رغم أنفها...

رفعت جيهاً وجهها المتورم إليه ثم همست بقنوط

- أنا قبلت أن تغادر لفترة مؤقتة... إن كان هذا في صالحها
وعليك أنت أيضاً التقبل والتفهم..

فغر سائد فمه غير مصدقاً لما يسمع ثم لَوَّحَ بكفيه يكلم
نفسه قبل أن يلتفت إليها مجدداً وهو يقول بعصبية

- أنا لن أتفهم شيئاً من ذلك العبت... زاد سترجع إلى هذا
البيت ولن تغادره... أبداً..

سألته جيهان بصوتٍ خفيضٍ وملامحٍ ممتقعةٍ رغم أنها
قرأت الجواب في صوته وعينيهِ مصدومة

- لماذا تهتم يا سائد إلى هذا الحد؟!....

تنهد تنهيدةً مثقلةً وكأنه يسوي حملاً على ظهره ثم قال
بصوتٍ كئيبٍ باهت

- أنا أحب زاد.. ألم يخبرك أحدٌ بذلك؟!.. بات الجميع يعلمون
إلا أنت..

اتسعت عينا جيهان بينما ازداد شحوب وجهها وهي تنهض
من مكانها ببطء متمسكة بذراعي مقعدها حتى وقفت أمامه
تأمله بتفحصٍ وتدقيقٍ ثم همست بخفوت - زاد ليست
مؤهلة لذلك يا سائد....

ذهلت حين جاوبها بهدوء - أعرف.. ومستعد لانتظارها
حتى تكون

مالت جيهان بوجهها تسأله بصوتٍ هامسٍ مستنكر - دون

أن تعرف!!....

فتح فمه ببطء وقد أدرك أن الحكم صدر وانتهى الأمر ثم
قال متنهدًا بتعب

- سأعرف منها... سأسمعها، ولا أظن أن ما سأسمعه سيغير
شيء، فقد عوقبت بما فيه الكفاية..

مرت بضعة أيام منذ تركها لبيت خطاب وسكنها مع دنيا
في الشقة المتهالكة الرثة... لقد ظنت أن الأمر سيكون عصيبًا
عليها وأنها ستفشل منذ اليوم الأول..

لكن ما أذهلها مضي الأيام بهدوء دون تعقيد، فلقد بدا على
دنيا وكأنها اتخذت قرارًا بتبنيها..

كانت مسؤولة عنها مسؤولية كاملة، تصحبها للمسرح
صباحًا وتعيدها في يدها ليلاً.. حتى أنها ساعدتها في لف
وشاح حول وجهها أقل لفتًا للأنظار من القناع كي يستطيعان

المشي في الشارع دون أن يضايقهما أحد.. وما أن يصلا
للمسرح حتى تعود زاد لقناعها من جديد..

لم تحاول أن تطالبها بالاشتراك في شراء متطلبات البيت،
بل كانت تنزل وحدها لتشتري ما يحتاجه إلى أن تعرض
زاد النزول بنفسها..

بدا وأن كلا منهما يداوي نفسًا جريحة، لكن أسلوب دنيا في
المداواة يتمثل في تبني كائن ضعيف والاعتناء به..

وقفت زاد تنتظر رفيقتها وشريكها في السكن أمام باب
المسرح ليلاً...

فقد خرجت دنيا بسرعة حين اتصل بها أحدهم طالبًا منها
الحضور بسرعة لشكه في ظهور رائحة دخان خارجة من
شقة جلال ولم تكن زاد قد بدلت ملابسها بعد فوعدها بتفقد
الشقة ثم العودة إليها سريعًا لتأخذها بنفسها..

وها هي واقفة تنتظر بقلبي منذ فترة.. شاعرة بعدم قدرتها
على مشي الطريق الضيق بمفردها في الظلام

- كيف حالك يا زاد؟...

أتاها السؤال الهادئ من خلفها والذي رغم هدوء نبرته
المطمئنة إلا أنها شهقت تستدير حول نفسها لتراه واقعًا
أمامها بثبات محددًا في عينيها بعينه القادرتين على النفاذ
لكيانها بتسلطٍ وكأنه الأمر الناهي..

أرادت الهرب من هاتين العينين.. أرادت الفرار من حكمه..

لم تقدر على مواجهة الازدراء الذي سرعان ما سيظهر فيهما
وهو يحاكمها بعد أن كشف سترها..

نظرت تجاه الطريق الضيق المظلم على يسارها تدعو الله
من قلبها أن تظهر دنيا لتأخذها.. وكأنه سمع أفكارها فقال
بنفس الهدوء المثير للحنق

- لن تأتي...

استدارت ناظرة إليه بعينين واسعتين من تحت الوشاح
ولم تقدر على الرد فتابع وله الجرأة على التبسم ابتسامة

ساخرة قاسية

- عليك البدء بالتدقيق في ولاء من تختارين من الصديقات
يا زاد..

استمتع برؤية بريق الغضب في هاتين العينين الجميلتين،
على الأقل الغضب أكثر حياة من الخوف

لم تتنازل بالرد بل أحنت وجهها تفتح حقيبة ملابسها
تحاول البحث عن هاتفها، فقال بوجوم

- لقد أخذت دنيا هاتفك معها....

هذه المرة كان ذهولها مضحكًا ولو أن له القدرة لضحك من
كل قلبه.. لكنه اكتفى بسؤالها بتهذيب

- هل تسمحين لي بأن أوصلك أنا اليوم؟..

هتفت زاد وقد وجدت صوتها أخيرًا - كيف لك أن تفعل
هذا؟!....

رمقها بنظرة ألجمتها حتى أنها ازدردت لعبها مجدداً
وتراجعت خطوة قبل أن يقول بصوتٍ ثابت

- لي أن أفعل أي شيء يُمكنني من الوصول إليك والكلام
معك طالما أنك ترفضين الرد على اتصالاتي...

رمشت بعينيها أمام نظرة التحدي السافر في عينيه ثم
قالت بعصبية والخزي والعار يقطران من صوتها

- ما الذي تريد أن تتكلم معي بخصوصه يا سائد؟... ألم
أنهي كل كلام بيننا؟!..

اقترب منها خطوة أخرى وقد بان عليه التحفز وهو يقول
من بين أسنانه

- لا لم ننتهي.. بل إننا لم نبدأ حتى وأظنك مدينة لي
بتفسير..

هتفت بذعرٍ ممتزج بالغضب - تفسير!!.. أنا لست مدينة لك
بأي شيء... بأي حق..

قاطعها سائلًا بصوتٍ خفيضٍ تغيرت نبرته كما تغيرت
النظرة في عينيه وهو يسألها بجفاء

- ألا تدينين لي بتفسير يا زاد؟! ألم تبادليني الحب الذي
أهديته لك؟!..

فغرت فمها من تحت الوشاح وهي تهمس مرددة بصوتٍ لا
يكاد أن يسمع - الحب!!.....

تاht عيناها بعينه في لحظة مجنونة قبل أن تنفض
رأسها قائلة بصوتٍ غاضب متلعثم

- أنا لن أطيل هذا الجنون أكثر من هذا.. سأغادر بنفسي
فأنا لست عاجزة...

ودون انتظار، أخذت نفسًا عميقًا ثم ألقت بنفسها تقتحم
الطريق الضيق المظلم بمفردها كمن يرمي نفسه بين أمواج
البحر ليلاً

أخذت تسرع في خطواتها كي لا يلحق بها وكي تنهي هذا الطريق الطويل..

لكن فجأة برز لها كلب ضال من بين السيارات نبח في وجهها وإذا بالدنيا تنقلب على صوت صراخها المجنون..

ولم تدرِ إلا وهي تدور حول نفسها بفعل يدٍ سحبت ذراعها لترتمي فوق صدرٍ قوي وصوت يهتف سائلًا بقلق

- ماذا حدث يا زاد؟!..

لكنها لم تتوقف عن الصراخ وهي تندس في صدره أكثر حتى لفتها ذراعاه بقوة

- أبعده عني.. أبعده عني أرجوك..

لم يكن في حاجة لإبعاده فقد خاف الكلب الهزيل من الصراخ وانصرف بينما أغمض عينيه وهو يشدد من احتضانها هامسًا

- لا بأس يا زاد... أنتِ في أمان.. لا بأس..

- أين كنت يا سائد؟!..

توقف عن المضي في طريقه لغرفته مرهقًا يحمل من
اليأس مقدار ما يحمل من حبٍ ربما لن يكتب له النجاة في
رحمٍ خبيث

أرجع رأسه للخلف متنهدًا دون صوت، بينما تابع خطاب
قائلًا من خلفه بنبرة خشنة إلا أن بها انكسارًا واضحًا

- لماذا تأبى الرد على والدك منذ أيام؟... فيما أخطأت هذه
المرة؟!... أكنت تفضل عدم المعرفة؟!...

فتح سائد عينيه الجامدتين بلا تعبير يحدق أمامه غير
قادر على إجبار نفسه على الاستدارة ومواجهة والده، فقال
بصوتٍ ميت

- كنت أفضل المعرفة حين تكون منها.. لا عنها...

صمت للحظة وهو يأخذ نفسًا عميقًا متغلبًا على الثقل في حلقه ثم تابع قائلاً بفتور

- لم أخبر جيهان أنك بحثت في ماضي زاد دون علمها وبلا أي وجه حق، فقد رفضت الارتباط من الأساس، أي أنها ليست مدينة لنا بأي شيء.. ولو عرفت جيهان لما بقيت في هذا البيت دقيقة واحدة مع من كشف ستر ابنتها..

صمت مبتسمًا بسخرية مريرة ثم قال بخفوت

- أتعلم لما لم أفعل؟!... لأنني أحسست بحبك لجيهان، حبًا حقيقيا للمرة الأولى بعد هذا العمر الطويل ولم أشأ كسر قلبك بإخبارها.. لعلك تتذكر ذلك المعروف وأنت تفسد المزيد من حياتي مستقبلاً...

ابتعد بخطواتٍ متثاقلة مكتفياً من الكلام.. يشك أن يكون قد استوعب منه شيئًا، بينما ظل خطاب واقفًا مكانه بملامح حزينة قد زادت انكسارًا

الفصل التاسع

الشيطان

لا أزال أتذكر أول يوم رأيت فيه وكأنه الأمس.. رغم مرور ما يقرب من ثمانية أعوام على هذا اليوم، إلا أنه حي في ذاكرتي حتى هذه اللحظة..

أتذكر أنني سخرت من هيئته ولست فخورة بهذا لكنه كان مختلفًا عن أبي تمام الاختلاف.. في هيئته، ملابسه، اضطراب نظراته وكأنه لا يملك الثقة بنفسه على عكس والدي..

لم أكن قد أتممت الحادية والعشرين بعد.. كنت شابة صغيرة المستقبل أمامها على أعتاب حياتها فاتحًا ذراعيه بحفاوة، ولم أكن أعلم أن الشيطان قرر مشاركة مستقبلي في الأيام والأشهر والسنوات..

كنت شابة لم يعكر صفو أيامها سوى فقدانها لوالدها والذي

لم يكن ليتكرر مطلقًا...

كنت موقنة أنه لا رجل يمكن أن يتصف ولو بجزء بسيط من مواصفات أبي... لقد كان شخصًا نادرًا، كان له من الشخصية والأسلوب ما يجبر كل من تعامل معه على الانبهار به.. ولست أنا وحدي أو حتى أمي...

بل كان يحصد إعجاب الجميع من زملائه وتلامذته وأساتذته فيما مضى.. حتى النساء..

كان له باع طويل التصدي للمعجبات وكأنه واحد من المشاهير، مع أنه لم يكن كذلك بل كان مجرد أستاذ في الجامعة

الدكتور علم الدين برهان

شخصيته وثقافته ورُقي أسلوبه هي بالضبط المواصفات التي تتمناها كل امرأة في رجل..

ولم تغضب أمي يومًا رغم الرسائل الواصلة له، فقد كانت

تثق في حبه لها..

أبي وأمي معًا لم أر اثنين يليقان ببعضهما كما كان أبي
وأمي.. الجمال والرقى معًا..

الضحكة وغمزات الغزل... الغناء أثناء تحضير العشاء
بل والرقص بنعومة أحيانًا، بينما كنت أتطلع إليهما بعينين
براقتين وأنا أسند ذقني إلى كفي المتشابكين وأتساءل إن
كنت سأحصل يومًا ما على قصة حب مماثلة حتى وإن كنت
واثقة أنه لا رجل يماثل أبي!..

وكجمال العلاقة بين أبي وأمي، كانت العلاقة والرابط بيني
وبين أبي..

كنت مدللته وأميرته بلا منازع... يراقصني، يلاعبني
الشطرنج نضحك طويلًا.. أقترب منه طولًا ويقترب مني
عقلًا دون تسلط أو ترفع..

كان شديد البساطة بالغ الرقي.. أحبته من كل قلبي كما
أحبته أُمي وليس لأنه أبي فقط بل لأنه شخص يستحق

الحب والإعجاب

ثم انقلبت حياتي أنا وأمي فجأة بوفاته.. كانت الصدمة التي كادت أن تفقدنا العقل والاتزان لولا أن تمسكت كل منا بالأخرى ووقفنا من جديد..

كانت أُمي الصديقة المقربة لي في الحياة إن لم تكن الوحيدة فقد كنت بطبعي إنسانة تميل للعزلة والهدوء.. لا أهوى الصخب والكلام الزائد...

لقد اكتفيت بأُمي صديقة كما اكتفت هي بي.. وزادت علاقتنا أكثر بعد وفاة والدي..

كانت أُمي لا تزال شابة حين توفي والدي فقد تزوجت في عمرٍ صغير، وكانت على نفس الدرجة من الجمال إن لم تزد عن يوم زواجها.. لقد كانت مطمئناً للكثيرين، إلا أنها لم تأبه لأي منهم مقررة الاكتفاء بي كحياة كاملة لها

كانت البداية حين أتى لزيارة أُمي كواحد من تلامذة أبي

كان هذا بعد وفاة والدي بثلاثة سنوات تقريبًا راقبته من خلف ستار الرواق وهو جالس مع أُمي يخبرها أنه عاد للتو من الخارج وأول ما فكر فيه هو زيارة أرملة أستاذة وأعاد إليها مجموعة من الكتب النادرة التي ادّعى استعارتها من والدي قبل سفره

لقد ادّعى الكثير من الأشياء، من بينها أن أبي قد تنبأ له بمستقبل مبهر وأنه كان شديد الفخر به رغم أنني وأُمي لم نسمع باسمه من أبي قبلاً.. لكننا تأكدنا بالفعل من أنه واحد من المتفوقين في دفعته لكنه كان شاب انطوائي فاقد الثقة في نفسه لا يكلم أحد..

لم يهتم إلا بمستقبله التعليمي فنبد الزواج والعلاقات وكل ما قد يؤخره حتى وصل لعمر الأربعين..

وكان وقتها من نفس عمر أُمي حين أتى لزيارتنا أول مرة..

حين رأيتهما جالسين في غرفة استقبال الضيوف شعرت بشيء يقبض صدري لم أستطع تحديده أو تفسير سببه..

وبعد انصرافه لجأت للتندر عليه ولست فخورة بهذا.. أتذكر
أنني قلت لأمي ضاحكة

- ما تلك الملابس التي يرتديها؟!... لماذا يحكم إغلاق أول
زرٍ من ياقة قميصه حتى أوشك على خنقه!!..

ضحكت أمي بنعومة وهي تعد العشاء قائلة بحزم

- عيب يا زاد.. الرجل كان من الذوق بحيث أتى لتفقدنا
إكرامًا لذكرى والدك وأستاذه...

استندت إلى الطاولة بمرفقي وأنا أقول كاتمة ضحكة

- لكن حتى جلسته غريبة!.. يتعمد وضع قدميه في وضعٍ
متساوي تماماً بجوار بعضهما وكأنه يقيسهما ببعضهما!!..
ينظر حوله بقلقي أقلقني معه وكأن عينيه تدوران في
محجريهما!!... هل رأيت شعره والتصفيفة التي يعتمدها!!..
إن كان قد تعلم من أبي الكثير كما قال، فلماذا لم يتعلم شيئاً
من أناقته والاهتمام بهيئته!..

تنهدت أُمي وقتها وقد بان الحزن في عينيها عميقًا وهي
تجفف واحد من الأطباق وقالت بشرود

- لا يوجد من هو مثل والدك رحمه الله يا زاد..لذا من الظلم
مقارنة غيره به

ثم نظرت إلى عيني وقالت بخفوت

- أحيانًا أشفق عليك يا حبيبتي.. فقد رفع والدك سقف
توقعاتك لفتى أحلامك

يومها ابتسمت ورددت عليها بنبرة هادئة

- اطمئني يا أُمي، أنا من الأساس لن أتركك بسبب أي رجل
في هذا الكون... أفضل أن نتابع حياتنا أنا وأنتِ وحيدتين مع
ذكرى والدي فحسب..

لكن ما حدث بعد ذلك كان انقلابًا لحياتنا بكل معنى الكلمة..
فقد حاصرها الزائر الغريب بكل الوسائل الممكنة وكأنه تسلط
عليها وعلى حياتنا..

بالاتصالات وإرسال باقات الورد وتعتمد تكرار صدف لقائه بها..

في البداية كانت تمل وتضيق لكن أمي كانت دومًا تراعي شعوره، ترفض أن تكسر بخاطره.. حتى بدأ التغيير يتسلل كسرطانٍ في جسد أيامنا..

بدا وكأن أمي اعتادت ملاحظته وكأنها أمرٌ مفروغ منه!!..

ثم كانت الصدمة حين سمعت كلامها مع خالي عن تقدمه لخطبتها!!!!..

شعرت في تلك اللحظة وكأن هناك من ضربني على رأسي فترنحت وبقيت صامتة لأيام

تراقبني وأراقبها.. نختلس النظرات لبعضنا في صمت وترقب وكأننا غريبتين، حتى جاءت ذات يوم وجلست أمامي لتقول بخفوت

- ما عليك سوى الرفض يا زاد، فأرفض أنا أيضًا... لا تحملي

هذا القدر من الهم والذي أراه في عينيك منذ أيام

سألتها بخفوتٍ شاعرة بجسدي يقشعر وينتفض وكأنني
أنفر من الفكرة

- هل يعجبك؟!!...

لن أنسى مطلقًا النظرة التي أطلت من عينيها وهي تنظر
إليّ بملامح واجمة، ثم همست ببطء

- قد يصدك كلامي يا زاد... لكنه يذكرني بوالدك على نحو
ما..

ولقد صدمني كلامها بالفعل صدمة كادت أن تودي بصوابي
فهمتت مستنكرة

- كيف؟!... لقد سخرنا منه أول مرة رأيناه فيها يا أمي بالله
عليك!...

رمقتني بنظرة متحفظة ثم همست تهز رأسها بحيرة

- لا أعرف.. بعيدًا عن زيه وهيئته لكن أحيانًا أسمع منه كلمات وعبارات لم أسمعها إلا من والدك.. باقات الورود التي كان يأتيني بها، هي ذاتها.. مزاحه، هو نفسه مزاح والدك... ربما كان والدك الأصل، لكن أحيانًا نلجأ لنسخة تقليد حين يجرفنا الشوق لمن لم يعد بيننا..

لم أفهمها يومها.. لم أستوعب ما كانت تقول.. كنت مصدومة ولا أرغب إلا في الاختباء خلف أقرب باب للبكاء دون صوت

لكنني لم أستطع الرفض.. لم أقدر على الحكم عليها بالحزن والحداد طوال عمرها وهي التي لم تتجاوز الأربعين بعد..

كانت في قمة جمالها وصباهها، لكن الحزن بقي ظاهرًا في عينيها لثلاث سنوات.. منذ وفاة أبي..

كما لم أوافق من عارضوها بحجة وجوب أن تقبل بمن يليق بها وبمستواها.. بمن يوازي علم الدين مكانة..

فطالما قررت الزواج وهو القرار الأصعب على كل منا.. ومن

بعد اتخاذ القرار أصبح كل الرجال سواء لذا فلتقبل بالنسخة التقليد إذا طالما ترتاح لها.. الكل سواء، ولا أحد سيكون في مكانة والدها على أي حال..

لم يكن قد رأي كل هذا الوقت، بل أنا من كنت أختلس النظر إليه من خلف الستار.. مجرد صور متفرقة لي في البيت في أعمار مختلفة حتى كانت جلسة التعارف وخرجت لألقي عليه التحية..

لن أنسى أبدًا النظرة التي رأيته في عينيه.. وكأنها الصدمة.. وكأنه انبهار.. أو ربما ذهول

لقد اتسعت عيناه واستقام في جلسته للحظة قبل أن ينهض ليصافحني.. لقد شد بكفه على يدي وكأنه لا ينوي تحريره فاقشعر بدني مما دفعني لشد يدي.. حينها فقط جلس وهو يعيد ضبط قدميه لتكونا متجاورتين، يدور بحدقتيه بين وجوه الجميع وكأنه مضطرب ثم يستقر بعينه علي فتتسعان مجددًا وكأنه الراح..

وكان هذا هو اللقاء الأول من لقاءات كثيرة تلتته... كان

يزورنا ويدعوننا لأماكن باهظة وقد اتضح أن المال لم ينقصه مطلقًا كما اعتقد الجميع.. لكن لا أحد يعرف مصدره على وجه التحديد، لقد ذكر أنه له أرض تُدرُّ محصولًا ضمن أشياء كثيرة ذكرها وكأن العائلة اكتفت بهذا تفسيرًا لتريح القلق السائد حيال زواج جيهان من رجل يختلف عن علم الدين برهان في المستوى..

وكلما خرج ثلاثتنا كنت ألمح نفس اتساع عينيه وهو ينظر إلي.. كان تركيزه يجفلي ويجعلني إرتبك وأتوتر لكنني لم ألحظ منه سوءًا..

ثم بدأ مشاركة أُمي في حضور عروض الباليه التي أشارك فيها... كنت أراه وهو يميل للأمام مستندًا بذراعيه على الكرسي في الصف الذي يسبقه، ينسى فمه فاغرا أحيانًا.. لا يحيد بعينه عني وكأنني الوحيدة فوق خشبة المسرح وما أن أنتهي حتى يقف مصفقا بحرارة كما كان يفعل أبي غير آبهًا بالجميع..

مع مرور الوقت بدأت أعتاد انبهاره وزهوه بي... بل بدأت أعتمد على الفخر في عينيه وأنا أدور حول نفسي فوق

المسرح، لم أكن أعلم وقتها أن ما أراه في عينيه لم يكن فخراً، بل كان بريق تربص الصياد بفريسته..

ومع مرور الوقت كذلك بدأت أفهم مقصد أُمي حين قالت أنه يذكرها بأبي!.. فبالتدريج بدأت ألاحظ نفس الشبه في الحركات والتصرفات والأقوال..

كان يعيد إحياء كافة الذكريات بيني وبين أبي متخذاً دوره.. كنا نلعب الشطرنج بالساعات ويتعمد السماح لي بالربح وحين أفعل يصفق مزهوًا.. حتى أنه كان يدعوني باليقطينة وهو نفس اللقب الذي كان يدعوني به والدي..

لقد بدأ وجوده في حياتي يتحول لحاجة ملحة وقاسية.. وحين يغيب فجأة أشعر بانهياء صامت داخلي وأبقى كئيباً إلى أن يعاود الظهور متعللاً بكثرة العمل والدراسة وضيق الوقت..

متى تحولت نظرتي له من كونه نسخة مقلدة من أبي إلى رجل.. رجل بمعنى رجل وأنا امرأة!!..

لم أستطع التحديد مطلقًا وحتى يومنا هذا...

كل ما أتذكره أنه كان يعتمد أسلوبًا في جذبي وإشعاري
بأنني الفتاة الوحيدة التي ما انبهر بسواها في عمره كله..

ثم يتجاهلني فجأة...

كان يُشعرني بالأهمية وفي نفس الوقت جعلني أعتمد عليه
في كل صغيرة قبل كبيرة كما كان يفعل والدي، لكنه زاد وزاد

حتى بدأت أتحوّل لعاجزة في غيابه.. كان يضحك بحنانٍ
كلما فشلت، لكن نظرة في عينيه تخبرني أنه كان يتوقع
فشلي وعلي أن أتقبل قدراتي فكنت أفسر تلك النظرة حنانًا
وحبًا مهما بلغ فشلي وعدم مقدرتي على القيام بشيء..

لقد بدأ يفخر بفشلي ويتباهى باعتمادي عليه، فكنت أزيد
من اعتمادي أكثر وأكثر لأرى ذلك التباهي أكثر وأكثر..

كان يدوخني من حوله شدًا وإبعادًا حتى بدأت أفقد القدرة
على فهم نفسي أو استيعاب ما أريد..

لقد تحولت أيامي إلى سعي خلف هدف واحد فقط...
إرضاءه!..

كيف ومتى بدأ التفكير في هروبنا، لا أعلم.. وكأنه أصبح
الشيء المنطقي الوحيد، والعجيب أننا بهروبنا كنا نفكر في
مصلحة الجميع.. هكذا أقنعني

فمشاعرنا لم تكن ذنب أحد ولم تكن بأيدينا فما علينا سوى
الهروب لنرحمهم ونرحم أنفسنا من هذا العذاب..

انتظرنا نعد الأيام لحين بلوغي الحادية والعشرين... وفي
تلك الأثناء بدأت علاقتنا تتخذ طابع السرية فما عاد يهتم بي
أمام أمي أو أمام أي مخلوق كي لا نثير الشكوك..

ومع اللحظة الحاسمة.. أعددت نفسي وجواز سفري ..
وخلال ساعاتٍ كنا في الخارج، تبعد بيني وبين أمي من
كانت صديقتي الوحيدة في الدنيا، الحدود والقارات..
محيطاتٍ شاسعة تفصلنا، وذنب اقترفته كسر الرابط بيننا
للأبد..

لكن لم تكن تلك سوى خطوة أولى... فقد انتظر كل منا في
غرفة فندق لحين أن تحدث الجلبة وتهب العاصفة..

انتظرنا أسبوعين شعرت خلالهما برعبٍ ينهش قلبي
وعظامي.. لكنه كان هناك يطمئني وقد كان خلال
الأسبوعين كأكثر المحبين رقة وأعظم العاشقين حنانًا..

لم يحاول تجاوز الحد معي مطلقًا لحين عقد قراننا وهذا
هو ما طمأنني تجاهه أكثر فعرفت أنني في أيدي أمينة..

وبعد انقضاء الأسبوعين... دون هاتفي أو أي وسيلة قد
تَمَكَّنَ أُمِّي من الوصول لي، اتصلت أنا بها بصوت يرتعش
وفقًا لأوامره وخطته.. كان واقفًا بجواري ملتصقًا بي.. رافضًا
الابتعاد كي تتم المكالمة على النحو الذي حدده دون خطأ أو
هفوة أو ندمٍ قد يطالني..

كيف تمكنت من النطق يومها بعجز وارتعاش شاعرة أنني
على وشك السقوط أرضًا

- أنا آسفة يا أُمِّي، فما فعلته كان الأفضل للجميع.. مشاعري

لم تكن بيدي ولم أشأ إيداءك لكن عليكِ تقبل زواجنا.. أرجوكِ
حاولي أن تتفهمني موقفي، وإن كنتِ تريدين مصلحتي
فاقنعي خالي بأن يحضر ليكون وكيلي في عقد القران.. أو
سنضطر للزواج دون علمكما.. أظنكم في حاجة للتأكد من
زواجنا رسميًا، أليس كذلك؟!..

كان بالإمكان إتمام زواجٍ مدنيٍّ بسهولة، لكنه هو من أصر
على حضور خالي وهو يصور لي رغبته أن يتم الزواج بولي
فهو لا يريد لي إلا الصواب.. وقد صدقته بكلٍ غباء

بينما كان هدفه الأساسي هو إثبات أن الزواج تم بموافقة
العائلة، أي أنه لم يخطفني ولم يُقدم على أي شيء دون
موافقتهم..

كانت تبكي وتصرخ وتتوسل عبر الهاتف.. بينما أنا أقف
مغمضة العينين أستمع لأنين احتضارها شاعرة بالموت
يحاوطني ومع ذلك لم أملك الرجوع عن قراري وكأنني
منومة مغناطيسيًا.. وكأنه الأمر المحتوم والذي لا مناص
منه..

تكلمت.. همست بصوتٍ فاتر وهي النبرة التي تحول لها صوتي للمتبقي من حياتي بعد أن كان مشعًا بالانفعالات

- إن لم توافقني.. أو إن أتيت مع خالي.. أو أقدمت على أي تصرف لإفساد تلك الزيجة فسوف نهرب مجددًا وأعدك أنك لن تعثري علي هذه المرة...

أجبرتها العائلة على القبول مرغمة.. فما همهم سوى الزواج الرسمي الشرعي في وجود خالي اتقاءً للفضيحة..

وما أن يتم حتى يتم نسياني تمامًا فأنا لا أستحق دمة واحدة تذرفها أمي من بعدي.. وقد كانوا على حق تمامًا..

وبالفعل تزوجنا.. ونفض الجميع أيديهم مني، إلا أمي التي حاولت اللحاق بي بعدها..

جاءت لتراني عشرات المرات وفي كل مرة أكون ممنوعة من لقاءها بأمره.. فأبلغت السفارة بأن زوجي يحتجزني ويرفض عودتي أو مقابلتي لها... فتم استدعائي وأصررت على عدم مقابلتها فذهبت وأكدت أنني أعيش مع زوجي

بكامل إرادتي ولست محتجزة..

وتكرر الأمر على مدار السنوات.. تحاول الاتصال بي فأرفض، تبلغ السفارة فأمتنع..

خلال تلك السنوات اكتشفت بالتدريج أنني تزوجت إنسانًا مضطربًا مرعبًا..

خلال تلك السنوات كان يتقدم في دراسته وعمله محققًا نجاحًا تلو الآخر، بينما تحولت أنا لعبدة لا وظيفة لي سوى تلبية رغباته أو سيتم عقابي..

لماذا رضيت؟...

كان كموج البحر بالنسبة لي... ليس له حال ثابت..

يذيقني العذاب أسابيع وقبيل اتخاذ القرار بالفرار منه يريني السعادة ألوان... لم أطمع سوى في نظرة الفخر في عينيه، أحاول جاهدة كي أستحقها.. تارة أنجح فأشعر وكأنني نلت أقصى سعادة الدنيا.. وتارة أفشل فتذوي نفسي

أكثر وأكثر..

مهما حاولت، كان يُشعِرني بأنني غبية لا قدرات لي، عبارته
التي حفظتها عن ظهر قلبٍ كانت

- لكل إنسان منا مقدرة محددة يا زاد.. لا يمكنكِ تجاوزها،
مقدرة بدنية ومقدرة ذهنية... لا تحاولي تعذيب نفسك
للتغلب على مقدرتك الذهنية فلن تنجحي.. ركزي على ما
حباكِ القدر به..

و ما حباني القدر به بالنسبة له هو كوني تمثال راقص
جميل، هوايته الجلوس أمامي واضعًا ساقًا فوق أخرى
ليأمرني بالرقص له على أطراف أصابعي.. أدور وأدور حتى
يكتفي...

لم أتوقف عن تمرينات الباليه يومًا بأمرٍ منه.. لكن داخل
جدران السجن الذي فرضه من حولي..

الحرمان..

حُرِمت من الأكل لأحافظ على كمال هذا الجسد كما كان يقول..

حُرِمت من الإنجاب كي لا تتشوه الصفة التي حباني القدر بها..

أقنعني أنني غير قادرة على أن أكون أمًا وصدقته.. كان يصف لي الأقراص وكنت أتناولها بلا اعتراض، حُرِمت من النوم لفتراتٍ محددة كعقاب لي حتى كنت على وشك فقدان عقلي في كثير من الأحيان..

حُرِمت من الخروج وتم احتجازي بالكامل.. حُرِمت من الهواتف وكافة وسائل الاتصال..

الابتزاز العاطفي..

أحيانًا كنت أصرخ مقررة عودتي لأمي.. حينها يتخذ أسلوبًا آخر فكان يلجأ للنبرة الحنونة الخفيفة قائلاً

- ألم تقومي بإيذائها بما يكفي؟!... هل تتخيلين لدى عودتك

أن يستقبلك الجميع فاتحي أذرعهم ..!.. لقد دنست اسم والدك وسمعته يا زاد ولن تكوني سوى امرأة محتقرة.. الشابة الوضيعة التي هربت مع خطيب أمها... هل لك أن تتخيلي مدى سوء هذا العنوان المتداول في مجتمعاتكم؟!.. ربما تترجأك عبر الهاتف باكية أن تعود إليها، لكن فكري فيها بعد الأذى الذي ألحقته بها.. أمك لن تتمكن من رفع رأسها بعد تجديد فتح الفضيحة بعودتك.. وأنت.. هل تقدرين على مواجهة الناس الآن بعد ما فعلته؟..

كان جسدي يرتعد بالفعل من مجرد تخيل المواجهة فأعود وأقنع بحياتي التي اخترتها، خاصة أنه يعود ويذيقني من كأس السعادة اليسير فأبدو كالمنومة أو المسحورة..

العلاقة الحميمة..

بيننا كانت وسيلة للثواب والعقاب.. يهجرني بالشهور لخطأ ارتكبته، ويقربني مرة حتى أنام على صدره كقطعة راضية..

قادر على جعلها أجمل لحظاتٍ في حياتي، وهو ذاته من قد يُحوّلها للغضب والأخذ بالقوة إن تمردت حيال أي شيء..

العقاب..

هذا الرجل نادرًا ما كان يلجأ للضرب فقد كانت له أساليب
مختلفة في العقاب..

أتذكر أول مرة أخطأت فيها فقال مبتسمًا بهدوءٍ غريب
ناظرًا في عيني

- عليك بالعد للألف يا زاد عقابًا لك...

ظننته يمزح فضحكت بعصبية، لكنني كنت خائفة..
فجلست على الكرسي الذي أشار له وبدأت بالعد بصوتٍ
خفيض

ثم زادت الألف فيما بعد للألفين والعشرة آلاف!..

كنت أقضي ليالي في العد بصوتٍ رتيب وباختياري.. فإما
العد وإما الحرمان من الأكل زيادة عن الحرمان الطبيعي
لغرض الحفاظ على كمال هذا الجسد..

القناع..

عقاب آخر... وهو القناع..

كلما أخطأت يتعين عليّ الالتزام بوضع القناع على وجهي
الفترة التي يحددها..

أول مرة لكل عقاب منها كنت أظنه عقاب سهل، فعلى الأقل
هذا الرجل لا يضرب أبدًا.. لكن فيما بعد اكتشفت مقدار الذل
والمهانة في كل عقاب يفرضه عليّ...حتى بثّ أمتثل لأوامره
بكل رعب.. لا أريد العد، وأخشى وضع القناع بمذلة..

كلمة غبية..

لم تكن شتيمة، بل كانت واقعًا كما كان يقول بصوت هادئ
ثابت وعليّ تقبّل نفسي بتلك المقدرة والشعور بالامتنان لأن
هناك من يعتني بي ويقوم نيابةً عني بما لا أستطيع القيام
به.. وصدقته!

على هذا المنوال كانت حياتي وبدأت أكبر..

الثانية والعشرون.. الثالثة والعشرون.. الرابعة والعشرون..
الخامسة والعشرون

سنوات تمر ولا أمل لي في الفرار من السجن الذي فرضه
على عقلي.. عامًا بعد عام أقف أمام النوافذ في انتظار
مواعيد المطر ولا أنتظر غيرها..

حتى بدأت في التمرد أكثر.. فيزيد العقاب.. تَعَوَّدْتُ القناع
فَتَمَرَّدْتُ أكثر.. أَلِفْتُ العد فَتَمَرَّدْتُ أكثر وأكثر..

تحولت لجة هامة في فراشه حين ينالني بالقوة فتصبح
القوة مجرد فعلٍ بدني أغمض عيني ليمر وينتهي الأمر.. ثم
أتمرد أكثر وأكثر وأكثر..

حينها شعر بالخطر يتسلل لقلبه.. فأصبح السجن الفعلي
بين جدران غرفتي والباب مغلق بالمفتاح والنوافذ عالية..

اكتشفت فجأة أنني أصبحت سجينة فعلية ولست مجرد
سجينة بالتلاعب العقلي والنفسي..

لكن هذا وعلى نحوٍ غريبٍ أشعرنى ببعض الراحة!!!

إنه يفقد سيطرته عليّ!!... تلك العبارة كانت كقيلةٍ لحثي
على المتابعة.. متابعة الفرار..

الكلاب الشرسة..

كان يهوى الكلاب والشرسة منها على وجه الخصوص..
لطالما ظننتها مجرد هواية، حتى بدأت بعقلي محدود
القدرات ملاحظة أن الكلبين الشرسين يعرفانه فقط... ولا
يعرفاني، فقد كنت بالنسبة لهما دخيلة على استعدادٍ لنهش
لحمي لدى أول فرصة يتمكناني خلالها..

لم أكن أراهما إلا نادرًا ومن بعيد.. أو من نافذة غرفتي...

لا يسمع نباحهما الشرس سوى حيث كنا نساكن منزلًا ريفيًا،
لا بيوت حوله..

ذات مرة وبعد صراخٍ مريرٍ مني طلبًا للإفراج عني
وتحريرى.. أمسك بكفى وأخرجني من الغرفة وأنا ذاهلة لا

أصدق امثاله أخيرًا وبعد كل تلك السنوات..

لكن ما إن خرجت حتى تسمرت قدماي وتشبثت بذراعه
مذعورة ما إن رأيت الكلبين مربوطين على باب غرفتي!..

أسنانهما مربعة يتساقط منها اللعاب الجاري فوق أنياب
كالخناجر!..

ينظران إليّ بأعين متوحشة قبل أن يبدأ في القفز والنباح
بصوت مجنون جعلني أصرخ بذعر فيزيد نباحهما حتى
دخلت غرفتي وارتيمت على فراشي أرتعش... وبعدها أغلق
الباب بالمفتاح دون كلمة واحدة منه..

العقاب الأخير..

يبدو أنه كان قد ملّ تمردي وفقد متعته في التمثال
الراقص الجميل بعدما أصبح متمردًا مزعجًا حتى وإن كان
مُقيّدًا بالجنازير، مُحْتَجَرًا بالكلاب الشرسة على أبواب ذات
مفاتيح صدئة...

لقد فقد سيطرته على عقلي وهذا هو ما أشعره بالجنون
حتى بات يتصرف بلا منهجٍ ثابت.. بلا ذكاء أو تدبير..

و حين فشلت جميع حيله، ملّ التمثال.. فأراد أن يكرهه،
ولكي يكرهه عليه أن يُفسدَ كماله الذي حافظ على نحته
بمهارَةٍ لسنواتٍ طويلة..

حتى هذه اللحظة لست أكيدة إن كان قد سهّل لي الهرب
ليُمكنَ كلابه مني، أم أنه فقد مهاراته في احتجاذي فأغفل!!..

كل ما أعرفه أنه ترك لي باب الغرفة ذات يومٍ مفتوحًا..
دون مفتاح يوصده..

بقيت وحدي لساعات وأنا أنظر للباب المفتوح مرتعبة من
تجاوزه.. هناك صمت تام خارجه..

هل أستغل الفرصة للفرار أم أنه فخ للعذاب؟!..

وأخيرًا اتخذت قراري بالحركة، جمعت أقل ما يمكنني
جمعه وتحرّكتُ أجزّ أقدامي..

البيت ساكن وكأنه مهجور!.. مما شجعتني على الخروج،
ففتحت باب البيت بسرعة وأنا ألته لا أرى أمامي سوى
سواء الحرية..

جريت بكل قوتي وأمامي هدف واحد وهو الخروج من
البوابة.. لكن وقبل أن أصل إليها سمعت وقع أقدام تجري
خلفي..

أقدام صغيرة لكنها متوحشة وسريعة.. تبعها نباحًا شرس
مجنون!!..

تسمرت مكاني لحظة واحدة قبل أن أستدير.. وإذا بي أجد
الكلبين غير مقيدين!.. يجريان نحوي والأنياب تلمع كنصال
الخناجر العادة..

عرفت وقتها أنها كانت نهايتي.. وأنه لا داعي للفرار فوقفت
في انتظارهما وكأن الأدرنالين بداخلي قد نضب كما نضبت

من جسدي الحياة..

لحظات فقط قبل أن يبدأ الألم البشع والخناجر تنهش
وجهي بعد أن وقعت أرضًا.. وقبل أن أغيب عن الوعي
سمعت نداءً صارمًا ورأيت قدمين تقتربان..

وسكتت زاد عن البكاء المباح..

استمعت إليها دنيا حتى النهاية والدموع تغرق وجهها،
قلبها يخفق بعنف وأنفاسها تتسارع وكأنها تشعر بذات الألم
المرعب تتساءل، كيف تحملت تلك الفتاة الهشة الناعمة كل
هذا القدر من الألم والبشاعة والمذلة!!..

مخفضة وجهها، يغطيها القناع الملعون وهي جالسة على
السريّر... ودنيا تجلس أمامها، تقبض على راحة يدها النحيلة
بقوة ثم سألتها بصوتٍ أجش خفيض

- وكيف هرب من الحساب؟!.....

هزت زاد كتفها وأجابت بصوتٍ بدا وكأنه مغمسًا بمذاق

- كل ما أعرفه أنني استيقظت لأجد نفسي مستلقية في مشفى.. وهناك من تخبرني أنه تم استدعاء زوجي!.. ظلت أصرخ أنه هو من فعل بي هذا، لكنه ادّعى أنه لا يملك كلابًا من الأساس، كما أرفق شهادته بتقارير عن عدم استقرار نفسي لمدة سنوات.. وبالتحقيق، لم يجدوا أي أثر للكلبين...

لقد غر علي ملقاة في طريق خالٍ وتم نسب التهمة لكلاب ضالة، حينها فضّلت دخول مصح للعلاج متمسكة بفراري رافضة أمام الجميع الرجوع معه فلم يتمكن من إجباري.. ومن هناك تواصلت مع السفارة إلى أن ساعدوني في الحصول على الطلاق بعد جولاتٍ طويلة لم يملك خلالها الكثير من المقاومة خوفًا من تكرار التحقيق على نحوٍ أكثر دقة.. وعن نفسي قررت التضحية بوجهي دون حساب للجاني في سبيل الحصول على الطلاق السريع.. ففي النهاية أنا من جنيت على نفسي وأهلي وأمي.. وقد نلت بالضبط العقاب الذي أستحق

تأوهت دنيا بصمتٍ غير مصدقة هذا القدر من جلد الذات

والعقاب المميت الذي تُخضع له نفسها يوميًا، لكن زاد لم تكن
مؤهلة لأي جدالٍ أو تصحيحٍ في تلك اللحظة.. كانت مُدمرةً
نفسياً وجسدياً

فسألتها بغضب

- وماذا يفعل الآن؟!... كيف هي حياته؟!.. أتمنى أن يكون
قطاراً قد فرم أشلاءه..

نظرت إليها زاد ثم قالت ببطءٍ شديد

- لقد عاد للعمل والاستقرار هنا في البلاد بعد كل تلك
السنوات...

اتسعت عينا دنيا وهي تهتف بعدم تصديق

- هل عاد ملاحقاً لك؟!..

هزت زاد كتفها قائلة بصوتٍ خفيض

- لا أعلم... لكني لا أظن، إنه يحب الكمال في علاقاته
وينفر من أي نقص أو تشوه.. ولقد عمد على إتلافي كي يغلق
صفحتي

شعرت دنيا بالغثيان والرغبة في التقيؤ إلا أنها تماسكت
وسألت زاد بتفكير

- أين هو محل عمله؟!.. ألا تتمنين رؤيته ذليلاً على
الأقل؟!...

صباح الخير يا دنيا

راقبها من بعيد وهي جالسة على أحد الكراسي الخشبية
الموجودة بتفرقٍ على خشبة المسرح... شاردة العينين، هادئة
الملامح

لكنه لم يكن الهدوء المحمود لملامح تعرف السلام النفسي..
بل كان الهدوء الباهت لانطفاء الشعلة المتواجدة بداخل كل

إنسان

تلك المسؤولية عن السعادة والحماس والشفغ.. ليتحول كل شيء إلى خطوة رتيبة من خطوات يوم شبيه بباقي الأيام..

اعتلى خشبة المسرح ثم اقترب منها ببطء وتردد حتى وقف أمامها ومع ذلك لم تلاحظ وقوفه وكأنها في عالم آخر!..

لكن لم يستطع الابتعاد الآن دون كلام بعد أن وقف أمامها مُسترعياً انتباه البعض، تكلم بهدوء وبنبرة صوته التي تبدو جدية رزينة دائماً

- صباح الخير يا... دنيا..

“ صباح الخير يا دنيا ”

يا له من عنوان يليق ببرنامج إذاعي صباحي يبدأ مع زقزقة العصافير من بداية نهارٍ مشرقٍ باعثاً الفرحة في القلوب المترقبة أحداثاً سعيدة في نهارٍ شاق!!

انتبهت من شرودها على صوته الهادئ فاستقامت في
جلستها مجفلة مفرودة الظهر وهي ترد بحيرة وكأنها لم
تستيقظ بعد

- صباح الخير يا أسطى حكيم.. أهلاً بك..

بدا مرتباً متردداً في اختيار الكلمات المناسبة رغم أنه
يتكلم يومياً مع العشرات على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم
وهوياتهم

ورغم الشيب الظاهر بشكلٍ لطيف على جانبي شعره إلا أنه
بدا في تلك اللحظة أصغر سناً وهو يقول مرتباً

- لن أعطلك... كنت أريد أن أطلب منك معروفاً إن
استطعت.. إن استطعت..

هزت رأسها تجاوب بصوتٍ مبهم مهذب وإن كان الحماس
ينقصه

- إن استطعت فلن أتأخر....

بدا أكثر ترددًا لكنه قال بحرج - ابنتي أمل.. سبق وكلمتك عنها وأظنك تعرفت عليها خلال ال...

صمت مقطبًا جبينه فلم يكن يود أن يأتي على ذكر تلك الأمسية تحديدًا والسبب هو تلك الغيمة التي ظلت عينيها فشردتا مجددًا وكأنها تستعيد مرارة الإهانة التي تعرضت لها أمامه هو تحديدًا..

لم يكن ليسكت الآن، عسى أن يعض لسانه اليوم سهوًا عقابًا له على تلك الخطوة غير محسوبة العواقب

اضطر للمتابعة طالما بدأ وحدث ما حدث.. فقال بلامح متجهمة دون إرادة منه

- ابنتي أمل، ذكرى مولدها تحين بعد يومين.. وأردت أن أقدم لها شيئًا يبهجها كهدية، فلم أجد أفضل منك..

بدا الغباء على ملامحها وهي تردد متسائلة إن كانت المشكلة في الاستيعاب عنده أم عندها هي!!..

- تقدمني كهدية؟!....

ارتبك بشدة وهو يلوح بكفه وقد احتقن وجهه ثم ضحك
قبل أن يتجهم قائلاً

- لم أقصد... قصدت إن تمكنت من ارتداء زيك الشبيه
بالذمية القماشية اللطيفة ذاك.. وزيارتها لتهنئتها.. لا أعلم ما
تقومون به عادةً في مناسباتٍ كتلك خاصةً وأنني لم أحتفل
بيوم مولدها من قبل فلم أظنها تهتم أو تفهم .. لكنها بدأت
تتمنى حفلة كالتي تحصل عليها صديقاتها الصغيرات و..

شعر بأنه بدأ يثرثر حتى بدا غيبًا فصمت للحظاتٍ ثم تابع
بخفوتٍ واختصارٍ ناظرًا إلى عينيها

- لقد طلبتكِ بالاسم....

بدا الارتباك الشديد على دنيا وهي تحرك رأسها باحثَةً عن
مهرب لكنه أضاف بسرعة

- سيكون الحفل في السادسة مساءً على المقهى أسفل

بيتنا..

فغرت فمها وهي تسأله وقد عادت نوبة الغباء أشد وأقوى -
على المقهى؟!!...

انعقد حاجباه قليلاً وهو يقول متردداً

- فكرت أن يكون بين أهلنا وأحبابنا... أثره مكان غير
ملائم؟!.. لن يجلس في المقهى وقتها سوى المدعوين فقط!

رمشت بعينيها وهي ترد ببطء

- لا بأس... يبدو المقهى مكاناً مناسباً..

كتمت أنفاسها للحظات وهي تسبل جفنيها ثم قالت بصوت
شديد الخفوت

- الحقيقة يا أسطى حكيم... أنا محرجة منك لكن ربما لن...

رفع كفيه وهو يقاطعها بسرعة أجفلتها

- لا بأس.. لا بأس.. أرجوكِ اعذريني، لقد عطلتكِ بما
يكفي...

حاولت الكلام لتعتذر بشكلٍ لائق لكنه كان قد استدار
لينصرف أمام عينيها النادمتين.. فتساقط كتفاها محبطة

لماذا رفضتِ إسعاد طفلة يتيمة في يوم مولدها!... ربما
لأنها لا تزال تشعر بالمذلة جراء اللحظة التي اطلع فيها حكيم
على انكسارها ومنذ تلك الليلة وهي تحاول تجنبه..

تنهدت شاعرة بالقنوط وهي تحك جبهتها بتعب، تميل
برأسها مُفكِّرةً في هاتفها الذي يحمل عشرات الاتصالات من
كريم والعديد من الرسائل..

دنيا لماذا لا تجيبيني.. دنيا أين أنتِ.. دنيا هلا تكلمنا رجاءً..
دنيا أريد أن أشرح شيئاً...

دنيا أرجوكِ.. دنيا.. دنيا..

تحولت الرسائل الأخيرة منه لمجرد نداءٍ حزيناً باسمها علَّها

تردد... لكنها لم تفعل..

أغمضت عينيها بشدة وهي تضع يدها على صدرها مُحاولَةً
التغلب على وجه المهانة والانكسار...

قاطع شرودها صوت كريم الذي دخل إلى المسرح منادياً
بصوتٍ عالٍ ارتج في الجو

- أريد الجميع هنا حالاً..

تجمّع أعضاء الفرقة في استجابة فورية كما وقفت دنيا
مسرعة حتى اكتمل عددهم في نصف دائرة كبيرة حول
كريم الذي تجوّل بعينه عليهم واحد واحد بملامح لم
يستطع أحدهم تفسيرها..

ثم توقف فجأة متأرجحاً على عقبيه وكفيه متشابكين
خلف ظهره يبادلهم النظر بغرابة طويلاً حتى قال أخيراً
بصوتٍ عالٍ

- رسمياً لدينا واحد من أكبر الرعاية في البلد سيقوم بتمويل

عرضنا..

ساد صراخ الحماس في أرجاء المسرح والجميع يقفزون
بجنونٍ صاخب فتراجع كريم للخلف منادياً بحزم وعيناه
تشعان ببريقٍ مبهر

- دنيا.. زاد... أريد عرضكما سوياً حالاً... ليبتعد الجميع عن
الخشبة ولن يبقى سوى دنيا وزاد... ستبدآن مع الأوركسترا

بدأت الألحان القوية ذات الصدى العالي مع تحرك زاد تدور
حول نفسها بسرعة قاطعة خشبة المسرح في ذات اللحظة
التي بدأت فيها دنيا بالتحليق في سماء المسرح بالشريط
القماشي وكأنها تراقصه برشاقة كما تراقص زاد تنورتها
الطويلة الهفافة بجمالٍ منقطع النظير..

إعلان جديد مختلف كل الاختلاف عن إعلان يائس سبق
ونادى مَنْ هم على هامش الحياة فجاءوا يتبعون الكلمات
التي وصفتهم تماماً فوجد كلٌ منهم فيها ملاذاً ومخبأً...

أما الإعلان الجديد فقد كان مولدًا لهم..

إعلان لعرض - دنيا زاد في شهر أغسطس المقبل.. مع تسجيل اسم الراعي الرسمي له، والأوركسترا الضخمة المصاحبة

أما الصورة المرفقة فقد كانت جاذبة للنظر الغرض منها السخرية من الأقاويل التي نالت من الفرقة الفترة الماضية.. وفي نفس الوقت أظهرت مدى براعة المصور وروحه الفنية المختلفة

كانت الصورة لأعضاء الفرقة، نصفهم مختبئ خلف الأقنعة البيضاء.. والنصف الآخر يرتدون زي مهرج واحد

أما البطلتان فكانتا مختلفتين ليتم تمييزهما، فقد كانت إحداها تشبه الأميرة، تغطي وجهها بقناعٍ ورديٍّ براقٍ..

والأخرى ترتدي زي دمية أطفالٍ، بشعرٍ من الصوف الأرجواني.. وجهها ملون بالكامل

والعجيب أن الأقنعة بدت جميعها وكأنها تضحك!!...

زفرت نسرين بضيق وهي تُبعد الهاتف عن عينيها
الحاقتين، ثم استدارت لحسام وقالت ببرود

- ابدأ حملتك بالترويج عن سرقة كريم لنفس الفكرة التي
سنقدمها...

ارتفع حاجبا حسام وهو يقول بدهشة بالغة

- ألم تكوني ضد تلك الفكرة؟!... ألن تعد مزيدًا من الدعاية
المجانية له!!..

هتفت بحدة وغضب

- الأمر الآن بات أهم من الدعاية... لقد أصبح لديه واحد
من أهم الممولين في البلد وأكبرهم والفضل يرجع لحماقتك
في إثارة الانتباه لهم...

دارت حول نفسها بعصبية في كرسيها الوثير بينما تجرأ

حسام على القول بتردد

- نسرين.. بات الأمر شخصيًا بالنسبة لك أكثر من اللازم..
دعيه يمر، كي لا تتضرر مصالحنا.. ففي النهاية لم يكن الفن
هو مقصدنا.. لنركز على المصلحة فحسب..

رمقته نسرين بعينين حانقتين يابستين.. ثم لم تلبث أن
زفرت بضيقٍ مدركة كم هو سيء طعم الخسارة..

والخسارة لا علاقة لها بالعرض الذي لم يقام بعد... بل
بهزيمة الخصم وكسر روح النجاح لديه..

سمع طرقًا على باب مكتبه، ثم دخل الساعي حاملاً علبة
مربعة وضعها على مكتبه قائلاً

- هذا الطرد وصل إليك منذ قليل يا سيد هشام..

أبعد هشام عينيه عن حاسوبه ناظرًا للعلبة باستغراب، ثم

بدأ في فتحها ببطء وأخرج ما فيها!!..

وحين فعل، امتنعت ملامحه وغامت عيناه وهو يتأملها
طويلاً...

كانت لعبة بهلوان تنظر إليه وكأنما تسخر منه!..

مضت لحظات ثقيلة بطيئة قبل أن يتحرك بمد يده ليخلع
النظارة الأنيقة عن عينيه ملقيًا بها على سطح المكتب
بإهمال..

ثم أخرج البطاقة المرفقة بلعبة البهلوان وقرأ ما كُتب عليها

- أعتذر عن قبول لعبة البهلوان.. وأرجو أن تتقبلها أنت
هدية مني لك..

شعر بحجرٍ جاثم فوق صدره وسقطت البطاقة من بين
أصابعه على سطح المكتب، ثم مال للأمام مستندًا بمرفقيه
ممسكًا اللعبة بين يديه يتأملها بعينين حزينتين.. ثم همس
بصوتٍ لا يكاد أن يُسمع

- هل تصدقين أنني أحبتك!.. ربما لو كنا في زمنٍ غير
الزمن وعالمٍ غير العالم.. ربما

ضغط زر اللعبة فبدأ البهلوان في الشقبة أمامه.. وكم شعر
في تلك اللحظة بأن اللعبة تناسبه أكثر منها فعلاً!...

- آنسة بسمه... زائرة لكٍ تنتظرك خارج بناية الشركة...

رفعت بسمه عيين متفاجئتين على صوت إحدى زميلاتهما
فسألتهما بحيرة عاقدةً حاجبيهما

- زائرة!!.. ألم تخبرك من تكون؟!..

هزت زميلتها رأسها نفياً وهي تقول

- لقد قابلتها عند الباب تسأل عنك... لكنها رفضت الصعود
معي أو إبلاغي باسمها، إن كنتِ تريدين صرفها فيمكنني أن..

قاطعتها بسمة قائلة وهي تنهض من مكانها

- لا بأس سأنزل بنفسى لأرى من تكون...

وقد عرفت من تكون بالفعل.. قبل أن تستدير إليها، فقد كانت واقفة تستند للجدار توليها ظهرها..

فتاة هيفاء رشيقة قوية الجسد، بسيطة الملبس والروح..

اقتربت بسمة ببطء وبخطواتٍ مترددة ثم همست بصوتٍ واهٍ - دنيا!!....

التفتت إليها دنيا بسرعة، ثم لم تلبث أن ارتفع حاجباها بدهشة بالغة وقالت بصوتٍ خفيض وبابتسامتها العريضة وإن بدت مترددة بعض الشيء

- بسمة!.. كدت ألا أتعرف عليك، لقد تغيرتِ جدًا!..

أخفضت بسمة وجهها مدركةً ما تقصده دنيا، فقد مضت فترة طويلة منذ رأتها آخر مرة.. خلال تلك الفترة تغيرت

بالكامل

شعرها وملابسها وحتى أسلوب كلامها.. بدت وكأنها إنسانة مختلفة، تتكلم بطريقة مختلفة.. وأحيانًا بلغة مختلفة أثناء الكلام العادي دون داعي..

جميعها كانت بناءً على ملاحظاتٍ تلقتها من خطيبها ياسر.. فقد صدقها الوعد حين قال

- اتركي لي نفسك وأنا سأغير منك حتى تليقي بأسلوب الحياة التي رسمتها لنا..

لم ترد بسمه وقد بدت محرجة للغاية، فتابعت دنيا مستدركة بابتسامة لطيفة

- تبدين جميلة في كل الأحوال....

رفعت بسمه عينيها تنظر بهما لعيني شقيقتها وكأنها تسألها عن سبب زيارتها مما جعل دنيا تسارع بالقول

- سامحيني لمجيئي دون موعدٍ أو اتصال... خشيت
الاتصال بك فترفضين زيارتي بعد ما كان مني آخر مرة...

شجبت ملامح بسمة لكنها بقيت صامتة دون كلام بينما
تابعت دنيا بخفوت

- لن آخذ من وقتك أكثر من دقيقة، فأنا أعرف أن خطيبك
اشتراط عليك قطع كل صلة لك بي... وأنا لم آت لأسبب لك
المزيد من الضرر، في الواقع لقت أتيت كي أعتذر لك عما
فعلته في حفل خطبتك...

اتسعت عينا بسمة بدهشةٍ بالغة بينما تابعت دنيا وهي تهز
رأسها

- لم يكن يحق لي إفساد فرحتك بتلك الطريقة المؤذية،
مهما بلغ ما شعرت به من ألمٍ وربما دونية.. لم يكن علي
معالجة الأمر بتلك الطريقة والتي كادت أن تتسبب في فسخ
الخطبة وفشل الزيجة قبل أن تبدأ..

لقد استغرق مني الأمر بضعة شهورٍ لأهدأ وأفكر.. يحق لك

تمامًا أن تخرجني من حياتك كل من تظنين أنه لا يُدخل إليها
إلا السوء والضرر.. بينما لم يحق لي فرض نفسي على مكانٍ
غير مرغوبٍ في وجودي فيه..

صمتت للحظات بينما تشوشت الرؤية أمام عيني بسمة
بفضل الدموع التي ماجت بهما، ثم تابعت وهي تتأوه

- لم أتخيل أن يأتي يوم أكون فيه من القسوة بحيث
أوشك على إفساد خطبة إحداهن!... فلطالما كنت فخورة بكن
جميعًا بلا استثناء.. ولم أتمنى أبدًا سوى رؤيتكن في أفضل
حالٍ وأعلى المناصب...

تساقطت أول دمعة على وجنة بسمة، فاقتربت منها دنيا
لتمسك بذراعها قائلة بخفوت

- ستكون تلك آخرة مرة أزعجك فيها، لذا سأقول شيئًا
أخيرًا... لا تغيري من نفسك إن كنتِ غير مقتنعة يا بسمة،
إن كان هناك من يرى أنكِ تحتاجين للتعديل، فتذكري أن
شقيقاتك يرينك عالية حد الفخر بك.. كما أرجوكِ ألا تقطعي
صلتك بهن.. عن نفسي لم أستقر يومًا معكن منذ زمن طويل،

لذا فإن غيابي كحضورى.. لكن بالنسبة إليهن فقد كنتن قبضة واحدة تعتمد إحداكن على الأخرى، فلا تنفصلي عن تلك القبضة لأي سبب.. هن عزوتك وسندك أمام زوجك وليس عليك الاختيار بين الاثنين..

بقيت بسمة صامته شاعرةً بالغصة في حلقها المتورم تزداد ضخامة فعجزت عن النطق بكلمة واحدة، لكن دنيا لم تنتظر منها ردًا على ما يبدو فقد تراجعت مبتسمة لتقول أخيرًا بصوتٍ هادئ لطيف

- سأتركك لعملك الآن يا بسمة وأتمنى سماع كل خيرٍ عنك..

ابتعدت حتى غابت عن عيني شقيقتها التي انسابت الدموع على وجهها بصمت فأخفضت وجهها تتأمل خاتم الخطبة في إصبعها واكتشفت كم يضايقها ثقله، والذي لم يكن خيارها من البداية

ابتسم حكيم متأملًا طفلته الحبيبة في ثوبها الأشبه

بفساتين الأميرات في كتب الحكايات وهي تتأمل قالب الكعك الكبير المزين بصورتها.. والذي تم وضعه على طاولة في منتصف المقهى بعد أن تم تخصيص مكانٍ لاحتفال أمل وصديقاتها..

ربما كانت منبهرة بقالب الكعك وتتمنى تذوقه، لكن لم يخفَ عليه الإحباط الظاهر في عينيها حين ترفعهما لتتأمل مظاهر الصمت وشعور باقي الأطفال بالملل..

ربما كانوا أصغر عمرًا من إبداء آرائهم حيال الحفل الصامت، لكن بكل تأكيد يستطيعون المقارنة بين حفلٍ كهذا وآخر حفلٍ صاحب تمت دعوتهم إليه..

تنهد شاعرًا بالأسى عليها فقد حاول إسعادها قدر استطاعته وقلة خبرته في تلك الأمور.. لكنه لم ينجح، غلّاها تتذكر له شرف المحاولة على الأقل حين تكبر..

اقترب منه حسنى تقول بحيرة

- هناك سيارة كبيرة مغطاة النوافذ وقفت على الجانب

الآخر من الطريق أمام المقهى يا حكيم.. شكلها مربب وهي تهتز بطريقة مخيفة..المكان مليء بالأطفال وأخشى أن يكون في السيارة تجار بيع الأعضاء أو ما شبهه!

استدار إليها حكيم عاقدًا حاجبيه ثم قال مطمئنًا

- سأخرج لأرى من يكون قائدها وراكبوها.. انتبهي لأمل..

خرج من باب المقهى وعيناه على السيارة المريبة لكن وقبل أن يعبر الطريق إليها فُتح بابها الخلفي وصدحت موسيقى عالية جدًا!!..

توقف حكيم عاقدًا حاجبيه بينما خرج الأطفال جميعًا ليشاهدوا ما يحدث ويعرفوا سبب الموسيقى العالية..

كانت موسيقى أشبه بتلك التي يتم تشغيلها في السيرك وصناديق الدنيا!!.. صناديق الدنيا؟!!..

انعقد حاجباه بشك سرعان ما تحول لدهشة بالغة وهو يرى الساق المغطاة بالجورب الطويل المخطط تخرج من بابي

السيارة المفتوحين قبل أن تتبعها الدمية اللطيفة وهي تخرج
متعثرة..

لقد جاءت!!... لقد كان حقًا، صباح الخير يا دنيا جدًا!!

شهقت أمل بصوت عالٍ وهي تغطي فمها بكفيها غير
مصدقة.. ضحك الأطفال جميعًا وهم يتفرجون على تلك
الدمية التي تعبر الطريق بطريقة خرقاء.. ساقاها تتقاطعان
فتتعثر لكنها لا تقع بمهارة وليونة، حتى وصلت أمام أمل
مباشرةً ثم مدت يدها مُصافحةً وما أن أمسكت أمل بكفها
حتى أخذت الدمية تنفض ذراعها بقوة مُصافحة وهي تقول
بصوتها الطفولي الرفيع

- كل عام وأنت بخير يا أمل.. بلغني أن اليوم هو ذكرى يوم
مولدك وأنتِ طلبتيني بالاسم!!...

كانت أمل تضحك من المصافحة التي كادت أن تخلع
ذراعها، لكن ما أن سمعتها حتى توقفت عن الضحك فجأة
وعقدت حاجبيها وهي ترفع وجهًا متجهًا لوالدها ثم هتفت
معتضة

- لقد أخطأت الطلب يا أبي!!... لقد طلبت الأميرة وليست
الذمية!!!..

استقامت دنيا فجأة بعينين واسعتين رافعةً حاجبيها وهي
تنظر لحكيم بدهشة فارتبك واحمرّ وجهه متوترًا وكأنه فُضح
للتو!!

ابتسمت دنيا وهي تسبل جفنيها للحظةٍ خاطفة لكنها عادت
لطبيعة الشخصية على الفور فأسقطت كتفيها وذراعيها حتى
بدا ظهرها كنصف دائرة من الإحباط كما قلبت شفتيها..

ضحك حكيم رغماً عنه على مظهرها الطريف وهي تبتعد
عائدةً من حيث أتت.. فكاد أن يناديها بلهفة ظنًا منه أنها
ستغادر بالفعل..

لكنه رآها تدخل رأسها من الباب الخلفي للسيارة تقوم
بالشد.. والشد.. والشد.. كمن يشد شيئًا ثقيلًا جدًا..

حتى تراجعت فجأة تكاد أن تسقط للخلف بعد أن نجحت
في إخراج أميرة مبهرة الجمال بشعرٍ طويل وفستان ملائكي

منفوش..

تضع على وجهها قناع وردي براق!!..

صرخت أمل بسعادة وهي تقفز مكانها تصفق بكفيها كما فعلت البنات جميعهن..

وفي منتصف الطريق الضيق بدأت الأميرة في رقص الباليه بينما الدمية تراقبها عابسة، ثم أخذت تحاول في تقليدها لكنها لم تنجح سوى في التسبب بتعثرهما معًا..

ازدادت ضحكات الأطفال والكبار المتجمهرين.. بينما كان حكيم يضحك من قلبه وهو يقف مكتفًا ذراعيه

تذمرت الأميرة من حماقة الدمية فوضعت كفيها في خصرها وهي تهز رأسها بنفاذ صبر مبالغ فيه ثم اقتربت من أمل وانحنت إليها وهي تقول بصوتٍ ناعم مبحوح غامزة بعينيها من خلف القناع

- الأميرات يربحن دائمًا.. أليس كذلك يا أمل؟...

كانت أمل في حالة من البهجة جعلتها لا تتوقف عن الضحك بفم مفتوح لا يمت للأنوثة بصلة..

أما دنيا فعادت للسيارة مجددًا وانحنت تدخل رأسها من الباب الخلفي ثم استقامت وهي تشد مناديل ملونة مربوطة ببعضها وكلما شدت يخرج مع الشريط مهرج.. ثم الثاني.. ثم الثالث.. ثم الرابع!!!..

وأمرتين إضافيتين!!!..

اتسعت عينا حكيم غير مصدقًا وهو يهمس مكلّمًا نفسه

- لقد أتت براقصين من الفرقة!!!..

صرخ الصبية الصغار فرحين بوجود مهرجين من الذكور وكأنها لم تنساهم.. وخلال دقائق تحول المقهى لحفل راقص صاحب وقد بدت أمل في حالة من الفرح لم يرها عليها والدها من قبل..

التقت عيناه بعيني دنيا فتحرّكت شفتاه بكلمة- شكرًا..

اتسعت ابتسامتها الحمراء الكبيرة لكنها انحنت انحناءة
ملوكية ترد له شكره دون الحاجة لكلمات..

في نهاية الحفل وقفت دنيا عاقدة حاجبيها بجوار زاد
وهي تراقب واحد من المهرجين وهو يحاول جاهداً تبادل
الكرات بين كفيه دون أن ينجح ولو مرة واحدة!!.. جميعها
تسقط، لكنه لم يتوقف بل كان متجههم الملامح عصبياً شديد
التركيز مقسماً على أن ينجح

فقالت دنيا بتوجس

- ما الذي يفعله مهاب؟!!..

هزت زاد رأسها يأساً قائلة- أخبرتك أنه لن يفلح في دور
المهرج.. كان عليه أن يكون ساحراً

ردت دنيا مشككة

- بهذا المستوى نخشى أن نجعله ساحراً فيحولنا جميعاً

لمجموعة من الخنافس.. تذكرتك بالخير يا كشكول، لو كان
هنا لأوقف الحفل على قدمٍ وساق..

اقترب حكيم منهما على مهلٍ فابتعدت زاد معذرة بينما
بقت دنيا واقفة مكانها مستندة إلى حافة الطاولة من خلفها..

قابلته بابتسامة عريضة، فبادلها الابتسام وفي عينيه
امتنان غريب ثم قال بصوتٍ هادئ

- لم يكن عليكِ المجيء بأعضاء الفرقة.. فقد يقتلك
المخرج..

ضحكت دنيا وهي تقول موافقة

- ربما.. لكنه أيضًا كان يتكلم عنك كثيرًا بامتنان بالغ فأنت
الوحيد الذي صبرت على الدفعات الضخمة المطالب بها
كريم.. لذا أبسط شيء نستطيع تقديمه هو إسعاد أمل في
عيدها..

لم يجبها لكنها لاحظت أن ملامحه ونظرة عينيه اختلف

فيها شيء لم تستطع تحديده لكنها آثرت الصمت فأخفضت
وجهها مبتسمة

تكلم حكيم عارضاً

- يمكنك تبديل ملابسك في شقة حسنى إن أردت..

ابتسمت حرجاً وهي تقول باقتضاب- لم أحضر ملابس..
لقد أتيت بهذا الشكل وسأغادر به..

صمت لا يجد ما يزيد به فأشاح بوجهه متأملاً الحفل بينما
كانت تتأمله مبتسمة ثم قالت معقبة بمكر

- إذن.. فقط طلبت أمل الأميرة وليست الدمية!!..

نظر إليها مجفلاً وقد بدا عليه الارتباك محاولاً الخروج
بحجة جيدة فقال عابساً- لقد أبقتك كحلٍ أخير...

مطت دنيا شفيتها وهي تومئ برأسها متظاهرة بالتفهم- إن
كان الأمر كذلك فلا بأس..

شعر أنه ربما كان قليل الذوق فأضاف متنهدًا- لقد طلبتكما
معًا.. صدقيني..

كتفت ذراعيها وهي تسأله مبتسمة بخبث - هكذا إذن؟!..
حسنًا ما هو اسمي كدمية؟..

انعقد حاجباه بشدة محاولًا التذكر ثم سألها بحذر -
نمنمة؟.. مستكة؟.. شكشكة؟..

كانت تهز رأسها نفيًا مع كل اقتراح متذمرة حتى نادى
أحدهم بقوة- ألن تأتي يا تكتكة؟...

لوح حكيم بكفه وهو يقول متنهدًا- تكتكة.. كان على طرف
لساني..

لم تتمالك دنيا نفسها من الضحك فضحك هو أيضًا.. ثم
ساد الصمت وكلا منهما ينظر للجانب الآخر بحرج متظاهراً
بتأمل الجوانب الجمالية في شقوق جدران المقهى.. حتى
قال حكيم بخفوت مبتسمًا وكأنه لا يريد للحوار أن ينتهي

- عرفت أن صديقتك قد انتقلت للسكن معكِ.. هذا أفضل من سكنك بمفردك وأكثر أمانًا..

مالت دنيا بوجهها موافقة على مضض ثم ضحكت قائلة-
حسنًا لا تعد زاد حماية تمامًا.. في الواقع أنا من أقوم بحمايتها

تبسمت عيناه وهو يقول بجدية وهدوء- أظنك تحسنين
صنغًا..

تعمقت ابتسامتها وهي تخفض وجهها ثم قالت بعفوية بعد
لحظة

- لكن الشقة متهاكة جدًا.. الجدران متآكلة تملأها الرطوبة
والأثاث رثٌ تالف.. الوضع صعب فيها بالنسبة لزاد ومع ذلك
لا تشكو مطلقًا..

التفت إليها ثم قال بجدية متبرعًا

- يمكنني أن أقوم بعمل صيانة لها..

نظرت إليه بدهشة متفاجئة، لكنها قالت بتردد

- لكنك.. لديك ورشة ضخمة مسئولة عن الأعمال الفنية الكبيرة والغالية، بينما شقتي لا تحتوي إلا على بعض قطع الأثاث المتكسرة!.. مجرد تفكيري في الأمر يعد إهانة لك..

تنهد قائلاً بخشونة- لا تجادلي كثيرًا.. في المسرح يمكنك تسليمي نسخة من المفتاح، سأرسل من رجالي من يعملون في الشقة خلال ساعات تمريناتكما..

بدت قلقة متوترة فسألها بحذر- هل أنت خائفة لدخول أغراب للشقة؟!.. بالنسبة للمفتاح سأعمل على تركيب مزلاج من الداخل لغلق الباب عليكما في نهاية اليوم، كي لا يساورك القلق من حصول غريب على المفتاح.. أما إن كنت تخشين السرقة فأنا أضمن لك من سأرسلهم..

تظاهرت دنيا بالتفكير ثم قالت بجدية

- نعم بصراحة أخشى على مقعدي المفضل ذي الثلاثة أرجل.. إن سُرِق فسأحزن فعلاً..

ابتسم حكيم ابتسامة بطيئة أخذت تتسع بينما ابتسمت
دنيا وهي تهمس متابعة بخفوت

- وربع ثريا صدئة.. كما ليكن بعلمك أنني قمت بعد طقم
الملاعق البلاستيكية كاملاً..

ضحك بصوتٍ أجش فابتسمت خجلاً ثم استقامت قائلة
بصوت خفيض

- ربما.. سأذهب لأرى زاد كي نستعد...

أوماً برأسه دون كلام وهو يتابعها بعينيه وما أن ابتعدت
حتى هجمت عليه حسنى تسأله هامسة بحدة وفضول

- ماذا تفعل يا حكيم؟!.. لماذا تغازل تلك الدمية؟!.. من أين
عرفتها بالضبط وما سر اهتمامك بها؟!..

ارتفع حاجبا حكيم وهو يكرر بدهشة

- أغازلها؟!.. كنت أبدي بعض اللياقة المطلوبة فحسب..

ردت عليه حسنى بخشونة- هناك أميرات ومهرجين، لماذا لم تبدِ بعضًا من تلك اللياقة المطلوبة تجاههم؟!..

ضحك حكيم وهو يقول بخبت يغمزها بعينه

- حسنا.. قد يكون من الصعب مغازلة المهرجين، لكنني سأعيد التفكير بالنسبة للأميرات..

هتفت حسنى بصدمة

- إذن فقد كنت تغازلها بالفعل؟!..!!!

التفت دنيا من الجانب الآخر للمقهى على صوت حسنى العالى وقد اتسعت عيناها بشدة فأولاها ظهره بسرعة مرتبكا متجههم الملامح وهو يهتف همسا بغضب من بين أسنانه

- كنت أمزح.. كنت أمزح يا حسنى!!..

إلا أن حسنى قالت بقلق حقيقي

- يا حكيم نصحتك كثيرا بالبحث عن زوجة لك وأم
لأمل، تحفظك وترعى بيتك.. ادعيت أنك زهدت الزواج
بعد المرحومة، انظر لحالك الآن يا ابني.. تدور بين العرائس
والأميرات ومجموعة من مهرجي أعياد الميلاد مغازلا!!..

نظر حكيم من فوق كتف حسنى إلى دنيا التي كانت تبادله
النظر بحذر.. ثم رفعت كفها له ملوحة وهي تبتسم .

تاريخ اليوم / قبل العرض بيومين

الاسم / ريم

لا يمكن القول أنه يتجاوز مع الحالات التي تتردد على
مكتبه بطريقة واضحة ملموسة لكنه يبدو دائما كمن يبحث
عن فريسة جديدة..

عيناه كانتا تطيلان النظر لعينيها وكأنها الأخيرة بين النساء
على سطح هذا الكوكب..

هادئًا، متزنًا.. له جاذبية معينة لا يمكن لأحدٍ إنكارها، لكن
في تعبيراته وابتسامته ما يشعر من يجالسه أنه يفوقه
أهمية وتفوقًا..

ابتساماته مدروسة، كما هو موضع العبارات التي تحتل
معنيين مدروس كذلك..

لا يزال يحدق في عينيها مبتسمًا تلك الابتسامة الواثقة ثم
قال بهدوء

- كيف تشعرين اليوم يا ريم؟..

ابتسمت وهي تجيب فاتحة كفيها قائلة

- كما أشعر دومًا.. أنني رائعة..

برقت عيناه للحظة فأسبل جفنيه سريعًا ثم سألها معقبًا

- كنتِ شديدة التوتر آخر مرة التقينا.. أترك اليوم أفضل حالا؟..

مالت بوجهها تستند بوجنتها إلى كفها وهي تتأمله مبتسمة
ثم سألته

- حين عوقبت لأنني رفضت مقابلتك خارج العيادة؟..

لم يجفل ولم يرف له جفن، بل نظر إلى عينيها وسألها
ببطء

- كيف تنظرين للعقاب يا ريم؟..

بادلته النظر بعينين جامدتين تمامًا وملامح رتيبة لا تحمل
أي تعبير ثم أجابت ببطء

- الثواب والعقاب بين يدي البشر سلاحان غاية في
الخطورة إن أسيء استخدامهما..

أحيانًا أظن أن هناك من البشر من قد يدمرون حياة غيرهم

تحت مسمياتٍ شبيهة بالثواب والعقاب في العلاقات بينهم..

بقدر ما تلبى رغباتي ستتم مكافأتك، كما سيتم عقابك إن رفضت وتمردت أليس كذلك؟!..

أحيانًا يكون العقاب كلمة مؤذية تطلقها في مقتل لتقتص ممن لم يلبي لك حاجة.. فتختار أكثر نقاط ضعفه وألمه لتصوب كلمتك الطائشة..

أحيانًا أخرى يكون العقاب حرمانًا.. تحرم من تعلو يدك فوق يده بما تملك، فتحرم وتمنع.. تخضعه للمذلة كي يدرك أنك الأهم والأقوى والمطاع..

و أحيانًا يكون العقاب استغلالًا.. وكأنك تعاقب الضعفاء على ضعفهم فتبرر لنفسك استغلالهم

أحيانًا.. وأحيانًا.. وأحيانًا.. تفنن الإنسان في ابتكار شتى وسائل الإيذاء وأسمائها عقابًا..

أما الثواب فعلى الأغلب لا يكون إلا وهمًا.. يتلقاه المُعنف

شاكراً، راضياً بالفتات

ضاقت عيناه وهو يتراجع في مقعده يراقبها بنظرة غريبة
ثم قال معقّباً ببطء شديد

- أنتِ فعلا مختلفة اليوم!..

لم تحد بعينيها عن عينيه ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وهي
ترد بفتور

- ربما بدأت في حل مشكلتي فعلا، مما يدل على مهارتك..

ضحك ضحكة قصيرة ناعمة ثم قال بهدوء

- أرغب فعلا في التعرف عليك يا ريم.. في التعرف على
المرأة التي تحمل الاسم المستعار كذلك الشعر الأحمر..

لم تفقد ابتسامتها وهي تسأله بصوت هامس

- هل تريد أن نرى بعضنا البعض خارج هذه الجدران؟..

ازداد لمعان عينيه وهو يومئ برأسه ببطء ثم أجاب

- إنه أكثر ما أردته منذ أن رأيتك للمرة الأولى وتعرفين ذلك، بل وتشعرين بنفس الشيء..

أخفضت وجهها محدقة في أصابعها ثم أومأت مبتسمة وقالت بنبرة قاطعة

- على شرط.. أن أكون أنا صاحبة الاختيار، على الأقل في المرة الأولى، مهما بلغ جنون المكان الذي سأختاره عليك الالتزام به..

ابتسم سائلا ببطء وعيناه تتربصان بالفريسة وفي عمقهما طيف انتصارٍ عجيب

- لك الخيار الأول..

رفعت وجهها ونظرت إليه للحظاتٍ ثم ابتسمت قائلة بهدوء

- السيرك.. خذني للسيرك..

الفصل الأخير

أغسطس

.. إن كنتِ تترقبين مواعيد المطر فأنا أهفو لأمواج البحر..

.. نبني قصورًا على الرمال ثم نرتمي بين أحضانه كطفلين
تعارفا منذ ساعة..

.. لا تفلت كفي أصابعك حين يطمع الموج في اختطافك..

.. تطبع الشمس على وجهك ألف قبلة.. وحتى الآن لم
أختلس من القناع سوى قبلة!..

اليوم السابق للعرض

على المسرح المقرر لإقامة الاحتفال، كان العمل يجري على

قدم وساق.. بينما كانت واقفة تتأمل ما يجري بصمت

إنه العرض الأخير، مع دقائق نهايته تكون قد اكتفت.. فأني
حياة ستختار؟!..

أتعود لسيرك سلطان أم تبقى خارجه في تلك الدنيا
الواسعة؟!.. لم يسبق لها خلال الأشهر الماضية أن فكرت في
خياراتها بعد انتهاء العرض..

تبسمت شفتاها المصبوغتين وهي تكتف ذراعيها تتأمل
الانتهاء من تثبيت الديكورات الخاصة، فلتترك ما بعد النهاية
لوقتها أما الآن فلتتمتع بالعرض الأخير الذي سيكون بمثابة
اعتزالها المشرف.. لم تكن على علم بأن هناك من يراقبها
بعينين حانيتين خاصة وهو يلمحها تمسح الدموع بظهر
كفها بينما الابتسامة الجميلة لا تزال تزين هاتين الشفتين
الواسعتين..

اقترب منها حتى وقف بجوارها يسألها باهتمام

- أهناك مشكلة يا دنيا؟!..

أجفلت على صوته فالتفتت إليه بسرعة قبل أن تمسح
المزيد من الدموع عن طرف عينيها وهي ترد مبتسمة

- كل شيء بخير يا أسطى.. أظنك أتممت عملك الأخير
هنا!..

تأمل المكان وهو يشبك كفيه خلف ظهره ثم مط شفتيه
مفكرًا وهو يقول

- تقريبًا.. لم يتبق سوى شيء واحد أو اثنين على الأكثر..

شعرت برغبة أكبر في البكاء.. كل شيء جميل ينتهي أسرع
مما توقعت!.. إنهم يرحلون بلمح البصر!..

وكأن الحياة كتبت عليها أن يمر بها كل عابر كمن قطع
تذكرة دخولٍ للسيرك.. يصفق لها منبهراً ثم يغادر بلا رجعة!..

ارتعشت شفتاها الحمراوتان مما جعله يلتفت إليها سائلاً
بدهشة، عاقداً حاجبيه

- أتبكين يا دنيا؟!...

هزت رأسها نفيًا وهي تنظر إليه مبتسمة رغم الدموع التي تغرق وجهها، في الثانية التالية مباشرة أومأت وهي تبكي أكثر فغطت عينيها بكفها مما جعله يهتف بصوتٍ خشن

- ما الذي حدث؟!... ما سبب كل تلك الدموع؟!..

كانت تضحك وتبكي في آن واحد بكل حماقة، فماذا سيقول عليها الآن؟!..

كرر حكيم قائلاً بصوت خفيض بدا وكأنه مُترجياً حنوًا

- أخبريني..

لوحث بكفها وهي تقول بعصبية ضاحكة، تبكي

- أنا فقط عاطفية أزيد من اللازم في النهايات.. ستتفرق بنا الدنيا.. كريم وأعضاء الفرقة بعد كل تلك الأشهر التي قضيناها سوياً.. حتى زاد تجمع أغراضها لتعود لأمها اليوم!..

صمتت قليلا منخفضة الوجه ولو كانت رفعته لرأت في
عينيه تعبيرًا أخرسها.. لكنها همست بخفوت متابعة

- أنت.. وأمل...

رفعت عينيها إليه ثم همست تترجاه بلطف

- هلا سمحت لها بزيارتي من حينٍ لآخر؟!..

لكنها سكنت وقد تاهت النظرة في عينيها للحظة ثم قالت
باختناق متابعة

- هذا إن كنت سأستقر.. فربما عدت للسيرك ليبدأ رحيلي
معه من جديد، حينها ستكبر أمل كل مرة أراها فيها حتى
يأتي اليوم الذي تطلب منك أن تعتذر لي نيابة عنها فقد
كبرت على هذا!!..

تكلم حكيم قائلاً بصوتٍ هادئ وإن كان قد بدا مُتَحَشِرَجًا
بعض الشيء

- أنتِ محملة بالكثير من الأسى اليوم!..

ضحكت باختناقٍ وهي تغص بحلقها ثم قالت ممازحة

- ألم أقل لك أنني عاطفية أكثر مما ينبغي في النهايات!..

أخذت نفسًا عميقًا لتتمالك نفسها ثم أضافت بلطف

- هيا اذهب وأنه المتبقي من عملك و.. شكرًا يا أسطى على كل شيء وعلى الذكريات الجميلة..

أوما برأسه موافقًا لكنه لم يبتعد بل قال أخيرًا بهدوء

- قبل أن أغادر، أريد منك معروفًا يا دنيا.. إن كان في استطاعتك بالطبع..

هتفت بسرعة وحرارة وهي تمسح وجهها- أنا تحت أمرك.. سواء كدنيا أو كتكتكة.. أي شيء..

نظر في عينيها مباشرة ثم طلب بجدية شديدة - هل

يمكنني أن أتزوجك؟...

فغرت فمها محاولة استيعاب ما نطق به للتو!!.. ماذا قال؟..

وبالفعل انتقل السؤال إلى طرف لسانها فهمست بغباء- ماذا طلبت؟!..

زم شفتيه ثم تنهد مكرراً- هل يمكنني أن أتزوجك؟!..

اتسعت عيناها بصدمة وهي تنظر إليه تحاول التأكد إن كان هو من يطلبها للزواج فعلا!!.. الزواج؟!..

ازدردت لعابها وهي تكرر طلبه قائلة

- هل يمكنك أن تتزوجني؟!.. أي صيغة تلك؟!..

هز كتفيه قائلاً بخشونة- ترفقي بي فهي المرة الثانية لي فحسب..

الآن شعرت بقلبها يخفق بجنون، لم يسبق لها أن تصورت

الأسطى حكيم في موقف كهذا.. يطلبها للزواج!!!..

لقد كان بالنسبة لها مجرد أخ!!!.. ماذا تقول له الآن؟!..

لكنها لم تجد الفرصة للقول فقد بادرها قائلاً بتفكير عميق

- هناك مشكلة واحدة.. ممن يمكنني أن أطلب يدك؟!..

أجابته دنيا ببديهية - من جلال.. إنه مدربي في السيرك
عمري كله تقريبًا، وهو بمثابة والدي..

نظر إليها بجدية ثم سألها باهتمام وكأنما يتباحثان حول
وسيلة المواصلات المثالية التي قد تأخذهما الاثنين بأجرة
نفر واحد

- لكن كيف أصل إليه وهو كما تقولين في رحلة طويلة منذ
أشهرٍ يتنقل من مكان لمكان!.. ربما لو أعطيتني رقم هاتفه..

سارعت تقاطعه قائلة- لقد عاد سيرك سلطان منذ أيام..

تنهد حكيم مرتاحًا وهو يقول بهدوء- الحمد لله، إذن خذي
لي موعد معه كي آتٍ وأطلب يدك..

نظر في ساعة معصمه ثم قال بحزم

- علي الذهاب، لا يزال أمامي الكثير في الورشة.. عامة
سأتصل بكٍ لنتفق.. اعتنِ بنفسك

أومأت برأسها ببطء فاعرة فمها ثم استدارت ما إن ابتعد
لكنه رجع بسرعة يناديها فالتفتت إليه بعينين واسعتين
لتسمعه يسألها مقطبًا بقلق

- أنتِ لا تمانعين الزواج من رجل لديه بنت.. أليس كذلك؟..

هزت رأسها نفيًا وهي تقول ممازحة

- زوج وابنة مرة واحدة.. إنها صفقة رابحة في حال لم
أستطع الإنجاب..

نظر إليها ببلادة للحظات مما جعلها تستدرك برهبة وهي

تومئ برأسها

- كما أنني أحب أمل..

ابتسم حكيم ابتسامة عريضة مرتاحة ثم أضاف بصوتٍ هادئ حنون

- وهي أيضًا تحبك.. تحبك كدنيا.. وتحبك كتكتكة.. أتعلمين أنها حتى هذه اللحظة لم تكتشف أنكما شخص واحد؟!..

ملأت العاطفة عينيها وهي تهمس مبتسمة بنعومة

- دعها تستمتع بالحلم أطول فترة ممكنة..

ابتسم لعينيها ابتسامة أرسلت الرجفة في أوصالها للدرجة التي جعلتها عاجزة عن رد الابتسامة بمثلها للمرة الأولى، خاصة حين غمزها بعينه ثم انصرف!!.. لقد غمزها الأسطى حكيم بعينه!!..

سارت بخطواتٍ مترنحة حتى وصلت إلى مجموعة من

راقصات فرقة عرض دنيا زاد وهي لا تزال فاعرة فمها ويدها
على صدرها الخافق فسألتها تسنيم بقلق

- ماذا بك يا دنيا؟!.. هل أنت بخير؟!..

جالت دنيا بعينيها الذاهلتين بينهن ثم همست ببلادة -
أظنني خطبت للأسطى حكيم للتو!!..

صرخن جميعًا في نفس واحد بينما هتفت رانيا مصدومة

- كيف حدث هذا؟!..

فتحت دنيا كفيها وهي تقول بصوت غير ثابت

- كنت أكلمه عن تأثري بالنهايات، فطلب يدي.. أظن بدافع
الشفقة!..

شدت تسنيم على ذراع دنيا قائلة بإعجاب وتقدير

- تقنية ممتازة يا دنيا، أحسنت.. استمري على هذا المنوال..

أطبقت دنيا بكفها فوق فمها الفاجر بينما اتسعت عيناها
أكثر وهي تنفجر في ضحك مصدوم.. في حين بدأ الجميع
في الدوران حولها يرقصن ويغنين لخطبة بطلة عرض
دنيا زاد!!..

لفت انتباهها فتح البوابة فرفعت وجهها عن الكتاب
الممسكة به وهي تجلس على الأرجوحة تقرأ بلا حماس..
تعيد الصفحة مرة واثنين دون أن تفهم شيئاً..

ضاقت عيناها وكأنها تحاول التأكد من هوية الزائر.. تلك
الهيئة الأنثوية المألوفة لقلبها وعينيها وهي تدخل من البوابة
تجر معها حقيبة وردية صغيرة!..

نهضت جيهاً ببطء من فوق الأرجوحة فوق الكتاب أرضاً
لكنها لم تهتم له.. كان اهتمامها منصب بالكامل على ابنتها
التي دخلت بهدوء رافعة وجهها لتلتقي عينيها بعيني أمها،
لكنها لم تتوقف بل تابعت سيرها بخطوات ثابتة..

صحيح أنها لا تزال تغطي وجهها بالقناع لكن لم يعد مهما
بالنسبة لها.. فلتعود بالشكل الذي تحب وتختار، المهم أنها
عادت..

توقفت زاد أمامها للحظات طويلة ثم قالت بصوتٍ هادئٍ

- أشعر بالتوتر بسبب العرض، وفضلت المبيت ليلته
بجوارك..

ارتعشت شفتا جيهان فغَطَّتها بأصابعٍ أكثر ارتعاشًا بينما
امتلأت عيناها بالدموع.. بينما تابعت زاد هامسة

- اشتقت لكِ يا أمي...

اندفعت جيهان لتضمها باكية بقوة بين أحضانها فأطبقت
زاد جفניה بشدة وهي تحفر أصابعها في خصر أمها ثم
همست باختناق

- أنا آسفة على ما فعلت بحقك.. آسفة على السنوات التي
ضاعت وعلى الأذى الذي تسببت لكِ به.. لن أغفر لنفسي

الذنب الذي اقترفت حتى الممات يا أمي

لكن إن كان هناك شيء واحد لست آسفة له، هو أنني
أخذت مكانك غصبًا في عرين الشيطان..

انتحبت جيهان وهي تهمس بصوتٍ محتضر تشدد من
ضمها لزاد

- هل يفترض بكلامك هذا أن يريحني؟!..

ابتسمت زاد من بين دموعها وهي ترد بخفوت

- لا.. لكنه يُريحني أنا، إنها الفكرة التي تمسكت بها خلال
السنوات كي أتمكن من الصمود دون قتل نفسي.. وجدت
بين الدنس فكرة آمنة.. وهي أنك سالمة آمنة وبعيدة.. بينما
استحقيت أنا ما جنته يداي، صدقيني يا أمي الحياة عادلة
أكثر مما نظن..

شدتها جيهان غير قادرة على إيقاف اهتزاز جسدها بفعل
البكاء الناعم، فجلست على الأرجوحة وأجلستها بجوارها،

بين أحضانها.. لكن زاد أخفضت رأسها حتى استقرت بها على
حجر أمها التي أخذت تمشط لها شعرها بأصابعها برفق..

ثم همست بصوتٍ ضعيف

- احكِ لي يا زاد.. كل شيء..

لعلت دمعة انسابت بين شفتيها وردت بخفوت - لا شيء
ليُحكى.. أريد النسيان والمضي في حياتي

أصابع أمها كانت كالنعيم وهي تتحرك بحركة دائرية بين
خصلات شعرها كما كانت تفعل في طفولتها..

ساد الصمت طويلا لا يقطعه سوى صوت حفيف أوراق
الأشجار وكأن كلا منهما تخشى زوال الحلم الآمن..

شردت وهي تنظر من نافذة سيارة الأجرة للطريق المظلم
قليلاً وقت المغيب.. تشعر بوجوده المقزز بجوارها حتى أن

جسدها بالكامل كان مقشعراً..

تتذكر البداية..

كانت البداية شهر مايو الماضي.. ولم يكن متبقيًا على العرض وقتها سوى ثلاثة أشهر فقط

حين بدأت أول جلسة لها وهي تضع الشعر الأحمر المستعار.. على الرغم من أنها سمعت الكثير وأهلت نفسها لمقابلة الشيطان، لكن ظل إحساس يراودها بالجهل حيال ما ستواجهه..

ترى هل للشيطان وجه واحد ثابت؟!.. أم أن له وجوه عديدة مختلفة؟!

أتراه منتشر حولنا في هيئة أتباع له، صورهم طبيعية بينما هي في الأصل مجرد أقنعة يخفون خلفها وجوههم الشيطانية!!

وهذا الرجل الذي ستقابله خلال دقائق هو واحد من أتباع

الشیطان بلا شك..

لقد حفظت كل تفصیل سمعت عنه من زاد.. درست
شخصيته كما لم تدرس في حياتها، لكنها لم تكن في حاجة
لدراسة التمثیل

فهي تجيده بالفطرة منذ نعومة أظافرها..

تذكرت وقوفها أمام باب العيادة على وشك اقتحام عرين
الشیطان كما تلقبه زاد، إلا أنها توقفت ما أن لمحت الفراشة
الساكنة حول عنقها..

فسارعت تفك السلسال ثم دستها في حقيبتها وعدلت
من وضع النظارة السوداء الكبيرة فوق عينيها ووجهها ثم
دخلت..

نعم إنها عينا شیطان!!

كان أول ما لاحظته حين نهض من خلف مكتبه هو النظرة
التي ثبتها عليها وكأنه مبهورًا!!..

يقدر كمال الجسد كما كان يقول لزاد دائماً..

ثم أجبر نفسه على التحكم بانفعالاته وبالبدا بالجلسة
بمنتهى الرزانة والثبات.. تماماً كما برعت هي في تمثيل
دور المهتزة المضطربة فتحوّلت الأسابيع التالية بينهما إلى
جولاتٍ في حربٍ يحاول كلّ منهما تقديم ما يجيده فيها..

لقد بدأ يرى فيها فريسة جديدة لتتوب عن تمثاله المشوه
والذي أحسن تشكيكه لثمانى سنواتٍ كاملة قبل أن يتمرد
عليه في النهاية..

لكن الشيطان لم يعد في كامل قوته وأوج مجده.. فكما
كبرت زاد، كبر هو أيضاً مقارباً الخمسين من العمر أو أقل
قليلاً..

وربما لو كان أصغر سناً لما استطاعت الانتصار عليه في
معركة اعتاد الفوز فيها.. التلاعب .

- فيما تفكرين؟.. أنت بعيدة تماماً!..

أفاقت من شرودها على صوته وهو يجلس بجوارها في
سيارة الأجرة، فابتسمت له في الظلمة وهمست

- كنت أفكر في بداية لقاءاتنا...

مال في جلسته متكئا وهو يرمقها بالنظرة الكاشفة اللامعة
والتي تجعل جسدها ينفر ويشمئز لكنها رسمت الهدوء
والابتسامة على وجهها بمهارة ثم تابعت بنعومة

- هل تصدق مرور ثلاثة أشهر؟!.. ثلاثة أشهرٍ تمكنت من
إيقاعي في شباكك خلالها..

ضحكته الثقيلة الواثقة زادت غرورا وزادتها نفورا ثم قال
بصوتٍ أجشٍ ثقيل

- وربما كنتِ أنتِ من تمكنت من الإيقاع بي...

ضحكتها كانت رنانة وهي ترجع شعرها الأحمر لخلف
ظهرها ثم رفعت حاجبا خبيثا وهي تقول بلطف

- هذا اعتراف خطير من شخصٍ نرجسي مثلك!!..

تجمدت الابتسامة على شفثيه وكأنها تحولت إلى ابتسامةٍ من جليد، لكنه حين تكلم أمر بنبرة مهينة ساخرة

- لا تقولي ما لا تفهمين معناه..

تعمقت ابتسامتها حتى ضحكت بخفة تحت أنظار عينيه الباردتين ثم هزت رأسها نفيًا وهي تقول بجفاء

- لا أنت لست نرجسيًا، فهؤلاء نقابلهم يوميًا حتى اعتدنا التعامل معهم مجبرين.. أما أنت فأخطر من هذا وأكثر اضطرابًا

اشتعلت عيناه للحظة كما توترت شفثاه.. فإن كانت قد علمت عنه طبع محدد، فهو عدم قدرته على تحمل الصفات السلبية

فتوجيه الانتقاد له يجعله مضطربًا بالفعل..

لم تسنح لهما الفرصة لمتابعة الحوار فقد توقفت السيارة أمام خيمة السيرك الضخمة.. خرج أمامها وهو يتأمل ما حوله بعينين جامدتين غير راضيتين وكأنه يأنف مما يرى، فسألته مبتسمة بسخرية تحته على الدخول

- أراك متوترًا، هل يمثل لك السيرك عقدة من الطفولة؟!..

انتقلت عيناه إلى عينيها ثم سألها بنبرة استهانة

- ينبغي علي أنا أن أسألك نفس السؤال، فأنت من أصرت على إحضارنا إلى هنا..

ضحكت بصوت عالٍ وهي تتقدمه بعدة خطوات ثم تدور حول نفسها لتواجهه فاردة ذراعيها لتهتف

- هيا ابحث في طفولتي يا حضرة الطبيب المحنك..

ضحك ضحكة قاسية صغيرة وهو يتبعها، فأوشك على التوجه لأماكن جلوس الجمهور، لكنها أمسكت بساعده فجأة تشده للجانب الآخر هامسة بنبرة سرية والخبث يتلاعب في

عينها

- تعال لتسلل، علنا نطارد أشباح الطفولة..

عبس وهو ينظر حوله قائلاً برفض متوتر

- كفي لهوًا يا ريم.. تعالي لنجلس بين الجمهور كي لا نسمع كلامًا سخيًا من أناس لا يساوون الكثير..

تحول بريق عينها لتيارٍ كهربى مخيف وقد اختفت الابتسامة عن شفتيها وقد بدت ملامحها في تلك اللحظة باردة مهددة ثم دون كلامٍ استدارت توليه ظهرها لتتابع طريقها البعيد عن أماكن جلوس الجمهور..

فما كان منه إلا أن تبعها وهو ينادي بصوتٍ غاضب

- ريم.. تعالي هنا.. ريم

لكنها لم ترد عليه وكأنها لا تسمعه بل مشت في خطواتٍ سريعة رشيقة حتى بدا في الابتعاد فعليًا عن أماكن

التجمعات وتواجد إما اللاعبين أو أفراد الجمهور!..

ضاقت عيناه وهو يميل برأسه متسائلًا عن سر معرفتها لطريقها دون أن تميل بوجهها يمينًا أو يسارًا وحين أوشك على أن يناديها مجددًا شعر فجأة من يهجم عليه ليكبل يديه خلف ظهره بقوة حديدية!..

ومن هول المفاجأة لم يستطع التصرف للحظة، وكانت تلك اللحظة هي كل ما احتاج إليه مهاجمه كي يباغته مجددًا بكتف فمه بشريطٍ لاصق ثم غطى وجهه بشوَالٍ أسود!!

حاول الصراع بكل طاقته إلا أن المهاجم المجهول كان أقوى وأضخم منه جسديًا على نحوٍ واضح، حتى أنه حمّله مقيّدًا ليلقيه فوق كتفه ثم تحرك به بمنتهى البساطة وكأنه يحمل شوَالًا من الأرزا!..

ما الذي يحدث؟!.. من يجرؤ على معاملته بتلك الطريقة؟!..

ظل يقاوم ويصارع بينما حامله هادئ الحركات تمامًا، مسيطرًا عليه بدرجة جعلته على وشك الإصابة بالجنون..

ثم فجأة توقف الرجل الذي يحمله ليلقي به أرضاً بإهمال
ثم تركه وابتعد وفقاً لصوت خطواته التي اختفت تدريجياً!..

صارع كي يستقيم في جلسته قدر الإمكان وهو يستدير
حول نفسه لاهثاً محاولاً فك وثاقه دون جدوى..

ما الذي يحدث؟!..

صوت غريب بدأ يتسلل إلى أذنيه جعله يتوقف عن الحركة
تماماً.. صوتٍ أشبه بصوت.. حيوان!!..

ورائحة أغرب.. رائحة تزكم الأنف وكأنها رائحة لحم عفن!..

ازدرد لعابه شاعراً بالعرق البارد يتصبب على طول ظهره،
ثم انتفض على صوت يبدو كمزلاج حديدي ضخمة!..

ثم حديد يزاح وكأنها بوابة زنزانة تفتح!!..

انتفض مستديراً بوجهه وبعينه الواسعتين تحت الشوال
الأسود عاجزاً عن رؤية أي شيء، لكن حواسه الأخرى حية

الآن أكثر من أي وقتٍ مضى..

هناك خطواتٍ بطيئة تقترب منه.. انتفض مستديرًا الجهة
الأخرى مرهفًا السمع الخطوة الواحدة يتحرك لها قدم، اثنان،
ثلاث

أربع أقدام!!!..

جحظت عيناه مستوعبًا أن هناك حيوان يقترب منه،
مصدرًا صوتًا خفيًا.. هذا الصوت ترافق في ذهنه مع صورة
أنياب حادة ولعاب..

ما نوع الحيوان؟!.. ما هو نوع الحيوان الذي يقترب منه!!..

انتفضت ساقه فجأة حين لامس الجزء المكشوف منها بين
حافة بنطاله والجورب شيء رطب.. شيء رطب يتشممه..

الحيوان المجهول يلامسه!!..

بدأ يصرخ وينتفض.. لكن لا صوت يخرج له، خاصة أنه بدء

حفل السيرك في الخارج مع مكبر الصوت وصخب الجمهور..

ومع صوت الصخب انطلق فجأة زئيرًا قريبًا من وجهه
جعله يقفز في جلسته صارخًا بجنون..

أسد.. إنه أسد!!..

أقدام أخرى تقترب وصوت لاسع بجواره جعله يتوقف عن
الحركة تمامًا كالمشلول.. لقد كان سوطًا لاسعًا ضرب الأرض
بجواره!!..

تسمر مكانه متوقعًا أن تكون الضربة المقبلة على وجهه لذا
التزم الطاعة والسكون التام وهو يلهث محاولًا استيعاب هذا
الكابوس الذي ألقى فيه..

الأسد يبتعد.. يتراجع.. صوت المزلاج والبوابة يغلقان من
جديد، ثم خطوات أخرى تقترب..

خطوات أنثوية وصلت إليه ثم توقفت قبل أن تجثو
صاحبتها على عقبيها أمامه لتهمس بسخريّة في أذنه

- لست مخيفًا الآن، أليس كذلك!!...

ريم!!.. إنه صوت ريم!!..

لماذا تتصرف بهذا الشكل؟!.. أتراها مجنونة بالفعل وقد أغفل عن الانتباه لحقيقة اضطرابها العقلي!!..

انحنت إليه مجددًا وتابعت بنعومة

- ألم أخبرك أنني أهوي التحكم في الرجال والسيطرة عليهم، خاصة إن كانوا مرضى مشوهين مثلك!..

صرخ بعلو صوته محاولاً فك الرباط الذي يقيد قدميه كما لوح بساقيه فابتعدت عنه ضاحكة، ليضرب صاحب السوط الأرض بجواره مرة أخرى فتسمر ممتنعًا عن الحركة..

شعر بها تدور من حوله ببطء وكأنها تتأمله متلذذة بذله وهوانه ثم جثت على عقبها مجددًا وهمست في أذنه

- لو كان الأمر بيدي لألقيتك للأسد ووفرنا حمارًا.. لكن

للأسف، حُسِبَت علينا مضطربًا..

ولدت بعجزٍ في ساقك وتغلبت عليه، فكان هذا مدعاة
للفخر لكنه حولك إلي مهووس بكمال الجسد لكثرة ما
تعرضت من تنمر.. نشأت في بيئة فقيرة، وما المشكلة؟!
جميعنا كذلك.. إلا أنك وعوضًا عن الشعور بالامتنان لما
وصلت إليه بعد الحاجة والعوز تحولت لحاقِدٍ حاسد تراقب
حياة الآخرين للدرجة التي تجعلك تقلد حتى أسلوب كلامهم
وتسرق حياتهم بالكامل إن أمكنك..

كبرت على خلل أخلاقي يخص أقرب الناس لك وهي
والدتك، فكان عليك أن تتمسك أنت بالأخلاق لا أن تسلب
الشرف وتدنس الأعراس حتى وإن كنت تلجأ للزواج.. ستظل
مدنسًا للأعراس..

لم تعرف سوى ذل العقاب، فما كان عليك أن تُذِقه لغيرك،
لكنك تحولت لمهووسٍ جائع لرؤية الذل على وجه من
يقع بين يديك.. لم تكن لتظن أن ترتكب جريمة في نهاية
المطاف، لكنك فعلت.. كنت تظن أن العقاب النفسي كافٍ
بالمهارة الكافية.. لكن ها أنت أثبت فشلك وحين تمردت

عليك الضحية بعد سنوات من التمرين والإخضاع أخرستها
بالإيذاء الجسدي الأخير..

لقد شوهت قطعتك الفنية الجميلة كي تكرهها، وهذا هو ما
حدث.. إنك حتى لم تحاول ملاحقتها أو السؤال عنها!..لقد
كرهتها لأنها لم تعد بذات المواصفات القياسية التي وضعتها
لنفسك.. أنت مجرم مضطرب خسيس ولحمك قد يسمم
الأسد.. لكننا سنترك مصيره للقدر.. إما أن يفترسك، أو يكتب
لك عمر جديد..

شعر بها تبتعد عنه بعد أن كان يرتعد خوفاً وذلًا.. كلماتها
كانت عارًا لا يمكنه احتماله، خزيٌّ كخزي معاقبته بالوقوف
عاريًا كيوم ولدته أمه في ساحة بيتهم الريفي الفقير في
طفولته..

كان يرتعد لتصطك أسنانه متذكرًا برودة الجو.. والآن في
عز الصيف يشعر بصقيع يجتاحه ويجعله ينتفض متعرقًا
كالمحموم

ها قد عاد صوت المزلاج والبوابات تفتح.. والأربع أقدام

تقترب منه ببطء ثم الزئير المرعب للدرجة التي جعلته يبлл
نفسه في هذا العمر..

هدر صوت رجولي خشن

- شيكو.. شيكو..

ابتعد الأسد عنه قليلا ثم بدأ يدور من حوله تمامًا كما كانت
تفعل ريم منذ قليل.. رائحته تزداد قربًا!!!..

اتسعت عيناه بذعرٍ وهو يشعر بوجه الأسد يرتاح على
وجهه فوق الشوال الأسود متفقدًا نوع الفريسة.. وكانت
المرّة الثانية التي يبلل فيها نفسه خلال دقيقة واحدة..

عرض دنيا زاد.. العرض الأخير

أسرعت دنيا تجري بخطواتٍ سريعة حتى اتخذت مكانها
بين أعضاء فرقتهما بجوار زاد رافعة رأسها مشدودة الجسد

تحرك كريم ببطء وكأنه قائد عسكري يتفقد جنوده واحدًا
تلو الآخر، لكن على ملامحه كان هناك تعبير لم يروه من قبل

تعبير أكبر من الامتنان وأشد من الفخر..

ملأ صدره بهواء صيف أغسطس مجيلاً عينيه فيهم..
يبدون شديدي الجمال، بأزيائهم الناعمة وأجسامهم المثالية
بعد مشقة وعذاب.. زينة وجوههم ملوكية والنظرات في
أعينهم سيوف تقطع..

توقف كريم مبتسمًا ابتسامة مهيبة ثم قال بهدوء على غير
عادته

- اليوم، والآن تحديدًا هي لحظة انتصاري على نفسي.. لن
أقول انتصاري على من غدروا بي، بل هي لحظة انتصاري
على نفسي.. فأكبر عدو لك هو نفسك إن سَلِطْتَ عليك..
ونحن جميعًا وأنا أولكم، سَلِطْتَ علينا أنفسنا لوقتٍ طويل..
لكن اليوم تحديدًا انتصرنا عليها.. كان تحديًا مجنونًا وليس

إعلانًا يائسًا.. لقد راهنت على الربح بكم، فربحت الرهان وربحتكم.. أنتم أعظم إنجاز قمت به في حياتي، حتى بات العرض نفسه ضئيلاً جدًا مقارنة بما تم خلال الأشهر الماضية، لنقل أنه تحول لمجردٍ تنويعٍ للمجهود الجبار الذي قمنا به.. فريق دنيا زاد، كنتم أجمل من مرنت في حياتي.. كنتم أشجع من خاض مجهولاً بضراوة.. قد يكون هذا هو العرض الأخير لبعضكم.. إلا أنني لا أراه بهذا الشكل، دنيا زاد هو البداية الجديدة لكل واحد منكم فاغتنموها

صمت قليلاً وهو يشعر باختناق، فسعل ليجلي صوته رافعاً رأسه ياباء ثم قال بلباقة تليق بالحلة الرسمية التي يرتديها

- فريق دنيا زاد.. تقدموا لأماكنكم استعدادًا..

أوما لهم بتحية أنيقة ثم صفق ليتحركوا واحدًا تلو الآخر رافعي رؤوسهم..

تأخرت دنيا قليلاً ممسكة بساعد زاد تمنعها عن الحركة وما أن خلا المكان من حولهما حتى أخرجت هاتفها وهي تقول بخفوت

- يمكنك مشاهدته مرة واحدة قبل أن أقوم بمحوه، فهو دليل ضدي..

أعطتها الهاتف فأمسكت به زاد تتأمله بعينين تهتز حدقتاهما، فاعرة شفتيها.. تهز رأسها بعدم تصديق، حتى همست بصوتٍ مبحوح

- كيف يبدو بمثل هذا الضعف؟!.. أهذا الرجل الهزيل هو من أذاقني الذل والمرار سنوات طويلة!!..

تنهدت دنيا هامسة بسخرية وتقزز

- إنه أجبن من الجبن.. لقد اعتمد على ضعفك، لا قوته..

أومأت زاد ببطء بينما كان صدرها يخفق بشدة شاعرة بلذة عجيبة، فتابعت دنيا تقول بنبرة مرحة

- بالكاد قلت ما حفظت.. حتى أنني لم أفهم الكثير منه..

التفتت زاد إليها تتأملها طويلا من خلف القناع ثم ودون

مقدمات رفعت ذراعيها لتحيط بهما عنق دنيا تحتضنها
برفق..

تسمرت دنيا للحظة ثم ابتسمت وهي تربت على ظهرها
مشجعة.. وقالت بصوتٍ مُتَحَشِّرَج كي تكسر تلك اللحظة
خوفًا من بكاء إحداهما بعد أن تجهزتا للعرض

- سيظل هذا سرًا بيننا،... لن يعرف به أحد سواء والدتك أو
حتى ابن صاحب البيت.. اتفقنا؟..

ابتعدت عنها زاد وهي تومئ برأسها، طارفة بعينيها كي
تبعد دمة خائنة عنهما ثم قالت وهي تناولها الهاتف

- قومي بحذفه يا دنيا، فقد اكتفيت حد التهمة..

استحق العرض الضخم كل لحظة تعب بذلت في التحضير
له، رقصت زاد ولعبت دنيا في الهواء بتناغمٍ معها ومع الفريق
في قصة مكونة من عدة حكايا.. إحداها كانت اللوحة والتي

سبق وقدمتها زاد..

كان الجميع في انتظار الفضيحة الكبرى لتكرار الفكرة كما روج للعرض، لكن لو كانوا يعرفون كريم لطفي جيدًا لأدركه أنه لم يكن ليكرر حتى نفسه.. حتى ولو ردًا للظلم، ما كان ليقبل بالتكرار خيارًا..

تم بث عرض دنيا زاد على الهواء على الكثير من القنوات الفضائية فنال من النجاح والشهرة أضعاف ما تخيلوه..

حين وقف أعضاء الفرقة يحيون الجمهور في النهاية دوى التصفيق عاليًا ومن بين المتواجدين قفزت جيهان تصفق بضراوة وهي تبكي..

لقد اختارت زاد تقديم العرض بالقناع ولم يعترض كريم.. أما الباقي ففضلوا وجوههم، واثقين فيها.. فخورين بها..

الجرح على وجه زاد كان أبعد من مجرد قطوع مقطبة.. كان خزيًا وعارًا.. انتقلا بالعدوى منه إليها ولن يزولا إلا بالعلاج

من بين الجمهور طافت عيناها تبحثان عنه.. لكن العدد كان
من الضخامة بحيث لم تقدر على التركيز وإيجاده..

ابن صاحب البيت لم يحضر.. وإن حضر فقد رحل!..

.....

- يا سيدي إن كان المتكلم مجنون فالمستمع عاقل إن شاء
الله.. أي أسد تتكلمان عنه؟!.. أسد حقيقي بأنيابٍ وأسنان؟!..

أجابها الضابط الجالس خلف مكتبه

- يتهمك الدكتور ياسين باختطافه وتقييده ورميه
للأسد.. ثم إلقائه على الطريق

كانت دنيا جالسة على الكرسي أمام مكتب الضابط.. خلفها
يقف العم بدوي مدرب الأسود بضخامته وخشونة ملامحه..

أما في مواجهتها كان يجلس الدكتور ياسين أبو الخير
طليق زاده.. ينظر إليها بعينين ناريتين تهتزان بعدم ثباتٍ

من شدة الجنون والشعور بالعار.. بينما كانت تنظر في عمق
عينيه بكل هدوء وثبات وعلى زاوية شفتها يوجد التواء
ابتسامة ساخرة..

كررت دنيا بذهولٍ وبلادة

- رميه للأسد؟!....

التفتت خلفها إلى العم بدوي وضحكت فضحك هو أيضًا
ضحكة تناقضت مع خشونة ملامحه.. كما اهتزت عضلات
صدره الضخمة..

ارتفع صوت الضابط يقول بصرامة

- كفى ضحكًا، إنه تحقيق بخصوصِ اتهامٍ خطير لكما.. نحن
لا نمزح..

رفعت دنيا كفيها متطابقين وهي تقول بهدوء وصبر

- يا سيدي هل تسمع ما تقول.. عفوًا أو ما يقوله الأخ في

الاثهام؟!.. لقد رميناه للأسد!!..

نظرت دنيا إلى ياسين بعينين قويتين متشفيتين رغم
هدوء ملامحها وهي تتفحصه من قمة رأسه وحتى أخمص
قدميه المتجاورتين بانتظام.. ثم أعادت عينيها للضابط قائلة
بنبرة ذات مغزى وهي تحاول كبت ضحكها

- يبدو لي كقطعة واحدة!!...

تكلم الضابط بشدة قائلاً من بين أسنانه

- قد يكون الأسد في حالة من الشبع وما فعلتما هذا إلا
لإرهابه..

تنهدت دنيا قائلة برزانة - ولماذا نرهبه؟!.. ماذا نريد منه؟!..

أجاب ياسين صارخاً وكل عصب في جسده ينتفض

- بغرض الانتقام.. لقد تبين لي أنها زميلة طليقتي في فرقة
رقص..

أومات دنيا برأسها قائلة بصوتٍ لطيف

- هذا صحيح.. زاد زميلتي في فرقة عرض دنيا زاد...

صمتت قليلاً متبسمة ثم همست بزهو

- لأننا البطلتين.. لكن لنعد لموضوعنا، لقد كنت أعاني من ضغط نفسي شديد عرضنا له المخرج المسؤول عن العرض وكنت أتكلم بالصدفة أمام زاد عن حاجتي لطبيب نفسي أحكي له، عله يُفيدني.. فاقترحت زاد اسم طليقها الدكتور ياسين أبو الخير، فقد كان يعالجها لفترة طويلة حتى أصبحت كما ترى.. وبالفعل بدأت الجلسات معه منذ شهر مايو الماضي، لكن حتى الآن لا أستوعب اتهامه الصادم لي!!.. تخيل سعادتك أن تذهب لطبيب نفسي كي يساعدك وبعد يومين من الجلسة تفاجأ به يقدم بلاغاً ضدك يتهمك فيه بإلقاءه للأسد!!.. على رأي المثل القائل باب النجار مخلوع.. والمثل القائل جئت بك يا عبد المعين لتعينني وجدتك يا عبد المعين في حاجة لمساعدة على وجه السرعة.. لحظة واحدة، هلا أخبرتني من فضلك عن تاريخ الواقعة التي يتخيلها الدكتور؟..

وما أن أخبرها الضابط حتى ضربت كفًا على كف وهي تهتف

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنه نفس اليوم الذي أقيم فيه العرض، لقد أذيع على معظم القنوات الفضائية.. هل يعقل أن أغيب عن عرض كهذا كي ألقى بالدكتور للأسد؟!.. يا سيدي لقد تركت السيرك منذ ما يقرب من العام!..

نظر الضابط إلى ياسين الذي كان ينقل عينيه بينهما بجنون ثم هدر وهو يضرب سطح المكتب بقبضته

- هذا جنون.. وأنا لن أسكت على ما حدث.. لقد خططا لشيء مريع ويتظاهران الآن بالسذاجة والغباء..

ضمت دنيا أصابع كفها المرفوع وهي تقول محاولة تهدئته

- لحظة واحدة يا دكتور.. كيف ذهبت للسيرك أصلاً؟!.. هل كنت ذاهبًا للتفرج والترفيه عن نفسك بالصدفة مثلاً فانتهزت الفرصة واختطفتك من بين الجمهور لألقيك للأسد!..

هدر ياسين وهو يميل للأمام زائغ العينين من فرط الخزي
حتى أنها تراجعت للخلف في كرسيها

- بل ذهبنا سوياً..

عادت دنيا تضم أصابع كفها وهي تقول - اثبت هذا يا
سيدي.. لماذا خرج مع مريضة معه من الأساس كي تذهب به
للسيرك وكأنها أنجبته ونسيته ثم تذكرته.. أليس هذا مخالفاً
لقانون المهنة؟!..

التفتت إلى ياسين تسأله بهدوء جليدي وهي تحقق في
عينيه بضراوة

- لماذا خرجت مع واحدة من مرضاك يا دكتور؟!..

أظلم وجهه وقتم لونه إلا أنه قال بصوتٍ خشن لاهت- أنتِ
من طلبتِ.. ولدي تسجيل بذلك..

هتفت دنيا مخاطبة الضابط- وأنا أريد هذا التسجيل هنا
كاملاً..

أعادت عينيها إلى ياسين قائلة بظفر

- هل أنت أكيد من رغبتك في عرض التسجيل الذي يضم الكثير من تجاوزاتك في الكلام مع النساء من مرضاك؟!..

اسودت عيناه بشدة وتصلب فمه بينما قامت دنيا من مكانها قائلة بثبات وباقتدار

- لقد تكلمت كثيرًا، لكن إن كان الاتهام قائما فأنا قادرة على المجيء بمحام سينهي الموضوع في كلمتين..

يفترض بها أن تنام قريبة العين بعد انتهاء عرض دنيا زاد.. لكن النوم فارق عينيها والسهر بات رفيقها، تحديق في السقف لساعات طويلة بذهنٍ خاوي وكأن عقلها يطفو بلا أي تفكير.. أما القلب!!..

سمعت صوت طرقات على باب غرفتها فجأة مما جعلها

تنتفض جالسة في سريرها وهي تحقق في الباب بعينين
واسعتين متلهفتين ثم همست بخفوت

- إن تحرك المقبض فهي أُمي.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة..
خمس..

قفزت واقفة على الأرض مشبكة أصابعها شاعرة بصدرها
يتسارع في الحركة على نحوٍ مؤلم..

من قد يكون سواه؟!.. يطرق بابها قبيل الفجر!..

لكنه ترك البيت منذ رحيلها عنه تقريبًا.. لا يعقل أن يكون
هو!!..

صوت الطرقات مجددًا جعلها تشهق فكتمت شهقتها بكفها
محاولة السيطرة على أعصابها.. وكان أول ما فعلته هو
تثبيت القناع فوق وجهها ثم اتجهت للباب وفتحته وما أن
فعلت حتى كتمت أنفاسها بعينين واسعتين..

لقد كان هو بالفعل!!.. كان مستندًا بكتفه إلى إطار الباب

مكتفًا ذراعيه بملل يحدق في عينيها الواسعتين ببلادة ثم
حرر أحد معصميه ناظرًا للساعة قبل أن يقول ماطًا شفثيه
بتقدير

- خمس دقائق كاملة لتفتحي الباب يا زادا!!.. أنتِ تتفوقين
على نفسك حقًا!..

ازدردت لعابها ثم همست بتلعثم - كنت نائمة..

التوت شفثاه بابتسامة خبيثة قبل أن يستقيم، لكن لا
ليبتعد بل ليميل إليها حتى أصبحت عيناه على بعد شعرة من
عينيها لا يفصل بين وجهيهما سوى القناع!!.. ثم قال ببطءٍ
شديد مبتسمًا

- كاذبة.. سمعت كل خطوة اقتربتِها مني وكل خطوة
ابتعدتِها عني.. وخطوات قربك فاقت بعدك عددًا..

أتراها تعلم أن القناع الأبيض بات شديد الاحتقان الآن!..
تراجع منتصرًا بعينين تبرقان، فهمست بخفوت

- ماذا تريد يا سائد؟!...

سوى كتفيه وياقة قميصه ثم قال بصوتٍ رزين عاقداً حاجبيه - أريد منك خدمة...

سألته بتردد وهي تتشبث بأظافرها في حافة الباب- ماذا؟...

أجابها بسماجة- أريدك أن تنزلي المطبخ لتعدي لي شيئاً لأكله.. الجميع نيام وقد وصلت لتوي وأكاد أن أموت جوعاً

رمشت بعينيها ثم همست بقنوط- حضر لنفسك ما تشاء.. لست خادمك

ارتفع حاجباه بدهشة حقيقية وهو يردد متشدقاً

- الله الله الله.. من أين لك بمثل هذه الجرأة والوقاحة؟!.. لقد تغير الكثير في هذا البيت أثناء غيابي.. تقدميني يا زاد بلا جدال فحين أجوع أتحول إلى سخيّف..

ابتعد عن الباب يفسح لها مجالا لتمر، لكن أذناه التقطتا
صوتها الهامس مكلمة نفسها وهي تمر به- حين تجوع
فقط؟!..

ارتفع حاجباه بدهشة بالغة، ولم ير أن القناع قد ابتسم
وهي توليه ظهرها..

كما وقف في باب غرفتها مكتفًا ذراعيه، ها هو يقف في
باب المطبخ مكتفًا ذراعيه يتأملها إنما بملامح جادة ونظراتٍ
تربكها تزيد من سرعة ضربات قلبها.. إنه يبدو أكثر وسامة
من ذي قبل، أليس كذلك أم تراها تتوهم فقط من شدة
شوقها له!..

شوقها له!!..

عصبيتها بسبب نظراته وفوضى مشاعرها جعلت أصابعها
خرقاء تمامًا وهي تتعامل مع الأطباق والملاعق..

ولم يبد على عجلة من أمره وهو يراقبها مبتسمًا، لكن حين
أشفق عليها أخيرًا، تنازل عارضًا بهدوء

- لا بأس يا زاد.. اخرجي قوالب الكعك من الثلاجة
فحسب..

زفرت شاعرة بالراحة لتخليصها من تلك المهانة الفاضحة
لارتباكها أمامه.. لكن ما أن فتحت باب الثلاجة حتى تسمرت
مكانها

فقد كان هناك في منتصف أحد الأرفف الخالية قالب
كعك مميز.. مسلط عليه ضوء الثلاجة الداخلي يحمل ورقة
مكتوب عليها

- كتب الكتاب والدخلة الخميس القادم..

راقبها مبتسمًا وهي تقف ممسكة بالباب تتأمل الرسالة
طويلاً، وعلى الرغم من رفضها السابق.. وعلى الرغم من
أنها ترتدي قناعًا جامدًا، إلا أنه رأى تعبيرًا حالمًا على ملامح
القناع!!..

مدت يديها لتخرج قالب الكعك ممسكة به بين أصابعها
بحرص وكأنه زهرة نفيسة، ثم همست بصوتٍ ناعم مبحوح

وكانها تشارف على البكاء

- لماذا غبت كل هذه الفترة؟..

اقترب منها ببطء حتى وقف خلفها ثم همس بصوتٍ خفيض أجش وكأنهما يهمسان سرًا رغم عدم وجود سواهما

- ألم تكوني أنتِ من طلب؟!..

هزت رأسها نفيًا ثم همست تطرف بالدموع الحريرية

- لقد رفضت الزواج بينما أردت بقائك حولي.. ها أنت تعود والفكرة لا تزال قائمة برأسك وما نابني سوى فراقك!!..

تحولت عيناه لنبيين من المشاعر المجنونة أغلبها عشق والباقي شوق.. خاصة حين سمعها تهمس باكية وهي تخفض وجهها

- حتى أنك لم تحضر العرض..

مد كفيه يمس بهما ذراعيها وهو يحني وجهه ليهمس في
أذنها برفق - بلى فعلت.. وكنت رائعة..

استدارت إليه متفاجئة وهي تهتف بعينين مُغرّورقتين
بالدموع

- ولم تحاول تهنئتي أو حتى إرسال رسالة!!..

هز رأسه نفياً وهو يرفع ذقنها بأصابعه قائلاً بهدوء- انتهى
زمن الرسائل يا زاد...

ثم ابتسم وهو يمس قالب الكعك بين أصابعها متابعًا- إلا
تلك الرسالة..

أخفضت وجهها ثم قالت بصعوبة تبتلع الغصة في حلقها- لا
أليق بك....

أحاط وجهها بكفيه حتى اضطرت للنظر في عينيه فقال
بجدية

- تليقين بقلبي.. ألا يكفي هذا؟!.. نعم أخطأت لكنك عوقبت
بما يكفي، استعدي قدرتك على خوض الحياة بحلوها
ومرها من جديد..

هزت رأسها نفيًا وهي تهمس- سنفشل.. حتمًا سنفشل..

لمعت عيناه وهو يتحداها قائلاً- أتراهنين؟!..

ساد الصمت للحظات وهي تتأمل عينيه بعينيها المبللتين
ثم أومأت مجيبة بخفوت- أراهن..

أوشك على إلقاء المزيد من المزاح السمج، لكن قبل أن
ينطق توقف قليلًا محدقًا بعينيها الصافيتين اللامعتين
بالدموع الرائقة..

قبولها الرهان يعني قبولها التجربة!!.. قبولها التجربة يعني
بالضرورة قبولها الزواج!!..

لكنه لم يصدق خياله بعد، بل هزها ممسكًا بكتفها وهو
يسألها بجدية ولهفة

- هل قبلت الزواج مني للتو يا زاد؟!...

لم ترح قلبه على الفور بل راوغت سائلة بصوتٍ حزين

- أتنزوج من لم ترَ وجهها بعد؟!.. أتنزوج من تعلم أنها مشوهة دون أن تحاول معاينة الوجه الذي ستكمل حياتك معه؟!..

هز رأسه قائلاً بتعب- حين أحبيتك، لم أحب وجهك لأنني لم أراه.. فأني كنت ملامحه، ستظل ملامح الحبيبة..

أطبقت جفنيها فوق دموعٍ انهمرت على وجنتيها تحت القناع ثم همست بنعومة- لا بأس إذن...

اتسعت عيناه غير مصدق ثم لم يلبث أن سحب قالب الكعك من بين يديها ليضعه جانباً قبل أن يسحبها هي نفسها بين ذراعيه يضمها بقوة تماماً فعل ليلة فزعها من الكلاب، فأغمضت عينيها تريح وجنة القناع على صدره

همس في أذنها بعد فترة طويلة بصوتٍ خفيض يشتعل

- لدي سؤال تَقْنِي يا زاد.. هل ستبقيين على قناعك حتى بعد الزواج؟!.. أود لو تمكنت من تقبيلك، فالقبلات في الزواج هامة جدًا بالنسبة لي..

هذه المرة لم يضحك القناع، لم يكن في حاجة لأن يفعل فقد تكفلت سيدته بالأمر وأرجعت رأسها للخلف ضاحكة بصوتٍ أجش مقهقهٍ من كل قلبها.. وتظن أنها ليست جميلة!!!

صباح الخير يا دنيا جدًا

امتلاً الطريق الضيق بالطبل والزمير وشقت الزغاريد عنان السماء وهي تقف بجواره في الفستان الأبيض ممسكة بيده الكبيرة الخشنة..

لقد لاعبتها الحياة فأدارتها في منعطفٍ لم تكن لتظن أنه سيكون طريقها أبدًا.. وحين تبين لها الطريق أيقنت أن لا طريق آخر غيره حُفِرَ في قلبها..

رفعت وجهها ملتفتة إليه وهي تراه يضع يده المفرودة
على صدره يرد التهاني والمباركات..

السعادة ترسم على وجهه خطوطًا تجعله جميل المحيا
كما هو جميل الروح والقلب.. لقد أحبته حد الجنون خلال
الأسابيع الماضية..

إنه رجل جيد فن التدليل بالأقوال لا الأفعال.. وكأنها طفلة
جميع طلباتها مجابة، ولما لا.. أليست بنت؟!..

فالبنات عنده لديهن معاملة مميزة من التدليل..

حتى في وقوفه بجوارها وهي في فستان الزفاف، يمسك
بيدها عوضًا عن التعلق بذراعه وكأنه يخشى أن تضيع
في زحام المهنئين.. وبخلاف التدليل كانت الشهامة طبعه
والحنان سمته..

كيف غفلت عن الوقوع في حبه من النظرة الأولى؟!..

حانت منه التفاتة إليها فتقابلت أعينهما وهو يضبطها

تأمله مشدوهة بحبه، فابتسم لها ورفع يدها التي تمسكها
كفه ليقبلها بحنان دون أن يحيد بعينه عن عينيها مما جعلها
تشك إن كان الدوي الذي تسمعه مصدره أسلحة الاحتفال
في الشارع أم هي ضربات قلبها التي علت على قرع الطبول
احتفالاً بهما..

انتبهت دنيا من شرودها على يد تمسك بذراعها وصوت
فاطمة يهمس لها بسعادة

- انظري من جاء..

تتبعت دنيا اتجاه نظرات فاطمة، ثم توقفت عيناها على
ثلاث واقفات آخر الطريق.. بسمه وهدى وبثينة..

لقد توقعت حضور هدى وبثينة، لكن حضور بسمه
فاجأها!!!!..

أخذت ابتسامتها تتسع حتى شملت وجهها كله وهي ترفع
يدها ملوحة.. وكأنها إشارة منها فقد سارعن إليها يتخطفنها

مُعَانَقَاتٍ وَلَمْ تَشْعُرْ إِلَّا وَهِيَ تُشَدُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ حَكِيمٍ لَتَدُورُ
رَاقِصَةً بِصَخْبٍ مَجْنُونٍ فِي دَائِرَةِ شَقِيقَاتِهَا الْأَرْبَعِ

- يَا أَمَلِ اهْتَدِ بِاللَّهِ يَا حَبِيبَتِي وَادْخُلِي الْبَيْتَ..

كُرِرَتْ حَسَنَى لِلْمَرَّةِ الْعَاشِرَةِ بِنَفَازٍ صَبْرٍ فَمَا زَادَهَا إِلَّا تَشْبِيْهًا
بِتَنْوَرَةٍ فَسْتَانِ زَفَافٍ دُنْيَا الْكَبِيرَةِ وَهِيَ تَهْتَفُ بِعَصْبِيَّةٍ
مَتَوَسِّلَةٍ فِي أَكْثَرِ أَدْوَارِهَا الدِّرَامِيَّةِ تَمِيْزًا

- أُرِيدُ الْذَهَابَ مَعَ دُنْيَا وَبَابًا.. لِمَاذَا تَمْنَعُونَنِي مِنْ دُخُولِ
بَيْتِي؟!..

نَظَرَ كُلًّا مِنْ دُنْيَا وَحَكِيمٍ لِبَعْضِهِمَا بِنَظَرَاتٍ ذَاتِ مَغْزَى.. كَانَ
هُوَ يَأْتِسُّ وَكَانَتْ هِيَ ضَاحِكَةً بِفَمِهَا الْوَاسِعِ وَأَسْنَانُهَا اللَّامِعَةِ

فَمَالَتْ إِلَيْهِ هَامِسَةً تَسْأَلُهُ بِخَبْثٍ

- مِنْ يَحِلُّ لَكَ هَذِهِ الْمَشْكَلَةُ، مَاذَا تَعْطِيهِ؟..

لمعت عيناه بلون الحب والرغبة لكنه مال إليها هامسًا في
أذنها بصوته الرزين القادر على إصابة عقلها بالخلل

- أعطيه عمري...

ضحكت بخجل وهي تسبل جفنيها وكأنها اكتفت بالهدية
الثرينة مهرًا يكفيها عمرًا كاملاً تحل فيه مشاكل الحي
وجيران الحي فانحنت لتجثو على عقبيها أمام أمل الغاضبة
بتبرم ورفض قاطع.. وبدأت تنورة فستان زفافها كوسادة
كبيرة مبهجة حتى أن أمل ارتاحت عليها نائمة بعشم زائد
مترقبة اقتراحات دنيا لحل المشكلة.. وبالفعل قالت دنيا
بنبرة رزينة

- يمكنك الصعود معنا يا أمل..

هتفت أمل بسعادة وهي تستقيم جالسة فوق التنورة-
صحيح يمكنني؟!..

في نفس اللحظة التي هتف فيها حكيم بتجهم- يمكنها؟!..

لم تلتفت إليه بل تابعت صفقتها مع أمل قائلة بتنهد- بالطبع
يمكنك، لكن للأسف ستفوتك المفاجأة..

غابت ابتسامة الحماس عن شفتي أمل فجأة وهي تهتف
برهبة- أي مفاجأة؟!...

تظاهرت دنيا بالتفكير وهي تضع إصبعها على ذقنها قائلة
بنبرة مطاطة

- شيء ما.. أو شخص ما.. طلبناه كي يأتي لزيارتك في
الصباح، لكن للأسف أعطيناه عنوان العمدة حسنى وانتهى
الأمر.. لكن لا بأس، ربما مرة مقبلة إن شاء الله

هتفت أمل متوسلة بحرارة- بل هذه المرة أرجوك أرجوك..
من هو الضيف؟.. الأميرة أم تكتكة؟!..

سألته دنيا مبتسمة ابتسامة كبيرة حنونة- أيهما تريدان؟..

ضمت أمل كفيها علامة التوسل هاتفة- لتكن تكتكة
أرجوك.. أرجوك..

أتراها تافهة كي تشعر بمثل تلك السعادة الجارفة لخيار
أمل؟! لا بأس فلتكن تافهة، إن كانت التفاهة قادرة على
جلب هذا الكم من الفرحة للقلب..

وقفت في منتصف الغرفة تتلاعب بأصابعها بارتباكٍ وتوتر..
بينما هو يخلع سترته ليضعها على الكرسي القريب منه
وعيناه عليها تبرقان وتتغضن زوايا اللهفة والنهم المحيطة
بهما، ثم اقترب ببطء حتى وقف أمامها يتأمل جمالها المبهج
في فستان الزفاف..

مال بوجهه يقبل وجنتها برفق مما جعلها ترتعش كاتمة
أنفاسها، ثم انحنى للجهة الثانية يقبل وجنتها الأخرى
فأغمضت عينيها تكاد أن تتأوه انفعالاً..

أخذ يقبل عنقها وفكها في قبلاّت متلاحقة غير صبورة مما
جعلها تهتف منتفضة- انتظر لحظة..

توقف رافعًا وجهه متسائلًا بنفس غير ثابت وعينين

مشتعلتين، فازدردت لعابها وهي تقول أول ما طرأ على بالها

- ألن نأكل أولاً؟!...

نظر إليها بدهشة، ثم تبسمت عيناه بحنان وهو يسأل
بصوته الهادئ - جائعة؟..

أومأت برأسها ممتنة لتلك الهدنة، فهي تعرف قلبه الطيب
لن يتركها جائعة.. وإن كانت ليست جائعة على الإطلاق..

لكنها بادرت قائلة بتوتر متجهة لباب الغرفة تنوي الفرار-
سأذهب للمطبخ لأرى ماذا أُعد لنا من طعامٍ كعروسين في
حاجة للتغذية..

لحق بها بخطواتٍ ثابتة فأغمضت عينيها شاكرة إحساس
الرحمة لديه، لكن قبل أن تخطو بقدمها خارجة من الباب كان
قد سبقها ليغلقه مستندًا إليه بظهره وهو يبدأ في فك أزرار
قميصه ناظرًا إلى عينيها الفزعتين بابتسامته الحنونة ثم
قال بهدوء

- آسف لكن لا...

اتسعت عيناها أكثر وهتفت باستنكارٍ متألم

- ما هذا الظلم!!.. أخبرتك للتو أنني جائعة!!..

ابتعد عن الباب مقتربًا منها حتى أحاط خصرها النحيل
بذراعه يشدها إليه فكتمت أنفاسها مصدومة، لكنه قال
بنفس البساطة مبتسمًا لعينيها

- أدوار أمل الدرامية لن تفلح معك يا دنيا.. وخاصة الليلة..

فتحت فمها لتعترض لكنه أحنى رأسه ليغلقه بفمٍ حنونٍ
عذب سرعان ما ازداد قوة وتسلطًا وهو يحيط وجنتها
المائلة بكفه الكبير ولم تشعر إلا وهو ينحني ليحملها بين
ذراعيه ثم نظر إلى عينيها هامسًا بلهفة

- وكأن الدنيا بين يدي!!....

ابتسمت بخجل فنهل من خجلها كؤوسًا وكؤوسًا حتى

الصباح ولم تذكر الأكل بعد ذلك، فقد كانت على استعدادٍ
للحياة على الطاقة الشمسية إن تطلب الأمر كي لا تتركه
لحظة واحدة..

فتحت أمل عينيها ببطءٍ شاعرةً بمن يداعب وجنتها كي
تستيقظ.. وما أن فعلت حتى انتفضت على رؤية تكتكة تقفز
ظاهرة من خلف حافة السرير هاتفة بصوتها الطفولي

- ألا زلتِ نائمة يا أمل؟!...

وبعد أن تأكدت من استيقاظها الكامل كي لا تفرع عقلها
الصغير أمسكت بكتفيها تهزها بقوة وهي تهتف

- استيقظي يا أمل.. استيقظي يا أمل لنعد الفطور..

قفزت أمل واقفة على السرير بقميص نومها الوردي
وشعرها المشعث في لفائف مستديرة وهي تهتف مصفقة
بفرحة غامرة

- تكتكة لقد وصلت..

استمرا يقفزان ويلعبان حتى الظهيرة وما أن صعدت لشقة
حكيم شاعرة بالتعب حتى شهقت وهو يجرها من خصرها
ليحملها فتدلت ساقاها تُورججهما في الهواء هاتفة بحنق

- أنزلي يا حكيم، لست دمية لتلعب بها..

همس في أذنها بصوتٍ أجش وهو يضحك- جِئْتِنِي بزيك
هذا يا عروسة.. لقد حلمت بتلك اللحظة كثيرًا

هتفت أمرة بحدة وهي تراه يتجه بهما إلى غرفتهما- إياك
يا حكيم وأن تفسد براءة زي تكتكة.. إياك!!

توقف على باب الغرفة لينظر إلى عينيها بعينين تتلاعب
فيهما العفاريت الصغيرة ثم قال ضاحكًا

- ما دامت حلالي فما المانع؟!..

تظاهرت بالتفكير في الأمر فاكتشفت أن وجهة نظره

منطقية نوعًا.. لذا أحاطت عنقه بذراعيها وهي تحني وجهها
إليه مغمضة عينيها بينما تأرجحت ساقاها للخلف وكأنها
الرقصة الأجل في حياتها.. ومن بين قبلاته القوية همس لها
بحنان

- صباح الخير يا دنيا.. جدًا!

الهدية كانت مقدرة لك منذ البداية، لكن أتلّفها الزمن..
أقبلها؟!

- انتظر على السطح..

كانت رسالة مختصرة منها وصلت هاتفه بعد عقد القران
مباشرة..

تم عقد القران في بيت خطاب، تم عقد القران وهي تضع
القناع على وجهها، لم ينظر لصورتها وكأنه أخذ على نفسه
عهدًا ألا ينتهك حدود ما لا تقدر عليه.. ووجهها مسألة

حساسة بالنسبة لها شكليًا ونفسيًا.. لذا لم ينظر لصورة ولم
يصر عليها بل قرر الانتظار ولو كلفه الأمر أعوامًا..

كانت أول من عانقتهما هي حنان..

كانت تبكي بغزارة وهو يضمها إليه مبتسمًا وما أن
استدارت إلى زاد حتى همست من بين دموعها بصوتٍ
مختنق

- مبارك لابني يا زاد.. مبارك له فوزه بالمرأة التي أحب.. وما
أدراك مقدار ذلك الفوز عنده!

تأثرت زاد بشدة لتلك الكلمات فانحنت إليها تتقبل عناقها
الحار شاعرة بالغصة تؤلم حلقها.. فانسحبت فجأة تتسلل
دون كلام..

وبعد دقائق من اختفائها وصلتة رسالة شديدة الاختصار

- أنتظرِكَ على السطح..

اختلس سائد النظر للجميع ثم انتهز الفرصة ليلحق بها
صاعدًا كل درجتين معًا حتى خرج للسطح وهناك رآها واقفة
في مكانها المعتاد توليه ظهرها... شعرها الطويل يحركه
نسيم الخريف وكم بدت خريفية في ثوبها الطويل المُنسدل
على قوامها الأهيف بألوانه المتدرجة من البني للبرتقالي
للذهبي..

خلفية اللوحة أشجار الخريف وعطرها نسيم الحنين.. ففي
وقتٍ كهذا من العام الماضي دخلت زاد حياته وقضي الأمر

اقترب منها ببطء حتى وقف خلفها ثم همس بصوتٍ عميق
حريصًا على ألا يجفلها

- تشبهين الخريف.. أتدركين هذا؟!..

تنهدت هامسة - ليتني في جمال الخريف...

اقترب أكثر وهو يقول بلهفة وحرارة شاعرًا بأنه قلبه لا
يتحمل المزيد - بل أنتِ أجمل حتى من الربيع..

أخفضت وجهها قليلا ثم همست تسأله بصوتها الجميل

- أتتذكر اليوم الذي غضبت فيه لأثني أهديت وائل
الشطرنج ولم أهديك شيئا؟..

التوت شفتاه حرجًا ثم ضحك بصوتٍ خشن وهو يرد
معترفًا- نعم أتذكر.. أنتِ من عليك النسيان..

رأى رأسها يهتز نفيا ثم قالت بخفوت

- قررت أن أعطيك هديتك الآن.. لكنها هدية تالفة، لا
تساوي شيئا.. عامة هي لك فلتفعل بها ما تشاء..

عقد حاجبيه بقلق من تلك النبرة الحزينة التي تتكلم بها
عوضًا عن مبادلتة الفرحة التي تغمره في تلك اللحظة فسألها
بخفوت

- أي هدية يا زاد؟!.. ماذا بكِ حبيبتي؟..

لم ترد عليه، بل تحركت.. استدارت ببطء شديد حتى

واجهته منخفضة الوجه للحظة قبل أن ترفعه..

لم تكن ترتدي القناع بل كانت ممسكة به بين أصابعها!!..

اتسعت عينا سائد بذهولٍ وهو يتأمل الوجه الذي بدا أشبه بالخريطة.. لكن الملامح ظاهرة بين حدود أوطانه..

سمع نفسه يهمس كما سمعته كذلك

- ما أجملك!!!...

هزت رأسها تهمس بصوتٍ مختنق - ليس عليك أن تقول هذا.. أرجوك..

لكن وكأنها لم تنطق شيئًا، كرر بصوتٍ أكثر رهبة ومهابة

- ما أجملك!!!.. أهذا ما كنت تخفين؟!.. أهذا ما كنت تخشين؟!..

ثم اندفع إليها قاطعًا الخطوتين الفاصلتين بينهما ليجذب

القناع من بين يديها دون أن تستطيع منعه وبطول ذراعه
طوح به من فوق السور ليخلق بعيدًا في السماء كطيرٍ
مهاجر..

نظرت إليه بعينيها غير المتساويتين في الشكل وهمست
باسمه تثن بعذاب.. لكن في اندفاعه الثاني أحاط خصرها
بذراعيه يرفعها عن الأرض مقلًا شفتيها بجنونٍ جارف..
يدور بها ويدور دون أن يحرر شفتيها بل كان يستمد منها
الزاد والهوى..

وحين حررها همس لها سائلًا بصوت يرتعش

- لماذا الآن؟!..

هزت رأسها بيأس هامسة تلفحها حرارة عواطفه- أردت أن
أكون زوجتك ولو للحظة واحدة قبل أن تتخذ قرارك..

تأوه بصوتٍ عالٍ قبل أن ينزلها مخفضًا وجهه ليرتوي من
زاده حتى الشبع.. هامسًا بين شفتيها مجتاعًا جمالها الهادئ
الجريح

- قراري ليس أقل من عمرٍ كامل.. تلك هي صفقتي

تمت بحمد الله.